أ. د. محمد سهيل طقوش

تاريخ مغول القبيلة الذهبية والهند

دار النفائس

بسم الله الرحمن الرحيم

تاريخ
مغول القبيلة الذهبية والهند

تأليف

الدكتور محمد سهيل طقوش

أستاذ التاريخ الإسلامي في جامعة الإمام الأوزاعي

كلية الدراسات الإسلامية
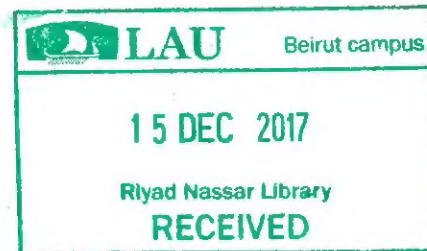
دار النفائس

تاريخ مغول القبيلة الذهبية والهند

تأليف: الدكتور محمد سهيل طقوش

الطبعة الأولى: ١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م

ISBN 978 - 9953 - 18 - 436 - 4

Publisher نشر

DAR AN-NAFAES
Printing-Publishing-distribution
Verdun Str - Safiedine bldg.
P.o.Box 14-5152
Zip code 1105-2020
Fax: 009611 861367
Tel: 00961 1 803152 - 810194.
Beirut - Lebanon

دار النفائس
للطباعة والنشر والتوزيع
شارع فردان ـ بناية الصباح
وصفي الدين ـ ص.ب 5152 ـ 14
الرمز البريدي: 2020 ـ 1105
فاكس: 009611861367
هاتف: 803152 ـ 009611810194
بيروت ـ لبنان

Email: alnafaes@alnafaes.com
Web Site: WWW.alnafaes.com

المقدمة

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على سيّد المرسلين محمد بن عبد الله خاتم النبيين، وعلى آله وأصحابه أجمعين، ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين، وبعد:

تتناول هذه الدراسة تاريخ دولتين مغوليتين متقاربتين عرقياً ومتباعدتين في المدى الزمني والبعد الجغرافي، هما دولة مغول القبيلة الذهبية، أو القبجاق، ودولة مغول الهند.

شغلت خانية مغول القبيلة الذهبية في بلاد القبجاق منطقة واسعة، تمتد من نهر إريتش شرقاً إلى أرض البلغار والڤولغا غرباً ومن روسيا وبلاد الصقالبة شمالاً إلى مملكة الإيلخانيين في إيران وآسيا الصغرى، بالإضافة إلى بلاد ما وراء النهر وتركستان في الجنوب، أسَّسها باطو بن جوجي بن جنكيز خان.

توسعت هذه الخانية التي كانت تتركز حول نهر الڤولغا، فامتدت غرباً حتى وصلت إلى جبال الكربات عبر روسيا، وبولندا، والمجر، وساحل دلماسيا، وبنى باطو مدينة سراي، القديمة على نهر الڤولغا في منتصف الطريق بين مدينتي ستالينغراد الحديثة وأستراخان، واتخذها عاصمة له، ثم بنى بركة خان سراي الجديدة في المنطقة نفسها واتخذها عاصمة لدولته.

شغلت خانية مغول القبيلة الذهبية حيّزاً هاماً في التاريخين الآسيوي والأوروبي في العصر الوسيط، واستقلت عن امبراطورية المغول العظام في عام (٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م) وشقَّت لها طريقاً خاصاً فرضته ظروفها الداخلية والخارجية.

أخضعت هذه الخانية الإمارات الروسية المتناثرة في الوسط والشمال، المتنازعة أبداً، وفرضت على الأمراء الروس الجزية والضرائب، وقامت العلاقة بين الطرفين على التبعية مع الاحتفاظ باستقلال هذه الإمارات، إنها علاقة الغالب بالمغلوب.

اعتنق مغول القبيلة الذهبية الدين الإسلامي، وبدأت الخانية، منذ عهد بركة

خان، تأخذ شكلها ووضعها كدولة إسلامية. وبفعل هذا التوجه الإسلامي أقام مغول القبيلة الذهبية علاقات ودية مع المماليك في مصر وبلاد الشام، وقد جمعتهما مصلحة سياسية مشتركة من واقع العداء للإيلخانيين في إيران. ويرجع سبب هذا العداء إلى التنازع بين الدولتين على مناطق الأطراف المتاخمة لبحر قزوين وأذربيجان.

تعرَّضت خانية القبيلة الذهبية، منذ أواسط القرن الرابع عشر الميلادي، لخضّات سياسية زعزعت كيانها وأثّرت سلباً على مسيرتها. فقد شهدت صراعات داخلية حادة على السلطة، حيث أُتيح للروس المتوثبين الفرصة لتخفيف الضغط المغولي الواقع عليهم، وتُوِّج ذلك بانتصار جيش روسي على جيش مغولي في عام (٧٨٠هـ/ ١٣٧٨م) لأول مرة منذ مائة وأربعين عاماً. وظهر خطر تمزق الدولة الذي استمر مدة عشرين عاماً حتى أنقذها توقتاميش خان بعد نجاحه في إعادة تجميع أوصالها. ولم يكد هذا الخان يقطف ثمار نجاحه حتى تعرضت الخانية لغزوات تيمورلنك المدمرة التي غيَّرت، بشكل جذري، معالم الدولة السياسية والسكانية، وزعزعت كيانها بحيث لم تقم لها بعد ذلك قائمة. وتفاقمت، بعد وفاة توقتاميش، حدة الصراعات على السلطة في ظل حكم خانات ضعاف مروا بشكل متسارع، وتوثب الروس للانعتاق من الهيمنة المغولية، ويرتبط تاريخها منذ ذلك الحين وحتى زوالها في عام (٩٠٧هـ/ ١٥٠٢م) بتاريخ روسيا، والمعروف أنها انقسمت إلى خانيات صغيرة مثل: أستراخان وقازان والقرم وغربي سيبيريا، وقد راحت تُهدِّد موسكو بشكل مباشر ما دفع حكّامها إلى محاربتها والاستيلاء عليها الواحدة بعد الأخرى.

وشهدت الهند عشية الغزو المغولي الذي قاده بابر تفككاً في أوضاعها، بفعل النزاعات والانقسامات بين عدد من الإمارات الإسلامية والهندوسية المتفاوتة في القوة والمتصارعة أبداً، وفقدت الحكومة المركزية في دلهي قدرتها على المحافظة على وحدة البلاد وفرض هيبتها أمام الأمراء المتنازعين، لذلك كانت البلاد فريسة سهلة لأي غازٍ طموح ومستعد للسيطرة عليها.

وأدّى الغزو التيموري للبلاد، بدءاً من عام (٨٠١هـ/ ١٣٩٨م)، دوراً آخر في زيادة حدة الانقسام والتفكك، ذلك أن معظم ولاياتها الكبرى كـ: مالوة والكجرات وجونبور والبنغال والدكن، ما لبثت، على أثر هذا الغزو، أن انفصلت عن سلطنة دلهي انفصالاً تاماً في ظل التدهور الحاد الذي أصاب

مؤسستها العسكرية المرتبط بتراجع الموارد الاقتصادية والفوضى السياسية، وأعلن حكامها استقلالهم. وفشل سلاطين دلهي في بسط نفوذهم على هذه الولايات بعامة، من جديد، إلا في عصر الدولة المغولية التي أسسها بابر، على أن معظم حكام هذه الولايات المستقلة قد حرصوا، على الرغم من محاولاتهم توسيع رقعة أراضيهم أو الدفاع عنها ضد الطامعين، على العمل على الأخذ بأسباب الرقي والنهضة بها.

قامت في الهند في مطلع القرن السادس عشر الميلادي دولة مغولية جديدة سارت في تطورها السياسي الصاعد على النهج الذي اتبعته الدولة الصفوية في إيران، مع اختلاف المذهب الديني، ابتدأت مع بابر المنحدر من أسرة تيمورلنك لجهة أبيه، ومن عائلة جنكيز خان لجهة أمه، وكان قد فشل في إحياء دولة آبائه وأجداده في بلاد ما وراء النهر فيمّم وجهه صوب الهند بهدف تأسيس دولة له في ربوعها، فهاجم سلطنة دلهي الأفغانية ولاهور، وتغلَّب على الأفغان في معركة بانيبات في عام (٩٣٢هـ/ ١٥٢٦م) دخل على أثرها دلهي واكرا، ونودي به سلطاناً على الهند في مسجد دلهي الكبير.

وتابع همايون بن بابر مهمة والده في محاربة الأفغان والتخلص منهم، وقد نجح في ذلك إلى حدّ ما، لكنه لم يستطع أن يحل مشكلة تكيُّف المغول مع الهند التي سينجح ابنه أكبر في حلها. والمعروف أن المغول حملوا معهم احتقاراً للهند التي لم يصادفوا فيها أي شيء طيب، حتى أن شعبها الهندوسي كان على قدر كبير من عدم الكفاءة، لذلك ازدروهم وفرضوا عليهم ضرائب خاصة مثل الجزية ورسوماً على مزاراتهم وأماكن الحج عندهم، وقد قابلهم الهندوس حقداً بحقد وكرهاً بكره.

وعندما تولى أكبر الحكم في عام (٩٦٣هـ/ ١٥٥٦م) تصدّى لهذه الظاهرة من خلال سياسة التسامح والتفاهم مع الهندوس، وابتداعه ديانة جديدة قائمة على أسس منتقاة من الديانات الإسلامية والنصرانية والزرادشتية، وغيرها من الديانات المنتشرة في الهند، مما عُدَّ إلحاداً. وحاول تأسيس دولة عصرية تحقق رغبات وتطلعات مختلف الملل، إلا أن خليفتيه، جهانكير وشاه جهان، لم يفقها شيئاً من هذه السياسة، وأخذا بتفكيك كل شيء. فقد انصرف جهانكير إلى ملذاته وأهمل شؤول الحكم، أما شاه جهان، الذي اشتهر منذ حداثته بالرصانة والشجاعة في الحرب، انصرف أيضاً إلى الملذات. أما

خليفته أورنجزيب فقد كان تقياً ورعاً، قانتاً من كثرة الصوم، لطيف المعاشرة، إلا أنه لم يعرف كيف يكسب ثقة الناس. وقد جهل هؤلاء تماماً ما كانت عليه ممتلكاتهم الواسعة من أوضاع، فأهملوا مراقبتها عن كثب تاركين أمر ذلك لعمالهم، وأحيوا عادة مكافأة موظفيهم بتوزيع الإقطاعات عليهم كما عادوا إلى نظام تلزيم جباية الرسوم والضرائب، وتركوا عمّالهم يستبدلون ضريبة الأملاك بضريبة توزيعية، ولم يلبثوا، بدافع الحاجة إلى النقود، أن باعوا وظائف الدولة بالمزاد، واستشرى استهتارهم بالمسؤولية؛ ما أدى بالدولة إلى السير في طريق الانحدار.

وتراخت قبضة خلفاء أورنجزيب، وقد أضحت سيطرتهم على البلاد رخوة وهشة، وعجزوا عن إدارة دفة الحكم في بلاد واسعة مترامية الأطراف، أدارها كل من أكبر وأورنجزيب بما أوتي من قوة وحزم.

واستمر كبار الموظفين يحملون الألقاب التي حملوها من قبل، معلنين ولاءهم للسلطان المغولي، أما في الواقع فقد كانوا مستقلين، وانصرفوا إلى الاهتمام بمصالحهم الخاصة غير آبهين بالأخطار التي أخذت تُهدد كيان الدولة في الداخل على أيدي المهرات والسيخ والراجبوت، وفي الخارج على أيدي المستعمرين الأوروبيين.

وجعلت حروب الوراثة على السلطة الإدارة المغولية خوّاء جوفاء، واتخذ الأمراء سلسلة من الإجراءات لا طائل تحتها، ولم تلبث أن أدّت إلى انحلال السلطة. وأطلّ البدو، من الأفغان والفرس، من وراء الحدود لينقضُّوا، بسرعة البرق، على المقاطعات الهندية يعملون فيها سلباً ونهباً قبل أن تقوم برد فعل.

ومن جهة أخرى راحت الدولة المغولية تعزل نفسها عن الهندوس، فعلى الرغم من أن جهانكير قد عهد بالوظائف الكبرى في البلاد إلى أمراء الهندوس، فقد برهن شاه جهان، أكثر من مرة، عن تشدُّد ديني، في حين أن أورنجزيب، الذي اشتهر بشدة تقواه أقدم على تدمير بعض هياكل الهندوس ولكن لأسباب بعيدة كل البعد عن الدين، وأعاد فرض الجزية عليهم ما أدّى إلى سخطهم، فتجمعوا حول قصره في دلهي غاضبين، وقاموا برد فعل معاكس تبلور في ثورة لاهبة قام بها المهرات والسيخ. وأعلن أورنجزيب، من واقع تشدُّده كمسلم سني، الحرب على صاحب الدكن، الشيعي المذهب، وصرف الفرس الشيعة من خدمته.

واسترسل حكّام المغول الأواخر بالبذخ والسكر وفساد الأخلاق ما فتَّ في عضدهم، وأرهقوا كاهل الفلاح بالضرائب ما أدى إلى عجزه عن إمكان شراء حاجته من الحيوانات اللازمة لأعمال مزرعته أو للتوسع في هذه الأعمال، أو ليقوم بزراعات تعطيه مردوداً أكبر. وانحطت الصناعة مع تدهور أوضاع الزراعة، إذ إن تكاثر المجاعات والأوبئة وتفاقم الأزمات كان يقضي على الصنّاع وأرباب الحِرَف، وقد أقفرت مدن وقرى عديدة وجلا سكانها عنها.

وعندما فقد المغول كل معالم الاستمرار والحياة، هووا وراحوا يتدحرجون إلى الهاوية، فتلقفتهم الأيدي الغربية القاسية لتدفنهم، وتبدأ عهداً جديداً هو عهد الاستعمار الإنكليزي.

اعتمدتُ، في هذه الدراسة، على مصادر أساسية ومراجع متنوعة مبينة في ثبت المصادر والمراجع، وآمل، بما اعتمدت عليه، أن يخدم الحقيقة التاريخية ويجليها.

أما تشكيل الموضوعات، التي يراها القارئ بعناوينها، فقد قسَّمتها إلى بابين يتضمنان عشرة فصول.

خصَّصت الباب الأول لدولة مغول القبيلة الذهبية، ويتضمن أربعة فصول.

عالجت في الفصل الأول الأحداث السياسية في عهد كل من باطو وبركة ومنكو تيمور وتدان منكو.

ورويت في الفصل الثاني مسيرة الدولة في عهد كل من تلابوقا وطقطاي وأوزبك.

وعالجت في الفصل الثالث الأحداث التي مرَّت بها الخانية في عهد كل من جاني بك وبردي بك وتوقتاميش.

وعرضت في الفصل الرابع أحداث المرحلة الأخيرة من تاريخ مغول القبيلة الذهبية.

وخصَّصت الباب الثاني لدولة مغول الهند، ويتضمن ستة فصول.

عالجت في الفصل الخامس الأحداث السياسية في عهد بابر، مؤسس الدولة المغولية في الهند.

وعرضت في الفصل السادس الأحداث التي جرت في عهد كل من همايون وشير شاه وخلفائه.

ورويت في الفصل السابع أحداث مسيرة الدولة في عهد أكبر.

ودوَّنت في الفصل الثامن الأحداث السياسية في عهد كل من جهانكير وشاه جهان.

وعرضت في الفصل التاسع أحداث عهد أورنجزيب.

وعالجت في الفصل العاشر أحداث انحلال وسقوط الدولة المغولية في الهند.

وأنا على ثقة بأن القارئ سيجد في هذه الدراسة متعة وفائدة وعبرة، كما سيلمس موضوعية في معالجة الأحداث.

وأسأل الله أن يجعلها خالصة لوجهه الكريم، وأن ينفع بها القارئ العربي والمسلم، إنه سميع مجيب.

أ.د. محمد سهيل طقوش

الباب الأول

مغول القبيلة الذهبية

(٦٣٠ - ٩٠٧هـ/ ١٢٣٣ - ١٥٠٢م)

الفصل الأول: باطو - بركة - منكو تيمور - تدان منكو.

الفصل الثاني: تلابوقا - طقطاي - أوزبك.

الفصل الثالث: جاني بك - بردي بك - توقتاميش.

الفصل الرابع: المرحلة الأخيرة من تاريخ مغول القبيلة الذهبية.

الفصل الأول

باطو ـ بركة ـ منكو تيمور ـ تدان منكو

باطو بن جوجي
(٦٢٤ ـ ٦٥٤هـ/ ١٢٢٧ ـ ١٢٥٦م)

الإطار الجغرافي لخانية القبيلة الذهبية

شغلت مملكة المغول في بلاد القبجاق، المعروفة باسم خانية القبيلة الذهبية، منطقة واسعة تمتد من نهر إريتش شرقاً إلى أرض بلغار الڤولغا غرباً، ومن روسيا وبلاد الصقالبة شمالاً إلى مملكة الإيلخانيين في إيران وآسيا الصغرى، بالإضافة إلى بلاد ما وراء النهر وتركستان في الجنوب، وأن هؤلاء المغول عُرفوا باسم مغول القبيلة الذهبية نسبة إلى خيام معسكراتهم ذات اللون الذهبي، كما عُرفوا بمغول الشمال بوصف خانيتهم كانت تقع شمال خانية تركستان وما وراء النهر وإيلخانية إيران وآسيا الصغرى، وكذلك بمغول القبجاق لأنهم استقروا في أراضي شعب القبجاق[(١)]. والمعروف أن معظم سكان هذه المناطق ينتمون إلى الأتراك والتركمان مثل: القبجاق، كانكالي، قازاق قيرغيز، موردفاس، بلغار، وغيرهم، وكان من بينهم غجريون وجنويون، باعة متجولون، تجار متطوفون، قليل من الأرمن، وكثير من الروس، وندعوهم، اختصاراً وتبسيطاً، بقوم القبيلة الذهبية، ويعتنق معظمهم الدين الإسلامي، مثل سكان خوارزم وبلاد الخزر والبلغار والآص[(٢)].

وأود أن أشير في هذا المقام إلى شعبين هما: القبجاق والبلغار، بفعل علاقتهما المباشرة بمغول القبيلة الذهبية.

فالقبجاق هم شعب تركي بدوي، يعتمدون في معايشهم على التنقل

---

(١) الرمزي، م.م: تلفيق الأخبار وتلقيح الآثار في وقائع قزان وبلغار وملوك التتار: جا ص٣٧٨.

(٢) الآص: شعب مسلم كان يسكن مرتفعات شمالي شبه جزيرة القرم.

والترحال، وغالبيتهم وثنيين، وقد تزايدت أعدادهم في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، فانتشروا في أماكن واسعة، واستقروا في حوض نهر الڤولغا الأدنى وفي صحراء الغز، الواقعة شمالي بلاد ما وراء النهر وخوارزم، وتمتد غرباً حتى البحر الأسود، وتصل في تمدُّدها شمالاً إلى جنوبي روسيا، ولذلك سميت باسم صحراء القبجاق أو دشت القبجاق(١).

كوَّن القبجاق مملكة كانت عاصمتها السوداق في شبه جزيرة القرم. ونظراً لمجاورة أراضيهم الأراضي الروسية، فقد وقعت بينهما احتكاكات وحروب طويلة الأمد استمرت حتى مجيء المغول في عام (٦٢٠هـ/ ١٢٢٣م)، كانت بمعظمها سجالاً، إلا أنها أضعفت كلاً منهما، الأمر الذي أتاح للمغول المندفعين من الشرق أن ينقضوا عليهما.

وعندما أتمَّ باطو خان غزو بلاد القبجاق وجنوبي روسيا في عام (٦٣٦هـ/ ١٢٣٨ ـ ١٢٣٩م)، هرب خان القبجاق إلى بلاد المجر، وتمزقت دولته، وامتزج الشعب القبجاقي بالفاتحين المغول حتى استحال التمييز بينهم، ودخلوا جميعاً في الإسلام، واشتركوا معهم في السلطة حتى تسمَّت دولة المغول هناك باسم دولة القبجاق كما ذكرنا(٢).

أما شعب البلغار، والمقصود هنا بلغار الڤولغا، فهم قوم من الترك أو مولَّدون من الترك والصقالبة(٣)، وقد أطلق هذا الاسم على العاصمة وعلى المملكة التي كانت تقع في وسط حوض نهر الڤولغا، إلى الجنوب من مدينة قازان الحالية، وتنحصر بين جبال الأورال ونهر الڤولغا. ودخل البلغار في الإسلام على يد رجل صالح يدعى بلار(٤)، وجاهدوا ضد الكفار من الخزر والروس والروم البيزنطيين، حتى الغزو المغولي لبلادهم في عام (٦٣٥هـ/ ١٢٣٧ ـ ١٢٣٨م)، حيث خضعت المملكة للمغول لعجز ملكها عن مقاومتهم.

---

(١) رحلة ابن بطوطة: جـ١ ص٣٥٦. والدشت، في لغة الترك، هو الصحراء. القلقشندي، أحمد بن علي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا: جـ٤ ص٢٥٤ ـ ٢٥٦.
Howorth: History of the Mongols: Prt II, Div.I, p17.

(٢) الرمزي: جـ١ ص٢٢٠، ٢٢١.

(٣) ابن الأثير: جـ٨ ص٣٠. عبد الحليم، رجب محمد: انتشار الإسلام بين المغول: ص١٠٧.

(٤) الرمزي: جـ١ ص٢٦٩ ـ ٢٨٣.

وأضحت نتيجة ذلك جزءاً من خانية المغول الشمالية، وتعاون البلغار مع المغول في عهد بركة خان بعد أن وحَّدهما الإسلام.

أدّى البلغار، خلال مراحل تاريخهم، دوراً تجارياً وسياسياً هاماً، وكانت بلادهم سوقاً للبضائع والتجارة بين الشرق والغرب والشمال الروسي.

قيام خانية القبيلة الذهبية

قسَّم جنكيز خان، أثناء حياته، أملاكه بين أبنائه الثلاثة الكبار جوجي وجغتاي وأوكتاي، فأخذ كل منهم أربعة آلاف شخص من الجيش النظامي، ولم يضع إلا خطوطاً عامة لتحديد أملاك كل منهم، وكان نصيب ابنه الأصغر تولوي الوطن الأم، منغوليا، وفقاً للتقاليد المغولية. واستناداً إلى هذه القواعد التي تلزم أيضاً بأن يكون من نصيب الابن الأكبر أقصى البلاد المفتوحة، فقد كانت حصة جوجي القسم الشرقي للامبراطورية المغولية والتي تشمل الأراضي التي ذكرت.

غير أن جوجي توفي في حياة أبيه، فتوزعت أملاكه بين اثنين من أبنائه هما أوردا وباطو. فكان القسم الشرقي من نصيب ابنه الأكبر أوردا، ونال الابن الثاني باطو القسم الغربي الذي يفوق بمساحته القسم الشرقي(١).

ووافق جنكيز خان على هذا التقسيم.

وكان كل الخانات المتحدرين من أسرة جوجي تابعين نظرياً لخان القبيلة الذهبية من دون أن يكون لهذه التسمية أية أهمية، لأن الخانات العظام لم يعترفوا بخان القبيلة الذهبية كزعيم لأسرة جوجي، وكان هذا الشرف من نصيب أوردا وأسرته. وقد أضيفت في بداية القرن الرابع عشر الميلادي كلمة آق(٢) على أتباع أوردا في القسم الشرقي، فعرفوا باسم القبيلة البيضاء، في حين أضيفت كلمة كوك(٣) على أتباع باطو، فعرفوا باسم القبيلة الزرقاء أو السوداء(٤).

---

(١) تمتد أراضي آق أوردا من طرف الشرق من سراي إلى ساحل نهر سيحون، وتشمل مدناً عديدة مثل: صغناق وصبران، وهي أسبيجاب، وجند وأوترار وطراز وطرابند وغيرها.

(٢) آق: معناها أبيض. (٣) كوك: معناها أزرق.

(٤) بارتولد، فاسيلي فلاديميروفتش: تاريخ الترك في آسيا الوسطى: ص١٩٢.
Howorth: Prt II, Div.I, p216.
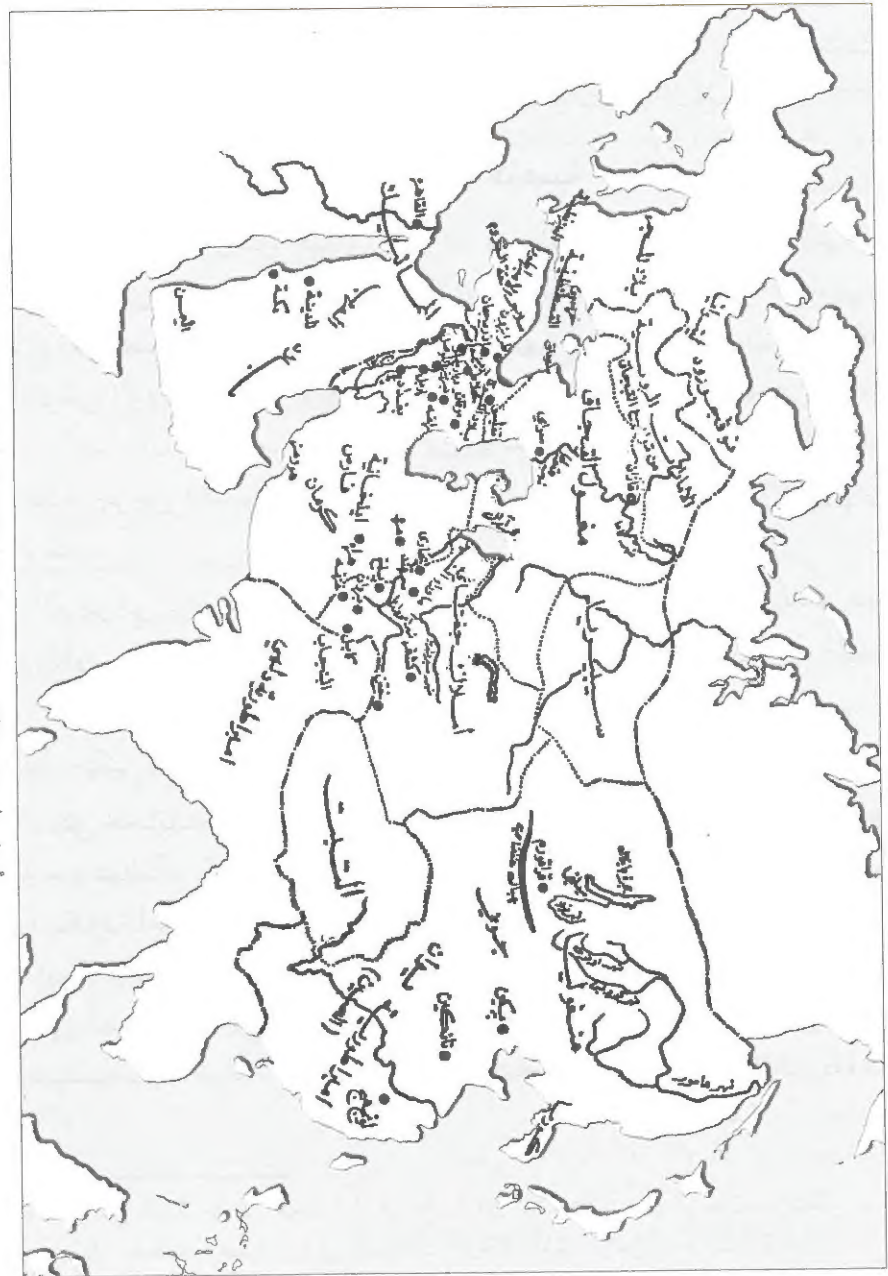
أوراسيا بين ١٢٦٠ – ١٢٨٠م (ممتلكات المغول)

عن السيد الباز العريني: المغول ص١٥.

ويبدو أن لذلك علاقة بما جرى بعد وفاة جوجي. فقد استدعى جنكيز خان الأخوين إلى قراقورم، فلما مثلا بين يديه عزاهما وطيّب خاطرهما، فأعطى أوردا خركاهاً[١] أبيض، وأعطى باطو خركاهاً أزرق.

والواقع أن الخصائص الثقافية للقبائل المتنقلة التابعة لباطو لا تزال على بداوتها، ولهذا اختار الأراضي ذات الصفات السهوبية من أراضي الڤولغا الوسطى والعليا، ومنطقة شمال شرقي البحر الأسود لتكون مركزاً لاستقرار واستيطان المغول في شرقي أوروبا، حيث المراعي الغنية لخيولهم والمرعى الخصيب لقطعانهم، وهم الذين كانوا يمارسون العادات البدوية على طول مجرى نهر الڤولغا[٢].

توسّع باطو الذي كانت خانيته تتركّز حول نهر الڤولغا، فامتدت غرباً حتى وصلت، في المدة الواقعة بين عامي (٦٣٥ ـ ٦٤٠هـ/ ١٢٣٧ ـ ١٢٤٢م)، إلى جبال الكربات، وتوغّل في روسيا وبولندا والمجر ودلماشيا، فطغت شهرته على أخيه الأكبر أوردا، وصار يُلقَّب منذ ذلك الحين بخان القبيلة الذهبية، وأضحى يضارع في العظمة والجاه خانات المغول العظام، وأهمل التاريخ أخيه أوردا[٣].

بعد أن فرغ باطو من حروبه الخارجية ضد الروس وغيرهم، واستقر له الملك، بنى مدينة سراي القديمة على الجانب الشرقي لنهر الڤولغا، في مكان يُقال له آق توبة[٤]، في جوار قرية سلترينوي الحالية الواقعة في منتصف الطريق بين مدينتي ستالينغراد الحديثة وأستراخان[٥]، واتخذها عاصمة لدولته، وبني فيها القصور لنفسه ولرجاله، ولم يمض وقت طويل حتى أضحت مركز تقارب بين مغول القبجاق والحضارة الإسلامية في غربي آسيا.

استقل باطو بما تحت يده من أراضٍ، على الرغم من أنه كان تابعاً، من الناحية النظرية، للمغول العظام في قراقورم، وأضحى له أرض وشعب وعاصمة، وهي من مقومات قيام الدولة. وعلى هذا الشكل قامت دولة مغول

---

(١) الخركاه في اللغة المغولية: هو الأوردا، وأطلق بعد ذلك على المعسكر، وقيل لكل معسكر كبير: أوردا أو أوردو.

(٢) شبولر: العالم الإسلامي في العصر المغولي: ص٣٩.

(٣) Howorth: Prt II, Div.I, p216.

(٤) التل الأبيض. ومعنى سراي: القلعة.

(٥) أستراخان: هي حاجي ترخان القديمة.

القبيلة الذهبية، القبجاق، لتشغل حيّزاً مهماً في التاريخ الآسيوي والأوروبي في العصر الوسيط، لكن الاستقلال الفعلي قد تَمَّ على يد بركة خان، أخي باطو، في عام (٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م).

العلاقة مع الإمارات الروسية

خضوع روسيا للمغول

توقف تاريخ روسيا بقسوة منذ الربع الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي بفعل الاجتياح المغولي. وكان التصدُّع في هذه المساحات السلافية[١] الشاسعة قد لحق بإمارة كييف، ولم يكن غريباً عن هذا التصدع نظام انتقال السلطة القاضي بإعادة توزيع الأراضي بحسب تسلسل معين كلما توفي أحد أمراء العائلة المالكة التي مارست سياسة متضامنة، إلا أن انحطاط الدولة الكييفية مرده أيضاً إلى توسُّع الشعب الروسي الذي توجّه تجارياً، آنذاك، صوب ألمانيا وقزوين متجاوزاً القسطنطينية، بالإضافة إلى غارات سكان السهول من القبجاق[٢] الذين طردوا سلافيي المناطق الجنوبية وأرغموهم على التوطن في السهول القليلة السكان التي يرويها نهر الدنيستر، أو منطقة الغابات شبه المقفرة في الشمال الغربي، التي تمتد حتى أواسط نهر الڤولغا، وقد نشأت عن هذا التشتُّت شعوب مختلفة من الأوكرانيين والروس البيض والروس الطوال.

وتحرَّرت آنذاك منطقتان، هما نوڤغورود وبسكوف، في أقصى الشمال، اللتان أعطتا التجمعات الإقليمية استقلالاً داخلياً، وتصرفتا كجمهوريتين تجاريتين ما لبث عامة الشعب فيهما أن قاوم ممارسات الحكام ورجال الأعمال الاحتكارية. ونظم أندريه بوغوليوسكي، في الشمال الشرقي، منذ منتصف القرن الثاني عشر الميلادي، إمارة في المنطقة التي ستنمو فيها موسكو بالقرب من إمارة سوزدال التي أحدثت انقلاباً في تاريخ ماض تمركزت فيه روسيا حول نهر الدنيبر.

غير أن روسيا التي بدت حاضرتها على وشك التفتُّح، تعرَّضت لغزوة

(١) السلافية: نسبة إلى العنصر السلافي أو الصقلبي، الذين يرجع أصلهم إلى الجنس الآري أو الهندو ـ أوروبي. انظر: Morfill: Russia, p4.

(٢) أطلق المجريون والبيزنطيون على القبجاق اسم الكومان، في حين اشتهروا عند الروس باسم بولفتسي.

مغولية مدمرة أوقفت الزحف الحضاري. ففي عهد جنكيز خان عبر القائدان جيبي وسوبوتاي، في عام (٦٢٠هـ/ ١٢٢٣م)، المنطقة الواقعة بين بحر قزوين والبحر الأسود إلى بلاد القبجاق وروسيا، ولم يكن الروس يعلمون شيئاً عن هؤلاء الغزاة، وأطلقوا عليهم اسم التتار، ولكنهم سمعوا أنهم استولوا على الكثير من البلاد وأنزلوا بها الدمار، وهاجموا إقليم القبجاق، والتمس القبجاق المساعدة من أمراء روسيا الذين تجمعوا لمقاومة الغزاة عند نهر كالكا، ولكن المغول هزموا قوات التحالف في (ربيع الآخر/ أيار)[١].

والواقع أنها كانت معركة قاسية قُتل فيها الكثير من القوات الروسية وأُسر العديد أيضاً، بالإضافة إلى ما تبع ذلك من دمار في المناطق التي مرَّ بها المغول والأراضي التي دارت عليها المعارك، ويبدو أن الظروف لم تتح لهما أن يستمرا في فتوحهما، فعادت القوات المغولية إلى الجنوب ثم إلى مراكزها في آسيا.

ولم تمض سنوات ذات عدد حتى توفي جنكيز خان، في عام (٦٢٤هـ/ ١٢٢٧م). واستناداً إلى التنظيمات التي وضعها قبل وفاته، آلت المناطق الجديدة الواقعة شمالي بحر آرال إلى ابنه جوجي الذي توفي في حياة أبيه، ومن ثَمَّ آلت إلى باطو، الابن الثاني لجوجي، كما أن المجلس الأعلى للمغول ـ القوريلتاي ـ برئاسة أوكتاي خان، أقرَّ، في اجتماعه في عام (٦٣٢هـ/ ١٢٣٥م) بإرسال حملة كبيرة إلى روسيا وأوروبا، أسند قيادتها العليا إلى باطو بن جوجي، خان الآرال والأورال، والذي يلتف حوله ممثلون عن كل فروع جنكيز خان، وكلَّفه بالاستيلاء على بلاد الروس والجركس والبلغار وأقاليم أوروبا الشرقية، وتولى سوبوتاي، الذي سبق له أن تولى عمليات عسكرية في الصين وإيران وروسيا، القيادة الفعلية لهذه الحملة التي تركت أثراً كبيراً في التاريخ الأوروبي في العصور الوسطى[٢].

كانت فاتحة أعمال هذه الحملة العسكرية تدمير مملكة البلغار التركية، الواقعة على نهر كاما، في (أواخر ٦٣٤هـ/ خريف ١٢٣٦م)، وإحراق عاصمتها بلغار، المدينة التجارية الواقعة بالقرب من نهر الڤولغا في الجهة الجنوبية عند

(١) عمران، سعيد محمود: المغول وأوروبا: ص٤٤. Howorth: Prt II, Division I, p39.

(٢) Cambridge Medieval History IV, p652.

التقائه بنهر كاما[١]. والواضح من واقع الأعمال العسكرية أن المغول أرادوا أن يتخذوا من منطقة جنوبي نهر الڤولغا مركزاً لعملياتهم العسكرية في روسيا أو المناطق المتاخمة لها[٢].

وهاجم المغول في (أواخر ٦٣٤هـ/ربيع ١٢٣٧م) الترك الوثنيين الذين ينزلون في إقليم الڤولغا، وعرفهم المسلمون باسم القبجاق، وأخضعوهم، وهم العنصر التركي الذي أضحى أساس سكان خانية المغول المعروفة باسم خانية القبجاق أو القبيلة الذهبية[٣]. وتحولت المنطقة الواقعة في جنوبي نهر الڤولغا، بين جبال أورال وشبه جزيرة القرم، إلى السيطرة المغولية، وتمركزت القوات المغولية في هذه المنطقة لتنطلق منها في عملياتها العسكرية المقبلة[٤].

وتوجهت فرقة عسكرية مغولية في عام (٦٣٥هـ/١٢٣٨م) بقيادة بركة، أخو باطو، لغزو المنطقة الشرقية حيث يوجد نهر أورال وقبائل الباشغرد والمنطقة الغربية الواقعة شمالي البحر الأسود، حيث توجد قبائل قبجاقية، فهزمت قبائل الباشغرد وأكملت إخضاع القبجاق، واضطر الزعيم القبجاقي كوتان أن يغادر المنطقة مع أربعة آلاف خيمة إلى المجر حيث اعتنق النصرانية. وأكمل المغول إخضاع البراري في جنوبي روسيا واستولوا على حاضرة اللان مغاص[٥].

وتوجَّهت فرقة عسكرية مغولية أخرى إلى الإمارات الروسية، وكانت آنذاك منقسمة على نفسها ومجزأة بين أمراء روس. فقد حكم الأمير جورج - يوري - إمارة ريازان في حين حكم أخوه رومان إمارة كولومنا، فهاجم المغول أولاً الإمارة الأولى وعندما أصبحت قواتهم على مقربة من المدينة أرسلوا إلى أميرها إنذاراً بالتسليم، فاستجاب لهم وأرسل ابنه فيودور مع الهدايا، فقبلها باطو وأمر الأمراء الروس بأن يرسلوا إليه أخواتهم وبناتهم ليراهم. وسمع بأن فيودور له زوجة جميلة تدعى يوفراسيا، فطلب حضورها أيضاً ليراها، لكن

---

(١) ابن العبري، أبو الفرج جمال الدين: تاريخ الزمان: ص٢٧٩. العريني: ص١٨٠. وفي رواية: إن أمير البلغار إلهام خان صالح المغول ودخل في طاعتهم عندما تيقن من عدم قدرته على مقاومتهم فتخلص بنفسه وخلّص مملكته من ورطة هذه المهلكة، فأعطوه جميع البلاد والأماكن التي كانت تحت حكومته وقبضة تصرفه على أن يضرب السكة باسمهم وتكون مملكة البلغار جزءاً من ممالكهم وأميرها منسوباً إليهم... انظر: الرمزي: جا ص٣٦٦.

(٢) عمران: ص٤٥.

(٣) العريني: ص١٨٠، ١٨١.

(٤) عمران: ص٤٦.

(٥) العريني: ص١٨١.

فيودور رفض الطلب بحجة أنه ليس من عادة الأمراء النصارى أن يُظهروا زوجاتهم لغير نصراني.

وتطورت الأمور نحو الأسوأ عندما علمت يوفراسيا بإصرار باطو على رؤيتها، فانتحرت بأن رمت بنفسها من على سطح كنيسة القديس نيقولا ومعها ابنها، فاتخذ باطو من هذا الرفض ذريعة لشن الحرب. وفي المقابل استعد جورج للقتال والتمس مساعدة أمير مدينة فلاديمير، التي تقع على أحد فروع نهر الڤولغا إلى الشمال من مدينة ريازان. وعندما علم باطو بنواياه يوري الثاني عجّل بمهاجمة المدينة فدخلتها قواته ودمرتها وقتلت سكانها، وكان الأمير جورج من بين القتلى.

ثم تقدمت القوات المغولية إلى الشمال واستولت على إمارة كولومنا، وكان أميرها قد التمس المساعدة من يوري الثاني أمير سوزدال وهو أقوى الأمراء الروس آنذاك. ولم يتمكّن هذا الأمير من أن يحول بين المغول وبين تدميرهم مدينتي سوزدال وفلاديمير، في (٢٧ جمادى الآخرة ٦٣٥هـ/ ١٤ شباط ١٢٣٨م) عقاباً على مساعدة أمير ريازان. وأجرى هؤلاء مذبحة مروعة بحق السكان الذين لجأوا إلى الكنائس وسط ألسنة اللهب المنبعث من إحراق المدينتين. وفرَّ يوري الثاني إلى الشمال لعلّه يستطيع تجميع قواته لمواجهة المغول مرة أخرى، ولكن القوات المغولية أسرعت بالتقدم، خلال الشهر المذكور، إلى المناطق المجاورة، ونجحت، خلال أسابيع قليلة، في السيطرة على عدة مدن منها سوزدال وتفر وموسكو التي تعرضت للإحراق، وهي التي نسمع عنها للمرة الأولى في التاريخ خلال هذه الأحداث[١].

انقسم الجيش المغولي، بعد السيطرة على فلاديمير، إلى ثلاثة أقسام، سار القسم الأول إلى غورودیتس، الواقعة على نهر الڤولغا والقريبة من نشني نوفغورود، وزحف الثاني باتجاه غاليسيا، وتقدم الثالث نحو روستوف وياروسلاف ونجح في تدمير مدن عدة تابعة ليوري الثاني، ودارت المعركة الفاصلة في (١٦ رجب/ ٤ آذار) على نهر سيتّي، أحد روافد نهر الڤولغا، دارت الدائرة فيها على القوات الروسية، ولقي الأمير يوري الثاني مصرعه[٢].

---

(١) Morfill: Russia, p39.

(٢) Karamazın: History of Russia. French ed: III, p365.

تقدم المغول بعد المعركة إلى نوڤغورود، واستولوا في طريقهم على فولوك لامسكي وتوير وتورجك التي قاومتهم، فكان مصيرها مؤلماً حيث جرى تدميرها في (٢٦ رجب/ ١٤ آذار)، ووصلوا في تقدُّمهم حتى بحيرة سليغر التي يصب فيها نهر الڤولغا[١].

عند هذه المرحلة من التوغل المغولي في الأراضي الروسية، بدأت الصعوبات تظهر أمام زحف المغول، لعل أهمها ذوبان الجليد الذي حوَّل الأرض إلى مستنقعات يتعذر اجتيازها، فعادوا إلى الجنوب واقتحموا في طريقهم مدينة كوسلسك، الواقعة إلى الجنوب الغربي من مدينة موسكو، ولكنهم استأنفوا توغلهم في الأراضي الروسية في (أواسط ٦٣٨هـ/ نهاية ١٢٤٠م) ـ ويلاحظ هنا أن التوسع المغولي، في هذه المرحلة، سوف يكون إلى الغرب، وهو الطريق الذي سيؤدي إلى أوروبا في مراحل مقبلة ـ فتقدموا نحو كييف، عاصمة أوكرانيا وأم المدن الروسية، وهي واقعة على نهر الدنيبر، وكانت تحت حكم الأمير ميخائيل سيرينجوف الذي استولى عليها عقب مقتل يوري الثاني. وعندما اقتربوا منها فرَّ ميخائيل إلى بولندا محتمياً بحاكمها كونراد أوف مازوڤيا، وبعد أن مكث قليلاً غادرها إلى سيليزيا. وعندما وصل المغول إلى المدينة اقتحموها، فقتلوا سكانها واستولوا على كنوزها ثم دمروها، كما دمَّروا مدينتي بيريسلاف الواقعة على بُعد اثني عشر ميلاً جنوبي كييف، وشيرنيجوف الواقعة شمالي كييف على المسافة نفسها[٢].

وفي الوقت الذي كانت فيه القوات المغولية تستعدّ للانتقال إلى شرقي أوروبا لمهاجمة بولندا والمجر، استدعى أوكتاي خان الأمراء فجأة للعودة إلى قراقورم، فعاد كيوك ومنكو وتوجها إلى بلاطه، في حين بقي باطو وإخوته والأمراء والجند ليستأنفوا الزحف إلى البلدين المذكورين، وذلك في عام (٦٣٩هـ/ ١٢٤١م)[٣].

خصائص العلاقة مع الإمارات الروسية

قامت علاقة خانية القبيلة الذهبية مع الإمارات الروسية على التبعية، مع الاحتفاظ باستقلال هذه الإمارات، إنها علاقة الغالب بالمغلوب. ويمكن

(١) Karamazin: p349.

(٢) Howorth: Prt II, Division I, pp43, 44.

(٣) الهمذاني، رشيد الدين فضل الله: جامع التواريخ، تاريخ خلفاء جنكيز خان: ص١٠٩.

رصد الخصائص التالية، فيما يتعلق بهذه العلاقة[١].

- كان على الأمراء الروس أن يتردّدوا، بين الحين والآخر، على العاصمة سراي إما لتقديم فروض الولاء والطاعة وإما لحل مشكلاتهم الداخلية بين بعضهم البعض، وكان يتم استدعاؤهم في بعض الأحيان لتلقي الأوامر، كما كانوا يضطرون للذهاب إلى قراقورم إذا ما طلب منهم خان القبيلة الذهبية، وكان عليهم أحياناً أخرى أن يقدموا الهدايا واتِّباع عادات المغول في مثل هذه المناسبة، كالسجود أمام خيمة الخان قبل الدخول إليها، وكان الأمير لا يتولى رسمياً حكم إمارته إلا بعد صدور قرار من الخان بذلك.
- كان على الروس، شأنهم شأن بقية الشعوب الخاضعة للمغول، أن يقدموا ضريبة الرؤوس عن كل فرد، وقد مثّلت عبئاً على الفقراء، وتُسدَّد هذه الضريبة نقداً أو عيناً، ومن يعجز عن تسديدها ينضم إلى طبقة العبيد، وأدّى تعسف جامعي الضرائب، في كثير من الأحيان، إلى نشوب العديد من الثورات.
- كان على الروس أن يخدموا في القوات المغولية فيما يُعرف بضريبة الدم. وكان الأمراء الروس يختارون صفوة شبانهم لتقديمهم إلى المغول، وتحدَّدت مهمتهم بالسير أمام الجيش المغولي لتلقي الصدمة الأولى.
- كان الأمراء الروس مسؤولين عن القبض على الثائرين والخارجين على القانون وتسليمهم إلى السلطات المغولية.
- اتبع المغول سياسة التفرقة بين الأمراء الروس لضمان استمرار هيمنتهم، فكانوا يساندون أميراً ضد آخر.
- كان على الأمراء الروس أن يسجدوا أمام سفراء الخان عندما يستقبلونهم، وأن يمدوا لهم السجاد الفاخر، ويقدموا لهم الكؤوس المملوءة بقطع الذهب.
- التحريم على أية إمارة روسية أن تشن حرباً على جارتها إلا بترخيص من الخان.

وعلى أثر نجاح باطو في إخضاع الإمارات الروسية، استدعى الأمراء الروس إلى عاصمته ليقدموا له فروض الولاء والطاعة والجزية، كان من بينهم ياروسلاف، أمير نوڤغورود وكييف، وقد ذهب مكرهاً بسبب استشعاره بالخوف، فقدّم الولاء والطاعة لباطو، وأنعم عليه الأمير المغولي بلقب أمير

(١) عمران: ص١٨٥ ـ ١٨٧.

الأمراء، أو الأمير الكبير[١]، وطلب منه التوجه إلى العاصمة المغولية ليقدم الطاعة للخان الأعظم كيوك، فاستجاب لهذا الطلب، وبرَّأ نفسه أمام الخان من الاتهامات التي وُجِّهت إليه بمقاومة المغول، لكنه توفي أثناء عودته إلى بلاده في عام (٦٤٤هـ/١٢٤٦م)، وحُملت جثته إلى مدينة فلاديمير حيث دُفن فيها، وكان قد خلَّف ولدين هما أندرو الثاني، الذي كان حاكماً على سوزدال، وألكسندر الأول، الذي كان يحكم إمارة نوفغورود.

اتصف ألكسندر الأول، الذي عُرف باسم ألكسندر نيفسكي، بالتعقُّل، فقد أدرك أن مقاومة الوجود المغولي في بلاده من شأنها أن تدمر روسيا بفعل تفاوت القوة، وأن القوات المغولية بوسعها أن تجتاح إمارته في أي وقت. وحتى يُجنِّب بلاده الخراب زار باطو في سراي ليقدم له الولاء والطاعة ويحصل منه على براءة الحكم، واصطحب معه أخاه أندرو، فاستقبلهما باطو بالترحاب، وأرسلهما إلى قراقورم ليقدما فروض الولاء والطاعة، مثلما فعل والدهما من قبل، فأنعم الخان على ألكسندر بولاية نوفغورود بالإضافة إلى روسيا الجنوبية حتى مدينة كييف، وأعطى أخاه أندريه ولاية فلاديمير[٢].

واستُدعي دانيال، أمير غاليسيا، إلى بلاط باطو، فذهب وقدَّم له الطاعة والولاء في الوقت الذي مرّ بالعاصمة الرحَّالة كابريني. وقد استمدَّ الأمير دانيال القوة من المغول، فهابه جيرانه وبخاصة بيلا الرابع ملك المجر، وحتى يتجنَّب الاصطدام به دعاه إلى محالفته، وتمتَّنت هذه المحالفة بالتقارب الأسري، فقد تزوّج ليون بن دانيال من كونستانس ابنة بيلا الرابع[٣].

الاجتياح المغولي لشرقي أوروبا

بعد أن أتمَّ المغول الاستيلاء على الإمارات الروسية وبعض المدن الواقعة على نهر الدنيبر قرَّروا التوجه غرباً نحو شرقي أوروبا، ووضع باطو خطة عسكرية تقضي بالاستيلاء على بولندا والمجر، لذلك قسّم جيشه إلى قسمين:

(١) المعروف أن الأمير أو الوالي الروسي كان يدعى الكيناز، أما ياروسلاف فقد منحه باطو لقب الكيناز الأعظم، ومن أولى مهام من يتولى هذا المنصب جمع الضرائب من الأمراء الروس وإرسالها في مواعيدها إلى المغول.

(٢) Karamazin: IV, pp80-82. Howorth: Prt II, Division I, p78.

(٣) Howorth: Ibid: p76.

توجه القسم الأول شمالاً نحو بولندا، بقيادة أوردا أخي باطو وبايدار بن جغتاي[١]، فانطلق أفراده من كييف في (أواسط ٦٣٨هـ/أوائل ١٢٤١م) متخذين الطريق الكبير الذي يؤدي إلى تشيتوير ورونو في مقاطعة فولهينيا للوصول إلى مقاطعة غاليسيا التي يحكمها الأمير دانيال، فتقدموا نحو كراكو، فاجتاحوا مدينة لوبين وتابعوا تقدمهم نحو الجنوب على طول مجرى النهر لمسافة ستين ميلاً، ثم عبروا النهر الذي تجمَّدت مياهه، وهاجموا مدينة ساندومير ونهبوها. وانفصلت فرقة عسكرية مغولية بقيادة بايدار هاجمت مدينة كراكاو الواقعة عند منابع نهر الفستولا، وتبعد حوالي مائة ميل عن مدينة ساندومير، ونهبتها، وفرَّ الملك البولندي بولسلاس الرابع من أمامها والتجأ إلى مورافيا. وإذ فرَّ السكان منها أيضاً أشعل المغول فيها النيران. وتوغلت قوات بايدار في سيليزيا، ولم يكن أمام الملك سوى طلب النجدة من جماعة الفرسان التيوتون المقيمين عند سواحل بحر البلطيق، وهنري دوق سيليزيا[٢].

وتقدمت القوات المغولية إلى مدينة برسلاو الواقعة في شمالي إقليم سيليزيا وجنوبي بولندا، وتقع على الضفة الغربية لنهر الأودر، وعندما وصلت إليها حاصرتها ثم أضرمت فيها النار، ولكنها انسحبت من أمامها عندما علمت أن قوات التحالف البولندي ـ التيوتوني ـ السيليزي قد تجمعت عند مدينة ليجنتز، وقوامها ثلاثون ألف جندي[٣].

وانتقلت القوات المغولية إلى الجنوب حيث القوات المتحالفة، وجرى الصدام بين الطرفين عند مدينة فاهلشتات القريبة من مدينة ليجنتز، حيث دارت رحى معركة ضارية في (شوال ٦٣٨هـ/نيسان ١٢٤١م) انتهت بهزيمة قوات التحالف، ولقي الدوق هنري مصرعه. وانتشر المغول عقب هذا الانتصار في مورافيا ينهبون ويدمرون ويعيثون فساداً، قبل أن يلتحقوا بالقسم الثاني من الجيش العام بقيادة باطو الزاحف نحو المجر[٤].

ونفذت الجيوش المغولية إلى المجر من ثلاثة محاور:

الأول: من جهة الشمال بين بولندا ومورافيا، بقيادة شيبان، أخي باطو.

(١) Howorth: Prt II, Division I, p44.

(٢) Ibid: p45.

(٣) عمران: ص٥٠. Howorth: Prt I, p143.

(٤) Ibid: pp143, 144. Thompson, J.W· The Middle Ages, II, p1006.

الثاني: من غاليسيا، بقيادة باطو نفسه، وقد انتصر على قوة عسكرية بقيادة الأمير بلاتين حاولت وقف تقدُّمه في ممرات جبال مولداڤيا.

الثالث: من مولداڤيا، بقيادة قدان، الذي استولى على ڤارادين وزاناد ودمَّرهما وقتل سكانهما[1].

كان بيلا الرابع ملك المجر يتوقع أن يغزو المغول بلاده بسبب إيوائه العناصر التي فرَّت من المناطق الروسية، وبخاصة بعض قادة القبجاق. ويلاحظ أن دولة المجر كانت دولة صغيرة محدودة الإمكانات، ولكن ملكها اعتمد، على ما يبدو، على قوة العناصر التي فرّت من أمام الزحف المغولي، لذلك دعا إلى عقد اجتماع عام في مدينة بودا، وهي الجزء الغربي لمدينة بودابست الواقعة على نهر الدانوب، وقد حضر هذا الاجتماع كبار رجال الدين والنبلاء والقادة العسكريون. ويبدو أن بيلا الرابع لم يتمكَّن من إقناع النبلاء بالذهاب إلى الحرب إلا بعد أن أرضاهم بتحقيق بعض مطالبهم من واقع القبض على بعض قادة القبجاق الذين عدُّوهم السبب الرئيس لغزو المغول لبلادهم، ولكنه رفض أن يعيد إليهم الامتيازات التي كانت ممنوحة لهم سابقاً. وقد نتج عن التصرف الأول نتائج عكسية، إذ ثارت عناصر القبجاق وعاثت فساداً في الأرض، وبذلك أضحوا مصدر إزعاج بدلاً من مساعدة الملك في محنته أمام الغزو المغولي، واضطر الملك المجري إلى الفرار باتجاه النمسا[2].

دبَّت الفوضى في المملكة المجرية، الأمر الذي سهَّل مهمة القوات التي تقدمت عبر جبال الكربات وتجمَّعت في (شوال/نيسان) أمام بست، التي حشد فيها بيلا الرابع جيشه. وعاد بيلا الرابع إلى عاصمته ليدافع عنها، وأرسل أسرته وثروته إلى دوق النمسا والتمس المساعدة منه، كما التمس النجدة من بقية الممالك الأوروبية. ويبدو أنه لم يتلقَّ أي عون، واضطر أن يخوض المعركة منفرداً، وكانت غير متكافئة لأن القيادة المغولية نجحت في ضمِّ جزء كبير من القوات القبجاقية[3].

وجرى اللقاء الدامي بين الطرفين بالقرب من جسر مدينة موهي الواقعة على نهر سايو، أحد فروع نهر الدانوب، وأحرز المغول انتصاراً باهراً على الجيش

(١) Thompson: The Middle Ages, II, P1006.

(٢) عمران: ص٥٠، ٥١ .Howorth: Prt II, Division 1, p52

(٣) Ibid.

المجري، وسقطت بست في أيديهم، وهرب بيلا الرابع ملتجئاً إلى كرواتيا، ثم غادرها إلى ساحل البحر الأدرياتيكي، عندما شعر بأن القوات المغولية تتعقَّبه، وقد وصلت إلى سواحل إقليم دلماسيا على البحر المذكور وتوغلت حتى مدينة كاتارو الواقعة بين مدينتي راجوزة ودورازو. ولعدم وجود قوات بحرية لدى المغول لم يكن بوسعهم أن يتعاملوا مع هذه المنطقة الساحلية. وسيطر المغول على كامل بلاد المجر حتى نهر الدانوب[1].

وهكذا شهدت أوروبا أهوال المغول التي ابتليت بها الأقطار الإسلامية في غربي آسيا، وقد أزعجوا بأفعالهم الوحشية العالم النصراني، فأرسل البابا جريجوري التاسع (٦٢٤ ـ ٦٣٧هـ/ ١٢٢٧ ـ ١٢٤٠م) كتاباً إلى الملوك والأمراء النصارى يحثهم على التعاون والتهيؤ لإعلان حرب صليبية ضد هؤلاء الغزاة التتار.

وفي الوقت الذي كان فيه المغول يتوغلون في أوروبا إذ بالأنباء ترد إليهم تُعلن وفاة الخان الكبير أوكتاي في عام (٦٣٩هـ/ ١٢٤١م)، واستدعاء باطو وسائر الأمراء الذين يرافقونه لحضور القوريلتاي ـ مجلس الشورى ـ والاشتراك في انتخاب الخان الجديد[2]، وبذلك نجا الشطر الغربي من أوروبا من خطر المغول.

وغادر باطو الأراضي المجرية، بعد مرور سنة، مكتفياً بتبعيتها له من الناحية الاسمية، وترتب على حملاته التي نفَّذها أن امتد سلطانه في غربي نهر الڤولغا. وأضحت هذه الأملاك الشاسعة، من الناحية القانونية، له ولخلفائه، وشكّلت خانية القبيلة الذهبية.

على أن زحف المغول إلى أوروبا حدث في وقت لم تكن القارة مستعدة له، بل إنها لم تحفل به، وما حدث في عام (٦١٩هـ/ ١٢٢٢م)، خلال عهد جنكيز خان، من أخبار العمليات العسكرية المغولية في القوقاز لأول مرة، وانسياب المغول إلى الأراضي الروسية؛ لم يجذب الاهتمام في غربي أوروبا، على أنه وقع في الأعوام بين (٦٣٢ و٦٣٥هـ/ ١٢٣٥ و١٢٣٨م) حادثان ارتبطا سوياً ونبَّها الملوك النصارى إلى أن يدركوا ما ينتظرهم من أخطار:

(١) Thompson: II, p1006

(٢) Cambridge Medieval History: IV, pp637, 638.

الأول: إرسال الإسماعيلية ـ الحشاشين ـ سفارة إلى غربي أوروبا، وتحديداً إلى ملكي إنكلترا وفرنسا، يلتمسون مساعدتهما ويحذرونهما من الخطر القادم.

الثاني: انسياب الجيوش المغولية بقيادة باطو إلى جوف أوروبا.

ويبدو أن التحذير والإنذار لم يجدا آذاناً صاغية، ومع ذلك فقد أدرك الامبراطور فريدريك الثاني خطورة الموقف، فكتب إلى هنري الثالث ملك إنكلترا يحثه على القيام بعمل مشترك بعد أن أحاطه علماً بحقيقة الخطر المغولي، وعلى الرغم من تزايد الشعور الأوروبي بهذا الخطر فلم يجر اتخاذ الخطوات اللازمة لمواجهتهم[١].

العلاقة مع المغول العظام

نشبت النزاعات الداخلية بين المغول إثر وفاة الخان الأعظم أوكتاي، في عام (٦٣٩هـ/ ١٢٤١م)، بسبب تنافس الأمراء حول خلافته. وانغمس باطو في لعبة هذا التنافس على العرش لأنه كان يطمع في اعتلائه بوصفه عميد الأسرة الجانكيزخانية، بالإضافة إلى أنه من أولاد جوجي، أكبر أبناء جنكيز خان، لذلك توقَّف عن توسيع رقعة بلاده وركَّز جهوده على شؤون آسيا الوسطى[٢]. والمعروف أن توراكينا خاتون، أرملة أوكتاي، تولَّت الوصاية على العرش بعد وفاة زوجها، وجاهدت بكل قواها لتؤمِّن لابنها كيوك خلافة والده، فقاومها باطو، ورفض زعامة كيوك لأسباب دينية وثقافية، بالإضافة إلى طموحه السياسي.

فقد كان باطو ينظر إلى جميع الأديان المنتشرة في الأقاليم المغولية نظرة استخفاف ولامبالاة، وظلَّ مخلصاً للإيمان الشاماني. وكان كيوك من جهته ذا ميول مختلفة جديدة، بدت آنذاك بأنها سوف تنتصر في النهاية وتسود بين المغول، حيث اكتسبت النصرانية قوة على المذهب النسطوري، وتركت انطباعاً عميقاً في عقليته، فقرَّب النصارى، وامتلأت بلاده بالقسيسين والرهبان والمطارنة، فراحوا يستغلون النزعات الدينية للخان الأعظم ليذلُّوا المسلمين، وقد هموا باستئصال شأفتهم، ولم يكن أمامهم سوى الاستغاثة بباطو الذي يكنُّ العداوة لكيوك، فجاهره بالعصيان حتى أضحت الحرب حتمية بينهما.

---

(١) العريني: ص١٨٤ ـ ١٨٦.

(٢) Howorth: Prt II, Division, I, p64.

وأرسل كيوك جيشاً إلى أطراف أذربيجان وأرَّان، وهي مناطق تابعة لباطو، بقيادة الجيكتاي، وأمره بالقبض على عمال باطو وإرسالهم إليه مقيدين، والاستيلاء على أطراف بلاده، فأرسل هؤلاء العمال يعلمون باطو بتطور الأمور في مناطق الحدود، ويطلبون توجيهاته، ولكن الجيكتاي وصل قبل ورود جواب باطو، فقبض على العمال وقيدهم وتجهَّز للمغادرة إلى الخان الأعظم. ووصل في هذه الأثناء جواب باطو ويقضي بالقبض على الجيكتاي ومن معه وتقييدهم. فقامت طائفة من أتباع باطو بتحرير العمال وتقييد الجيكتاي ورفاقه وأرسلوهم إلى باطو، فعذَّبهم بأن صبّ عليهم ماءً حاراً، ولما علم كيوك بذلك خرج على رأس ستمائة ألف جندي لتأديب باطو، لكنه توفي في الطريق[١].

---

(١) Howorth: Prt I, p170.

بـركـة بـن جـوجـي

(٦٥٤ ـ ٦٦٥هـ/ ١٢٥٦ ـ ١٢٦٧م)

اعتلاء بركة عرش خانية القبيلة الذهبية

توفي باطو في أوائل عام (٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م)، بعد أن حكم مدة تقرب من ثلاثين عاماً، وكان من المتوقع أن يخلفه ابنه صرتق، بدليل أنه عهد إليه، قبل وفاته بقليل، بإدارة الشؤون العامة نيابة عنه، وتفرّغ هو للعيش على ضفاف نهر الفولغا حيث أمضى بقية حياته.

وكان باطو قد أرسل ابنه صرتق، في عام (٦٥٣هـ/ ١٢٥٥م)، إلى قراقورم لحضور اجتماع القوريلتاي، وقد علم وهو في الطريق بوفاة والده، فتابع طريقه إلى العاصمة المغولية، فاجتمع بمنكو الذي عيّنه خلفاً له، غير أنه لم يُوفَّق في الجلوس على عرش والده، فقد توفي أثناء عودته، ويبدو أن عمّه بركة أرسل من قتله في الطريق متذرعاً بأن منكو أمره بذلك، والراجح أنه قُتل في غمرة الصراع على السلطة حيث طمع بركة بخلافة أخيه باطو[١].

والواقع أنه بعد وفاة باطو أضحى أخوه بركة الوريث الشرعي، وفقاً للقانون المغولي، كما أن التقاليد في الشرق لا تسمح للأبناء بوراثة آبائهم في السلطة إلا بعد وفاة كافة الأشقاء، وكان تعيين صرتق على غير هذه القاعدة.

ومهما يكن من أمر، فقد عيَّن منكو بركة خاناً على مغول القبيلة الذهبية فور وفاة صرتق، فأقام الاحتفالات والولائم احتفاءً بهذه المناسبة، وأرسل الهدايا إلى الخان الأعظم.

---

(١) ابـن الـعـبـري: ص٢٧٩, Howorth: Prt II, Div.I, p92. D'ohsson, C; Histoire des Mongols: II, p336. ـ يذكر دوسون أن صرتق علم بوفاة والده وهو عائد إلى سراي.

بداية التحول الديني لمغول القبيلة الذهبية إلى الإسلام

تحوَّلت بلاد القبجاق، بتعيين بركة خاناً على القبيلة الذهبية، تدريجياً إلى الإسلام، وذلك بفضل تأثيره وهو الذي اعتنق هذا الدين منذ طفولته، وحفظ القرآن في شبابه على يد أحد فقهاء مدينة خجند، ومعنى ذلك أنه أسلم قبل أن يتولى عرش مغول القبيلة الذهبية، وهو أول من اعتنق الإسلام من أسرة جنكيز خان[١]، وفي رواية: أن أخاه باطو أرسله إلى قراقورم لحضور حفل تنصيب منكو على عرش الامبراطورية المغولية، والمعروف أن منكو هذا قد تمَّ تنصيبه في عام (٦٤٩هـ/ ١٢٥١م)، وبعد أن حضر احتفالات التنصيب عاد إلى بلاده، ومرّ، وهو في طريقه، بمدينة بخارى، فاجتمع بالشيخ شمس الدين الباخرزي، أحد مريدي الشيخ نجم الدين كبرا، وأسلم على يديه[٢]. وقد أكَّد هذه الحقيقة وليم روبروك حين ذكر أن بركة كان مسلماً عام (٦٥١هـ/ ١٢٥٣م)، وهي السنة التي مرّ فيها هذا المبعوث الأوروبي ببلاد القبجاق في طريقه إلى قراقورم سفيراً إليها من قِبَل لويس التاسع ملك فرنسا، كما أفاد بأن لحم الخنزير لم يكن يؤكل في معسكره[٣].

كان من نتيجة إسلام بركة واعتلائه عرش خانية مغول القبيلة الذهبية أن بدأت هذه الخانية تأخذ شكلها ووضعها كدولة إسلامية، وبخاصة بعد أن بنى لها عاصمة إسلامية هي سراي الجديدة، التي سميت فيما بعد باسم سراي بركة والتي كانت مجاورة لسراي القديمة التي بناها أخوه باطو. وتقع المدينتان على الضفة الشرقية لنهر الفولغا قرب بحر قزوين. وربما كانت المدينتان مدينة واحدة، بدأ باطو في بنائها وأكمل بركة هذا البناء[٤].

والواقع أن بركة بذل جهداً كبيراً في الدفاع عن الإسلام ونَشْر الثقافة الإسلامية بين قومه من المغول والترك. فتتحدث المصادر أنه عادى ابن عمه هولاكو، إيلخان إيران، الذي كاد يقضي على الإسلام كدين في أراضي إيلخانيته، كما كرّس حياته لنشر الإسلام بين قومه من المغول في بلاد القبجاق

---

(١) ابن عربشاه، أبو العباس شهاب الدين أحمد: عجائب المقدور في نوائب تيمور: ص١٣٥.

(٢) القلقشندي: جـ٤ ص٤٧١. الرمزي: جـ١ ص٣٩٧ ـ ٤٠١. Howorth: Prt II, Div.I, p105.

(٣) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون جـ٥ ص٥٣٤. وقد ذكر (سيف الدين) بدل (شمس الدين).

(٤) ابن عربشاه: ص١٣٩. بارتولد: ص١٨٨. عبد الحليم: ص١١٢، ١١٣.

أو بين الشعوب الأخرى الخاضعة لسلطانه، فأسلمت زوجته جججك خاتون واتخذت لها مسجداً متنقلاً من الخيم تنصبه حيث نزلت لتؤدي الصلاة في وقتها، كما اعتنق عساكره الإسلام، وكان الفارس يحمل معه سجادة للصلاة حتى إذا حان وقتها أدّاها، وامتنعوا عن تعاطي المسكرات.

وأخذ بركة يستقدم العلماء والفقهاء ويبني المدارس والمساجد لنشر الثقافة الإسلامية بين شعبه، وقد وصفه المؤرخون، من أجل هذا، بأنه كان من «أعظم ملوك التتار»، ونُسبت إليه بلاد القبجاق، فصارت تُعرف بعد وفاته باسم دشت بركة، بدلاً من دشت القبجاق، كما سُمي مغول القبجاق، بعد وفاته بحوالي قرن، باسم تتار بركة، وسُميت العاصمة باسم سراي بركة كما ذكرنا[1]، لكن الإسلام لم يتجذَّر في البيئة المغولية إلا بعد وفاته بنصف قرن من الزمان.

وكما حصل في إيران، ساعد انتشار الإسلام على دمج المغول والأتراك بصورة نهائية، والواضح أن العنصر المغولي كان أضعف تأثيراً، ففي السجلات وعلى السكة كانت اللغة التركية هي الغالبة وليست المغولية، فعملية امتزاج الطبقة الحاكمة المغولية بالقبائل التركية، التي جلبها المغول معهم، حصلت، بالإضافة إلى الامتزاج مع السكان الأتراك الأصليين في سهل القبجاق، كل ذلك ليكوِّن الأمة المغولية الحديثة، ويشمل هذا بلغار القولغا، وأعداداً كبيرة من قبائل القولغا الفنلندية، وسرعان ما بدأت هذه العناصر في التأثير على النمط «الفيزيولوجي» لتركيب الأمة المغولية[2].

العلاقة مع الروس

لم يعمد المغول، بعد سيطرتهم على روسيا، إلى تغيير الأوضاع الداخلية للبلاد بشكل مباشر، وظلت القوانين والأعراف الروسية هي السائدة، كما أنهم لم يُغيِّروا حكام الولايات طالما قدَّموا لهم فروض الولاء والطاعة، وظل ملَّاك الأراضي على وضعهم الحقوقي لأن المغول، كشعب بدوي، فضَّلوا التمركز في السهول الشرقية والجنوبية الواسعة[3].

حضر الأمراء الروس احتفالات تنصيب بركة، فقد ذهب كل من الأمير

(١) ابن كثير: جـ١٣ ص٢٤٩. الرمزي: جـ١ ص٣٩٩ ـ ٤٠٢ Howorth: Prt II, Div.I, p125.
(٢) شبولر: ص٩٦.
(٣) عمران: ص١٨٥ Von Hammer: Golden Horde: p151.

الكبير ألكسندر نيفسكي مع أخيه أندريه حاكم سوزدال، وبوريس حاكم روستوف، إلى سراي لتهنئة الخان الجديد، وتقديم الهدايا، وانتهزوا فرصة وجودهم في العاصمة المغولية، فأجروا مباحثات مع بركة بشأن الحد من تعسف جامعي الضرائب المغول. والمعروف أن الخان الأعظم كيوك كان يرسل الجباة إلى روسيا لجمع الضرائب المفروضة على الروس، ويبدو أن هؤلاء كانوا يشتطون في تحصيلها، كما أنهم كانوا يستعبدون واحداً من كل ثلاثة أولاد، بالإضافة إلى كل الأشخاص العازبين الذين يعجزون عن دفعها، والجدير بالذكر أن ضريبة الرؤوس كانت تُفرض على الشخص من دون تمييز بين الغني والفقير والشاب والعجوز، ولا يُشترط أن تُدفع نقداً وإنما كانت تُدفع عيناً في بعض الأحيان، ومقدارها خمسة أردية من جلد دب أبيض أو ثعلب أسود[1]. وعندما اعتلى منكو عرش خانية المغول العظام، أرسل بيدجي بياركو إلى روسيا لإحصاء السكان وتحديد مقدار الضريبة على الرؤوس، وهكذا بدأ استنزاف الشعب الروسي على يد المغول من واقع فرض وتحصيل الضرائب التي أرهقت كافة الطبقات الاجتماعية.

وفي عام (٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م) تغيَّرت الأوضاع الداخلية في الامبراطورية المغولية من واقع انفصال القبيلة الذهبية وإيلخانية إيران والمغول الجغتائيين في وسط آسيا عن منغوليا. واستقل باطو ببلاد القبجاق، وانتهج منحى مختلفاً في سياسته الخارجية. واقتضت هذه السياسة أن يعيد تنظيم دولته وفقاً لذلك، وكان من ضمن بنود هذا التنظيم إعادة النظر بتحديد قيمة الضريبة المفروضة على الشعب الروسي.

كانت فاتحة تنفيذ هذه الخطوة إجراء إحصاء في ولاية نوفغورود الشمالية كي يتم من خلاله تحديد قيمة الضريبة المطلوبة، والمعروف أن هذه الولاية الغنية بمواردها كانت مستقلة على عكس ولايات الجنوب التي خضعت لحكم المغول المباشر، ولم تُفرض عليها الضريبة من قبل؛ الأمر الذي دفع الأمير الكبير ألكسندر نيفسكي وأخوه أندريه، حاكم سوزدال، وبوريس أمير روستوف، بالذهاب إلى سراي للتباحث مع بركة بشأن هذه القضية. ويبدو أن الخان أصرَّ على موقفه، وأعلم الأمراء بوجوب استقبال السفراء المغول

(١) عمران: ص١٨٥ Von Hammer: Golden Horde: P151.

المكلفين بإجراء الإحصاء وتسهيل مهمتهم[١].

واجهت هذه الخطوة معارضة من بعض القوى السياسية في نوفغورود، وبخاصة من باسيل بن ألكسندر نيفسكي، في حين أيّدها هذا الأخير من واقع عدم قدرة الإمارة على مقاومة قوة المغول الطاغية، وطرد المعارضون سفراء المغول في خطوة تصعيدية.

كان على ألكسندر نيفسكي أن يختار بين اتجاهين متعارضين، فإما أن يواجه قوى التمرد أو يواجه قوة المغول، ويبدو أنه اختار الاتجاه الأول، فقبض على ابنه باسيل وأعدمه وقتل أنصاره وكل من سانده. وعلى الرغم من ذلك فقد بقيت نار الثورة كامنة في نفوس الشعب، فتجمّع الناس في ساحة كنيسة سانت صوفيا وأعلنوا الثورة على الحكم المغولي، مفضّلين الموت على الاستعباد، وحتى لا يواجه شعبه بالقوة، غادر ألكسندر نيفسكي المدينة بصحبة قواته، وتركها لتواجه مصيرها[٢].

استطاع عمّال المغول، بعد هذه التطورات السياسية، أن يدخلوا المدينة، وساعدهم أنصار ألكسندر نيفسكي في التنقل من منزل إلى منزل لإحصاء السكان وتسجيلهم في سجلات خاص،ة. وتكرَّر المشهد في المدن الأخرى التابعة للولاية[٣].

ويبدو أن الهدوء النسبي الذي شهدته المدن الروسية عقب ذلك، كان مؤقتاً ومرحلياً، ولم يلبث الوضع أن انفجر في عام (٦٦٠هـ/ ١٢٦٢م)، فقد ثار سكان مدن فلاديمير وسوزدال وروستوف ضد جامعي الضرائب من المغول، وقبض سكان مدينة ياروسلاف على أحدهم ويُدعى زوزيموس، وهو راهب نصراني اعتنق الإسلام، وقتلوه ورموا بجثته للكلاب، الأمر الذي أغضب بركة، ودفع ألكسندر نيفسكي إلى الذهاب إلى سراي لمعالجة الموقف المتفجر وتجنيب بلاده ويلات الانتقام، وإذ قدَّم اعتذاراً للخان وأقنعه بأن سبب الحادث يعود إلى التعصب الديني وليس التمرد على السلطات المغولية؛ فقد أعفاه بركة من الغرامات المطلوبة[٤]، وبذلك أنقذ هذا الأمير إمارته من انتقام

(١) Karamazin: IV, p91. (٢) عمران: ص١٨٤.

(٣) Karamazin: IV, p94.

(٤) عمران: ص١٨٤. Howorth: Prt II, Div.I, p107.

المغول، واستعد للعودة إلى بلاده. لكن حدث أثناء عودته أن مرض وتدهورت صحته، وتوفي في مدينة غورودتيز في (١١ محرم ٦٦٢هـ/ ١٤ تشرين الثاني ١٢٦٣م)[١].

والواقع أن ألكسندر نيفسكي جنّب بلاده ويلات الحروب بفضل سياسته المرنة، وحقّق لها الأمن والهدوء، وحافظ على هيبتها أمام العواصف وغابت بوفاته شمس روسيا.

المغول في أوروبا

دخل المغول، كعنصر مؤثّر، في سياسات الممالك الأوروبية الشرقية حيث تركوا بصمات واضحة ولبعض الوقت في تاريخ هذه الممالك في القرن الثالث عشر الميلادي، فقد استغلوا النزاعات الداخلية فيما بينها ليتوسعوا في المنطقة وبخاصة في بولندا المجاورة لأراضيهم، والتصدي للغارات الأوروبية على أراضيهم. ويبدو أن الحملات التي وجّهوها إلى بولندا وغاليسيا لم تكن على جانب كبير من الأهمية، وقام بها حكّام المناطق الحدودية من دون أن تدعو الحاجة إلى حضور بركة بنفسه إلى ميدان القتال.

كان دانيال ملك غاليسيا على علاقة جيدة مع البابا إسكندر الرابع (٦٥٢ - ٦٥٩هـ/ ١٢٥٤ - ١٢٦١م) لكنها ما لبثت أن تدهورت بفعل مهاجمة الملك الغاليسي جيرانه النصارى، وهدّده البابا بالحرمان. وواجه هذا الملك في الوقت نفسه ضغطاً مغولياً على أراضيه فاضطر إلى تبريد إحدى الجبهتين، وفضّل التفاهم مع المغول، الأمر الذي أتاح له اجتياح بوهيميا الغربية بالتحالف مع المجر، فأحرق ضاحية تروبو، وهاجم اللتوانيين في الشمال بزعامة مندوك، وأقنع البولنديين والألمان في ريغا بالتحالف معه، فاحتلوا غرادونو وبعض المدن الأخرى. ووجد مندوك نفسه عاجزاً عن التصدي لهجمات الحلفاء فطلب المساعدة من البابا الذي منحه لقب ملك وشجّعه على حرب دانيال، واحتل رومان بن دانيال، في هذه الحرب، مدن نوفوغرودوك وسلونين وفولكوفيسك[٢].

اغتر دانيال بهذا النجاح الذي حققه على الجبهة الأوروبية فنقل نشاطه إلى الجبهة الشرقية لمحاربة المغول الذين أغاروا على بولندا وغاليسيا، وسانده

(١) Howorth Prt II, Div.I, P107. (٢) Karamazin: IV, pp98, 99.

حلفاؤه البولنديون والمجريون. والمعروف أن المغول دخلوا بودوليا السفلى واحتلوا باكوتا قبل أن يطردهم ليو بن دانيال منها. وقد شجّع هذا الانتصار الملك الغاليسي فاحتل المدن الواقعة بين نهر البوغ وتاريف الخاضعة لحكم المغول، وحصّنها وحاول حصار كييف[١].

لم يتأخّر الرد المغولي، فقاد بوروندای، أحد القادة الذين صحبوا باطو في حملاته ضد المجر، حملة عسكرية اصطدمت بدانيال وأجبرته على طلب الصلح، فأرسل أخاه فازيلكو وابنه وأسقف كولم، المدعو جون، إلى القائد المغولي، يحملون الهدايا، فطلب القائد المغولي أن يقوم دانيال بتدمير المدن التي بناها حديثاً، ومنها دانيلوف وستوباك وكريمنتز ولوتسك ولوف، فدمّرها وأحرق تحصينات فلاديمير في ولاية ڤولهينيا[٢].

خشي الأمراء البولنديون من طوفان القوات المغولية الذي راح يهدّد بلادهم فاستنجدوا بالبابا إسكندر الرابع، فأصدر هذا منشوراً في (٢٢ جمادى الآخرة ٦٥٦هـ/ ٢٦ حزيران ١٢٥٨م) طلب بموجبه من الدومينيكان في ألمانيا وبوهيميا ومورافيا وبوميرانيا بتجهيز حملة صليبية ضد المغول، كما أصدر في (١٩ ذي الحجة/ ١٧ كانون الأول) منشوراً مماثلاً حثّ بموجبه الفرسان التيوتون في ليتوانيا على الاشتراك بالحملة[٣].

والواقع أن الحملة الصليبية لم تؤد إلى نتيجة إيجابية بفعل نشوب النزاعات الداخلية بين المشتركين فيها. وهاجم في هذه الأثناء جيش مغولي، بقيادة نوغاي وتلابوقا، بولندا، وانضمت إليه قوة غاليسية بقيادة ابني دانيال ليو ورومان وأخيه فازيلكو، وحاصر هذا الجيش مدينة لوبلن، ثم عبر نهر الفستولا ودمّر تحصينات زافيكوست وليسن، واقترب من مدينة ساندومير، فعرض المغول على قائد حاميتها بطرس أوكريمبن المحافظة على أرواح السكان مقابل الاستسلام، فوافق على عرضهم، إلا أنهم نكثوا بوعدهم، وارتكبوا مذبحة مروعة بحقهم عندما دخلوا المدينة في (٦ صفر ٦٥٧هـ/ ٢ شباط ١٢٥٩م)، كما هاجموا مدينة كراكوف ودمّروها[٤].

(١) Howorth: Prt II, Div.I, p108.

(٢) Karamazin: IV, pp100, 101.

(٣) Howorth: Prt II, Div.I, p109.

(٤) Ibid: pp109, 110. Von Hammer, pp154, 155.

نتيجة لهذا التطور العسكري السلبي، دعا أساقفة بولندا إلى تشكيل حلف صليبي آخر للتصدي للزحف المغولي، وأجبروا الفرسان التيوتون الذين كانوا يحاربون اللتوانيين والبروسيين على الاشتراك فيه.

اختار المغول شتاء (٦٦٢هـ/ ١٢٦٣ ـ ١٢٦٤م) لبدء عملياتهم العسكرية حيث الأنهار مجمدة ويسهل العبور عليها، فاجتاحوا بولندا، غير أنهم تعرّضوا للهزيمة في معركة بوتاستان على يد بطرس أمير كراكوف[١].

عند هذه المرحلة، وصلت قوة مغول القبيلة الذهبية إلى الذروة في صراعها مع أوروبا، حيث سيبدأ بعد ذلك التراجع والانحدار في ظل ظهور علامات الضعف على جسم الدولة بفعل النزاعات الأسرية بعد وفاة بركة.

العلاقة مع المغول العظام

لم يرَ بركة مانعاً من عدم الإخلاص للخان الأعظم منكو طيلة حياته، على الرغم من المرارة التي شعر بها، لأن منكو جعل بلاد القوقاز وما جاورها، وهي أصلاً تابعة لمغول القبيلة الذهبية، من نصيب هولاكو. نستنتج ذلك من السكة المضروبة في عهده، وقد ضُرب على أحد الوجهين عبارة «منكو الخان الأعظم» وعلى الوجه الآخر عبارة «نقود البلغاري»، والمعروف أن البلغار كانت آنذاك المكان الوحيد لضرب النقود في خانية القبيلة الذهبية.

وعندما توفي منكو في عام (٦٥٧هـ/ ١٢٥٩م) اندلعت الحرب الأهلية في الامبراطورية المغولية. فالنزاع الذي جرى على الساحة بين الأخوين قوبيلاي وأريق بوقا، والذي استمر أربعة أعوام (٦٥٨ ـ ٦٦٢هـ/ ١٢٦٠ ـ ١٢٦٤م)، قسّم المغول. فقد ساند بركة أريق بوقا واعترف به وارثاً شرعياً لعرش الامبراطورية المغولية، في حين ساند هولاكو قوبيلاي، وعندما انتصر هذا الأخير وأضحى خاناً أعظم، وقع بركة في عزلة سياسية تامة، فقطع جميع علاقاته مع عاصمة الخان الأعظم، وهي بكين، واستقل عن المغول العظام، وقد نتج عن هذه الحالة ما يلي:

ـ اختفاء اسم الخان الأعظم من على قطع النقود المسكوكة في منطقة القبيلة الذهبية منذ عام (٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م)، ولهذه الظاهرة أهميتها الخاصة لأن

(١) Von Hammer p172

العملة في تلك الأيام كانت رمزاً لوجود السلطة الشرعية[1].

- ضُربت نقود في البلغار تحمل اسم أريق بوقا.
- لم تحمل قوائم أسماء خانات مغول القبيلة الذهبية، في يوان ـ شي، اسم بركة.
- بروز عداء شديد ومستحكم بين بركة وهولاكو نصير قوبيلاي.
- شكّلت منطقة ما وراء النهر إسفيناً حاجزاً بين دولتي المغول العظام في الصين وإيلخانية إيران الصديقتين، الأمر الذي أدّى إلى عزل القبيلة الذهبية، فأضحت خارج المجتمعات المغولية بعامة والمغول الإيلخانيين بخاصة[2].

العلاقة مع المماليك

قيام دولة المماليك

اضطر الأمراء الأيوبيون إلى الاستعانة بالمماليك الأتراك في ظل النزاعات والفوضى الأسرية التي عمَّت العلاقات بين مختلف المناطق التي يحكمها هؤلاء في بلاد الشام ومصر، فأكثروا من شرائهم مكوِّنين منهم عصبة تشدُّ أزرهم، وكانت مصادرهم آنذاك بلاد ما وراء النهر. وشيَّد لهم الصالح نجم الدين أيوب قلعة خاصة في جزيرة الروضة بمصر وأسكنهم فيها، ومن أجل ذلك عُرف هؤلاء المماليك باسم المماليك البحرية[3].

وسرعان ما أضحى للمماليك من النفوذ ما كان له تأثير قوي في مجرى الأحداث التي تعرَّضت لها بلاد الشام بعامة ومصر بخاصة. فتصدُّوا للحملة الصليبية التي هاجمت مصر بقيادة الملك الفرنسي لويس التاسع في عام (٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م)، كما أضحوا أصحاب الحل والعقد في مصر بعد أن قتلوا الملك الأيوبي توران شاه بن الصالح أيوب في (محرم ٦٤٨هـ/ أيار ١٢٥٠م) بسبب خشيتهم منه[4]، واضعين بذلك نهاية للدولة الأيوبية.

واختار المماليك شجر الدر زوجة الصالح أيوب لاعتلاء عرش السلطنة، وكانت هذه السيدة من أصل أرميني أو تركي، اشتراها الصالح أيوب، فأعتقها وتزوَّجها، لذلك فهي من ناحية الأصل والنشأة أقرب إلى المماليك، وأضحت حاكمة على

(١) شبولر: ص٥٣، ٥٤.
(٢) Howorth. Prt II, Division I, p124.
(٣) المقريزي، تقي الدين أبو العباس أحمد: السلوك لمعرفة دول الملوك: جا ص٤٤١.
(٤) المصدر نفسه: ص٤٥٨.

مصر بوصفها فئة منهم، وعدَّها المقريزي أولى سلاطين المماليك البحرية[1].

وهكذا قامت دولة المماليك البحرية في مصر لتنفخ في المسلمين روحاً جديدة، بما هيأت لهم من طاقة عسكرية هائلة مكَّنتهم من التصدي للمغول والقضاء على ما تبقّى من الصليبيين في المشرق الإسلامي.

تزوَّجت شجر الدر معز الدين أيبك، فتخلص من منافسة أقطاي، ثم وقع تحت ضربات زوجته بفعل تفاقم الخلافات الأسرية، فتخلَّصت منه في (ربيع الأول ٦٥٥هـ/ نيسان ١٢٥٧م)، فبايع المماليك المعزية بعد مقتله ابنه نور الدين علي، وعمره خمس عشرة سنة. وسرعان ما ظهر التنافس بين كبار الأمراء، برز بنتيجته الأمير سيف الدين قطز نائب السلطنة، الذي أخذ على عاتقه توحيد صفوف المماليك من مشكلة الحكم. ونتيجة لازدياد الخطر المغولي، وفي ظل الخطر الأيوبي المتجدد، وجد قطز الفرصة سانحة لإزاحة الصبي الحاكم واعتلاء العرش، فقبض على المنصور نور الدين علي وسجنه، وتولى عرش السلطنة[2] في عام (٦٥٧هـ/ ١٢٥٩م).

واجه قطز (٦٥٧ ـ ٦٥٨هـ/ ١٢٥٩ ـ ١٢٦٠م) عدواً شديد المراس، وأعني به المغول، فوحَّد المسلمين بمختلف فئاتهم، وتصدّى للزحف المغولي عند عين جالوت، بين بيسان ونابلس، في (رمضان ٦٥٨هـ/ أيلول ١٢٦٠م) وأوقفه، بعد انتصار رائع. واستغل الأمير بيبرس، قائد مقدمته، مركزه المتقدم فطلب من قطز أن يقطعه حلب جزاء ما حقَّق من نصر، حتى إذا خاب رجاؤه انقلب عليه وقتله أثناء عودته إلى مصر، وتبوَّأ عرش السلطنة المملوكية[3].

خصائص العلاقة بين المغول والمماليك

ترتَّب على اعتناق بركة الدين الإسلامي، وانتشار هذا الدين في المجتمع المغولي القبجاقي، نتيجتان:

الأولى: ازدياد التقارب بين مغول القبيلة الذهبية والقوى الإسلامية في المشرق، وبخاصة دولة المماليك البحرية الناشئة.

الثانية: ازدياد العداء بين مغول القبيلة الذهبية وبقية طوائف المغول الوثنيين، وبخاصة مغول إيران.

(١) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك: جا ص٤٥٩.
(٢) المصدر نفسه: ص٥٠٧.
(٣) المصدر نفسه: ص٥١٩، ٥٢٠.

وسعى السلطان المملوكي، الظاهر بيبرس (٦٥٨ ـ ٦٧٩هـ/ ١٢٦٠ ـ ١٢٧٧م) إلى الاستفادة من هذا الوضع الناشئ بالتحالف مع بركة زعيم القبيلة الذهبية. وكان من الطبيعي أن يلاقي تجاوباً من الزعيم المغولي المسلم، إذ إن اعتناق هؤلاء المغول الديانة الإسلامية، جعلت التحالف بين الطرفين ضرورة سياسية لمواجهة العدو المشترك المتمثل بهولاكو وأسرته.

ووصل في عام (٦٦١هـ/ ١٢٦٣م) رسل بركة إلى مصر يحملون رسالة للظاهر بيبرس، جاء فيها: «فليعلم السلطان أنني حاربت هولاكو الذي من لحمي ودمي، لإعلاء كلمة الله العليا تعصباً لدين الإسلام، لأنه باغي، والباغي كافر بالله ورسوله...»(١). ويعرض عليه إرسال قوة عسكرية إلى معابر الفرات لقطع الطريق على هولاكو.

وردَّ بيبرس على رسالة بركة برسالة طويلة جمع فيها «من الترغيب في الجهاد، والاستماتة، والإغراء، والتعاظم عليه، وإظهار الميل إليه، ووصف كثرة جنود الديار المصرية، وما هي عليه...»(٢)، وأمر بالدعاء لبركة بعد الدعاء للخليفة والسلطان على منابر مكة والمدينة وبيت المقدس والقاهرة، وحمّل رسله الهدايا، كان من بينها زرافة(٣).

استُقبل رسل بيبرس في البلاط المغولي بالحفاوة، وذكروا لدى عودتهم مدى اتساع انتشار الإسلام بين مغول القبيلة الذهبية، بحيث أن لكل أمير وأميرة في البلاط إماماً ومؤذناً خاصاً، وأن الاطفال يُحفَّظون القرآن في المدارس.

وأثمرت هذه العلاقة الطيبة عن عقد معاهدة بين الطرفين موجهة ضد العدو المشترك، وقد استفاد بيبرس منها فائدتين:

الأولى: أمَّن استمرار تدفُّق المماليك من بلاد القبجاق ليزيد من عدد جنوده.

الثانية: إلهاء هولاكو بقتال بركة على حدود القوقاز وصرفه عن التفكير في توجيه حملات إلى بلاد الشام ليثأر لهزيمة جيشه في عين جالوت.

ويبدو أن دائرة التحالف لم تقف عند هذا الحد، وسرعان ما انضم

(١) النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب: نهاية الأرب في فنون الأدب: جـ٣٠ ص٨٧.
العيني، بدر الدين محمود: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان: جـ١ ص٣٦١.
(٢) ابن عبد الظاهر، محيي الدين: الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر: ص١٧٢.
(٣) المصدر نفسه.

الامبراطور البيزنطي ميخائيل الثامن باليولوغوس (٦٥٧ ـ ٦٨١هـ/ ١٢٥٩ ـ ١٢٨٢م) إلى هذا التحالف الذي أضحى بعد ذلك رباعياً بانضمام عز الدين كيكاوس أحد سلطاني سلاجقة الروم في الأناضول، والذي سبق أن حرمه من بلاده ما جرى من تحالف بين المغول وشقيقه قلج أرسلان الرابع. وقد أمل بركة أن يكسب نفوذاً في بلاد الأناضول للاتصال بالمماليك في بلاد الشام، وللحؤول دون وصول إيلخانات إيران إلى البحر والاتصال بدول غربي أوروبا(١).

العلاقة مع إيلخانية إيران

اتسمت العلاقة بين بركة وهولاكو بالعدائية، وكان لذلك علاقة بمدى ما شجر بين دولتيهما من نزاع حول امتلاك الأطراف المتاخمة لبحر قزوين وأذربيجان، وكان من المتوقع أن تكون من أملاك أبناء جوجي، استناداً إلى التقسيم الذي نفَّذه جنكيز خان. وعندما أرسل منكو خان أخاه هولاكو، على رأس حملة إلى إيران، كوّن هناك مملكة مستقلة هي إيلخانية إيران، ضمّت منطقة أذربيجان وما جاورها، ورفض هولاكو التنازل عنها والاعتراف بحقوق أولاد جوجي فيها، ما دفع هؤلاء إلى انتزاع حقوقهم بالقوة.

وعندما انتهى هولاكو من الاستيلاء على بقية إيران والمشرق الإسلامي، وجّه اهتمامه للقضاء على أعدائه ومناوئيه، وفي مقدمتهم ابن عمه بركة خان، وكان هذا قد اغتمّ عندما انتصر خصمه على ممالك الشرق الإسلامي واستولى على العراق ودمّر بغداد وقتل الخليفة العباسي من دون أن يستشير أحداً من أمراء المغول، وقرّر أن ينتقم من هولاكو ويطالبه بدماء الأبرياء، متى سنحت له الفرصة(٢).

وحتى يقوّي موقفه، تقرّب بركة من المماليك، الذين كانوا يمثلون آنذاك القوة الإسلامية الرئيسة في الشرق الأدنى، ورحّب الظاهر بيبرس بالتحالف ضد عدوهما المشترك، الذي تمثّل في أسرة هولاكو في إيران، على نحو ما ذكرنا.

وأعدَّ بركة جيشاً تعداده ثلاثين ألف مقاتل، وسار على رأسه قاصداً إيران

(١) Vasiliev, A.A: History of the Byzantine Empire, p601.
(٢) الهمذاني، رشيد الدين فضل الله بن عماد الدولة: جامع التواريخ، تاريخ المغول في إيران: ص٣٩٢.

وعلى مقدمته قريبه نوغاي الذي هو قائد جيشه، فعبر دربند[١] القوقاز الذي يشكل الحدود الفاصلة بين الدولتين، ثم ذهب إلى شروان[٢]. وعندما علم هولاكو بذلك قدم بجيشه إلى شماخي[٣] في (شوال ٦٦٠هـ/آب ١٢٦٢م) وعلى مقدمته شيرامون نوين، واصطدم بجيش بركة بقيادة نوغاي وهزمه، وتابع زحفه إلى دربند، وأرسل ابنه أباقا على رأس جيش كبير ليغير على أراضي القبيلة الذهبية وينهب منازل السكان، لكن بركة الذي أعاد تنظيم صفوف قواته، انقضّ على جيش أباقا عند نهر ترك وانتصر عليه في (جمادى الأولى ٦٦١هـ/آذار ١٢٦٣م). وعندما حاول عسكر أباقا عبور النهر المتجمد انكسر الجليد وغرق أكثرهم، وهرب أباقا بشرذمة قليلة ووصل إلى شاران، وكان والده بانتظاره ثم عادوا جميعاً إلى بلادهم مسرعين، واغتم هولاكو من هذه النتيجة السلبية، وأسرع بالاستعداد لمحو آثارها[٤].

وما جرى آنذاك من تنصيبه والياً على الممالك الواقعة بين شاطئ نهر جيحون وبين بلاد الشام ومصر من قِبل أخيه قوبيلاي، الذي اختير خاناً أعظم للمغول، وإمداده بثلاثين ألف مقاتل؛ أتاح له أن يهاجم أراضي عدوه وهو مطمئن، والواقع أنه لم يجر صدام بين الطرفين لأن بركة خشي من الهزيمة فتجنَّب الاصطدام به[٥].

وفاة بركة

توفي بركة في (ربيع الآخر ٦٦٥هـ/كانون الثاني ١٢٦٧م) وهو يحارب أباقا، وترك ولدين أحدهما له أربعة أولاد والثاني ولد واحد، ولكن أيّاً منهم لم يخلفه على العرش، وكانوا يعيشون في مدينة ساكسين[٦].

---

(١) دربند: هو باب الأبواب، دربند شروان: وهو الممر.

(٢) شروان: مدينة من نواحي باب الأبواب. الحموي: جـ٣ ص٣٣٩.

(٣) شماخي: مدينة عامرة وهي قصبة بلاد شروان في طرف آرّان، تعد من أعمال باب الأبواب. المصدر نفسه: ص٣٦١.

(٤) ابن كثير: جـ١٣ ص٢٣٤. المقريزي، تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي: السلوك لمعرفة دول الملوك: جـ١ ص٥٤٤. Howorth: II, Division I, p116. Von Hammer: p167

(٥) الهمذاني: جامع التواريخ، تاريخ هولاكو: م٢ جـ١ ص٣٣٦.

(٦) ابن كثير: جـ١٣ ص٢٤٩.

منكو تيمور

(٦٦٥ ـ ٦٧٩هـ/١٢٦٧ ـ ١٢٨٠م)

اعتلاء منكو تيمور عرش خانية القبيلة الذهبية

خلف بركةَ منكو تيمور بن طغان بن باطو، وقد رشَّحه الخان الأعظم قوبيلاي لهذا المنصب، ووافق أركان الدولة على توليته. والواقع أنه كان مرشحاً للسلطنة في حياة بركة، وينحدر هذ الخان من ناحيتي الأب والأم إلى جنكيز خان[١].

النزعات الإسلامية في خانية القبيلة الذهبية

يبدو أن منكو تيمور لم يكن مسلماً، نستنتج ذلك من صمت المصادر عن ذكر أي شيء يتعلق بإسلامه، كما خلت السكة التي ضربها من أي شعارات إسلامية، وعلى الرغم من ذلك، فإنه لم يُعادِ الإسلام والمسلمين، ولم يقف عائقاً أمام انتشار تعاليم محمد ﷺ، كما أنه واصل سياسة بركة بالتحالف مع المماليك. وكانت النصرانية النسطورية قد خسرت كل نفوذ لها بعد تحول بركة إلى الإسلام، على الرغم من تكثيف المبشرين النصارى نشاطهم في تلك البلاد وبخاصة في بلاد القرم وحوض الڤولغا، مستغلين سياسة التسامح التقليدية للمغول نحو الأديان، والمعروف أن بركة سمح للرهبان الفرنسيسكان وتجّار جنوة وغيرهم، بالظهور في بلاده منذ عام (٦٥٦هـ/١٢٥٨م)، كما سمح لهم ببناء بعض الكنائس الكاثوليكية في كفّا وتانا[٢] وسراي، واستخدم الأساقفة كسفراء بينه وبين بيزنطية. وقد رأى ابن بطوطة بعض هذه المؤسسات الدينية النصرانية في شبه جزيرة القرم أثناء زيارته لها في عام (٧٢٦هـ/

---

(١) ابن خلدون: جـ٥ ص٥٣٥.

(٢) تانا: هي آزاق أو آزوف.

١٣٢٥م)[١]، ويبدو أن مغول القبيلة الذهبية اتبعوا هذه السياسة الدينية لاستقطاب وجذب التجار الأوروبيين، بفعل أن التجارة كانت تمثل العمود الفقري لاقتصاد بلادهم[٢]، ولم تقم للبوذية قائمة في هذه الأنحاء.

وهكذا كانت خانية مغول القبيلة الذهبية هادئة لا تزعجها أية اضطرابات دينية، وتمَّ تحويل المغول إلى الدين الإسلامي بسلام، ولكن الديانة الشامانية استمرت مترسِّبة هنا أكثر مما كانت في إيران، ولكنها لم تقم بأية مقاومة للإسلام قبل أن يقضي عليها الدين الإسلامي وتندثر نهائياً[٣].

لقد تبادل منكو تيمور الرسل والرسائل مع سلاطين مصر، بشأن استمرار التحالف والتنسيق ضد أباقا، وقد أثّرت هذه العلاقة الوطيدة والمنتظمة في:

ـ نقل التأثيرات الثقافية الإسلامية من مصر، فضلاً عن التأثيرات القادمة من وسط آسيا من بخارى وسمرقند، وذلك في مضمار الدين والعقائد والفنون والطب، فشُيِّدت المساجد والأبنية والقصور في شبه جزيرة القرم على يد المعماريين المصريين، وزُيِّنت قصور سراي بالفسيفساء ورسوم الجدران، وظهرت البيوت الضخمة المبنية بالحجر والمزينة بالزخارف، والقبور والأروقة، وأنظمة التدفئة المركزية من خلال الأرضيات المبلطة بالخشب الصلب، وأقيمت السدود في سراي لتأمين المياه للأقنية والطاقة المائية المستعملة في المصانع[٤].

ـ أثمرت سياسة التعاون بين الدولتين في اعتناق بعض أمراء المغول الدين الإسلامي، كان من بينهم بيسو نوغاي، الذي أرسل رسالة إلى السلطان قلاوون (٦٧٨ ـ ٦٨٩هـ/ ١٢٧٩ ـ ١٢٩٠م) يخبره فيها باعتناقه الإسلام، وأنهم، هو وقومه، مخلصون للسلطان المملوكي ويأتمرون بأمره، وهم طوع بنانه، الأمر الذي يدل على أن التحول إلى الإسلام كان ظاهرة مستمرة[٥]، هذا على الرغم من أن منكو تيمور عقد صلحاً مع مغول إيران، وسمع بقيام نشاط شاماني ونصراني ضد الإسلام، وأنه صادق الامبراطور البيزنطي ميخائيل الثامن باليولوغوس.

(١) رحلة ابن بطوطة: جا ص٣٥٦، ٣٥٧.
(٢) عبد الحليم: ص١١٨.
(٣) شبولر: ص٩٥.
(٤) المرجع نفسه: ص٩٤، ٩٥.
(٥) المقريزي: جـ٢ ص٦٧. عبد الحليم: ص١١٦.

ويبدو أن عقد الصلح مع مغول إيران جاء نتيجة هزيمته أمام أباقا، فاضطر لمسالمته، أو أنه تعرَّض لضغط الخان الأعظم قوبيلاي للإقدام على هذه الخطوة، كما أنه اضطر، تحت ضغط الظروف السياسية، إلى انتهاج سياسة سمحت للمبشرين النصارى بممارسة نشاطهم في بلاده. أما تفاهمه مع الامبراطور البيزنطي، فقد أملاه القتال الذي جرى بينهما في عام (٦٦٨هـ/ ١٢٨٩م)، بعد زواج قائده بيسو نوغاي من ماريا ابنة الامبراطور، وكان لهذه الصداقة أثرها وبخاصة إذا علمنا أن هذا القائد كان مشكوكاً في إسلامه، إذ كان يتظاهر بالإسلام ويُخفي عقيدته الشامانية التي كان يدين بها[١].

ـ صاحَبَ العلاقة السياسية الطيبة مع مصر علاقة تجارية، بالإضافة إلى التآلف الثقافي، فكانت ترد من مصر البضائع التجارية، مثل المنسوجات الناعمة الجميلة، والفواكه المختارة، والعطور النادرة، وحتى الحيوانات الغريبة وما شابهها، وكان السفراء المغول يجلبونها عند عودتهم كهدايا لسيدهم ولحاشيته وبطانته. وقد أمدَّت قاعدة الڤولغا وسواحل البحر الأسود مصر بالعبيد المماليك، أي بالجنود، مقابل إرسال مصر الصنَّاع والحرفيين وعلماء الدين الذين كان لنشاطهم أثر بالغ في تطور المغول في روسيا.

وهكذا اكتسبت المعالم الحضارية على نهر الڤولغا مظاهر إسلامية آتية من حوض البحر الأبيض المتوسط بخاصة، وتوطدت قبضة الثقافة الإسلامية على الشعوب المغولية على ضفاف الڤولغا.

سياسة منكو تيمور الخارجية

استمرت العلاقات الجيدة بين مغول القبيلة الذهبية ودولة المماليك في مصر. ففي عام (٦٦٦هـ/ ١٢٦٧م) أرسل السلطان المملوكي الظاهر بيبرس رسالة إلى الخان منكو تيمور يعزيه بوفاة بركة، ويحثه على حرب أباقا وتوحيد الجهود لمواجهة أخطار مغول إيران[٢]. وفي عام (٦٦٧هـ/ ١٢٦٩م) قدم السلطان إلى دمشق، فاستقبل رسلاً جاءته من قبل منكو تيمور والامبراطور البيزنطي وأباقا للتباحث بشأن العلاقات الثنائية[٣]. وعندما اعتلى قلاوون

(١) عبد الحليم: ص١١٦، ١١٧. Howorth: Prt II, DivI, p135. Prt II, Div II, pp1013-1015.
(٢) المقريزي: جـ٢ ص٤٧.
(٣) العيني: جـ٢ ص٣٩ ـ ٤٤. D'ohsson: III, p426.

الألفي عرش السلطنة المملوكية في عام (٦٧٨هـ/ ١٢٧٩م) أرسل في (ربيع الأول ٦٧٩هـ/ تموز ١٢٨٠م) مبعوثَيْن إلى منكو تيمور، هما شمس الدين سنقر الغتمي وسيف الدين بلبان الخاص تركي، وحمّلهما رسالة إلى الخان وهدايا له ولبعض الأمراء والخواتين، هي عبارة عن ستة عشر تعبية من الأقمشة الفاخرة والحلل الزاهرة والتحف الثمينة والقسي والجواشن والخود، كل على مقداره، وعندما وصلا إلى سراي كان منكو تيمور قد توفي وخلفه تدان منكو، فسلماه الهدايا[١].

وحافظ منكو تيمور على السياسة التقليدية لمغول القبيلة الذهبية تجاه أوروبا. والواقع أنه واجه مشكلة جديدة هي تنظيم مجال النفوذ الأوروبي التي كانت تعتمد عليه دولة القبيلة الذهبية اقتصادياً. وعندما خضعت الإمارات الروسية لسلطة المغول، لم يتدخل هؤلاء في أوضاعها الداخلية ما دامت تدفع الجزية، غير أن القائد المغولي بيسو نوغاي قام بحملة في عام (٦٥٧هـ/ ١٢٥٩م) وتوغل حتى وصل إلى غاليسيا، إلا أن هذه الحملة لم تغيِّر الأوضاع على الأرض، الأمر الذي أتاح للأمراء الروس التقاط أنفاسهم بعد حال الرعب الذي أصابهم، ويديروا شؤونهم بحرية، ولكن بشكل يتفق مع النظام الجديد، وقد نجحوا في ذلك لعدة أسباب منها[٢]:

- استمرار المغول في انتهاج سياسة عدم التدخل في شؤون الإمارات الداخلية، على الرغم من أنهم كانوا يعزلون الأمراء الذين يتأخرون في دفع الجزية، أو الذين يفتعلون المشكلات بسبب التوسع على حساب أمراء آخرين.
- عدم تدخل المغول في شؤون الحياة الدينية، الأمر الذي أتاح للكنيسة الأرثوذكسية أن تثبِّت أقدامها وتوحِّد الروس، وأصبح مطران كييف رمزاً للوحدة الروسية خلال التقلُّبات التي حدثت في هذه المرحلة. وشكَّلت الكنيسة، في تلك الظروف، العامل القادر على المحافظة على التقاليد الروسية التي شكّلت بدورها نواة النهضة الروسية في المستقبل.
- وضع التوسع المغولي، باتجاه الجنوب والجنوب الشرقي، حداً للتوسع الروسي في الاتجاه المذكور، والذي كان يطمح إليه الروس منذ القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين، لذلك وجَّه هؤلاء أنظارهم للتوسع

(١) المقريزي: جـ٢ ص١٣٤.
(٢) شبولر: ص٩١، ٩٢.

باتجاه المناطق السهلية الواقعة في الشمال والشمال الشرقي التي شكّلت جزءاً من دولة القياصرة في المستقبل.

لكن اهتمام منكو تيمور تركّز على استغلال الأمراء الروس مادياً من خلال تعيين جباة للضرائب، والاستفادة من نزاعاتهم الداخلية لتأمين مصالح بلاده في السيطرة، كما أجبرهم على التعاون العسكري في حملاته ضد الثائرين، من ذلك ما حدث في عام (٦٧٥هـ/ ١٢٧٦م) عندما طلب الخان المغولي من هؤلاء مساعدته عسكرياً ضد قبائل الأوست أو الياسيس الجبليين؛ فاستولوا في (١٤ رمضان ٦٧٦هـ/ ٨ شباط ١٢٧٨م) على مدينة تيتياكوف[١]، كما تعاون الطرفان في الهجوم على بولندا في عام (٦٧٨هـ/ ١٢٧٩م) إثر وفاة الملك بوليسلاس. فقد اجتاحت قوات مغولية روسية مشتركة مقاطعتي لوبلن وساندومير، وهاجمت غوسليك، القريبة من ساندومير، في (شوال ٦٧٨هـ/ شباط ١٢٨٠م)، وعادت محملة بالغنائم[٢].

وشكَّلت أوروبا الشرقية مجالاً حيوياً لدولة مغول القبيلة الذهبية، لذلك تدخل منكو تيمور في النزاع الذي نشب بين بلغاريا والقسطنطينية بعد عام (٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م)، فأرسل جيشاً أغار على الأراضي البيزنطية[٣] للضغط على الامبراطور البيزنطي ميخائيل الثامن، ثم اتفق الطرفان على التعاون المشترك لمواجهة ضغط الصرب وإخماد الحركات الوطنية التي بدأت بالظهور في بلغاريا. وقد ساهمت العلاقات الحسنة مع القسطنطينية إلى تطويق الإيلخانات في آسيا الصغرى، وكان الحلف الذي عقده منكو تيمور مع الجغتائيين في بلاد ما وراء النهر، موجهاً أيضاً ضد الإيلخانات، غير أن الهجمات الجغتائية على خراسان لم تؤد إلى نتيجة إيجابية.

وكانت العلاقات مع أوروبا الغربية توازي العلاقات بين أوروبا الغربية وإيران، وذلك بفضل التجار الجنويين. وابتداء من عام (٦٦٥هـ/ ١٢٦٧م) أضحى لتجار جنوة المقام الأول في البلاط المغولي، فانتهزوا هذه الفرصة ومنعوا تجار البندقية من تأسيس مراكز تجارية هناك. وهكذا تحول الساحل الجنوبي الشرقي لشبه جزيرة القوم إلى منطقة نفوذ تجارية للجنويين، وقد

(١) Karamazın: IV, p157. Von Hammer: p257.
(٢) Howorth: Prt II, Div.I, p131.
(٣) العيني: جـ٢ ص٦٢، ٦٣.

ظهرت المصانع الجنوية في كفّا بشكل متتابع وسريع، وتمتع القنصل الجنوي بنفوذ لا يقل عن نفوذ الخان المغولي في شبه جزيرة القرم، وقد مارس نوعاً من الاستقلال القضائي[١].

وتدخل منكو تيمور في النزاع الذي نشب بين براق وقايدو، حول ملكية بلاد ما وراء النهر، فساند الثاني بأن أرسل له قوة عسكرية مؤلفة من خمسين ألف جندي بقيادة عمه بركجار، غير أن الأطراف الثلاثة مالوا أخيراً إلى التفاهم واقتسموا البلاد، فنال براق ثلثي أراضي الولاية، واقتسم قايدو ومنكو تيمور القسم الثالث. غير أن هذا التفاهم لم يدم طويلاً، فقد طمع براق بضم القسم الثالث إلى أراضيه، فهاجم خراسان في عام (٦٦٨هـ/ ١٢٧٠م)، غير أنه تعرض لهزيمة منكرة، وتوفي بعد قليل من ذلك[٢].

وورث منكو تيمور العداوة التقليدية مع الإيلخانيين في إيران، فأرسل حملة عسكرية لمهاجمة المناطق الحدودية في الدربند، ومن جهته، جهّز أباقا حملة عسكرية للتصدي لقوات منكو تيمور، كما بنى سدّاً في الدربند يدعى سيبا لحماية الحدود، ثم تفاهم الطرفان لعقد الصلح، وتحسَّنت العلاقات بينهما بدليل أن منكو تيمور هنَّأ أباقا لانتصاره على براق، وأرسل إليه هدية من الطيور[٣].

وفاة منكو تيمور

توفي منكو تيمور في (ربيع الأول ٦٧٩هـ/تموز ١٢٨٠م) بسبب دمل انتشر في حلقه، فشقَّه فمات[٤].

(١) شبولر: ص٩٦.

(٢) Howorth: Prt II, Div.I, p132. D'ohsson: III, pp428-431.

(٣) Howorth: Prt II, Division I, p133. D'ohsson: III, p456.

(٤) الرمزي: ج١ ص٤٥٩.

تدان منكو

(٦٧٩ ـ ٦٨٦هـ/ ١٢٨٠ ـ ١٢٨٧م)

سياسة تدان منكو العامة

خلف منكو تيمور أخوه تدان منكو، وقد تضاءل في عهده النشاط التبشيري النصراني، بسبب النزاعات المذهبية بين النساطرة والأرثوذكس والكاثوليك من جهة، وإخلاص الخان الجديد للإسلام من جهة أخرى.

واستمرت في عهد تدان منكو العلاقات الجيدة بين مغول القبيلة الذهبية والمماليك في مصر، إذ لم يكد يتولى السلطة في سراي حتى أرسل سفارة إلى مصر، في عام (٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م)، تتكوَّن من فقيهين قبجاقيين، هما مجد الدين آتا ونور الدين آتا، وحمَّلهما كتاباً يتضمَّن إبلاغ السلطان قلاوون بأنه «أسلم وجلس على التخت وأقام شرائع الإسلام، وأنه يطلب نعتاً يسمى به، من أسماء المسلمين، وعلماً من الخليفة وعلماً من السلطان، ونقارات ليركب بذلك ويقابل أعداء الدين»، وأوصى بمساعدة أعضاء البعثة في أداء فريضة الحج[١].

اهتم السلطان المملوكي بالسفارة، وأرسل السفيرين إلى مكة لتأدية فريضة الحج، وجهَّزهما بما يحتاجان إليه، وبعد عودتهما من بلاد الحجاز، زوَّدهما بما طلب الخان، وأحسن إليهما، فعادا إلى بلادهما مفعمين بالبهجة[٢].

وحرصاً من السلطان المملوكي على نشر الدين الإسلامي في بلاد القبجاق وإقامة دعائمه، أرسل قلاوون في عام (٦٨٦هـ/ ١٢٨٧م) مساعدات مادية من أجل بناء مسجد هناك، وهي عبارة عن هدية سنية إلى الخان تحتوي على

(١) ابن عبد الظاهر، محيي الدين: تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور: ص٤٦.

(٢) المصدر نفسه.

تحف زاهرة من الأقمشة النادرة والعقاقير، أكثر مما جرت به العادة، ومبلغ ألفي دينار برسم عمارة جامع في القرم، وأرسل حجَّاراً نقّاشاً لينقش ألقاب السلطان على جدران المسجد ويكتبها بالأصباغ والأدهان(١).

انتهج تدان منكو سياسة أسلافه تجاه الإمارات الروسية، من واقع استغلال النزاعات الداخلية بينها، للمحافظة على مصالح الدولة المغولية. من ذلك، فقد ساند الأمير أندريه في صراعه مع أخيه الأمير ديمتري، وقد نجح أندريه في اعتلاء السلطة تحت ظلال الحراب المغولية. وبعد عودة القوات المغولية إلى بلادها، تفرَّق أتباعه من حوله وتعرّض لضغط أخيه، فذهب إلى سراي واجتمع بالخان وطلب منه مساعدة عسكرية. والواقع أن الدوائر الحاكمة في سراي سُرَّت بهذه الأوضاع التنافسية بين الإمارات الروسية للتدخل في شؤونها، وتُوجِّه سياساتها الخارجية. فأرسل تدان منكو قوة عسكرية دخلت مقاطعة سوزدال وانتشرت في كافة أرجائها، وهاجمت مدينة بريسلاف، وعاد أندريه إلى الحكم مجدداً بفضل المساعدة المغولية.

عند هذه المرحلة من الصراع، لجأ ديمتري إلى بلاط نوغاي لطلب المساعدة، والمعروف أن هذا القائد استطاع أن يجمع القبائل المغولية في السهوب الواقعة شمال وشمال شرقي البحر الأسود ويجعلها مملكة واحدة خاضعة له. استجاب نوغاي لطلب الأمير الروسي الذي نجح في اعتلاء السلطة في فلاديمير، واضطر تدان منكو، الذي كان يخشى سطوة نوغاي، إلى الاعتراف به حاكماً على سوزدال، وخضع له سكان نوفغورود(٢).

وانطلاقاً من إيمانه، جاهد تدان منكو ضد النصارى، فأرسل قائده نوغاي على رأس حملات عسكرية لغزو بعض البلدان الأوروبية. ففي عام (٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م) غزا المجر، بالاشتراك مع الأمير تلابوقا، وأجبرا الأمراء الغاليسيين على السير معهما إلى الحرب، غير أن الحملة انتهت بكارثة، إذ تعرّض الجيش المغولي للدمار على يد المجريين بحيث اضطر تلابوقا إلى الانسحاب مع النساء والأطفال سيراً على الأقدام(٣).

(١) المقريزي: جـ٢ ص٢٠٠.

(٢) Karamazin: IV, pp164, 165. Von Hammer. pp259, 260.

(٣) Karamazin: p181

تنازل تدان منكو عن الحكم لصالح تلابوقا

اعتزل تدان منكو الحياة السياسية في عام (٦٨٦هـ/ ١٢٨٧م)، وانقطع للعبادة والزهد ومصاحبة الدراويش والمشايخ والصالحين، وقنع باليسير من الرزق، ورشح ابن أخيه، تلابوقا بن منكو تيمور لخلافته، فوافق أركان الدولة والأسرة الحاكمة على ذلك(١).

(١) المقريزي: جـ٢ ص٢٠٠.

الفصل الثاني

تلابوقا - طقطاي - أوزبك

تلابوقا
(٦٨٦ - ٦٩٠هـ/ ١٢٨٧ - ١٢٩١م)

الأحداث السياسية في عهد تلابوقا

انغمس تلابوقا في الأحداث السياسية التي جرت في إيلخانية إيران. فعلى أثر مقتل الإيلخان أحمد تكودار واعتلاء أرغون عرش الإيلخانية تصادمت التوجهات الدينية لكل من خانية القبيلة الذهبية، وإيلخانية إيران، وبفعل الثأر للإيلخان المقتول، أرسل تلابوقا في (١٤ ربيع الآخر ٦٨٨هـ/ ٧ آيار ١٢٨٩م) حملة عسكرية مؤلفة من خمسة آلاف جندي بقيادة نماتوقتا عبرت الدربند وتخطت التحصينات الإيلخانية المقامة هناك، وقامت بأعمال السلب ونهب التجار.

كان أرغون آنذاك في شِروان، فلما علم بهذه الأحداث خرج على رأس قوة عسكرية للتصدي للجيش القبجاقي، ويبدو أن نماتوقتا تهيب الدخول في معركة مع الجيش الإيلخاني، فانسحب من المنطقة وعاد إلى بلاده[(١)].

وفي (جمادى الأولى ٦٨٩هـ/آيار ١٢٩٠م) تجدّد الغزو المغولي القبجاقي لأراضي الإيلخانية، فعبر جيش جرار، يقدر بعشرة آلاف جندي، الدربند بقيادة نماتوقتا وأباجي ومنكلي بوقا، أبناء منكو تيمور، وعندما علم أرغون بزحف الجيش القبجاقي، وكان في مراغة؛ نهض للتصدي له، ووصل إلى شِروان. وعسكر الجيشان على ضفاف نهر كاراسو الفاصل بين حدود القبجاق وإيران وجرت بينهما معركة ضاربة انتصر فيها أرغون، وتكبد القبجاقيون ثلاثمائة قتيل

(١) Howorth: Prt II, Div I p139.

وعدداً كبيراً من الأسرى[1].

وغزا تَلابوقا بولندا، بالاشتراك مع نوغاي. فهاجم مقاطعات لوبلن وماسوفيا وساندومير وسيراديا وكراكو، وفرّ لشكو، حاكم هذه البلاد، إلى المجر، غير أن نائبه جورج تغلّب على فرقة مغولية قرب ساندومير. وعندما غادر المغول البلاد خلّفوا وراءهم عدداً كبيراً من القتلى، وهي ملقاة على الأرض في الطرقات والأزقة، الأمر الذي سبَّب انتشار الأمراض التي ذهب ضحيتها عدد آخر من السكان[2].

وغزا تلابوقا بلاد الكرك[3] بالاشتراك مع نوغاي، فنهب وقتل ثم عاد، بفعل دخول فصل الشتاء حيث تساقط الثلج وتعذر سير الجيش على الطرقات، فانفصل نوغاي بقواته عن الجيش الرئيس وسار إلى مشتاه فوصل سالماً، في حين عانى تلابوقا وعساكره من وعورة الطرق ومسالكها، فهلك معظمهم من شدَّة البرد ونفاد المؤن، واضطروا إلى أكل دوابهم وكلاب صيدهم ولحوم من مات منهم، ولم يسلم منهم إلا القليل، فعزَّ ذلك على تلابوقا وتوهم أن نوغاي إنما فعل ذلك به مكراً ومكيدة ليهلك عساكره ويبيد عشائره حتى يستقل بالبلاد، لذلك أضمر له الغدر وأبطن له الشر، وصمَّم على الفتك به، فاستدعاه بحجة استشارته في أمر ما. وكان نوغاي شيخاً قد عركته الحياة وعمل في الشؤون العامة منذ عهد بركة، وله خبرة وممارسة بالمكائد، فأدرك فوراً مرامي وأهداف تلابوقا، فأرسل كتاباً إلى والدته قال فيه: «إن ابنك شاب قليل الممارسة بالأمور، وإنني أريد أن أبذل له النصيحة، وأعرفه بما يعود عليه نفعه من مصالح ملكه وترتيب قواعده وتقدير مصادره وموارده، ولا يسعني أن أبديها له إلا في الخلوة بحيث لا يطلع عليها سواه، وأشتهي أن ألقاه في نفر يسير، ولا يكون حوله من العساكر التي جمعها إليه». فانخدعت المرأة بمضمون كتابه وأشارت على ابنها بالموافقة والاجتماع به والإصغاء إلى نصائحه، فاستجاب لها، ففرّق عساكره، وأرسل إلى نوغاي للحضور أمامه،

(١) Howorth: Prt II, Div.I, p139.

(٢) Howorth: Prt II, Div I: p138. Von Hammer: p264.

(٣) هي الاسم القديم لمدينة الماجار الواقعة على نهر الفولغا، وربما تكون تشيركاسيا، المركز الأساسي لتأمين الإمدادات البشرية للمماليك.

فتجهَّز بجميع من عنده من العساكر وسار إليه وهو ينوي الغدر، فاستقطب أولاد منكو تيمور، الذين كانوا يميلون إلى تلابوقا، وقبل أن يصل إلى مكان الاجتماع أعدَّ كميناً له. وفوجئ تلابوقا، أثناء الاجتماع، بالعساكر تطوقه، وقبض عليه نوغاي وسلَّمه مع إخوته الذين كانوا معه إلى طقطاي بن منكو تيمور، فقتلهم بحجة أن تلابوقا اغتصب ملك أبيه، وكان ذلك في عام (٦٩٠هـ/ ١٢٩١م)[1].

(١) ابن خلدون: جـ٥ ص٥٣٦. الرمزي: جـ١ ص٤٦٢، ٤٦٣.
D'ohsson: IV, pp497-499. Von Hammer: p266

طقطاي بن منكو تيمور

(٦٩٠ ـ ٧١٢هـ/ ١٢٩١ ـ ١٣١٣م)

اعتلاء طقطاي عرش خانية القبيلة الذهبية

عندما انتهى نوغاي من أمر تلابوقا، أجلس طقطاي بن منكو تيمور على كرسي الملك ورتَّب أمور دولته، وعيَّن إخوته برلك وسراي‌بغا وتدان مساعدين له، ثم عاد إلى أملاكه ليستريح من عناء الصراع، غير أنه خشي من انتقام الأمراء الذين ساندوا خصمه، فأمر طقطاي بالتخلص منهم، وكانوا ثلاثة وعشرين أميراً، فقتلهم جميعاً، فاطمأن بذلك على وضعه السياسي[١].

يُعد اعتلاء طقطاي العرش المغولي في بلاد القبجاق حدثاً نوعياً في تاريخ مغول القبيلة الذهبية، فلأول مرة يُرفع الخان إلى السلطة نتيجة حرب أهلية، وستشكل هذه الظاهرة مدخلاً للصراعات الداخلية في المستقبل، الأمر الذي سوف يؤدي إلى ضعف الدولة ومن ثمَّ زوالها.

نزعات طقطاي الدينية

كان طقطاي شامانياً، ولم يظهر من نقش عملته أنه اعتنق الإسلام[٢] بل إنه ناصر النصارى[٣]، وربما تأثر بصداقته لبيزنطية، تلك الصداقة التي كانت موجودة قبل مجيئه إلى الحكم. فقد عمدت بيزنطية إلى التقرب من مغول القبيلة الذهبية بالمصاهرة اتقاء لخطرهم وخطر الأتراك العثمانيين، الذين كان نجمهم قد ظهر على المسرح السياسي في ذلك الوقت، والمعروف أن

(١) المقريزي. جـ٢ ص٢٣١. لرمزي: جـ١ ص٤٦٥، ٤٦٦. Howorth: Prt II, Div.I, p141.

(٢) كتب على عملته: السلطان العادل، مير طقطاي. ابن كثير: جـ١٤ ص٦٧. Ibid: pp141-147.

(٣) Ibid: p147.

الامبراطور البيزنطي أندرونيقوس الثاني (٦٨١ ـ ٧٢٨هـ/ ١٢٨٢ ـ ١٣٢٨م) الذي خلف ميخائيل الثامن أرسل ابنته ماريا إلى حريم الخان[١].

ويبدو أن علاقته الجيدة ببيزنطية لم تمنعه من محاربة النصارى، فقد أرسل حملة لغزو بولندا في عام (٦٩٠هـ/ ١٢٩١م)، كما أرسل فرقة عسكرية دمّرت مدينة كفًّا، وطردت الجنويين منها ومن شبه جزيرة القرم، وصادر أموال التجار الجنويين بمدينة سراي في عام (٧٠٧هـ/ ١٣٠٧م) بفعل استيلاء هؤلاء على أولاد المغول وبيعهم في أسواق الرقيق[٢]. ولم يسمح طقطاي ببناء الكنائس في بلاده، كما فعل بركة من قبل. وفي المقابل مال طقطاي إلى المسلمين أيضاً وأكرمهم على الرغم من كونه شامانياً، وذلك بفعل أن المغول المسلمين كانوا يشكِّلون معظم جيشه، وكان بحاجة ماسة لكسب ثقة هذا الجيش الذي شكل أداته الرئيسة لحل مشكلاته الداخلية والخارجية[٣]. فقد نشب النزاع بينه وبين قائده المستبد نوغاي، واصطدم بالجنويين في كفًّا وشبه جزيرة القرم، كما ذكرنا، وكان هناك الصراع مع الأتراك في آسيا الصغرى والمشكلة الروسية المزمنة، حيث كان الروس يتطلعون إلى الاستقلال وإبعاد التأثير الإسلامي الوافد عليهم من خانية القبيلة الذهبية[٤]، وحافظ طقطاي على علاقته الجيدة مع المماليك في مصر لدفع خطر الإيلخانيين عن بلاده.

وبفعل ميله إلى الإسلام ومساندة المسلمين، فقد نمت الحركة الإسلامية في عهده، فدخل ابن الخان في الإسلام، كما دخل عدد من الأمراء والقادة في هذا الدين، وقد هيأ هذا التطور الديني لمرحلة اكتمال انتشار الإسلام بين مغول القبيلة الذهبية في عهد أوزبك.

العلاقة مع المماليك

استمرت العلاقة الودية قائمة بين مغول القبيلة الذهبية وسلطنة المماليك، وشكّلت العلاقة العدائية التقليدية بين هؤلاء وبين مغول إيران سبباً في حرص مغول القبيلة الذهبية على إيجاد حليف قوي يساندهم في مواجهة أبناء عمومتهم في إيران، فحاولوا دفع المماليك إلى الاصطدام بهم، في الوقت الذي اعتنق

(١) Howorth: prt II, Div I: pp146, 147.

(٢) العيني: جـ٤ ص٤٦٢ ـ ٤٦٣. ابن كثير: جـ١٤ ص٦٧.

(٣) عبد الحليم: ص١٢١. (٤) المرجع نفسه: ص١٢٢.

فيه هؤلاء الإسلام ودخلوا في مفاوضات من أجل إحلال السلام بينهم.

وحدث في عام (٦٨٩هـ/ ١٢٩٠م) أن توفي السلطان قلاوون، وخلفه ابنه الملك الأشرف خليل (٦٨٩ ـ ٦٩٣هـ/ ١٢٩٠ ـ ١٢٩٣م) فأرسل في عام (٦٩٢هـ/ ١٢٩٣م) الأمير علم الدين الدواداري رسولاً إلى الامبراطور البيزنطي وإلى الخان طقطاي، ومعه هدية سنية[1]، غير أن مقتل السلطان في (محرم ٦٩٣هـ/ كانون الأول ١٢٩٣م) أوقف رحلة السفارة. وعاد الدواداري إلى دمشق، ثم توقّفت المراسلات والوفود بين الدولتين، المغولية والمملوكية، بسبب ما جرى من أحداث داخلية في كل من سراي والقاهرة، واستؤنفت بعد استقرار الأوضاع في كل منهما.

وحدث في عام (٧٠٣هـ/ ١٣٠٣م) أن أرسل طقطاي سفارة إلى القاهرة تحمل هدية ورسالة إلى السلطان الناصر محمد، الذي خلف الأشرف خليل، تتضمن استعداده لمشاركته في محاربة غازان، إيلخان مغول إيران، فرّد عليه السلطان بأن الله كفاه شر غازان، وأن أخاه أولغايتو أذعن للصلح[2].

ويبدو أن الضغط الشديد الذي كان يتعرض له طقطاي من جانب مغول إيران، قد دفعه إلى مراسلة السلطان ثانية، بعد مرور عامين، يعلن عن رغبته في إرسال جيش يشترك مع الجيش المملوكي في مهاجمة إيران، على أن يحتفظ كل منهما بما يستولي عليه.

والواضح أن الخان المغولي أصرَّ على دفع المماليك إلى الاصطدام بمغول إيران لتخفيف الضغط عن الجبهة الشمالية، لكن الناصر محمد الذي كانت له سياسته الخاصة تجاه هؤلاء، ربما تتناقض مع سياسة مغول القبيلة الذهبية تجاههم، رأى أن مصلحة بلاده تقضي عليه برفض الطلب لأنه عقد صلحاً مع أولغايتو، وليس من المصلحة أن ينقضه، وأنه إن حدث ما يستوجب ذلك عمل على تلبية طلبه[3].

ظلت العلاقة الجيدة سائدة بين الدولتين حتى آلت زعامة القبيلة الذهبية، بعد وفاة طقطاي، إلى أوزبك.

---

(١) المقريزي: جـ٢ ص٢١٧، ٢١٨. ابن كثير: جـ١٣ ص٣٣٢.

(٢) المقريزي: جـ٢ ص٣٧٩.

(٣) سرور، محمد جمال الدين: دولة بني قلاوون في مصر. ص٢١٨.

العلاقة مع الروس

حدث في عام (٦٩٠هـ/ ١٢٩١م) أن غزا المغول بولندا وتوغلوا كعادتهم حتى ساندومير، لكن الحدث البارز قد جرى على الجبهة الروسية حيث تعرَّضت البلاد لأسوأ غزوة مغولية في تاريخها، وقد شجَّع المغول على اجتياح البلاد ما جرى من نزاعات داخلية بين الأخوين ديمتري وأندريه[1].

أغار المغول على مدينة روستوف، فقتلوا ونهبوا، واستقروا فيها، وفرَّ حاكمها منها، وأرسل أخاه ليضبط إدارة شؤون السكان بعد الغزو، فأغرق هذا الهدايا والأموال على المغول وأغراهم بمغادرة المدينة، وربما كان للاضطرابات التي حدثت آنذاك في الخانية دور آخر في عودة القوة المغولية إلى بلادها[2].

وخشي الأمير الكبير ديمتري من سطوة نوغاي بعد أن نجح في تثبيت أقدامه في خانية المغول، وأضحى الأمير المستبد بالدولة والخانات، فأراد أن يتقرَّب منه ويلاطفه، فأرسل في عام (٦٩١هـ/ ١٢٩٢م) ابنه ألكسندر إلى المعسكر محملاً بالهدايا، إلا أنه توفي هناك[3].

وجدَّد أندريه، أخو ديمتري، في هذه الأثناء ثورته ضد أخيه، واستقطب بعض الأمراء الروس، مثل أمراء روستوف وبيلوسيرسك وياروسلاف وسمولنسك وتوير وأسقف تيراسي، ثم زار معسكر نوغاي، وفي رواية أنه زار البلاط المغولي في سراي واجتمع بالخان طقطاي، فشكا أخاه ديمتري وأوغر صدر الخان عليه. ولما كانت الدوائر المغولية الحاكمة تدرك أن المصلحة المغولية العليا تقضي باستغلال النزاعات الداخلية بين الأمراء الروس وتأجيجها، فقد استجاب الخان المغولي لطلب المساعدة، المقدم من أندريه ضد أخيه، فأرسل قوة عسكرية، بقيادة تيقودان أو دودين، هاجمت ديمتري في ياروسلاف، وفرّ هذا، في غمرة القتال، إلى بسكوف واحتمى بختنه الليتواني دوفمونت.

وعلى الرغم من أن المغول كان باستطاعتهم أن يرفعوا أندريه على العرش من دون مقاومة، إلا أنهم لم يفعلوا ذلك، وفضّلوا مهاجمة المدن والقرى الروسية التابعة لديمتري. وهكذا تعرّضت مدن مورم وسوزدال وفلاديمير وبوريف وبرسلاو وأوكلم وموسكو وموزاي لأسوأ أنواع الغارات المدمرة،

---

(١) Von Hammer: p267.

(٢) Karamazın: IV, p171.

(٣) Howorth. Prt II, Div.I, p142.

وقد استولى عليها المغول ونهبوها وأسروا سكانها وباعوهم في أسواق النخاسة، كما تعرّض رجال الدين لهذا البلاء، على الرغم من أنهم كانوا معفيين من الضرائب والتكاليف الميرية، وفقاً للنظام المغولي، ولم تسلم الكنائس من النهب والتدمير. ولم يتمكّن دانيال بن ألكسندر من تجنيب إمارته موسكو الخراب والدمار على الرغم من كونه حليفاً للمغول، وهرب من نجا من السكان إلى الغابات[١].

توجّه تيقودان بعد ذلك إلى بلدة توير للاستيلاء عليها، فدافع سكانها عنها، وكان حاكمها ميخائيل آنذاك في المعسكر المغولي، فعاد على وجه السرعة، وأعاد تجميع صفوف قواته استعداداً للتصدي للمغول.

ويبدو أن تيقودان آثر التخلي عن حصار توير بفعل شدّة المقاومة، وتوجه نحو نوفغورود لاقتحامها، ونهب في طريقة قرية فولوك، فأرسل إليه تجار المدينة الأموال والهدايا، ورضوا بأندريه حاكماً عليهم، فنصّبه القائد المغولي حاكماً على المدينة، وغادر الأراضي الروسية[٢].

تجدّدت النزاعات الداخلية بين الأخوين ديمتري وأندريه، بعد زوال الخطر المغولي. فحاول الأول، الذي طُرد من قِبَل فلاديمير، أن يدخل إلى بريسلاف، وعندما وصل إلى تورجك تصدّى له أخوه ومنعه من ذلك، وأجبره على التخلي عن الحكم، فذهب إلى توير، فحاول أميرها ميخائيل، بالاشتراك مع أسقف المدينة إصلاح ذات البين لكن ديمتري مرض في هذه الأثناء وتوفي، وذلك في عام (٦٩٣هـ/ ١٢٩٤م)[٣].

وزار أندريه وزوجته البلاط المغولي في العام التالي، واجتمعا بطقطاي، وقدّما له فروض الولاء والطاعة، وطلب أندريه من الخان منحه التقليد بالولاية على الأمراء الروس، والتدخل لفض النزاعات بينه وبينهم، فأمر الخان، ألكسندر نيوردي بالذهاب إلى فلاديمير والتوسط بين المتنازعين، ويبدو أنه لم يتمكّن من التوفيق بينهم، ما استدعى تدخل سيمون، أسقف فلاديمير، وإسماعيل، أحد مبعوثي الخان، اللذين نجحا في تحقيق سلام هش، بدليل أنه ما إن غادر الوفد المغولي عائداً إلى بلاده حتى تجدَّدت النزاعات[٤].

(١) الرمزي: جـ١ ص٤٦٨. Karamazin: pp171-178. Von Hammer: p268.
(٢) Howorth: Prt II, Div.I, p142.
(٣) Ibid.
(٤) Karamazin: IV, pp192, 193. Von Hammer: p269.

بروز موسكو على المسرح السياسي

نعمت الإمارات الروسية، في ظل حكم المغول، بشيء من الاستقلال الداخلي من دون أن يتنكّر حكامها لماضيهم أو يبتعدوا عن تقاليدهم، على عكس ما جرى في الولايات الواقعة في الجنوب والجنوب الغربي. وقد نشبت بين هذه الإمارات نزاعات داخلية حادة، كما ذكرنا، دفع بعضها إلى التماس المساعدة إما من المغول أو من البولنديين والليتوانيين، غير أن المغول، وخروجاً على توجههم السياسي، لم يشجعوا كثيراً حركة الانقسام هذه، وفي ظل هذه الظروف فترت العلاقة المغولية ـ الروسية، لأن الأمراء الروس راحوا يهزأون بالموظفين المغول، وكثر اللصوص الذين كانوا يمارسون أعمال السلب والنهب بشكل واسع، فكان نتيجة ذلك، أن قلّت الضرائب والعائدات التي كان يُحصِّلها الجباة المغول الذين لم يعد لديهم القوة الكافية لتنفيذ طلبات الخانات. وهكذا برزت فكرة إدارة شؤون الضرائب وإعطائها للروس أنفسهم[١]، وتبسيطاً للأمور، أن يختاروا من هذه الإمارات واحدة تتولى الصدارة وتمارس السيطرة، فتنعم بعطفهم ومؤازرتهم، ويعهدون إليها بجباية الضرائب والرسوم المفروضة وتحصيل الجزية، شرط أن تخلص لهم. وقد أوتي أمراء موسكو من الكياسة السياسية والمهارة في السلوك والإدارة ما أكسبهم عطف المغول، فسلّموهم جباية الضرائب والجزية، كما أقنعوهم بتثبيتهم أمراء وراثيين لموسكو، بعد أن أجبروا بقية الأمراء الروس على الخضوع التام لهم، هذا على الرغم من أن إمارة موسكو لم تكن الأقوى ولا الأكبر من بين الإمارات الروسية، ولم يعارض أي حاكم مغولي هذا الإجراء، بعد أن شعر الحكام المغول بالاطمئنان، في ظل حكم هؤلاء الاتباع المسكوفيين، وكان دانيال، الأخ الأصغر لأندريه، يحكم إمارة موسكو، وكان شجاعاً، حسن التدبير[٢].

وفي عام (٧٠١هـ/ ١٣٠٢م) توفي إيڤان، أمير بريسلاف وديميتروف، وتُعد إمارته الثانية من حيث القوة وعدد السكان بعد إمارة دانيال الذي ضمّ، إلى إمارته موسكو، إمارة ريازان إثر تغلّبه على أميرها قسطنطين، والمعروف أنه قبض عليه وسجنه مدة ستة أعوام حيث توفي في سجنه في عام (٧٠٧هـ/ ١٣٠٨م)[٣].

(١) شبولر: ص٩٨.
(٢) Karamazin: IV, pp195-196.
(٣) Howorth· Prt II, Div.I, p144.

أثار توسع إمارة موسكو الأمير أندريه، حاكم نوفغورود، فرأى أن يستعين بالمغول ضد أخيه، فذهب إلى سراي من أجل هذه الغاية، وبعد مكوثه مدة عام في البلاط المغولي عاد ومعه منشور من الخان بتحقيق السلام بين الإمارات الروسية، وذلك في عام (٧٠٢هـ/ ١٣٠٣م)[١].

وحدث في عام (٧٠٣هـ/ ١٣٠٤م) أن توفي أندريه الذي اتصف عهده بالمحن والشدائد التي ألمَّت بالإمارات الروسية، إما على يد المغول أو نتيجة النزاعات الداخلية، وشكّل موته حدثاً أكثر إيلاماً بفعل نشوب حرب الوراثة بين حفيده جورج ـ غيورغي ـ أمير موسكو وعمه ميخائيل أمير توير. واستناداً إلى نظام الوراثة الروسي، فإن الثاني هو الوريث الشرعي، غير أن الأول لم يعترف بذلك. ورُفعت القضية إلى المغول للفصل فيها، فجاء القرار لمصلحة ميخائيل، فسار هذا إلى موسكو لحرب ابن أخيه وحاصرها مرتين من دون جدوى، حتى أقنع نفسه أخيراً بحكم إمارته[٢].

وهكذا بدأت إمارة موسكو تشق طريقها نحو البروز على مسرح السياسة في روسيا، لتتزعَّم بعد ذلك الإمارات الروسية وتوحِّدها، في خطوة ملفتة، لطرد المغول من البلاد.

العلاقة مع الإيلخانيين في إيران

تطلع طقطاي إلى انتزاع ولايتي أرَّان وأذربيجان من الإيلخانيين، وهي السياسة التقليدية لخانات القبيلة الذهبية منذ أيام بركة، فأرسل رسالة إلى الإيلخان محمود غازان حملها عيسى كوركان، ومعه ما يزيد على ثلاثمائة فارس، تتضمن طلباً وتهديداً.

يتعلق الطلب بإعادة الولايتين المشار إليهما إلى أملاك القبيلة الذهبية بحجة أنهما كانتا من حصة أولاد جوجي وفقاً لتقسيم جنكيزخان، وقد تصرَّف هولاكو وأولاده في استغلالها على خلاف ذلك، منذ سنوات، ولما لم يكن باستطاعة أسلافه تدارك ذلك الخلل، فهو يطالب اليوم بإعادتها إلى مغول القبيلة الذهبية.

ويتعلق التهديد باستعمال القوة إذا لم يستجب الإيلخان لهذا الطلب، وقد شعر طقطاي بالثقة التامة بسلامة موقفه.

(١) Karamazın: IV, p197.

(٢) Ibid. p212.

كان من الطبيعي أن يرفض محمود غازان الطلب والتهديد لأن القوقاز يشكل حدود بلاده الجبلية الحصينة التي لا يمكن لأي قوة أن تتخطَّاها، وأن أي تنازل عن تلك الأراضي من شأنه أن يشكل تهديداً مباشراً للإيلخانية من جانب القبيلة الذهبية، وقد حصل ذلك في عام (٧٠٢هـ/ ١٣٠٣م)[١].

كان محمود غازان يستعد آنذاك للزحف نحو بلاد الشام لقتال السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون، فلما بلغ الرحبة عاد بنفسه وترك جيشه تحت إمرة قادته ليتموا المهمة. والمعروف أن الجيش الإيلخاني تعرّض لهزيمة قاسية في بلاد الشام وتوفي محمود غازان، بعد مدة وجيزة، من أثر الصدمة.

لم يستغل طقطاي هذه الفرصة لانتزاع ولايتي أرَّان وأذربيجان، مبرهناً عن قصر نظر في العمل السياسي، الأمر الذي ترتَّب عليه إخفاق سياسته فيما وراء نهر ترك. وفي رواية أن الصلح تمَّ بين الطرفين، وأن غازان منح أعضاء الوفد الهدايا، وحمَّلهم هدية سنية إلى طقطاي[٢].

نشوب الاضطرابات في بلاد القبيلة الذهبية

النزاع بين طقطاي ونوغاي

اندلعت الحروب الأهلية في بلاد القبيلة الذهبية بفعل الصراع على النفوذ بين طقطاي ونوغاي المستبد بشؤون الخانات. والواقع أن الخان لم يكن راضياً عن تصاعد نفوذ أميره، وحتى يُضعف من سلطته عليه تخلَّص من عبء إخوته الذين تطفل عليه بهم وجعلهم شركاءه في الحكم. وأجّج هذا الصراع ما أقدم عليه نوغاي من قتل أرملة منكو تيمور في عام (٦٩٣هـ/ ١٢٩٤م) بحجة أنها كانت تتحكم بالمغول في عهد زوجها، وخلال حكم تدان منكو وتلابوقا، بالإضافة إلى سوء معاملة ابنيه جكا وتكا لزوجة طقطاي، بيلق خاتون، فأوغرت صدر زوجها عليه وحرَّضته على قتله.

وانفضَّ معظم الأمراء، خلال هذا الصراع، من حول طقطاي بفعل سوء معاملته لهم، وانضموا إلى نوغاي الذي آواهم وأحسن إليهم، ولما طلب طقطاي منه إعادتهم إليه ليحاكمهم، رفض الطلب، فغضب طقطاي وقرَّر التخلص منه.

(١) D'ohsson: IV, pp319, 320. Howorth: Prt II, Div.I, pp145, 146.

(٢) الرمزي: جا ص٤٧٩.

وفي عام (٦٩٧هـ/ ١٢٩٨م) أرسل طقطاي رسولاً إلى نوغاي يحمل محراثاً وسهم نشاب وحفنة من التراب، فلما وصل الرسول وعرض عليه ما يحمل، أدرك فوراً هدف طقطاي. فالمحراث يرمز إلى اقتلاع نوغاي وأصحابه من الأرض، ويرمز السهم إلى إنزالهم به إلى الأرض إن هم صعدوا إلى الجو، أما التراب فيرمز إلى اختيار أرض القتال.

وردَّ نوغاي برسالة إلى طقطاي قال فيها: «إن خيلنا قد عطشت ونريد أن نسقيها من نهر تن»، وهو نهر قرب سراي، وفي المنطقة قصور لطقطاي. وهكذا أضحت الحرب أمراً لا مفرَّ منه[1].

اشتبك الطرفان عسكرياً على مرحلتين: جرت الأولى في عام (٦٩٧/ ١٢٩٨م) على نهر يصي عند كندلان في بلاد سكسين وبلغار، وأسفرت عن انتصار نوغاي. وتراجع طقطاي في جو الهزيمة القاتم باتجاه نهر الدانوب، فعبره مع من نجا من جنده، فغرق بعضهم في النهر، ولم يطارده نوغاي، وأمر بعدم الإجهاز على الجرحى، واكتفى بأخذ الغنائم والسبايا وعاد إلى بلاده، غير أنه ثبَّت أقدامه في شبه جزيرة القرم ونواحيها[2].

وحدث في عام (٦٩٩هـ/ ١٣٠٠م) أن دبَّ الخلاف بين نوغاي وبين أمرائه، فانحازت جماعة منهم إلى طقطاي، أمثال ماجي وسدن وأتراج وآقبوغا وططا، ومعهم ثلاثون ألف مقاتل، وقد شكَّلوا قوة ذات بأس، الأمر الذي أعطى طقطاي مزيداً من القوة، فاستغلَّها، وجدَّد الحرب للأخذ بثأره واسترداد ما استولى عليه نوغاي من أراضيه في الجولة الأولى. وجرى قتال بين الطرفين في كوكانلك، انتهى بهزيمة نوغاي وتَفرُّق جنده، وقُبض عليه بعد المعركة وقُتل على يد مقاتل روسي في صفوف طقطاي[3].

النزاع الأسري بين أبناء نوغاي

عاد أولاد نوغاي، جكا وتكا وطراي، بعد المعركة إلى بلادهم، وجلس جكا على العرش مكان والده، واستبدَّ بالملك واستأثر به لنفسه من دون أخويه، ما أثار تكا الذي كانت حقوقه في تولي السلطة مساوية لحقوق أخيه، وهمَّ باللجوء إلى طقطاي، فعلم أخوه بذلك، فدس عليه من قتله، وذلك في عام (٦٩٩هـ/ ١٣٠٠م).

(١) الرمزي: جـ١ ص٤٦٨، ٤٦٩.   (٢) المصدر نفسه: ص٤٦٩، ٤٧٠.
(٣) المصدر نفسه: ص٤٧١، ٤٧٢.

ويبدو أن خيوط المؤامرة قد كُشفت، واتهم الأمراء والأعيان جكا بمقتل أخيه، فنفروا منه، وانفضوا من حوله، كان من بينهم نائبه طنقوز، وحاكوا مؤامرة ضده اشترك فيها طاز بن منجك، صهر نوغاي، غير أن جكا علم بها، ففرَّ إلى بلاد اللاز، ونهب خصومه قصوره واستولوا على أملاكه.

وجهَّز جكا جيشاً واصطدم بأعدائه وانتصر عليهم، واستردَّ أملاكه. لم يركن هؤلاء إلى الهدوء والتمسوا المساعدة من طقطاي، فأمدهم بقوة عسكرية بقيادة أخيه برلك. وتجدَّد القتال بين الطرفين وأسفر عن انهزام جكا، ففرَّ إلى بلاد أولاخ، وكان حاكمها متزوجاً من إحدى قريباته. ويبدو أن هذا خشي من بطش طقطاي، فقبض عليه، وأعلم الخان بذلك، فأمر بقتله، وذلك في عام (٧٠١هـ/ ١٣٠٢م)[1].

ووزع طقطاي أملاك نوغاي على ولديه، تيكل بوقا وإيرباصا، فكان نصيب الأول السواحل الشمالية للبحر الأسود المشتملة على بلاد القرم من نهر الدون إلى الباب الحديد على ساحل بحر قزوين، وعيَّن أخاه سراي بوقا بن منكو تيمور مساعداً له. وكان نصيب الثاني نواحي نهر يايق. وبذلك يكون طقطاي قد حاز على أملاك نوغاي ووحَّد بلاد القبيلة الذهبية[2].

ويبدو أن الأوضاع السياسية لم تستقر لطقطاي بشكل نهائي، فقد نهض طراي بن نوغاي ليثأر لأبيه وأخيه. وحتى يُضعف موقف طقطاي، استقطب أخاه سراي بوقا وأقنعه بأنه أحق بالملك من أخيه وأقدر منه على مزاولة الحكم، ولم يزل به حتى أعلن الثورة على أخيه، فلما علم طقطاي بذلك أرسل من ألقى القبض عليهما وقتلهما[3].

وفاة طقطاي

توفي طقطاي في (رمضان ٧١٢هـ/ كانون الثاني ١٣١٣م) إثر مرض ألمَّ به، في مصيفه كرنا، على بُعد عشرة أيام من سراي، بعد أن حكم ثلاثاً وعشرين عاماً، والمعروف أنه أضحى بعد وفاة نوغاي الحاكم المطلق لمغول القبيلة الذهبية. ووُضع جثمانه في قارب وأُغرق في نهر الفولغا، وفي رواية أنه دفن في سراي تشوك[4].

(١) العيني: جـ٤ ص٨٥، ٨٦. ١٤٢ ـ ١٤٤.   (٢) المصدر نفسه: ص١٤٤.
(٣) العيني: جـ١ ص١٩٤، ١٩٥.
(٤) ابن كثير: جـ١٤ ص٦٧، ٦٨. خواندامير: روضة الصفا: جـ٤ ص١١٣، ١٨٣.

محمد أوزبك بن طغرل شاه

(٧١٢ ـ ٧٤٢هـ/ ١٣١٣ ـ ١٣٤١م)

اعتلاء محمد أوزبك عرش خانية القبيلة الذهبية

ترك طقطاي بعد وفاته ثلاثة أولاد هم تيكل بوقا وإيرباصا وبيروس، لكن أياً منهم لم يخلفه على العرش، وخلفه ابن أخيه أوزبك بن طغرل شاه. والمعروف أن طغرل شاه ساند تلابوقا في صراعه مع طقطاي، فقبض عليه هذا وأعدمه. ونفى طقطاي ابن أخيه أوزبك إلى منطقة سيركاسيا حتى لا يطالب بثأر والده، وتزوج والدته بيالون. ويبدو أنه ندم في أواخر حياته، فاعترف لزوجته بأن ابنها لا يزال حياً وأرسل لإحضاره بتأثير منها، ولكنه توفي قبل أن يصل أوزبك إلى العاصمة سراي[1].

وجهدت بيالون في تنصيب ابنها على عرش الخانية، فاستقطبت قطلقتمر، نائب طقطاي، وأعيان المملكة وأركان الدولة، فساندوا ابنها ورفعوه على العرش في سراي، لكنه واجه معارضة من قِبَل ابن عمه تيكل بوقا، ابن طقطاي، الذي طمع في خلافة والده، فأرسل إليه أوزبك من قتله في قصره بسراي[2].

وفي رواية أن طقطاي لم يخلف ولداً ذكراً ولا أنثى، وكان قطلقتمر يتولى تدبير الخانية في حياته، فلما مات طقطاي اتفق مع بيالون، زوجة طغرل شاه،

---

(١) وفي رواية: أن بيالون لما ولدت أوزبك أرسلته إلى إينال بك، من قبيلة قنارطاي، خوفاً من قتل طقطاي، وقد تزوجها هذا بعد ذلك، فلما احتضر وندم على قتل أقربائه، وتأسف على نقل السلطنة إلى الأجانب، أظهرت له بيالون ما فعلت بأوزبك. ففرح وأرسل آستاي بك القياقي والإطاي السجوتي مع ألفين من العساكر لإحضاره. فمات قبل وصوله إليه. انظر: الرمزي: جا ص٤٨٧ هامش١.

(٢) Von Hammer. Golden Horde: p282.

على تنصيب أوزبك بعد أن عاهده على اعتناق الإسلام، وذلك في (رمضان ٧١٢هـ/ كانون الثاني ١٣١٣م)[1].

نزعات أوزبك الدينية

أثَّرت الظروف الدينية التي شهدتها خانية القبيلة الذهبية في العهود السابقة إلى توسيع دائرة انتشار الدين الإسلامي، وتعميق الشعور الديني في المجتمع المغولي، فاعتنق غالبية المغول الإسلام بمن فيهم معظم أمرائهم، وقد ساعد ذلك، أوزبك على أن يقضي على كل الديانات غير الإسلامية في بلاده ويجعل من الإسلام دين الدولة الرسمي بشكل نهائي.

اعتنق أوزبك الإسلام قبل أن يتولى عرش خانية القبيلة الذهبية على يد أربعة فقهاء من الفرس هم: سيد شيخ محمد، والشيخ قولقات، والشيخ أحمد، والشيخ حسن قرقان[2]، وفي رواية أنه اعتنق الإسلام بعد توليه العرش من واقع الاتفاق الذي جرى بينه وبين نائب السلطنة قطلقتمر، فدخل في دين الله راغباً، واتخذ مسجداً يصلي فيه الصلوات الخمس في أوقاتها[3].

واستند بارتولد على هذه الرواية، وذكر بأن أوزبك اعتنق الإسلام بعد توليه العرش بحوالي تسع سنوات، أي في عام (٧٢٠هـ/ ١٣٢٠م) على يد الشيخ سيد آتا التركستاني المدفون في طشقند[4].

والراجح أن الرواية الأولى أقرب إلى الصحة بدليل:

ـ أن الشيخ الذي أسلم على يديه هذا الخان، وفقاً لما ذكره بارتولد، كان معلماً لابنه، ويذكر ابن بطوطة أن الذي تولى تربية جاني بك بن محمد أوزبك كان السيد الشريف ابن عبد الحميد[5].

ـ أن أصحاب الرواية الأولى سابقون من حيث الزمن على أصحاب الرواية الثانية التي ذكرها ابن خلدون.

ـ أن أبا المحاسن يوسف بن تغري بردي، الذي جاء بعد ابن خلدون، كان أكثر دقة، فقد أشار إلى مساعدة قطلقتمر لأوزبك على تولي السلطة من دون

---

(١) انظر: الرمزي: جا ص٤٨٧.

(٢) Howorth: Prt II, Div.I, p172.

(٣) تاريخ ابن خلدون: جه ص٥٣٧.

(٤) تاريخ الترك في آسيا الوسطى: ص١٩٧.

(٥) رحلة ابن بطوطة: جا ص٣٧٣.

أن يشير إلى أن ذلك كان ثمناً لاعتناقه الإسلام[١].

ومهما يكن، فإن الحركة الإسلامية في بلاد القبيلة الذهبية بلغت آنذاك مرحلة متقدمة من النمو والانتشار، وهي على وشك إحراز النصر النهائي على الديانات الأخرى. لذلك ما إن اعتلى أوزبك عرش الخانية، حتى أظهر حماساً شديداً لنشر الإسلام، وحرص على تحويل من ظلّ على الوثنية من قومه إلى هذا الدين، وفي خلال عام واحد من حكمه، أرسل رسالة إلى القاهرة يذكر فيها خلو بلاد القبجاق من أي وثني[٢].

ويبدو أن أوزبك واجه معارضة من جانب الأمراء الذين ساندوا تيكل بوقا بن طقطاي، وقد ساءهم أن يهجر ديانة جنكيز خان ويعتنق ديانة العرب، ولما أصرَّ على موقفه تآمروا عليه، فقبض عليهم وأعدمهم، وأضحى مطلق اليدين في نشر الدين الإسلامي بين المغول وغيرهم من الشعوب التي كانت تحت سلطته[٣].

وأضحى أوزبك أول حاكم مسلم في سلسلة كاملة من الخانات المسلمين، ويُعدُّ عمله هذا خطوة حاسمة لم يسبق لها مثيل في تاريخ المغول منذ نشوئهم، لأن انتصار الإسلام في بلاد مغول القبيلة الذهبية يختلف في أثره عن انتصاره في إيران، فبينما شارك الحكام المغول في إيران شعبهم وسايروه في اعتناق هذا الدين، نجد أن حكام القبائل الذهبية لم يفعلوا ذلك[٤].

أراد أوزبك أن يجعل من نفسه ومن أسرته مثالاً يحتذي به المغول كافة في حبهم للإسلام والإخلاص له، والعمل على نشره وتطبيق تعاليمه، فتمسك بالشريعة الإسلامية، وداوم على الصلاة والصيام[٥]، واتخذ لنفسه اسماً ولقباً إسلامياً ظهر على العملة التي صكّها في عهده، منذ عام (٧١٣هـ/ ١٣١٤م)، ونقش عليها «غياث الدين أوزبك خان»، و«محمد أوزبك خان» و«أوزبك خان العادل»[٦]، كما اتخذ لنفسه زياً إسلامياً، وخلع السرآجوقات[٧] ولبس حزاماً من الحديد[٨]، وأجبر زوجته بيلون، ابنة الامبراطور البيزنطي أندرونيقوس

---

(١) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: جـ٩ ص٢٢٦.

(٢) الرمزي: جـ١ ص٤٩٦. Howorth: Prt II, Div.I, p149.

(٣) تاريخ ابن خلدون: جـ٥ ص٥٣٧.

(٤) شبولر: ص٩٩.

(٥) القلقشندي: جـ٤ ص٤٧١.

(٦) Howorth: Prt II, Div I, p172.

(٧) السراجوقات: طاقية مغولية خاصة بالخانات، كانوا يلبسونها.

(٨) ابن تغري بردي: جـ١٠ ص٧٤.

الثاني (٦٨١ ـ ٧٢٨هـ/ ١٢٨٢ ـ ١٣٢٨م) على اعتناق الإسلام. وعهد إلى السيد الشريف بن عبد الحميد بالإشراف على تربية ابنه جاني بك حتى يشبّ على الإسلام، ويُنشَّأ نشأة دينية[١]، كما أن زوجته كيك خاتون كانت تقرأ القرآن، وقد رآها ابن بطوطة تفعل ذلك عندما زارها، وهذا يعني أنها كانت تعرف العربية، وأضاف أنه عندما قرأ القارئ، الذي حضر معه لزيارتها، استحسنت قراءته، وكرَّمتهم جميعاً، ثم إن مجلس إيت كجحك، ابنة أوزبك، لا ينعقد إلا بحضور القضاة والسيد الشريف بن عبد الحميد، وطلبة العلم، والمشايخ والفقهاء[٢].

وكان مجلس السلطان محمد أوزبك خان نفسه، ومجالس حكام الولايات في دولته، لايتم انعقادها إلا بحضور الفقهاء ورجال الدين والأشراف، ولا يتم التقاضي إلا بحضورهم. فكان القاضي يحكم في القضايا الشرعية، ويحكم الأمراء في غير ذلك من القضايا. والمعروف أن ابن بطوطة زار هذه البلاد أثناء حكم هذا الخان ووصف لنا بلاده وما رآه فيها من التزام الناس وتمسُّكهم بالإسلام ومداومتهم على الصلاة وتطبيق تعاليمه، وحبهم لشعائره[٣].

والواقع أن الحركة الإسلامية وصلت إلى ذروتها في عهد أوزبك، وانتشر الإسلام بين مغول القبيلة الذهبية، سواء في المدن أو في الريف أو في الصحراء. ودخل الإسلام في عهده إلى جنوبي روسيا، وأسلم في عهده كثير من سكان سيبريا[٤]، بفعل نشاطه في نشر الإسلام، بالإضافة إلى عوامل أخرى تتعلق بالنشاط الإسلامي المتنامي في بلاد ما وراء النهر وتركستان، ومن المحتمل أن قبائل الأوزبك، التي تعيش وراء الأورال والتي تشكل الآن جمهورية أوزبكستان، تحوَّلت إلى الإسلام في عهده[٥].

---

(١) ابن بطوطة: جـ١ ص٣٧٣.

(٢) المصدر نفسه: ص٣٧١، ٣٧٢. وإيت كجحك معناها الكلب الصغير. والمعروف أن الأتراك يسمون بالفأل، كما تفعل العرب.

(٣) المصدر نفسه: ص٣٦٨، ٣٧٦، ٣٩٤، ٤٠٣.

(٤) Howorth: Prt II, Div.I, p171.

(٥) الرمزي: جـ١ ص٤٩٣. بارتولد: ص١٩٨. Ibid: p172.
إن اسم شعب الأوزبك مشتق من اسم أوزبك خان، ويُسمي مؤرخو القرن الخامس عشر الميلادي بلاد جوجي أو شعبه، باسم شعوب الأوزبك. ونظراً لكثرة أسفار هذا الخان إلى ـ

ومن جهة أخرى نجد أنه بعد انهيار إيلخانية إيران في عام (٧٥٦هـ/ ١٣٥٥م)، نقلت البعثات التبشيرية، القادمة من غربي أوروبا، نشاطها من إيران إلى بلاد التتار الشمالية، كما كان الأوروبيون يدعون القبيلة الذهبية؛ بعد أن فقدت الأمل بالنجاح. وكان البابا يوحنا الثاني والعشرين (٧١٣ ـ ٧٣٤هـ/ ١٣١٣ ـ ١٣٣٤م) يعتقد بأن أوزبك خان، على الرغم من أنه لن يرتد عن دينه إلى النصرانية، فإنه يمكن إقناعه بأن يسمح للنصارى اللاتين بتأسيس مراكز تبشيرية، وقد بنى قناعته على وجود أشخاص يؤيدون النصرانية في بلاط الخان من الأمراء وذوي النفوذ والأميرات، بالإضافة إلى ولي العهد تيني بك. وبذلك أضحى الحلم برؤية دولة نصرانية في سراي بدلاً من السلطانية، يبدو أقرب إلى التحقيق من أي وقت مضى. ففي عام (٧١٣هـ/ ١٣١٣م) أرسل البابا رسالة إلى أوزبك شكره فيها على تسامحه الديني تجاه النصارى، وفي عام (٧٢٣هـ/ ١٣٢٣م) طلب منه إعادة النصارى الذين طُردوا من السوداق في القرم من قِبَل المسلمين[1].

وهكذا هرعت أعداد من المبشرين والمبعوثين إلى سراي وإلى منطقة الڤولغا ابتداء من عام (٧٣٨هـ/ ١٣٣٨م)، وأسسوا بطريركية لاتينية في العاصمة المغولية إلى جانب البطريركية الأرثوذكسية التي تأسست في عام (٦٥٩هـ/ ١٢٦١م) لخدمة المجتمع الروسي المتنامي[2].

العلاقة مع المماليك

أثّر اعتناق أوزبك الدين الإسلامي، بشكل كبير، في استمرار وتطوير العلاقة الودية بينه وبين السلطان المملوكي الناصر محمد، فتبادلا الرسائل، وتوطّدت العلاقة بينهما بالمصاهرة. ويبدو أن سياسة التقارب بالمصاهرة كانت فكرة قطلقتمر نائب الخان، فهو الذي أشار على رسل السلطان المملوكي بها،

- طرف أذربيجان وخراسان، وحروبه الشهيرة مع الإيلخانيين؛ كَثُر التداول بعبارات «جاء الأوزبك» و«هجم الأوزبك» وبقي هذا الاسم علماً لتلك الديار مدة من الزمن. وعندما سيطر الشيبانيون المنحدرون من أولاد تيمور على بلاد ما وراء النهر واستقروا فيها غلب عليهم هذا الاسم. وعندما اضمحلت القبيلة الذهبية بالتدريج وفقدت أجزاءها المختلفة، لم تعد كلمة أوزبك في جنوبي روسيا علماً على أمة أو دولة، بل صارت تدل على القبائل التي هاجرت إلى تركستان.

(١) Howorth: Prt II. Div.I, pp156, 158.

(٢) شبولر: ص١٠٠.

وذلك بهدف التعاون ضد أعداء الدولتين، وأعني مغول إيران.

اقتنع الناصر محمد بصوابية المشروع، وأبدى رغبة في أن يخطب أميرة من البيت الجنكيزخاني، فأرسل من أجل ذلك الأمير علاء الدين أيدغدي الخوارزمي إلى سراي في عام (٧١٦هـ/ ١٣١٦م) مع هدية جليلة، وعندما اجتمع بالخان، قال له الترجمان: إن كان في مشافهتك غير السلام فخاطب به الأمراء. ثم جمع الأمراء، مقدمي التومانات وعددهم سبعون أميراً، فكلمهم المبعوث السلطاني في ذلك، فنفروا منه وقالوا: هذا لم يقع مثله قط فيما تقدم من حيث ظهور جنكيز خان إلى هذا الوقت. ورفضوا طلب السلطان، ثم اجتمعوا في يوم آخر بعد أن وصلت إليهم هداياهم التي جهزها السلطان إليهم، فأعيد الحديث في ذلك، فأجابوه وسهَّلوه، إلا أنهم اقترحوا أن يتم الزواج بعد أربعة أعوام: عام كلام، وعام خطبة، وعام مهاداة، وعام زواج، كما اشتطوا في المهر، فطلبوا مائة تومان من الذهب، بالإضافة إلى أعداد كبيرة من الخيل وعدة للحرب، واشترطوا أن يحضر جماعة من أكابر الأمراء ونسائهم لتسلمها، وغير ذلك من الشروط التي عدّها السلطان تعجيزية، فصرف النظر عن هذا المشروع[1].

وتكرَّرت السفارات بعد ذلك بين العاهلين من دون أن يذكر السلطان موضوع الخطبة، حتى توجه الأمير سيف الدين أطوجي إلى سراي في عام (٧١٨هـ/ ١٣١٨م) حاملاً الهدايا والخلع إلى أوزبك خان، فاجتمع به وسلمه الهدايا فلبسها الخان وأبدى أمام سيف الدين اهتمامه بإحياء مشروع المصاهرة. ولعل لذلك علاقة بالمدى الذي وصلت إليه العلاقات العدائية بينه وبين مغول إيران. والواقع أنه أراد أن يدفع المماليك للاصطدام بهؤلاء حتى يخفف الضغط عن جبهته.

ومهما يكن من أمر، فقد جُهِّزت العروس طلنبية، وهي من نسل بركة بن جوجي، وصحبها جماعة من كبار أمراء المغول بالإضافة إلى الشيخ برهان، إمام أوزبك خان، وقاضي سراي، وعدد من الخواتين، ومائة وخمسون رجلاً، وستون جارية. وغادر الموكب مدينة سراي في (٢ رمضان ٧١٩هـ/ ١٧ تشرين الأول ١٣١٩م) عن طريق البحر، ووصل إلى ثغر الإسكندرية في (ربيع

(١) النويري: جـ٣٢ ص٢٥٠.

الأول ٧٢٠هـ/ نيسان ١٣٢٠م)، فاستقبلها الأمراء الذين أرسلهم السلطان واصطحبوها إلى القاهرة، وعقد السلطان عليها في جامع القلعة الجديد، وعقد العقد قاضي القضاة بدر الدين محمد بن إبراهيم ابن جماعة. وبعد إتمام مراسم الزواج، عاد رسل أوزبك خان إلى بلادهم يوم الأحد (٢ شعبان/ ٧ أيلول)[1].

وفعلاً استغل أوزبك هذا الحدث ليثير المماليك على خصمه أبي سعيد، إيلخان مغول إيران. وصادف هذا الطلب قبولاً لدى السلطان، في بادئ الأمر، لأن العداء كان مستحكماً بين هؤلاء والمماليك، إلا أن أبا سعيد نهج سياسة سلمية بعد ذلك تجاه المماليك، وأبرم صلحاً معهم في عام (٧٢٣هـ/ ١٣٢٣م)، فزال ما كان بينهما من عداء[2]، لذلك رفض مساندة أوزبك خان ضد أبي سعيد، وأوضح له أن هذا الأخير اعتنق الإسلام، وعمل على إزالة العداء بين البلدين، ففترت العلاقة بين الدولتين، القبجاقية والمملوكية ولكن إلى حين، حيث اعترف أوزبك خان بعد ذلك بالأمر الواقع واستأنف تبادل الرسائل الودية مع السلطان الناصر محمد، لكن محور سراي/ القاهرة فَقَدَ أهميته حتى انهيار إيلخانية إيران في عام (٧٥٦هـ/ ١٣٥٥م).

العلاقة مع الروس

استمرت النزاعات الداخلية بين الأمراء الروس بفعل التنافس على الزعامة. ففي عام (٧١٣هـ/ ١٣١٣م) استُدعي الأمير الكبير ميخائيل التويري إلى سراي. وعندما وصل إلى هناك كان طقطاي خان قد توفي وخلفه ابن أخيه أوزبك خان، فاستبقاه في ضيافته مدة سنتين. فاستغل السويديون هذه الفرصة وهاجموا نوفغورود وأحدثوا فيها الخراب والدمار، كما انتزع جورج، أمير موسكو، منه مدينة كييف. ثم حدث أن استُدعي بدوره إلى سراي لمواجهة خصمه أمام الخان، وترك أخاه إثناسيوس في حكم نوفغورود وذلك في عام (٧١٥هـ/ ١٣١٥م)[3].

ويبدو أن الخان اقتنع بوجهه نظر ميخائيل، فأعاده إلى إمارته بمساندة

(١) النويري: ج٣٢ ص٢٥١. (٢) المصدر نفسه: ج٣٣ ص٤٧ ـ ٤٩.

(٣) Karamazin: IV, p217, Von Hammer: p286.

عسكرية مغولية بقيادة طاي تيمور وعمر خوجا، فذهب مباشرة إلى نوفغورود، فتصدى له إثناسيوس عند تورجق. وجرت بين الطرفين رحى معركة طاحنة في (أوائل عام ٧١٦هـ/ ربيع عام ١٣١٦م) أسفرت عن انتصار ميخائيل، فاستعاد نوفغورود، وأجبر إثناسيوس على دفع الجزية وتقديم عدة رهائن ضماناً لإخلاده إلى الهدوء.

لم يركن جورج إلى الهدوء، فذهب إلى سراي، واسترضى أوزبك، فعيَّنه أميراً كبيراً مكان ميخائيل، وزوَّجه أخته كونشاك التي تعمدت واتخذت اسم أكاثا، على الرغم من توجهات أوزبك خان الإسلامية، وأعاده إلى بلاده، وأرسل معه قوة عسكرية مغولية بقيادة قاوغادي.

ويبدو أن ميخائيل رفض قرار عزله، واصطدم بالقوة المغولية المساندة للأمير جورج وانتصر عليها، وذلك في (شوال ٧١٨هـ/ كانون الأول ١٣١٨م)، وأسر قاوغادي وزوجة خصمه كونشاك، أخت الخان. وفرَّ جورج إلى نوفغورود، فأعاد تجميع صفوف قواته وتقدم باتجاه الفولغا. وأعاد ميخائيل القائد المغولي إلى سراي، وطلب منه إقناع الخان بأحقيته بالإمارة الكبرى. أما كونشاك فقد توفيت في الأسر، غير أن قاوغادي اتهم ميخائيل، أمام الخان، بثلاث تهم هي:

١ ـ أنه حارب قوات الخان، وتحدّى سلطته.

٢ ـ احتفظ بالجزية ولم يؤدها إلى الخان.

٣ ـ أنه دس السم لكونشاك.

الأمر الذي أثار أوزبك، فاستدعاه واجتمع به على ضفاف بحر آزوف، بالقرب من مصب نهر الدون، وبعد محاكمة سريعة أمر بقتله، وذلك في (٨ شوال ٧١٩هـ/ ٢٢ تشرين الثاني ١٣١٩م)[1]، وبذلك انفرد جورج أمير موسكو بالإمارة العظمى على كامل بلاد الروسيا، ونقل جثة غريمه إلى موسكو ودفنه في كنيسة المخلص في الكرملين[2].

وإذا كان أوزبك خان قد وثق بالأمير جورج حين عيَّنه في الإمارة الكبرى، وأمل بأن يحقق الأمن والنظام، ويجمع الجزية ويرسلها إلى سراي؛ إلا أن

(١) Karamazin: IV. pp221-234. Von Hammer: pp257, 290, 291. Howorth: Prt II, Div.I, pp151-154.

(٢) الكرملين: يُدعى في الأصل كرمنيك، أو الحجر المحروق نظراً لبنائه من أحجار بركانية.

أمله قد خاب، فقد واجه الأمير المسكوفي بعض الصعاب من جانب جيرانه، كما لم يتمكّن من جمع الجزية؛ ولذلك أرسل الخان، في العامين الأخيرين من حكمه، أربع فرق عسكرية لمساعدته في مهمته.

وخلف ميخائيل في توير ابنه ديمتري، فذهب إلى سراي للمثول أمام الخان والحصول منه على براءة التعيين، وتوسل إليه لتعيينه أميراً كبيراً، ثم عاد إلى بلاده.

ويبدو أن أوزبك خان، من واقع سياسته الروسية التقليدية القائمة على تغذية النزاعات الداخلية منعاً لاتحاد الإمارات الروسية؛ قد وافق على تعيين ديمتري حاكماً على فلاديمير بدلاً من جورج، وحمل القائد المغولي سوينج بوقا منشوّر التعيين إلى توير، الأمر الذي أثار جورج فذهب إلى المعسكر المغولي لرد اعتباره واستعادة إمارته العظمى، فلحقه ديمتري عن طريق الفولغا وقازان لقطع الطريق عليه، واصطحب معه أخاه ألكسندر، فاستولى على ما كان يحمله جورج من هدايا للخان. وما إن التقى الرجلان في معسكر الخان حتى أقدم ديمتري على قتل خصمه جورج انتقاماً لمقتل والده، وذلك في (١٤ ذي الحجة ٧٢٥هـ/ ٢١ تشرين الثاني ١٣٢٥م)، وسط ذهول الأمراء والوزراء من هذه الجرأة. ولم يحرك الخان ساكناً حتى مضت عشرة أشهر، فأذن لألكسندر بالعودة إلى بلاده توير وأبقى ديمتري في ضيافته. ثم حدث أن ذكّر الوزراء الخان بسوء تصرف ديمتري فأمرهم بقتله، فقتلوه على ضفاف نهر لاندراكلاي، ونُقلت جثته إلى موسكو ودُفن في كنيسة القديس ميخائيل، وعيَّن الخان أخاه ألكسندر أميراً كبيراً في فلاديمير[1].

وجرى المشهد الدرامي التالي في عام (٧٢٧هـ/ ١٣٢٧م)، فقد أرسل أوزبك خان ابن عمه الأمير شفقال على رأس قوة عسكرية قليلة العدد إلى توير لإصلاح بعض الأمور التي بلغته بعد عودة ألكسندر، فظن السكان أن مهمته تقضي بتحويل الروس إلى الإسلام والتخلص من ألكسندر وتنصيب حاكم من المغول مكانه، وفرض ضرائب جديدة لتمويل حملة مغولية ضد إيران.

وانتشرت هذه الإشاعة بين الروس في مختلف الولايات، وصدّقوها على الرغم من أنها مغايرة للواقع، بدليل أنه لم يكن مع الأمير المغولي سوى

(١) Howorth: Prt II, Div.I, pp159, 160.

شرذمة من الجند لا تكفي لتغيير الواقع السياسي، يضاف إلى ذلك، ما عُرف عن أوزبك خان تسامحه الديني، وقد منح رجال الدين النصارى في روسيا امتيازات خاصة، ولم يصدر عن هؤلاء ما يُعرِّض الدين الإسلامي والمسلمين للخطر، ولذلك يُستبعد أن يصدر عنه مثل هذا التوجه، ولكن الروس، الذين اتصفوا بالجهل، صدّقوا كل رواية من هذا القبيل.

أثارت هذه الأنباء مخاوف ألكسندر، فعقد اجتماعاً مع أركان حربه للتباحث في الخطوة الواجب اتخاذها لمواجهة الموقف، فتقرّر التصدي للمغول والانتقام لمقتل والده ميخائيل وأخيه ديمتري.

وكان شفقال في غضون ذلك، مقيماً في قصر ميخائيل، فسار إليه ألكسندر على رأس الفئات الشعبية التي التفَّت حوله وساندته، وحاصره. وجرى قتال بين الطرفين استمر من الصباح إلى المساء. ونظراً لقلة عدد أفراد القوة المغولية، فقد تحصَّن هؤلاء بالقصر، فما كان من ألكسندر إلا أن أضرم النار فيه فاحترق بمن فيه من المغول، كما انتقم الروس من التجار المغول المقيمين في توير[1].

وسرعان ما انتشر هذا النبأ في أطراف روسيا، فأثار الهلع بين السكان الروس وأيقنوا بالهلاك، كما أثار هذا النبأ المفجع أوزبك خان فصمَّم على الثأر والانتقام.

أتاحت هذه الأحداث لأمير موسكو إيفان كاليتا (٧٢٨ - ٧٤٠هـ/ ١٣٢٨ - ١٣٤٠م) أخي جورج دانيلوفيتش، الاستفادة من الصعوبات التي كان يواجهها ألكسندر في علاقته بالمغول، فذهب إلى المعسكر المغولي وقابل الخان الذي كلفه بإخماد ثورة ألكسندر على أن يمنحه مقابل ذلك الإمارة الكبرى، وأرسل معه قوة عسكرية مغولية قوامها خمسين ألف جندي، كما أمر ألكسندر فاسيليفتش أمير سوزدال بالانضمام إليه.

هاجم الحلفاء مدينة توير ومدن أخرى في المقاطعة، وأجبروا ألكسندر وأخويه على الفرار، فذهب الأول إلى بسكوف، في حين التجأ أخواه قسطنطين وإيفان إلى لادوغا، ثم دمروا المدينة، كما هاجموا مدينتي كاشين وتورجيك وهدموهما وقتلوا سكانهما[2].

(١) Karamazin: IV, p254, 256. Von Hammer: pp294, 295.

(٢) Karamazin: IV, pp254-256. Von Hammer: pp294-295.

بعد القضاء على ثورة ألكسندر في توير، ذهب إيڤان كاليتا إلى المعسكر واصطحب معه الأميرين قسطنطين وإيڤان، أخوي ألكسندر، فشفع لهما عند الخان، ومنحه الخان الإمارة الكبرى، وعيّن قسطنطين أميراً على توير، وأمره أن يتتبّع أخاه ألكسندر ويقبض عليه ويسلمه إياه. فذهب إلى بسكوف وطلب من أميرها تسليمه له فرفض، لكن قضية تسليمه كانت ضرورية لتجنيب روسيا مزيداً من الحروب، عندئذٍ تدخل المطران ثيوغنوستوس وهدَّد أمير بسكوف وسكانها بالحرمان، فتخلوا عن ألكسندر، ففرَّ إلى ليتوانيا، والتجأ إلى أميرها غيديمين وذلك في عام (٧٢٩هـ/ ١٣٢٩م)، وبعد عدة أعوام عفا عنه أوزبك خان بعد توسط المطران، فعاد إلى بسكوف في عام (٧٣٣هـ/ ١٣٣١م) ونُصِّب أميراً على توير للمرة الثانية، وحكم حتى عام (٧٣٧هـ/ ١٣٣٧م)[١].

كان إيڤان الأول كاليتا رجلاً طموحاً، أدرك أن سبب ضعف الروس هو تفرقهم في إمارات متناحرة، لذلك قرّر ضمّ كافة هذه الإمارات وتوحيد البلاد تحت سيادة إمارة موسكو، مستغلاً علاقته الجيدة بالقبيلة الذهبية. وحدث في عام (٧٣٣هـ/ ١٣٣٣م) أن توفي ألكسندر، أمير سوزدال، من دون عقب، فضمَّ إيڤان هذه الإمارة إلى بلاده، وعين قسطنطين، أخا ألكسندر، حاكماً عليها، وزوَّج إحدى بناته إلى ڤاسيلي أمير ياروسلاف، وأخرى إلى قسطنطين أمير روستوف، الأمر الذي أتاح له التدخل في شؤونهما الداخلية، كما عزل منافسه ألكسندر، أمير توير[٢].

التفت إيڤان بعد ذلك إلى تحصين موسكو، فأحاطها بسور خشبي، وأعاد بناء الكرملين وبنى عدة كنائس من بينها كنيسة القديس ميخائيل، التي أضحت مكاناً لدفن الأمراء الروس[٣].

وشجع إيڤان التجارة التي انتعشت في عهده، فدخلت روسيا في المجال الاقتصادي الذي سيطر عليه الحلف الاقتصادي المعروف بالعصبة الهانسية، والذي ضمَّ معظم دول أوروبا الشمالية والوسطى. وكانت هذه العصبة تزود روسيا بمنتجات دول البحار الشمالية، في حين كان التجار الجنويون في كفّا وآزوف يسيطرون على التجارة الجنوبية، وينقلون بضائعهم إلى المناطق الشمالية

---

(١) Karamazin: IV: pp272-276. (٢) Ibid.

(٣) Karamazin: IV, pp300, 301.

للبحر الأسود بسلام، بفضل تشجيع أوزبك ورعايته واهتمامه بتأمين سلامة التجار والطرق التجارية. وأقيم السوق التجاري الروسي الأول في مدينة خولوبيغورودوك، الواقعة على مصب نهر مولوغا، حيث يجتمع التجار سنوياً لتبادل التجارة، وبنى الروس سبعين فندقاً لإقامتهم. وكانت العائدات المحصَّلة من التجارة والرسوم التجارية، والبالغة سبعة آلاف ومائتين رطلاً من الذهب والفضة، تصب في خزينة إمارة موسكو الأمر الذي زاد من ثراء إيڤان وقوته. وبفضل هذا الثراء استملك عقارات ضخمة في إمارات نوڤغورود وفلاديمير وكوستروما وروستوف[١]، ونصَّب نفسه حكماً على الأمراء، وإذا حدث أن قام أحد هؤلاء بثورة ضده أخمدها بمساعدة المغول. فقد ثار عليه قبل وفاته بعدة أشهر، أمير سمولنسك، وسانده حاكم ليتوانيا غيديمين، فأرسل إليه أوزبك خان جيشين لإخماد الثورة[٢].

توفي إيڤان الأول كاليتا في عام (٧٤٠هـ/ ١٣٤٠م)[٣]، وخلفه ابنه سيمون (٧٤٠ ـ ٧٥٤هـ/ ١٣٤٠ ـ ١٣٥٣م) بمساندة أوزبك خان في ظل تحفز كل من قسطنطين أمير سوزدال، وقسطنطين أمير توير لخلافته، والمعروف أن سيمون ذهب إلى سراي على أثر وفاة والده، واجتمع بأوزبك خان، وطلب منه أن يعينه خلفاً لوالده، وتعهد له بتنفيذ كافة الالتزامات تجاه المغول، فوافق الخان على تعيينه وأعطاه منشوراً بذلك[٤].

العلاقة مع الإيلخانيين في إيران

استمرت العلاقة العدائية بين الدولتين المغوليتين، القبيلة الذهبية وإيلخانية إيران، إذ إن الحملة العسكرية التي قام بها أوزبك في عام (٧١٨هـ/ ١٣١٨م) إلى دربند وشيروان، كانت موجهة ضد الإيلخان أبي سعيد. وقد نسَّق الخان المغولي مع المماليك في مصر، الذين هاجموا منطقة ديار بكر، في الوقت الذي أرسل فيه أوزبك خان حملته إلى أذربيجان بقيادة الأمير سراي قتلغ، أخي قتلغ تيمور.

وقد تقرّر في المجلس العسكري، الذي عُقد في إيلخانية إيران، أن يقوم

---

(١) Karamazin: IV, p308. (٢) Ibid: p303.

(٣) الرزمي: جا ص٥٢٠. Ibid: p298. Von Hammer: p302. Howorth: Prt II, Div.I, p170.

(٤) المصدر نفسه. Karamazin: IV, p315.

الأمير إيرنجين بالدفاع عن ديار بكر في حين يهاجم الإيلخان بنفسه أراضي أوزبك[1]. وتنفيذاً لهذه الخطة العسكرية أرسل أبو سعيد قوة عسكرية كطليعة إلى منطقة الحدود، بقيادة الأمير طرمطاز، فعبرت نهر الكر إلى دربند وشيروان، وعبر الأمير سراي قتلغ من جهته مضيق الدربند وهاجم مناطق الحدود ودمّر مساحات شاسعة، وصدَّ الأمير طرمطاز، الذي لم يكن يملك القوة الكافية للصمود أمامه، فغادر المنطقة ولحق بسلطانه أبي سعيد.

ويبدو أن الذي شجَّع أوزبك خان على مهاجمة أراضي الإيلخانية، هو طلب المساعدة المقدم من الأمراء الناقمين على حكم أبي سعيد ووزيره جوبان المستبد بدولته.

وتقدم أبو سعيد على رأس جيشه باتجاه نهر الكر وعسكر على ضفته منتظراً قدوم الجيش القبجاقي للاصطدام به، ولما وصل هذا الجيش عسكر على الضفة المقابلة للنهر، وحجز النهر بينهما إذ تعذَّر على أي منهما عبوره، بفعل فيضان الماء.

وحدث في غضون ذلك أن فَقَدَ أبو سعيد مصادر تموينه بفعل تعرض ماشيته للمرض، ونفقت نتيجة ذلك، فدب الذعر في معسكره، كما خشي الدخول في معركة مع الجيش الأوزبكي بفعل قلة عدد جنوده. والمعروف أنه كان قد أرسل وزيره جوبان على رأس معظم الجيش إلى خراسان للتصدي لهجوم الملك الجغتائي ييسور. وحتى يكثر من معه من الجند في أعين أعدائه، عمد إلى نشرهم على شكل خط مستقيم على ساحل نهر الكر، ثم أرسل إلى وزيره جوبان يستدعيه على وجه السرعة لنجدته، فزحف هذا باتجاه الدربند على رأس مائة ألف جندي، ويبدو أن الجيش الأوزبكي تهيّب الدخول في معركة غير مضمونة النتائج، فانسحب من المنطقة وعاد إلى بلاده[2].

وتجدَّدت الحملات المتبادلة بين الدولتين في عام (٧٢٠هـ/ ١٣٢٠م)، ولكن لم يحصل قتال بينهما. وأرسل أوزبك خان جيشاً في عام (٧٣٥هـ/ ١٣٣٥م)

(١) D'ohsson: IV, p613.

(٢) ابن خلدون: جـ٥ ص٥٣٧. الرمزي: جـ١ ص٥٠٦ ـ ٥٠٨. Howorth: Prt II, Div.I, pp156, 157. Von Hammer: p290.

لمهاجمة أذربيجان وأرَّان، فتوجه أبو سعيد إلى أرّان لصده، ولما وصل إلى حدود شيروان انفضَّ عنه معظم عسكره وعادوا من حيث أتوا بسبب عفونة الهواء وحرارته، ثم توفي أبو سعيد في عام (٧٣٦هـ/ ١٣٣٦م)، وخلفه أربا خان وقد واصل الحرب مع أوزبك. وفي عام (٧٤٢هـ/ ١٣٤١م) قرّر أوزبك القيام بحملة أخرى ضد إيلخانية إيران، غير أنه توفي قبل أن ينفذ مشروعه[1].

العلاقة مع الامبراطورية البيزنطية

غلب على العلاقة المغولية ـ البيزنطية، في عهد أوزبك خان، الطابع السلمي. وشكَّلت الامبراطورية البيزنطية صلة وصل بين مغول القبيلة الذهبية والمماليك في مصر. وتعبيراً عن حسن النية في التعامل السياسي، تقرّب الامبراطور البيزنطي أندرونيقوس الثاني من أوزبك خان بالمصاهرة، فقدّم ابنته بيلون زوجة للخان المغولي[2]، ولعل لهذا التقارب علاقة بمدى ما كانت تواجهه الامبراطورية من أخطار من جانب الأتراك في آسيا الصغرى من جهة، وخطر مملكتي البلقان الحديثتين بلغاريا والصرب من جهة أخرى، فأراد الامبراطور أن يَبرِّد الجبهة مع المغول، وربما فكّر بالاستعانة بهؤلاء لمواجهة أعدائه في الغرب.

غير أن هذه العلاقة السلمية شابها بعض التوتر، ففي عام (٧٢٤هـ/ ١٣٢٤م) نفَّذ بعض الأمراء المغول غارة على مدينة أدرنة، وأغاروا في العام التالي على تراقيا، فتصدّى لهم حفيد الامبراطور وأرغمهم على التقهقر، وكبّدهم خسائر فادحة، فلام أوزبك خان الامبراطور البيزنطي، وأرسل جيشاً لمعاقبة المنتصرين، غير أن هذا الامبراطور برّر موقفه المسالم مدعياً بأن القوات التي اشتركت في القتال ليست قواته، ويبدو أن الخان اقتنع بهذا الموقف فسحب قواته من الأراضي البيزنطية[3].

شخصية أوزبك خان

حكم أوزبك خان مدة ثمانية وعشرين عاماً تقريباً، وكان ذا بأس شديد وشجاعة فائقة، عُرف بتدينه، آثر الفقهاء والفقراء، وأحب العلماء، وسمع

(١) Von Hammer: p303. Howorth: Prt II, Div I p171.

(٢) ابن بطوطة: جـ١ ص٣٧١.

(٣) Von Hammer: p293. Howorth: Prt II, Div.I, pp158, 159.

منهم، وكان يرجع إليهم، ويعطف عليهم، ويتردَّد المشايخ على مجالسه، ويُحسن إليهم.

وذكر ابن بطوطة، الذي زاره واجتمع به، شيئاً من صفاته وخلاله فقال: «وهذا السلطان عظيم المملكة، شديد القوة، كبير الشأن، رفيع المكان، قاهر لأعداء الله أهل قسطنطينية العظمى، مجتهد في جهادهم، وبلاده متسعة، ومدنه عظيمة منها: الكفا والقرم والماجر وأزاق وسرداق وخوارزم، وحضرته السرا[1]، وهو أحد الملوك السبعة الذين هم كبراء الدنيا وعظماؤها»[2]. ويضيف، «وفي الغد من يوم وصولي، دخلت إلى السلطان بعد صلاة العصر، وقد جمع المشايخ والقضاة والفقهاء والشرفاء والفقراء، وقد صنع طعاماً كثيراً، وأفطرنا بمحضره...»[3].

ويتحدث هذا الرحالة عن عادة أوزبك خان في قعوده وسفره وأموره، وهي في «ترتيب عجيب بديع»، ويصف مواكب زوجاته الخواتين، طيطغلي وكبك وبيلون وأردجا، ويتحدث عن شخصياتهن وأخلاقهن، ثم ينتقل إلى ذكر ولدي أوزبك، تيني بك وجاني بك، وأختهما إيت كجحك[4]، ويدل وصفه على فخامة المواكب المغولية وعظمتها.

---

(١) السرا: هي مدينة سراي الواقعة على نهر الفولغا.

(٢) هم أمير المؤمنين أبو عثمان سلطان المغرب، وسلطان مصر والشام، وسلطان العراق، وسلطان بلاد تركستان وما وراء النهر، وسلطان الهند، وسلطان الصين، بالإضافة إلى أوزبك خان. ابن بطوطة: جا ص٣٦٧.

(٣) ابن بطوطة: جا ص٣٦٨، ٣٦٩.

(٤) المصدر نفسه: جا ص٣٦٧ ـ ٣٧٣.

الفصل الثالث

جاني بك ـ بردي بك ـ توقتاميش

جاني بك

(٧٤٢ـ ٧٥٨هـ/ ١٣٤٢ ـ ١٣٥٧م)

اعتلاء جاني بك عرش خانية القبيلة الذهبية

خلَّف أوزبك خان أربعة أولاد هم: تيمور، وقد توفي في عام (٦٣٠هـ/ ١٣٣٠م)، وتيني بك وجاني بك وخضر بك، وكان قد عيَّن تيني بك ولياً للعهد، وعندما توفي الخان، كان هذا يحارب الجغتائيين في بلاد ما وراء النهر، فاتفق الأمراء وأركان الدولة على أن يتولى جاني بك الحكم مؤقتاً إلى أن يحضر أخوه تيني بك. ولما بلغ هذا الأخير نبأ وفاة والده عاد مسرعاً إلى سراي ليتولى الحكم، ولكن الملكة طيطغلي كانت تفضِّل ابنها جاني بك على أخيه، فاتفقت مع الأمراء على التخلص من تيني بك فور وصوله وتثبيت جاني بك في الحكم. وعندما وصل تيني بك إلى سراي جق انقضَّت عليه جماعة المتآمرين وقتلته. وقتل جاني بك أخاه خضر بك حتى لا ينافسه على الحكم، ثم استقر على عرش خانية القبيلة الذهبية[1].

ويبدو أن الصراع على السلطة، بعد وفاة أوزبك خان، اتخذ بُعداً دينياً من واقع تأييد تيني بك النصرانية في الوقت الذي ظلَّت فيه النزعة الإسلامية قوية في المجتمع المغولي، الأمر الذي أدَّى إلى إزاحة تيني بك عن السلطة والتخلص منه.

وحقَّق جاني بك النصر النهائي للإسلام في بلاد القبيلة الذهبية، فاتخذ اسم جلال الدين محمود جاني بك، وأصرَّ على أن يلبس جميع المغول في بلاده عمائم وفرجيات كالتي يلبسها المسلمون في مصر والشام، ولم يكن للمغول

---

(١) ابن خلدون: جـ٥ ص٥٣٨. الرمزي: جا ص٥٢٥، ٥٢٦. Howorth: Prt II, Div.I. p173.

قبل ذلك عادة بلبس هذا الزي، كما أظهر تعاطفاً وحباً للعلماء، فكان يحضر مجالسهم، وأضحت بلاده مأوى لهم وللفقهاء من كل أنحاء العالم الإسلامي، فامتلأت سراي بهم[١].

العلاقة مع المماليك

حافظ جاني بك على سياسة أسلافه في علاقته بالمماليك حكام مصر، تمتيناً لروح الأخوة الإسلامية بين البلدين، فأرسل فور اعتلائه العرش كتاباً إلى حكام مصر يعلمهم فيه بذلك.

كانت مصر آنذاك تمر بمرحلة انتقال الحكم من المماليك البحرية إلى المماليك البرجية، بعد وفاة السلطان الناصر محمد في عام (٧٤١هـ/ ١٣٤٠م)، في تطور سياسي لافت وفي ظل صراع عنيف بين الأمراء على السلطة، لذلك لم يتبادل هؤلاء الرسائل والرسل مع مغول القبيلة الذهبية.

العلاقة مع الروس

حرص جاني بك على المحافظة على سياسة آبائه وأجداده في علاقته مع الأمراء الروس من واقع ضرورة إخضاعهم لدولة المسلمين. وعندما اعتلى العرش زاره الأمير الكبير سيمون غوردي بن إيڤان الأول، للتهنئة، وتجديد العهد والمواثيق، على ما جرت به العادة عند تجدّد الخانات وتبدل الأمراء الروس، ورافقه المطران تيوغنوست.

استُقبل الأمير الروسي بالترحاب، وعُومل باحترام زائد، ومُنح براءة التجديد لسلطته. أما المطران، فقد احتُجز بسبب عدم دفعه الضرائب المفروضة على رجال الدين، وشُدِّد الضغط عليه لتسديدها، فأظهر عندئذٍ الوثائق التي تعفي هؤلاء من الضرائب، فجدّدها جاني بك له[٢].

وحدث في عام (٧٣٩ ـ ٧٤٠هـ/ ١٣٣٩م) أن قُتل ألكسندر، أمير برونسك، على يد إيڤان كوروتوبول، أمير ريازان، أثناء ذهابه إلى المعسكر المغولي حاملاً الضرائب التي جمعها. وعندما اعتلى جاني بك السلطة، طلب منه ياروسلاف بن ألكسندر المساعدة للأخذ بثأر والده، فأرسل إليه جيشاً بقيادة كيندوك حاصر إيڤان داخل عاصمته، ثم اقتحمها وقبض عليه وقتله، وضمّ

(١) Howorth: Prt II, Div.I p173.
(٢) Karamazın: IV, p426.

معظم أملاكه إلى ياروسلاف[١].

وقام الأمير سيمون بزيارة أخرى إلى المعسكر في عام (٧٤٧هـ/ ١٣٤٦م) وعاد محملاً بالغنائم. ويبدو أنه حصل على موافقة جاني بك للتوسع على حساب جيرانه، لأننا نراه يدخل في نزاع مع الليتوانيين بزعامة أولغرد، الذي كان يتعرض لضغط من الألمان في الوقت نفسه، فأرسل أخاه كورياد إلى المعسكر لطلب المساعدة من الخان، غير أن تدخل سيمون في هذه القضية قطع عليه طريق التفاهم معه، وقد أقنعه بخطورة الزعيم الليتواني، فما كان من جاني بك إلا أن قبض على كورياد ومرافقيه وسلمهم إلى سيمون[٢].

لم يكن أولغرد في ذلك الوقت في موقف يسمح له بمحاربة سيمون، فقد كان يخشى أن يتعرض لهجوم من جانب جاره كازيمير البولندي من الغرب، الذي استولى على منطقة غاليسيا في عام (٧٣٩ ـ ٧٤٠هـ/ ١٣٣٩م) وأخضع مقاطعة ڤولهينيا وضايق السكان الأرثوذكس الذين تعرّضوا للاضطهاد والقتل، الأمر الذي أدّى إلى ارتمائهم في أحضان ليتوانيا للحماية. وطلب الأساقفة الروس من سيمون مساندة أولغرد في صراعه مع البولنديين الكاثوليك، فاستجاب لطلبهم، وأطلق سراح كورياد. وحتى يُمتِّن علاقته بأولغرد في مواجهة الكاثوليك زوّجه من جوليان، وهي إحدى قريباته، لكنه اشترط عليه أن يُعمِّد أطفاله الذين ينجبهم منها، والمعروف أن أولغرد كان وثنياً. واستطاع هذا الزعيم الليتواني أخيراً أن يطرد البولنديين من ڤولهينيا، غير أن المقاطعات الروسية الغربية بقيت في أيدي الليتوانيين حتى القرن السادس عشر الميلادي[٣].

توفي الأمير الكبير سيمون في عام (٧٥٤هـ/ ١٣٥٣م) بمرض الطاعون، كما توفي ابناه وأخوه أندريه، ونجا أخوه إيڤان الذي خلفه على العرش بمساعدة الخان المغولي (٧٥٤ ـ ٧٦٠هـ/ ١٣٥٣ ـ ١٣٥٩م)، ونافسه قسطنطين فازيلوڤيتش السوزدالي. ورفض سكان نوڤغورود الاعتراف به أميراً عليهم إلى أن توفي

(١) Karamazin: IV, pp319, 320, 326.
(٢) Karamazin: IV, p357. Howorth: Prt II, Div.I, p176.
(٣) Karamazin: Ibid.

قسطنطين بعد بضعة أشهر[١].

اعتمدت أسرة دانيلوڤيتش على خانية القبيلة الذهبية للاستمرار في الحكم، لذلك خدم زعماؤها الخان بإخلاص، وكانوا تابعين مخلصين وأمناء. غير أن إيڤان الثاني لم يتردد كثيراً على الخانية لدفع المستحقات وتلقّي التعليمات، الأمر الذي آثار المغول، فأرسل إليه جاني بك دعوة شديدة اللهجة لزيارته، وشدّد الضغط عليه لتلبيتها، فهاجم المناطق الشمالية الشرقية لروسيا، وعندما اعتلى الخان الجديد بردي بك العرش في سراي، خلفاً لجاني بك، لم يتأخر في تلبية الدعوة لدفع المستحقات وتلقّي براءة التعيين.

الحملة على أذربيجان

قام جاني بك، في عام (٧٥٨هـ/ ١٣٥٧م)، بحملة على أذربيجان لانتزاعها من أيدي الأمراء الجوبانيين. ولعل لذلك علاقة بنمو الدولة العثمانية وتوسعها في أوروبا وسيطرتها عسكرياً على مضيق الدردنيل في عهد أورخان بن عثمان (٧٢٦ - ٧٦١هـ/ ١٣٢٦ - ١٣٦٠م). حصل ذلك في الوقت الذي تدهورت فيه أوضاع الامبراطورية البيزنطية بعد وفاة الامبراطور أندرونيقوس الثالث في عام (٧٤٢هـ/ ١٣٤١م) حيث عانت من الحروب الأهلية والصراع الداخلي على السلطة بين زعماء اعتراهم الوهن، وفقدت بيزنطية نفوذها في السيطرة على التجارة وحركة المرور في مضيق الدردنيل، الأمر الذي أثّر سلباً على أوضاع مغول القبيلة الذهبية الذين حُرموا من الوصول إلى البحر الأبيض المتوسط، والاشتراك في التجارة الدولية مع أوروبا بعد أن تقاطعت مصالحهم مع مصالح العثمانيين. والمعروف أن العوامل الجغرافية قد حوّلت مغول القبيلة الذهبية في وقت من الأوقات إلى دولة أوروبية شرقية أدّت دوراً مهماً في سياسة المنطقة.

لم يكن جاني بك مستعداً أن يتقبّل، بسهولة وبدون تحدّ، الخسارة الفادحة للجنوب، وإمكان الوصول إليه، لذلك تطلع إلى تأمين منافذ أخرى للوصول إلى البحر الأبيض المتوسط. وكانت إيران تمر آنذاك بمراحل تشرذم إثر تفكُّك دولة الإيلخانيين، حيث الصراع على أشده بين أمراء تقاسموا إرث هذه الدولة.

---

(١) Karamazin: IV, pp345, 353.

وكان الملك الأشرف بن تيمورتاش بن جوبان حاكماً على مقاطعة أذربيجان، وقد اتصف بالظلم، وقتل العباد، ونهب الأموال، وإهانة العلماء والزهاد، الأمر الذي أدّى إلى هجرة كثير منهم إلى مناطق الأطراف، كان من بينهم القاضي محي الدين البردعي الذي ذهب إلى مدينة سراي والتجأ إلى الخان المغولي، ثم راح يحثّه على مهاجمة أذربيجان وانتزاعها من الملك الأشرف، وتخليص العباد من ظلمه.

رأى جاني بك في دعوة القاضي فرصة طيبة لتحقيق تطلعاته، فخرج من سراي على رأس جيش، يبلغ تعداده ما بين مائتين إلى ثلاثمائة ألف جندي، قاصداً مدينة تبريز، فعبر دربند شروان ونزل في شنب غازان. وعندما علم الملك الأشرف بخروجه، توجه مع عساكره، البالغ عددهم تسعين ألفاً، إلى أوجان للتصدي له، ونزل بساحل نهر مهران. ولما تقابل الجيشان، هال جنود الملك الأشرف كثرة عدد جنود عدوهم، فخشوا أن يصطدموا بهم، وآثروا الفرار من أرض المعركة. ولحق بهم الملك الأشرف الذي ذُعر هو الآخر، ولحق بأسرته في مرند سوي، ثم توجّه إلى خوي، والتجأ عند أحد أصدقائه، الشيخ محمد البالقجي، لكن هذا الشيخ ضرب بقواعد الضيافة عرض الحائط، وأخبر سراً جاني بك بوجود الملك الأشرف في منزله، فأرسل الخان المغولي من قبض عليه وقتله[١].

ودخل جاني بك مدينة تبريز، فمكث فيها أربعين يوماً ثم غادرها إلى أوجان ومنها عاد إلى بلاده، واصطحب معه تيمورتاش، ابن الملك الأشرف، وابنته سلطان بخت، وعيَّن ابنه بردي بك حاكماً على المدينة، وترك معه حامية عسكرية مؤلفة من خمسة عشر ألف جندي[٢].

والواقع أن الاستيلاء على أذربيجان مهّد لجاني بك السبيل للاتصال المباشر ببلاد الشام والعراق، ولكنه مع ذلك، لم يستغل انتصاره، وترك المنطقة عائداً إلى بلاده، كما ذكرنا. والراجح أن مغادرته المنطقة كانت بسبب تفشي وباء الطاعون، بدليل أن صحته اعتلّت أثناء عودته إلى سراي مباشرة، واشتد عليه المرض، وتوفي فور وصوله إلى عاصمته. وفي رواية أن ابنه بردي بك قتله خشية من شفائه لأنه كان طامعاً في الحكم[٣].

---

(١) الرمزي: جـ١ ص٥٢٨ - ٥٣٢. Von Hammer: p312. Howorth: Prt II, Div.I, pp178, 179.

(٢) Von Hammer: P312.

(٣) Ibid.

بردي بك

(٧٥٨ ـ ٧٦٠هـ/ ١٣٥٧ ـ ١٣٥٩م)

أهم أعمال بردي بك

عندما علم بردي بك بوفاة والده، غادر تبريز عائداً إلى سراي على وجه السرعة ليخلفه في الحكم، وخشية من منافسة إخوته الكثيري العدد، وعيّن أخي جوق نائباً عنه في حكمها وعندما وصل جلس على عرش مغول القبيلة الذهبية[١].

كان أول عمل أقدم عليه، هو التخلص من إخوته، فقتل اثني عشر منهم، وزاره الأمراء الروس للتهنئة وتجديد العهود والمواثيق، كان من بينهم إيڤان الثاني أمير موسكو، وڤاسيلي صاحب توير وحفيده ڤسيڤولود صاحب كولم، فثبّتهم في إماراتهم، وجدّد امتيازات الكنيسة الروسية ورجال الدين الروس[٢].

وعقد بردي بك معاهدة تجارية مع البندقية في (شوال ٧٥٩هـ/ أيلول ١٣٥٨م)، وقّعها عن الجانب البندقي جيوفاني كوبرينو وفرنسيسكو بيونو، وقد ثبّتت الامتيازات السابقة الممنوحة للبنادقة في عهد جاني بك، وأضافت إليها بنوداً جديدة تتعلق بمقدار الضريبة التي تُدفع إلى قتلغ بك أمير تانا[٣].

وتراجع في عهد بردي بك النفوذ المغولي القبجاقي عن أذربيجان، وتلاشت إنجازات جاني بك التي حقّقها في إيران وذلك على يد الشيخ أويس الجلائري حاكم العراق الذي طرد أخي جوق من تبريز، وضمّ المدينة والمقاطعة كلها إلى أملاكه[٤].

(١) الرمزي: جا ص٥٣٢.

(٢) Karamazin: IV. pp365, 366.

(٣) Von Hammer: pp519, 521, 522.

(٤) إقبال: ص٥٥٥، ٥٥٦.

أما على الصعيد الداخلي، فقد اتصف بردي بك بالقسوة والظلم، الأمر الذي أثار الأمراء عليه، فوثب أحدهم، ويُدعى قولبا، عليه وقتله وجلس مكانه وذلك في عام (٧٦٠هـ/ ١٣٥٩م). وانتهى، مؤقتاً، بوفاته العصر الذهبي لمغول القبيلة الذهبية، وانقطع نسب باطو خان لأن بردي بك لم يخلف ولداً، وسرى في المجتمع المغولي القول «انقطعت رقبة الجمل العربي في بردي بك» وكأنهم شبّهوا النسب برقبة الجمل من حيث القوة أو الطول[١].

الاضطرابات السياسية ونتائجها بعد وفاة بردي بك

أصيب البلاط المغولي والدوائر الحاكمة في الدولة باضطراب شديد بعد وفاة بردي بك، وعلى مدى أكثر من عشرين عاماً (٧٦٠ ـ ٧٨٢هـ/ ١٣٥٩ ـ ١٣٨٠م) ظهر خلالها خطر تمزق الدولة، وتولى الحكم عدد من الخانات لم يكن أحد منهم على مستوى يؤهله لأن يمارس الحكم ويجمع شتات المغول. وكثر عزل وتولية الخانات، فلا يكاد الخان يبقى في منصبه أشهراً، بل أياماً، حتى تُدبَّر مؤامرة ضده ويتولى آخر الحكم، وتتصف هذه المرحلة بالغموض والتضارب. وبالمقارنة مع المدة الزمنية السابقة، فإن هذه المدة تتخذ مظهراً أقل روعة، فقد عمَّت الاضطرابات الداخلية، واستقل الولاة والقادة بما تحت أيديهم، وتمزَّقت الدولة. والواقع أن هذا الوضع المتدهور نتج عن أسباب منها ما يتصل بالوضع الداخلي، ومنها ما يتعلق بالوضع الخارجي.

فعلى الصعيد الداخلي، واجه مغول القبيلة الذهبية ثلاث مشكلات خطيرة أثّرت سلباً على قدراتهم، ولم يتمكّنوا من تجاوزها إلا بشق النفس:

أولاها: انتشار مرض الطاعون، خلال مُدَدٍ زمنية متقاربة: ففي عام (٧٥٤هـ/ ١٣٥٣م) تعرَّض وسط آسيا وبلاد روسيا بعامة لموجة من تفشي هذا المرض الذي أدّى إلى وفاة كثير من السكان، وبخاصة في مدينة سراي، وتجدّد تفشي هذا المرض في عام (٧٦٥هـ/ ١٣٦٤م)، وأودى بحياة الكثير من السكان، وشلّ الحياة السياسية والاقتصادية.

ثانيها: انكماش الحركة التجارية: فقد سيطر مغول القبيلة الذهبية، منذ تأسيس دولتهم، على القسم الشمالي الغربي لطريق الحرير التجاري القادم من

(١) الرمزي: جا ص٥٣٣. Howorth: Prt II, Division I, p180.

الصين، الأمر الذي أنعش الحركة التجارية لهؤلاء ونمّى اقتصادهم، لكن حدث، منذ منتصف القرن الرابع عشر الميلادي، أن تعطلت الحركة التجارية على هذا الطريق بفعل عدة عوامل منها:

- الانتشار المتكرر لمرض الطاعون في المنطقة، الأمر الذي أدّى إلى إحجام التجار الغربيين، بخاصة، على سلوكه.
- سيطرة أسرة مينغ على السلطة في الصين في عام (٧٦٩هـ/ ١٣٦٨م) منهية الحكم المغولي على هذه البلاد، وقام الصينيون بطرد كافة المغول من بلادهم وقلّصوا حركة التجارة مع العالم الخارجي.
- النزاع بين الجنويين والبنادقة حول مدينة تانا، على ساحل بحر آزوف بالقرب من مصب نهر الدون، في الوقت الذي سيطر فيه العثمانيون على مدينة غاليبولي المهمة في الرومللي في عام (٧٥٨هـ/ ١٣٥٧م)، وهدَّدوا حركة التجارة في المضائق.

ثالثها: الصراع الداخلي على السلطة: أثّرت التراجعات السكانية والاقتصادية على الوضع السياسي العام، فشهدت البلاد منذ عام (٧٦١هـ/ ١٣٦٠م) صراعاً حاداً على السلطة، وكثر المدَّعون والطامعون في الحكم، واستقل الولاة والقادة بمقاطعاتهم، وعظم نفوذهم حتى فاق نفوذ الخانات، فتغلَّب حاجي شركس على ناحية حاجي طرخان[1]، واستقلَّ أوروس بنواحي منغشلاق[2] وجبال خوارزم، وخرج ماماي، زوج ابنة بردي بك، إلى القرم، ونصَّب صبياً ادعى أنه من ولد أوزبك خان يدعى عبد الله، وزحف إلى سراي للاستيلاء عليها وتنصيبه خاناً.

كان على عرش الخانية آنذاك توقتاميش خان، الذي تصفه بعض الروايات بأنه ابن بردي بك، فلما علم بزحف ماماي، هرب منها ولحق بمملكة أوروس خان في ناحية جبال خوارزم، ثم انتقل إلى مملكة بني جغطاي في سمرقند

(١) حاجي طرخان، أو استراخان: مدينة تقع قرب مصب نهر الڤولغا في بحر قزوين، وقد زارها ابن بطوطة وهو في طريقه إلى القسطنطينية بصحبة الخاتون بيلون زوجة أوزبك خان وابنة الامبراطور البيزنطي.

(٢) منغشلاق، وعند الحموي منقشلاغ: قلعة حصينة في آخر حدود خوارزم، وهي بين خوارزم وسقسين ونواحي الروس، قرب البحر الذي يصب فيه جيحون، وهو بحر طبرستان. معجم البلدان: جه ص٢١٥.

محتمياً بالسلطان تيمور. ودخل ماماي العاصمة المغولية ونصَّب عبد الله خاناً على المغول، لكن نازعه أحد الأمراء الذي ساند خاناً آخر هو قتلغ تيمر، فتغلَّب عليهما ماماي وقتلهما. ثم تنافس الأمراء المتغلبون، فهاجم حاجي شركس سراي واستولى عليها، وطرد ماماي منها. استغل أيبك خان الصراع الدامي بين الأميرين المذكورين، فهاجم سراي واستولى عليها واستبدّ بها أياماً ثم توفي، فخلفه ابنه قارن خان، غير أنه تعرّض لهجوم من قبل أوروس خان، فاستولى هذا على العاصمة وتربع على العرش، وهرب قارن خان منها عائداً إلى أراضي مملكته[1]. وفي رواية أن قولبا خان، الذي قتل بردي بك وخلفه في الحكم، مكث خمسة أشهر، حيث وثب عليه أحد أولاد جوجي بن جنكيز خان، ويدعى نوروز بك، بمساعدة طايدولة، زوجة جاني بك، وقتله وجلس مكانه. وتعرّض هذا بعد مدة لمؤامرة حاكها أحد أمراء المغول من أعالي نهر جايق، يدعى خضر خان، فقتله وتربع مكانه على العرش، لكنه لم يهنأ بالحكم، فقد ثار عليه ابنه تيمر خواجة الشقي، بعد خمسة أشهر، فقتله وخلفه في الحكم[2]، غير أنه لم يمكث سوى ستة أيام، وقتل على يد ماماي الذي نصّب أحد الأمراء المغول، ويدعى عبد الله، خاناً أعظم، كما ذكرنا.

وادعى، في غضون ذلك، أشخاص عديدون النسب الملكي على أنهم أبناء جاني بك أو من سلالته، طمعاً في اعتلاء العرش المغولي في سراي، وحاول أحدهم ويدعى كلدي بك فِعل ذلك، لكنه واجه معارضة من الميرزا مريد، أخو خضر خان، الذي دخل سراي وقبض عليه وقتله[3].

وعلى هذا الشكل من الاضطراب والفوضى كانت أوضاع خانية مغول القبيلة الذهبية الداخلية.

وفيما يتعلق بالوضع الخارجي فقد كان هذا الانهيار مريعاً لأنه تصادف مع نمو الإمارة العظمى في موسكو، وشهد ظهور دولتين جديدتين في أوروبا الشرقية، هما مولدافيا وليتوانيا. فقد احتلت الأولى مركزاً مهماً في السياسة الدولية، ونجح حكامها في كسر شوكة المغول في الدانوب الأسفل، فضلاً عن زعزعة حكمهم في بساربيا. وأتى التهديد المباشر من القوة المتعاظمة لدى

(١) ابن خلدون: جه ص٥٣٨، ٥٣٩.

(٢) الرمزي: جا ص٥٣٥.

(٣) المصدر نفسه: ص٥٣٧.

دوقية ليتوانيا الكبرى، التي بدأت منذ نشأتها بالتوسع أكثر فأكثر إلى الجنوب الشرقي، وضمّت إليها منطقة روسيا البيضاء كلها وقسماً كبيراً من شمال أوكرانيا، ثم بدأت تندفع جنوباً باتجاه البحر الأسود. وحقّق الليتوانيون في عام (٧٦٣هـ/ ١٣٦٢م) نصراً هاماً على عصبة الأقطاب المغول في بودوليا في معركة المياه الزرقاء، وأدّى هذا الانتصار إلى طرد جباة الضرائب وإلى تنصيب أسرة ليتوانية من الأمراء كحماة لبودوليا وفولهينيا والكربات على حدود المجر، وكان هؤلاء يدافعون عن الحدود ضد غزوات المغول ويضايقون المسلمين في المقاطعات الساحلية بين مصبي نهري الدنيستر والدنيبر، واحتلوا مدينة كييف في عام (٧٧١هـ/ ١٣٧٠م).

شكل اندفاع الليتوانيين على هذا الشكل نوعاً من التحدي لموسكو التي لم تستطع أن تبقى مكتوفة الأيدي أمام احتلال دولة أجنبية، مثل ليتوانيا، أجزاء واسعة من أراضي الروس القديمة، على الرغم من ادعاء الدوق الأعظم الليتواني ڤيتولد (٧٧٩ ـ ٨٣٣هـ/ ١٣٧٧ ـ ١٤٣٠م) بأنه جابي الجزية والضرائب عن الأراضي الروسية[1].

وظهر في هذه الأثناء نوع جديد من التوتر، فقد استغل أمير موسكو، ديمتري الرابع ابن إيڤان الثاني (٧٦٣ ـ ٧٩١هـ/ ١٣٦٢ ـ ١٣٨٩م)، الاضطرابات التي عصفت بالخانية، وتوقف عن تسديد الضرائب المفروضة على الروس، والمكلف بتحصيلها منهم، في خطوة للانعتاق من السيطرة المغولية وطرد المغول من روسيا، وأقدم في عام (٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م) على احتلال البلغار بمساعدة ديمتري قسطنطينوڤيتش أمير نبشني نوڤغورود وسوزدال، فسيطر بذلك على منطقة وسط الڤولغا، وحرم المغول من مصادر دخلها.

أثار هذا الاستفزاز والتوسع الروسي الأمير ماماي، المستبد بدولة القبيلة الذهبية، فأرسل قوة عسكرية، بقيادة الأمير عربشاه، للتصدي لأطماع ديمتري الرابع، فدخل الأراضي الروسية من خمسة محاور، والتقت فرقه العسكرية أمام نبشني نوڤغورود، فحاصرتها واقتحمتها ثم أحرقتها، واستولت على ريازان. وفرّ الروس من وجهه باتجاه نهر الڤولغا ليعبروه على قواربهم، وغرق إيڤان بن ديمتري السوزدالي في نهر أوكا، وعاد ديمتري إلى سوزدال،

(١) شبولر: ص١٠٢، ١٠٣.

وانسحب المغول إثر ذلك عائدين إلى بلادهم[1].

لم يركن ديمتري الرابع إلى الهدوء، ونهض ليثأر لهزيمته، فهاجم جيرانه الموردڤينيين، حلفاء ماماي، وقتل كثيراً منهم؛ وخرّب بلادهم وأسر نساءهم وأطفالهم ونكّل بالعامة. ولما سمع ماماي بذلك، استشاط غضباً وقرّر الرد سريعاً على هذه الأحداث، لأن الموردڤينيين كانوا من رعاياه، فأرسل جيشاً آخر إلى روسيا لتأديب ديمتري الرابع، غير أن الروس فاجأوا قواته وهزموها وأجبروها على الفرار. فسار عندئذ ماماي بنفسه على رأس جيش جديد، فتوغل في أراضي روسيا حتى وصل إلى ريازان، فقتل وغنم ثم عاد إلى بلاده مرجئاً انتقامه من ديمتري الرابع إلى وقت آخر. ولما وصل إلى المعسكر جهّز جيشين عهد بقيادتهما إلى الأمير بيكيج، أرسل الأول إلى نبشني نوڤغورود لمهاجمتها، على أن ينضم بعد ذلك إلى الجيش الثاني الذي أرسله باتجاه موسكو. ولما علم ديمتري الرابع بأنباء الزحف المغولي خرج لصدّهم، والتقى بهم على ضفاف نهر الڤولغا في مقاطعة ريازان، ودارت الدائرة في هذا القتال على المغول، وفرّوا لا يلوون على شيء[2].

وتبدو أهمية هذه المعركة، التي نشبت في أواسط (ربيع الأول ٧٨٠هـ/ تموز ١٣٧٨م) من خلال الانتصار الروسي على جيش مغولي نظامي لأول مرة منذ مائة وأربعين عاماً، وتُعدُّ مقدمة للمعركة الشهيرة التي ستنشب بين الطرفين في كوليكوا[3].

أثارت هزيمة المغول، الأمير ماماي، فقرر مهاجمة روسيا بنفسه للأخذ بالثأر وتأديب ديمتري الرابع على جرأته، فجهَّز جيشاً جراراً تألف من عناصر مختلفة من الجراكسة واللان والقبحاق والأرمن واليهود والجنويين، وأرسل إلى حكام المقاطعات الروسية يتهدّدهم ويتوعّدهم بأنه سيحذو حذو باطو من قبل. وحتى يقوي موقفه تحالف مع ياغيلا حاكم ليتوانيا، العدو اللدود للروس، واتفق معه على أن يحتفظ المغول بالأراضي الروسية التي تفتح ويكون ياغيلا مسؤولاً عن تحصيل الجزية من الروس، وتسليمها للمغول.

(١) الرمزي: جـ١ ص٥٣٦ ـ ٥٣٨. Karamazın: V, pp54-58. Howorth: Prt II, Div.1, pp210-212.

(٢) Karamazin: V, pp56, 58. Von Hammer: p315.

(٣) كوليكوا: معناها: حقل صيد الأعداء.

خشي ديمتري الرابع من تهديد ماماي واتفاقه مع الليتوانيين، لأن من شأن ذلك أن يشكل خطراً على روسيا من الجنوب والغرب، فاستشار المطران بشأن ذلك فنصحه بالتصدي والمقاومة، فأرسل إلى حكام المقاطعات الروسية بطلب منهم الانضمام إليه مع قواتهم، فلبوا طلبه، وجاءته العساكر من كل حدب وصوب.

وخرج أمير موسكو على رأس الجيش، البالغ عدده مائة وخمسين ألف جندي، باتجاه مناطق الحدود مع المغول، وشيّعه الرهبان والقساوسة وكافة السكان، فعبر نهر أوكا[1] في (٢٤ جمادى الأولى ٧٨٢هـ/ ٢٦ آب ١٣٨٠م). كان ماماي في غضون ذلك يعسكر على ساحل نهر الدون ينتظر قدوم حليفه ياغيلا، فسبقه ديمتري الرابع وعسكر على الضفة المقابلة، في مواجهة الجيش المغولي، في (٥ جمادى الآخرة/ ٦ أيلول)، وعقد مجلساً عسكرياً مع أركان حربه تقرَّر فيه عبور النهر والاصطدام بالمغول، قبل وصول ياغيلا. فعبرت العساكر الروسية النهر في (٦ جمادى الآخرة/ ٧ أيلول)، وعسكرت في مقابل الجيش المغولي. وعبّأ كل طرف قواته استعداداً للدخول في المعركة، وأخفى ديمتري الرابع ربع قواته وراء أجمة بعيداً عن أعين المغول لزجِّها في القتال في الوقت المناسب، وخاض المعركة بالقسم الباقي.

كانت المعركة، التي جرت بين الطرفين في (٧ جمادى الآخرة/ ٨ أيلول)، شديدة وقاسية، وقاد ديمتري الرابع قواته بنفسه، يوجههم ويشجعهم على القتال في حين لم يفعل ماماي ذلك، بل قبع في قلعة مجاورة يراقب سير القتال. وقاتل الروس ببسالة من أجل التحرر والبقاء، وظهرت في الأفق دلائل انتصار المغول، وبدأت العساكر الروسية بالتراجع والفرار. وعندما رأى ديمتري الرابع انهزام قواته، أخرج عساكر الكمين وزجّهم في المعركة، ففاجأ القوات المغولية التي أصابتها الدهشة والذعر، فانفرط عقد صفوفها، واستسلم الجنود المغول لسيوف الروس يقتلونهم كيف شاؤوا، وفرّ من نجا من أرض المعركة. ولما رأى ماماي انهزام قواته غادر، هو الآخر، ميدان المعركة عائداً إلى بلاده. كان ياغيلا قريباً من ميدان المعركة فلما شاهد انهزام المغول عاد إلى بلاده، وطارده الروس، ولكنهم لم يدركوه[2].

---

(١) شكّل نهر أوكا الحد الفاصل بين الممتلكات المغولية والأملاك الروسية.

(٢) الرمزي: جا ص٥٣٨ ـ ٥٤٠. Karamazın: V, p80. Howorth: Prt II, Div.1, pp214, 215.

كانت الخسارة شديدة الوطأة على ماماي، وعجّلت بنهاية حياته السياسية، لكن هزيمته لم تؤثر في إضعاف قوة مغول القبيلة الذهبية، لأنها مكّنت توقتاميش، أحد المطالبين بالعرش، من تسلم الحكم في سراي، فأعاد تأسيس وتنظيم حكومة ثابتة متوازنة، ونهض لإخضاع الروس مجدداً للسيطرة المغولية.

يتحمل ماماي مسؤولية الهزيمة بفعل أنه:

- تمهَّل في مهاجمة ديمتري الرابع المنهك بعد اصطدامه بالقائد بيكيج.
- حذّر الروس وتوعدَّهم بيوم كيوم باطو، الأمر الذي دفعهم إلى التكتُّل والتوحّد والتفاني في القتال دفاعاً عن الأرض والذراري. ويقضي الموقف السياسي السليم، في مثل هذه الحالة، أن يعمد إلى تفرقتهم لإضعافهم.
- أحجم عن قيادة المعركة بنفسه، كما فعل خصمه.
- تألف جيشه من عناصر مرتزقة من مختلف الجنسيات، يقاتلون طمعاً في الغنيمة وليس لقضية وطنية، ويفرون من المعركة عند الصدمة الأولى إذا كانت لغير صالحهم، وربما كان هدفهم التخلص من النير المغولي بدفع المغول إلى الخسارة.
- تعجَّل بدخول الأراضي الروسية وخوض المعركة قبل وصول حليفه ياغيلا، الأمر الذي أتاح لديمتري الرابع أن يقاتله منفرداً وينتصر عليه.
- احتفل الروس بفوزهم، وجعلوا يوم انتصارهم عيداً وطنياً، ولقَّبوا ديمتري الرابع بلقب دونسكي، أي بطل نهر الدون[1].

---

(١) الرمزي: جا ص٥٤١.

توقتاميش

(٧٨٠ ـ ٨٠٨هـ/ ١٣٧٨ ـ ١٤٠٦م)

اعتلاء توقتاميش عرش خانية القبيلة الذهبية

توقتاميش بن تودي خوجة، أمير مغولي يتصل نسبه بجنكيز خان، وفي رواية أنه ابن بردي بك، كما ذكرنا. وفي عام (٧٦١هـ/ ١٣٦٠م) اعتلى أوروس خان عرش القبيلة البيضاء[1]، وكان رجلاً طموحاً، فأراد أن يوحِّد خانية جوجي بضمّ القبيلة الذهبية، وجعلها دولة واحدة قوية وقادرة، ويستقل بحكم مغول القبجاق بعامة، فعارضه ابن عمه تودي خوجة، فقتله، وفرّ ابنه توقتاميش، خوفاً على حياته، إلى تيمورلنك، حاكم بلاد ما وراء النهر، وطلب مساعدته لاستعادة عرش آبائه وأجداده في سراي[2].

ويبدو أن تيمورلنك أولى اهتماماً كبيراً بما كان يجري في خانية جوجي من اضطراب، ورأى في ذلك فرصة لإشباع طموحه تجاه هذه البلاد، وأدرك أن الحرب لا بد واقعة يوماً بينه وبين هؤلاء المغول، في صراع على السيادة، نتيجة لفتوحه المتواصلة في الشرق والغرب، يضاف إلى ذلك أنه لم يكن باستطاعته التخلي عن أمير بمنزلة توقتاميش الذي التجأ إليه وطلب مساعدته، فاستقبله بحفاوة بالغة وعامله كابنه، وبالغ في الإغداق عليه، وعهد إليه بحكم أوترار وصبران، القلعتين الواقعتين على حدوده الشمالية مع القبجاق، وكان قد انتزعهما من مغول القبيلة الذهبية، ووضع تحت تصرفه قوة عسكرية[3].

وعندما ثبَّت أقدامه في الحكم، تطلع توقتاميش إلى استعادة ملك آبائه

(١) القبيلة البيضاء: أسسها أوردا، أكبر أبناء جوجي، في شرقي القبجاق. وهي أصغر الولايات المغولية مساحة.

(٢) Howorth. Prt II, Div I, pp221, 222.

(٣) الرزمي: جا ص٥٤٤. Von Hammer: p331.

وأجداده في سراي، فزحف باتجاه بلاد القبجاق، وأرسل معه تيمورلنك قوة عسكرية مساندة، فلما بلغ جبال خوارزم اعترضه قتلغ بوقا بن أوروس، فاصطدم به وتغلَّب عليه، وجُرح قتلغ بوقا في المعركة، وتوفي بعد ذلك متأثراً بجراحه. واضطر توقتاميش إلى الالتجاء مرة أخرى إلى تيمورلنك في سمرقند[1]. فأمدّه بجيش أخر وأرسله لقتال أوروس خان، وعندما تناهى إلى أسماع هذا، الأخير نبأ زحفه جهَّز جيشاً آخر عهد بقيادته إلى ابنه الأكبر توقتاقيا، وأمره بالتصدي له. وفي المعركة، التي جرت بينهما في سوران، تعرَّض توقتاميش لهزيمة قاسية، وتفرَّق عسكره، ونجا هو بنفسه بعد أن عبر نهر سيحون، وكان جريحاً، فأقام مدة مختبئاً في الأدغال إلى أن عثر عليه ضابط من قبيلة برلاس، يدعى أيديكو، فاعتنى به وحمله معه إلى سمرقند[2].

وطلب أوروس من تيمورلنك تسليمه إياه ليقتصَّ منه مقابل مقتل ولده قتلغ بوقا، فرفض تيمورلنك الطلب، الأمر الذي أدّى إلى اندلاع الحرب بين الرجلين. وزحف تيمورلنك باتجاه بلاد القبجاق في عام (٧٧٨هـ/ ١٣٧٦م) وعسكر في مكان قريب من أوترار. وخرج أوروس من جهته، من سراي، على رأس جيشه، باتجاه بلاد ما وراء النهر، وعسكر بسغناق على مسافة أربعة وعشرين فرسخاً، وظلا هكذا في موقعيهما مدة ثلاثة أشهر لا يتخذ أي منهما قراراً بالتقدم لملاقاة غريمه، بادئاً بالقتال، وجرت فقط بعض المناوشات بين حراس الموقعين والفرق الاستطلاعية من دون وقوع حرب حقيقية، ويبدو أن لذلك علاقة بشدة تساقط الثلج واشتداد البرد، فأوحلت الأرض وتعذر تحرك القوات[3].

وعندما اعتدل المناخ، أرسل تيمورلنك طليعة تعدادها خمسمائة فارس بقيادة ثلاثة من أمرائه هم بارق تيمور وختهاي بهادور ومحمد سلطان شاه، لاستكشاف مواقع العدو، فالتقوا بقوة مغولية بين أوترار وسغناق مؤلفة من ثلاثة آلاف فارس بقيادة تيمور ملك بن أوروس، فاصطدموا بها وتغلَّبوا عليها، وأصيب تيمورملك بسهم في رجله، وانسحب أوروس على إثر ذلك عائداً إلى بلاده. ويبدو أنه تهيَّب الدخول في معركة سافرة مع خصمه، فطارده تيمورلنك

(١) ابن خلدون: جه ص٥٣٩.

(٢) Howorth· Prt II, Div.I, p222.

(٣) الرزمي: جا ص٥٤٦، ٥٤٧.

وتوقتاميش، وتوغَّلا في بلاده، فنهبا القرى، واستاقا الماشية، وأسرا كثيراً من السكان[١].

وتوفي أوروس في هذه الأثناء وخلفه ابنه توقتاقيا، فلم يلبث هو أيضاً أن توفي بعد قليل من الوقت وخلفه أخوه تيمورملك، فاستغل تيمورلنك فرصة تغيير الحكام، وقرَّر توجيه ضربة قاضية لتيمورملك قبل أن يُثبِّت أقدامه في الحكم، فأرسل توقتاميش إلى القبجاق لمحاربته، ووضع بتصرفه قوة عسكرية، وعاد هو إلى سمرقند.

تصدّى تيمورملك لتوقتاميش وهزمه، فالتجأ هذا الأخير مجدداً إلى تيمورلنك، فواساه وأرسله إلى سغناق، وعيّنه خاناً على مغول القبيلة البيضاء. وقد جرت هذه الأحداث في (أول محرم ٧٧٨هـ/ ٢١ أيار ١٣٧٦م)[٢].

اتصف تيمورملك بالإدمان على الشراب لا يصحو من أثره، غافلاً عن إدارة شؤون الحكم، فنفر منه أعيان البلاد، وقرَّروا خلعه وتنصيب توقتاميش خاناً عليهم بدلاً منه[٣].

وقنع تيمورلنك بنتائج الصراع على السلطة في القبيلة الذهبية، إضافة إلى أمله في أن يظل توقتاميش رجله المخلص على الدوام، مُنفذاً لسياسته، إلا أن الخان المغولي لم يحقق أمل حاميه ما أدّى إلى احتدام الصراع بينهما، كما سيمر معنا. وطلب تيمورلنك من توقتاميش أن يزحف إلى سراي وينتزع الحكم من تيمورملك، فجمع جيشاً من قبائل القبجاق الشمالية والموالية له، وعزَّزه بقوة عسكرية من جيش تيمورلنك، وتوجَّه نحو خصمه، وجرى قتال بين الطرفين أسفر عن انتصار توقتاميش. لم يركن تيمورملك لهذه الهزيمة، فجمع جيشاً آخر من قومه وأتباعه، وزحف نحو توقتاميش، فالتقيا في قراتاغ، وجرت بينهما رحى معركة ضارية أسفرت عن انتصار توقتاميش، وقتل تيمورملك في المعركة وتفرَّق جيشه، وذلك في عام (٧٨٠هـ/ ١٣٨٧م). وصفا الجو لتوقتاميش وجلس على عرش القبيلة الذهبية، واستعاد جميع ما كان بأيدي المتغلبين، لا سيما ماماي، ووحَّد البلاد تحت زعامته[٤].

---

(١) Howorth: Prt II, Div.I, pp222, 223.

(٢) Von Hammer: pp333, 334.

(٣) Ibid: p334.

(٤) ابن خلدون: جـ٥ ص٥٣٩. Von Hammer: p334.

العلاقة مع الروس

أرسل توقتاميش، على أثر اعتلائه عرش خانية مغول القبيلة الذهبية، السفراء إلى حكام المقاطعات الروسية يخبرهم بجلوسه على العرش وتفرده بالحكم بعد التخلص من المتغلبين، وعودة أوضاع المغول إلى عهدها السابق من القوة.

كان ذلك رسالة واضحة لهؤلاء بأن العلاقة المغولية الروسية ستتخذ منحىً جديداً قديماً من واقع علاقة الغالب بالمغلوب، فاستقبلوا السفراء المغول بكل مظاهر الاحترام، وأرسلوا الهدايا إلى الخان مع التهنئة باعتلائه العرش، لكنهم اكتفوا بذلك، الأمر الذي أثار توقتاميش لأنه كان ينتظر قدومهم شخصياً إلى بلاطه، كما جرت العادة، ليقدِّموا له الولاء والطاعة، ورمزاً للعبودية، لذلك أرسل، بعد مضي عام، الميرزا آق خوجة مع سبعمائة فارس إلى الأمير الكبير ديمتري الرابع يدعوه وسائر الحكام الروس لزيارته في بلاطه، وتقديم فروض الولاء والطاعة له.

دُهش الأمراء الروس من هذه الدعوة، وبخاصة أن نشوة الانتصار على ماماي كانت ما تزال تملأ قلوبهم، فماطلوا بالرد وهدّدوا الميرزا آق خوجة، فغادر هذا مقرّه في نبشني نوڤغورود عائداً إلى سراي وأخبر توقتاميش بذلك، الأمر الذي أثار غضبه. ولم يمض مدة عام على هذه الحادثة حتى نهض الخان المغولي لتأديب ديمتري الرابع والأمراء الروس الآخرين. فزحف في أوائل عام (٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م) على رأس جيش جرار إلى موسكو عبر نهر الڤولغا، وانضم إليه أوليغ، حاكم ريازان، فاستخدمه دليلاً لعبور الأراضي الروسية.

كانت أخبار الزحف المغولي تصل إلى مسامع الأمراء الروس فتُحدث في نفوسهم الخوف والهلع، فأرسل ديمتري حاكم نبشني نوڤغورود ولديه، ڤاسيلي وسيمون، إلى توقتاميش مع الهدايا، ولم يصمد الأمير الكبير ديمتري الرابع، وكان حريصاً على أن يتجنَّب قوة المغول العاتية، فغادر عاصمته موسكو مع عائلته إلى كوستروما تاركاً أمر الدفاع عنها إلى الأمير أوشي بن الكيرد الليتواني، ورحَّب سائر الحكام الروس بتوقتاميش وقدّموا له الهدايا، واعترفوا بسيادته عليهم.

وتابع الجيش المغولي تقدمه باتجاه موسكو، فعبر نهر أوكا واستولى على

سربوكوف. كانت آراء السكان منقسمة بين البقاء والدفاع وبين الرحيل والفرار، وفعلاً غادرها بعضهم، واطمئن من بقي إلى متانة أسوارها لصدّ الهجوم المغولي، وفرَّ المطران كيبريان إلى توير.

ونظَّم الأمير أوشي أمر الدفاع عن المدينة، فشجَّع السكان على الصمود، ورتَّب العساكر وراء الأسوار، وأغلق الأبواب، واستعَدّ لمواجهة الحصار الذي قد يفرضه المغول.

وظهر الجيش المغولي أمام أسوار موسكو في (١٢/ جمادى الآخرة/ ٢٣ آب)، وراحت بعض فرقه تطوف حول الأسوار لمعاينتها واختيار المكان المناسب لاقتحامها عبره، وعلم توقتاميش من السكان بفرار ديمتري الرابع. وتعرّضت المدينة للحصار والضرب، وجرى تراشق بالسهام مع حاميتها، وأبدى السكان إخلاصاً شديداً لمدينتهم وإيماناً قوياً بقدرتهم على الدفاع عنها حتى بغياب الأمير الكبير، الأمر الذي أفشل خطط توقتاميش لاقتحامها.

وأدرك الخان المغولي، بعد ثلاثة أيام من الحصار والضرب والتراشق، صعوبة اقتحام المدينة وبخاصة أنه يفتقر إلى معدات هدم الأسوار، فعمد إلى الحيلة، فوَّجه نداء إلى السكان أعرب فيه عن نيته في معاملتهم كرعاياه، وأن هدفه تأديب ديمتري الرابع، وطلب منهم استقباله بالخبز والملح والسماح له بدخول مدينتهم لإشباع فضوله، ثم يغادرها عائداً إلى بلاده، ووعدهم بألا يمسهم بسوء.

تدارس أعيان المدينة وقادة الجيش طلب توقتاميش، وقرَّروا رفضه، وعدّوه مكراً منه ودهاء للاستيلاء على المدينة، فتدخل عندئذ ڤاسيلي وسيمون، ابنا ديمتري صاحب نبشني نوڤغورود، ونصحاهم بالموافقة على طلب الخان وفتح أبواب المدينة، وكان الأخوان يرافقان الجيش المغولي، وحلفا لهم بأن الخان سيحافظ على وعده. تقبَّل السكان النصيحة ووافقوا على فتح أبواب المدينة. ويبدو أنهم شعروا بقوة ضغط الجيش المغولي وبعدم قدرتهم على الصمود طويلاً وأرادوا تجنُّب كارثة محققة.

والواقع أن توقتاميش لم يفِ بوعده لأنه كان ينوي الغدر، فما أن دخل الجيش المغولي المدينة حتى استباحها، وجرى قتل السكان ونهب أموالهم وممتلكاتهم، ولم ينج منهم سوى الهارب، وأحرق توقتاميش المدينة قبل أن يغادرها عائداً إلى بلاده محملاً بالغنائم والأسرى، وقُدِّر عدد القتلى بأربعة وعشرين ألفاً.

عاد ديمتري الرابع إلى مدينته بعد رحيل المغول، ولما عاينها ذُهل من شدة الخراب والدمار. فأمر بدفن الموتى، وقدّم مساعدات مادية لمن تبقّى من سكانها، وشرع في إعادة بنائها.

ويبدو أن توقتاميش أراد، بعد عودته إلى سراي، أن يُبرِّد الجبهة الروسية ليتفرغ للجهة الشرقية حيث بدت بوادر التوتر بينه وبين تيمورلنك، فأرسل سفيراً إلى ديمتري الرابع يدعوه إلى المسالمة، فاستجاب له، وأرسل ابنه ڤاسيلي إلى سراي مع عدد من أمرائه وحمَّلهم الهدايا التي تليق بمقام الخان، واحتاط أن يذهب بنفسه، فقنع توقتاميش بذلك[1].

العلاقة بين توقتاميش وتيمورلنك

تأسيس الدولة التيمورية

تعّرضت أواسط آسيا وبلاد ما وراء النهر، قبل نهاية القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، لهزات جديدة عنيفة زعزعت أقطارها وتركتها خراباً، فمن خانية جغتاي، التي فقدت كل سماتها المغولية وأصبحت تعبيراً عن هذه اللهجات التركية المحلية، وفي خضم الاضطرابات السياسية التي أحاطت بها بعد مقتل طرماشيرين[2]، والتي نجمت عن تفكُّك اتحاد قبائل جغتاي نتيجة لاستمرار الحروب بين الإقطاعيين وتفاقم النزاعات الأسرية، بالإضافة إلى النزاع الديني بين الإسلام والوثنية المغولية، ودخول المبشرين النصارى على خط استقطاب المغول؛ ظهرت شخصية تيمور.

والواقع أن الحركة المضادة للإسلام لم تحرز أي تقدم بعد ذلك، وقد اعتلى عرش الخانية شيخ مسلم من أحفاد جغتاي هو السلطان خليل بن اليسور بن دوا بن براق (٧٤٣ ـ ٧٤٤هـ/ ١٣٤٢ ـ ١٣٤٣م)، بعد صراع مع ابن

(١) الرمزي: جا ص٥٥٠ ـ ٥٥٤. Karamazin: pp92-102. Howorth: Prt II, Div.I, pp226-228.

(٢) طرماشيرين (٧٢٦ ـ ٧٣٤هـ/ ١٣٢٦ ـ ١٣٣٤م)، أحد خانات مملكة جغتاي المغولية، اعتنق الإسلام وأطلق على نفسه اسم علاء الدين، ويعد المؤسس الحقيقي لدولة المغول الإسلامية في أواسط آسيا. وبفعل خروجه على التقاليد المغولية وشريعة الياسا، فقد قام المغول ضده، والتفوا حول أحد أبناء عمومته وأعلنوا الثورة عليه. وهرب علاء الدين إلى بلخ في طريقه إلى غزنة للاحتماء بها، لكنه اعتقل من قِبل أحد أقربائه وأعيد إلى العاصمة قارشي حيث قُتل ودُفن فيها.

عمه بوزون الذي كان قد تغلَّب على العرش، ووحَّد من جديد مملكة جغتاي بشقيها: الشرقي - تركستان - والغربي - بلاد ما وراء النهر -، لكن هذه المملكة انقسمت مرة أخرى بعد وفاته إلى إمارات متنافسة، وظلت كذلك حتى وحَّدها من جديد، تغلق تيمور (٧٤٨ - ٧٦٥هـ/ ١٣٤٧ - ١٣٦٤م) حاكم القسم الشرقي من خانية جغتاي، وملك كاشغر وتركستان الصينية، واستعاد بلاد ما وراء النهر من أيدي الأمراء المتغلبين.

ينتسب تيمور إلى أسرة جوركان، أحد فروع قبيلة برلاس التركية، وكان أبوه تورغاي شيخاً لهذه القبيلة، وأمه تكينة خاتون التي يرتبط نسبها بجنكيز خان. وُلد في قرية خواجة إيلغار من أعمال كِش في بلاد ما وراء النهر[1].

نشأ تيمور نشأة لصوصية وعسكرية، فقد بدأ حياته كقاطع طريق يسرق الأغنام، أُصيب بسهم في قدمه في إحدى عمليات السرقة وصار يعرج من أثر ذلك الجرح، فأُضيف إلى اسمه كلمة «لنك»، ومعناها الأعرج، فأضحى اسمه تيمورلنك[2]، ثم رافق الأمراء المتنفذين والقادة العسكريين، وعمل على جمع قوة عسكرية تأتمر بأمره. وبدأ نجمه بالسطوع ابتداء من عام (٧٦١هـ/ ١٣٦٠م)، وقد اتصف بالذكاء الحاد والحكمة والشجاعة، ونشَّأه والده على التمسك بمبادئ الإسلام، وغرس فيه مشاعره السياسية التي كانت تهدف إلى تقويض أركان الدولة المغولية في بلاد ما وراء النهر، فدفعه للتقرب من زعيم يرى أنه يستطيع، تحت لوائه، أن يشق طريقه إلى المجد الذي تطلع إليه بكل جوارحه، وكان هذا الزعيم الأمير قزاغان المستبد بشؤون بلاد ما وراء النهر. وكان تيمورلنك قد أُوفد بمهمة إلى بلاطة في عام (٧٥٧هـ/ ١٣٥٦م)، فأُعجب الأمير به، وزوَّجه بحفيدته أولغاي تركان خاتون ابنة صلاخان، وصحبه معه في حربه الثانية ضد حسين كرت بخراسان.

وسرعان ما اغتيل قزاغان في غمرة الصراعات الداخلية بين الأمراء في بلاد

---

(١) ابن عربشاه، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن محمد: عجائب المقدور في نوائب تيمور: ص٣٩.

(٢) المصدر نفسه: ص٤٢. ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: جـ١٢ ص٢٥٥. وقارن بـ فامبري: ص٢٠٩، الذي يُنكر هذه الرواية ويذكر أن تيمور أصيب في إحدى وقائعه بجرح في ساقه تخلفت عنه عرجة طول حياته، ومن تم أطلق عليه الفرس اسم تيمورلنك، أي تيمور الأعرج.

ما رواء النهر، الأمر الذي أدى إلى زيادة الفوضى ودفعت تغلق تيمور خان، حفيد دوا بن براق، وحاكم مملكة جغتاي إلى النهوض لحماية مصالح أسرته من الدمار التام، فأرسل جيشاً كبيراً من عاصمته الماليق في أقصى شرق الخانية، معظم أفراده من الجتا، أي مغول الشمال، إلى سمرقند لإخضاع الحكام الثائرين، فأخضع بعضهم وهرب البعض الآخر إلى خراسان. والتحق تيمورلنك ببلاط الجغتائيين، فرحَّبوا به وأقروه على ولاية كِش. وعندما غادر تغلق تيمور سمرقند عيَّن ابنه إلياس خوجة حاكماً عليها، واختار تيمورلنك بوصفه أخلص أتباعه، مؤدباً له.

ولنا أن ندرك هنا أن تيمورلنك الذي ربط سلوكه بسياسة تنظيم كل الوسائل لتحقيق هدف بعيد له، لم يكن ليرضى بمنصبه كمؤدب لأمير مغولي، فبدأ بمنازعة وزير ذلك الأمير، ليغادر بعد ذلك سمرقند في السر وينطلق، في نفر من أتباعه، إلى الصحراء التي تمتد بين خانية بخارى وخيوة الحالية وبحر قزوين.

وتغلَّب تيمورلنك على القوات التي كان يرسلها إلياس خوجة لتطارده، وما لبث أن انطلق يطارد الجتا من دون هوادة، فأخرجهم جميعاً من بلاد ما وراء النهر. وساعده على تحقيق هدفه وفاة تغلق تيمور في عام (٧٦٤هـ/ ١٣٦٣م) ومغادرة إلياس خوجة المنطقة إلى الماليق ليستولي على عرش أبيه.

وما إن غادر آخر أمراء المغول أراضي بلاد ما وراء النهر حتى دخل تيمورلنك مدينة سمرقند، فرحَّب به سكانها، وتسلَّم مقاليد الأمور كلها وأضحى سيد بلاده، لكنه لم يتخذ لقب سلطان، واكتفى بلقب بيك حتى لا يؤلب عليه الجغتائيين، كما أن الظروف السياسية الداخلية في بلاد ما رواء النهر لم تكن تسمح بذلك، فقد كان عليه أن يواجه خصومه من الأمراء المحليين، وبخاصة الأمير حسين حفيد قازاغان، وعلى الرغم من ذلك لم يسلم من هجمات أولئك على أراضيه، ولا من مضايقات هؤلاء. فرَدَّ هجمات الجغتائيين، واصطدم بالأمير حسين في بلخ وقتله في (١١ رمضان ٧٧١هـ/ ١٠ نيسان ١٣٦٩م)[1]، فأضحى بذلك الحاكم المستبد ببلاد ما وراء النهر، ثم وضع التاج على رأسه، ونصَّب سيورغاتميش خاناً، إلا أنه كان أُلعوبة في يده. وهكذا قامت الدولة التيمورية.

---

(١) ابن عرشاه: ص٥٦.

تطلع تيمورلنك بعد ذلك إلى التوسع على حساب جيرانه، فبدأ بخراسان التي دانت له، ثم استولى على جرجان ومازندران وسجستان، في عام (٧٨٢هـ/ ١٣٨١م)، وأخضع، في العام التالي، هراة وخوارزم.

وانصرف في عامي (٧٨٨، ٧٨٩هـ/ ١٣٨٦، ١٣٨٧م) إلى إتمام غزو إيران والعراق، ولورستان، وأذربيجان، فهزم السلطان أحمد الجلائري حاكم العراق وأجبره على الفرار(١).

وقضى تيمورلنك الشتاء في تبريز، بعد أن طرد حاكمها قرا محمد التركماني، وفرض على أصفهان غرامة كبيرة لانتفاضها على حكمه(٢)، وخاض، بدءاً من (١٠ رمضان ٧٩٥هـ/ ٢٠ تموز ١٣٩٣م) ما يُعرف بحرب السنوات الخمس. وأهم أحداث هذه الحرب، سيطرته على أقاليم الخزر، وقضاؤه على البيت المظفري في إيران، وحملته على الجزيرة الفراتية وأرمينيا وبلاد الكرج. وفرَّ أحمد الجلائري إلى بلاد الشام بعد أن فشل في استرضاء خصمه، واحتمى بالسلطان برقوق المملوكي(٣).

نتيجة لهذا الانتشار، يكون تيمورلنك قد جاور أراضي القبيلة الذهبية في حوض نهر الفولغا، ولما كان يطمع في إخضاع هذه البلاد إلى سلطته فقد تضاءلت فرص التفاهم بينه وبين توقتاميش، وازدادت فرص الصدام، كما ازدادت هوة الخلاف بين الرجلين حين وحَّد توقتاميش بلاد القبجاق.

وهكذا برز الصراع الحقيقي على السيادة في وسط آسيا بين العنصرين المغولي والتركي. فتوقتاميش المنحدر من سلالة جنكيز خان، المكلف بتنفيذ الياسا، يتمتع بكل إمكانات المغول وقدراتهم، في حين أن تيمورلنك ابن لزعيم قبيلة تركية صغيرة لا سند له غير القبائل المرتبطة معه بالولاء والوفاء.

الحملات العسكرية المتبادلة بين توقتاميش وتيمورلنك

الحملة الأولى: بدأت الاحتكاكات الأولى بين الطرفين في عام (٧٨٧هـ/ ١٣٨٥م) حين أرسل توقتاميش جيشاً تعداده مائة ألف فارس إلى تبريز، فحاصرها مدة أسبوع ثم اقتحمها ونهبها، كما حرَّض حاكم خوارزم سليمان

(١) ابن عربشاه: ص٦٦ ـ ٧٤، ٨١ ـ ٩١. (٢) إقبال: ص٥٩٨ ـ ٦٠٠.
(٣) Sykes, Sir Percy: A History of Persia: pp201, 202.

صوفي على القيام بالثورة ضد حكم تيمورلنك، وأرسل جيشاً لنهب المناطق الحضرية في ما وراء النهر(١).

عدَّ تيمورلنك اعتداء توقتاميش على تبريز تحدياً له ونكراناً للجميل. أما التحدي فلأنه كان يعدّ المدينة من أملاكه بوصفها تابعة لخانية جغتاي. والحقيقة أن هذه المدينة كانت في الماضي مثار نزاع بين الإيلخانيين وبين بني جوجي، وليس للجغتائيين أي حق فيها، لكن تيمورلنك كان يبحث عن ذريعة لمباشرة الحرب. وأما نكران الجميل فلأن توقتاميش اعتلى عرش خانية القبيلة الذهبية بمساعدة تيمورلنك ومساندته له ضد خصومه.

ومهما يكن من أمر فقد استغلَّ تيمورلنك هذه الحملة على تبريز واتخذها ذريعة لشن الحرب، فجّهز جيشاً كثيفاً وخرج على رأسه من سمرقند في (أوائل ٧٨٨هـ/ ربيع ١٣٨٦م) قاصداً بلاد إيران والقبيلة الذهبية، فاستولى على أذربيجان وبلاد الكرج ووصل إلى تفليس، وعاث تخريباً في تلك المناطق بهدف إثارة توقتاميش واستفزازه، لكن هذا الأخير لم يحرك ساكناً وظلَّ قابعاً في سراي، لكن جرى اشتباك محدود بين ميرانشاه بن تيمورلنك وبين بعض حاميات الحدود أسفرت عن انتصار الأول، وأسر عدد من الجنود المغول، فلما عاد بهم إلى والده، أطلق سراحهم وأعادهم إلى سراي، وحمّلهم رسالة عتاب شفهية إلى توقتاميش(٢).

الحملة الثانية: غادر تيمورلنك بعد ذلك منطقة القبجاق وتوّجه إلى بلاد العثمانيين للاستيلاء على الأناضول الشرقي، تاركاً لتوقتاميش حرية التصرف والحركة، وهذا خطأ «استراتيجي» لأن ذلك يعني التعرض إلى كارثة أكيدة، وتقضي السياسة السليمة أن يجتاح القبجاق ويقضي على توقتاميش.

والواقع أن خصوم تيمورلنك المغول تحالفوا ضده، فخلال حرب السنتين جرت محادثات بين قمر الدين دوغلات، أمير الجتا، وحاكم كاشغر وبين توقتاميش، أسفرت عن عقد اتفاق تحالف للوقوف في وجهه. وكان الخان المغولي مغتاظاً من استيلاء تيمورلنك على خوارزم التي كانت جزءاً من خانية جوجي. وقرّر الطرفان اجتياح الأراضي التيمورية من محورين: محور تركستان ومحور خوارزم، وقسَّما قواتهما إلى قسمين، من أجل ذلك:

(١) الرزمي: ج١ ص٥٥٥، ٥٥٦. (٢) المصدر نفسه: ص٥٥٩ ـ ٥٦١.

دخل القسم الأول من الجيش أراضي تركستان عن طريق سغناق ووصل أفراده إلى صبران وحاصروها، غير أنهم لم يتمكّنوا من اقتحامها، بفضل وعي المدافعين عنها بقيادة تيمور خوجة وآق بوقا، واضطر المحاصرون إلى فك الحصار عنها وتفرّقوا في النواحي والأطراف يعيثون فيها تخريباً، فتصدّى لهم عمر شيخ بن تيمورلنك مع عدد من أمراء سمرقند وحاميتها، فعبروا نهر سيحون والتقوا بالجيش المغولي في سهل جوكلك على بُعد خمسة فراسخ من أوترار، وجرت بين الطرفين رحى معركة ضارية استمرت من شروق الشمس إلى غروبها، وأسفرت عن انتصار الجيش المغولي. وفرّ عمر شيخ هارباً وعاد إلى مقر حكمه في أندجان، وتفرّق جيشه. وعاد أمراؤه إلى سمرقند وتحصّنوا بها، وانتشرت الفرق العسكرية القبجاقية في نواحي الصغد.

ودخل القسم الثاني من الجيش الأراضي التيمورية عن طريق خوارزم، فاستولى أفراده على هذا الإقليم وطردوا منه نواب تيمورلنك، وعيَّن عليه توقتاميش حاكماً من قِبَله هو الأمير إيلتمش، ثم توجه نحو بخارى، فضبط أطرافها وحاصر المدينة، لكن من دون جدوى.

كان تيمورلنك في تلك الأثناء يحارب المظفريين في أصفهان، كما ذكرنا، فلما سمع باجتياح توقتاميش لبلاده، عقد الصلح مع هؤلاء وعاد إلى سمرقند على عجل ليتولى إدارة الحرب.

ويبدو أن توقتاميش رأى أن مصلحته الآنية تقضي بتجنُّب خوض معركة سافرة غير مضمونة النتائج مع تيمورلنك، لذلك اكتفى بما حقَّقه من توجيه رسالة له، وانسحب من المنطقة عائداً إلى بلاده محملاً بالغنائم والأسرى، وأحرق قبل عودته سراي تيمورلنك بسمرقند، المسماة زنجير سراي، وقد جرت هذه الأحداث في أواخر (٧٩٠هـ/ ١٣٨٨م).

واستدعى تيمورلنك كل أولئك القادة الذين تصدوا للجيش القبجاقي، فكافأ من أظهر جرأة وأبدى إقداماً، وعاقب من فرّ من المعركة، كما يفعل مغول الجتا، بقص شعر المذنب وصبغ وجهه بالأبيض والأحمر، وتطوافه حافي القدمين في شوارع سمرقند[1].

(١) Von Hammer: pp338, 339.

الحملة الثالثة: استعاد تيمورلنك منطقة خوارزم بعد عودة توقتاميش إلى بلاده وطرد واليها إيلتمش، فذهب هذا إلى سراي وأخبر الخان بذلك، فثارت ثائرته وقرّر استعادتها والانتقام من تيمورلنك، فخرج من عاصمته في (أواخر ٧٩٠ وأوائل ٧٩١هـ/ شتاء ١٣٨٨م) من أجل هذه الغاية، وعبرت إحدى طلائعه نهر سيحون وعسكرت في مكان يدعى فرادق.

وجهّز تيمورلنك جيشاً جراراً وتوجّه لملاقاته وعسكر في ساغرجي، ولما علم بعبور الطليعة القبجاقية قرّر الاصطدام بها متجاوزاً نصيحة أركان حربه بالتأني حتى تصل كافة الإمدادات التي طلبها من أمراء الأطراف. وانضم إليه، في هذه الأثناء، ابنه عمر شيخ على رأس قوات كثيرة وهو عازم على الأخذ بثأره، فزحف نحو فرادق وداهم قوات الطليعة على حين غفلة، فذُعر أفرادها وأسقط في أيديهم، ولم يكن أمامهم سوى الفرار وسلوك طريق النجاة، وعادوا إلى معسكر توقتاميش. وعاد تيمورلنك بعد هذه المعركة إلى سمرقند ليهاجم مدينة أوركانج، عاصمة الصوفيين، ومطاردة قبائل الجتا في الشرق. وبعد أن انتهى من هذا العمل وأمّن أجنحة جيشه انصرف بكل جهده إلى الصراع مع توقتاميش، فزحف في (ربيع الأول ٧٩١هـ/ آذار ١٣٨٩م) باتجاه بلاد القبجاق، فعبر نهر سيحون، واصطدمت إحدى طلائعه بقوة مغولية قبجاقية وأجبرت أفرادها على الارتداد.

كان توقتاميش يحاصر آنذاك قلعة صبران، فلما أُخبر بذلك رأى أن يعود إلى بلاده لانقضاء فصل الشتاء، وكان يمني نفسه بقتال عدوه في هذا الفصل لأن جنده لا يتحملون القتال في الشتاء، فطارده تيمورلنك وأدرك قسماً من جيشه في صاري قاميش، لكن القتال كان سجالاً[1].

الحملة الرابعة: معركة كوندورشا: كان خطر توقتاميش لا يزال قائماً، وشكّل احتمال قيامه بغارات أخرى على بلاد ما وراء النهر مصدر قلق دائم لتيمورلنك، وهو لا يستطيع أن يتابع فتوحه في إيران ما لم يكن مطمئناً على سلامة حدوده وموقف جيرانه من ناحية الشمال الغربي. والآن، وبعد استقرار حدوده مع بلاد مغول الجتا، وقضائه على الصوفيين في أذربيجان؛ أضحى بوسعه التفرغ لمحاربة توقتاميش ومعاقبته، فاستنفر المقاتلين من كافة أنحاء

(١) الرمري: حـ١ ص٥٦٤ ـ ٥٦٧.

مملكته، فجاء ابنه الميرزا ميرانشاه على رأس قوات خراسان، كما جاءه مقاتلون من مختلف المدن، مثل بلخ وبدخشان، وانضم إليه بعض أمراء توقتاميش ممن كانوا ينقمون عليه، أمثال أيديكو من قبيلة قونكرات، وتيمور قتلغ وكونجة أوغلان، حفيدا أوروس خان، فاتخذهم أدلاء.

والواقع أن تيمورلنك لم يلتق حتى الآن بخصمه في ميدان القتال، وأن بوسع جيشه أن يتكيف مع مناخ البلاد التي يغزوها، ويكتفي بالقليل من الزاد والمرعى، وهذه ميزة تفوَّق بها على خصمه. وحتى يصل إلى بلاد القبجاق، كان عليه أن يعبر الصحاري الرملية والسهوب الصلصالية والأودية الجرداء، وحتى يفاجئ خصمه اختار أن يسلك طريق الشمال الدائري الطويل والشاق، وتجنَّب اجتياز الطريق الطبيعي المباشر والقصير الذي تسلكه الفرق العسكرية، عادة، قادمة من السهوب الغربية النائية ومن القولغا والبحر الأسود.

تحرك تيمورلنك في أواخر (٧٩٢هـ/ ١٣٩٠م) على رأس جيش جرار بلغ تعداده مائة ألف مقاتل من الطورانيين والخراسانيين، باتجاه بلاد القبجاق، فعبر نهر سيحون على جسر من القوارب، وأمضى الشتاء في طشقند حيث ألمّ به مرض أوقفه عن الزحف مدة أربعين يوماً، ثم استأنف زحفه في (صفر ٧٩٣هـ/ كانون الثاني ١٣٩١م). وكان ينتقل ببطء من قلعة حدودية إلى قلعة حدودية أخرى عبر سلسلة جبال قراداغ؛ بسبب الفيضانات والثلوج، وتوقف بعض الوقت على الطريق بين طشقند وياسي حيث التقى بوفد أرسله توقتاميش مع هدية ورسالة خلاصة مضمونها اعتراف خان القبيلة الذهبية بفضل تيمورلنك عليه، وإقراره بخطئه بسلوك طريق الحرب، ورغبته في عقد صلح معه وتحالف سياسي.

ويبدو أن الأمر كان مجرد خدعة، وقد تعامل معها تيمورلنك على هذا الأساس، فرفض اقتراحات توقتاميش، وبخاصة أن الخان لم يرسل وزيره الأول علي بك للتباحث معه بشأن الصلح.

واستأنف تيمورلنك زحفه في (١٦ ربيع الأول/ ٢٢ شباط)، فغادر ياسي وصبران، وعبر صحراء القبجاق القاحلة في ستة أسابيع، ووصل في (أول جمادى الأولى/ ٦ نيسان) إلى سارقا أوزن[1]، حيث الأرض معشوشبة، على

(١) حوض نهر ساري ـ سو الحالي، أي الماء الصفراء.

مقربة من جبال ألوغ ـ داغ، وكان قد مضى على خروجه من سمرقند مدة أربعة أشهر، وكانت الأقوات قد بدأت تتناقص، فسمح لجنوده بالصيد لتأمين اللحم.

ويبدو أن توقتاميش علم بزحف خصمه باتجاه بلاده فلم يفاجأ وراح يراقبه، وعمد إلى إجلاء السكان من القرى الواقعة على طريق زحفه، إما خشية عليهم أو لمنعهم من التعامل معه وتزويده بالمؤن.

وأرسل تيمورلنك ابنه عمر شيخ على رأس عشرين ألف جندي كطليعة، فبلغ في (٧ جمادي الآخرة/ ١٢ أيار) منابع نهر توبول، فعبر النهر إلى الضفة الغربية، وعثر على آثار تدل على أن العدو ليس ببعيد، وأسرت خيّالته فارساً قبجاقياً اعترف بأن توقتاميش يعسكر في مكان لا يبعد أكثر من أسبوع باتجاه الغرب عند الضفة الثانية للمجرى الأعلى لنهر أورال.

كان تيمورلنك يدرك الخطر الذي يواجهه ومدى الحرمان الذي كان جنوده يعانونه، فقضى ستة أيام يتحرك غرباً بمسيرات قسرية ليصل إلى ضفاف نهر أورال، وكانت هناك ثلاث مخاضات قريبة منه يمكن للجيش أن يعبر منها، لكن تيمورلنك، الذي اتصف بالحذر دائماً، أمر أفراد الجيش أن يعبروا سباحة من مكان آخر. ولما وصل إلى الضفة الثانية علم أن توقتاميش كان يكمن له عند كل مخاضة، وهكذا نجا الجيش التيموري من كارثة محققة.

واستأنف الجيش التيموري تقدمه غرباً خلال الأودية الضحلة لنهر أورال، وراح يشق طريقه عبر المستنقعات إلى أن وصل إلى نهر صمار أو صقمار، أحد روافد نهر أورال، فعبره، وألفى نفسه يواجه طلائع الجيش القبجاقي. وجرى اشتباك محدود بين طليعة الجيشين، أُسر خلالها عدد من جنود توقتاميش، واعترف هؤلاء لدى استجوابهم بأن الخان قد جمع جيشاً كبيراً، وهو يستعد لمواجهة الجيش التيموري.

والواقع أن توقتاميش اتبع خطة عسكرية تقضي بتجنب الاشتباك المباشر مع العدو، واستدراجه إلى عمق أراضيه الشاسعة لإنهاكه واستنزاف قواه. وعمد إلى إفراغ الأرض من حيوانات الصيد لحرمان التيموريين من الغذاء، ونَصَبَ الكمائن على طريق زحفه، فوقع ثلاثة من كبار ضباط تيمورلنك في إحداها، ما أثر على معنويات الجيش، ثم انسحب باتجاه الشمال.

وأمر تيمورلنك بمضاعفة إجراءات الحذر، وأحيطت المعسكرات ليلاً

بالخنادق والحراسة الشديدة، وقد بدا التعب والقلق على أجسام عسكره وفي نفوسهم، وأخذ الجوع يقرضهم، لذلك تعجل في خوض المعركة. فأرسل فرقة عسكرية بقيادة ابنه عمر شيخ لاستطلاع أحوال العدو، فعبر هذا نهر سوك، ورأى لأول مرة أعلام العدو وجحافله المحتشدة وخيامه المقبّبة، وهو يعسكر في بلدة كوندورشا من أعمال البلغار، فأخبر أباه بذلك، فأمر تيمورلنك بعبور الجيش وعسكر في مواجهة الجيش القبجاقي على مسافة كيلومتر واحد. وعبأ كل طرف قواته استعداداً للاشتباك، الذي جرى في صباح يوم (١٥ رجب/ ١٨ حزيران)، فهاجمت ميمنة تيمورلنك، بقيادة سيف الدين بهادور، ميسرة توقتاميش وأجبرتها على التقهقر. وكانت الميسرة الطورانية في هذه الأثناء، تنوء تحت وطأة هجمات متعاقبة شديدة من ميمنة توقتاميش، حتى تحطَّمت وتقهقرت. وصمد عمر شيخ مع نفر من فرسانه وهم يدافعون عن رايتهم. وحصلت بتحطم الميسرة فجوة في الجبهة التيمورية، فاندفع فيها توقتاميش بتهور مع حرسه فقط، وتوغل حتى مؤخرة القلب التيموري واضعاً نفسه بين مؤخرة هذا القلب وبين تيمورلنك الذي كان يتقدم على أعقاب قلبه بقواته الاحتياطية وحرسه الخاص، وما لبث توقتاميش أن وجد نفسه محشوراً بين نارين. وحطّم تيمورلنك جناحه الأيمن وشق طريقه باتجاه الراية، وذُعر الخان المغولي من هذا الهجوم المباغت، فخرج من ساحة المعركة، وانطلق هارباً مع عدد من أركان حربه لا يلوي على شيء، من دون أن يفكر بالآلاف من جنوده الذين كانوا لا يزالون يشتبكون في ميدان القتال. وسقطت راية القبيلة الذهبية وهوت في ساحة القتال، وانتهت المعركة وهي لا تزال في بدايتها، والراجح أن تيمورلنك تعمّد إضعاف ميسرته لإغراء توقتاميش على الهجوم من هذه الناحية حيث يكون هو بانتظاره، وقد وقع الخان في هذا الإغراء مبرهناً عن قصر نظر في إدارة المعركة[١].

ذيول معركة كوندورشا

ـ الواقع أن معركة كوندورشا، على الرغم من قساوتها، لم تكن الضربة القاضية، وقد امتصت القبيلة الذهبية الضربة وعاودت النهوض من جديد.

---

(١) ابن عربشاه: ص٥٨ ـ ٦١. الرمزي: جـ١ ص٥٦٧ ـ ٥٧٤. ابن خلدون: جـ٥ ص٥٤٠.
Howorth: Prt II, Division I, pp244, 245. Von Hammer: p353

ـ تجزَّأت القبيلة الذهبية، بعد خسارة توقتاميش، إلى عدة إقطاعات صغيرة، ذلك أن تيمورلنك سعى بعد انتصاره إلى مكافأة الأمراء المغول الذين ساعدوه، فسمح لهم باقتطاع مناطق الأطراف والاستقلال بها، وسيطر أوغلان بولاد على سراي، وقتل من كان فيها من أسرة الخان.

ـ ترك تيمورلنك القبيلة الذهبية لمصيرها وعاد إلى سمرقند ليجهز حملة ضد إيران. صحيح أنه عيَّن ضابطاً مغولياً على البلاد التي عدَّها من ضمن أملاكه، لكن هذا التعيين لم يكن أكثر من مجرد سلطة شكلية.

ـ نهض توقتاميش، بعد مغادرة تيمورلنك، لاستعادة حكمه وعاصمته وإعادة توحيد البلاد تحت سلطانه، فهاجم أوغلان بولاد وأجبره على مغادرة سراي، فهرب إلى بلاد القرم، فلحق به وقبض عليه وقتله، ثم حارب المتغلبين في النواحي واستخلص منهم ما اقتطعوه من أراضٍ. ويروي في الكتاب، الذي أرسله إلى ياغيلا حاكم ليتوانيا، ما جرى من القتال مع تيمورلنك، فأرجع سبب الهزيمة إلى انسحاب بعض أمرائه أثناء القتال بالاتفاق مع تيمورلنك أمثال: أيديكو، وبولاد خوجة، وبكش توردي، وجاق بيردي، وداوود، وأنه لم ينته بعد من القضاء على كافة المتغلبين، إلا أنه استعاد سلطته على عاصمته، وطلب منه أداء الجزية والخراج، كما كانت العادة جارية[١].

الحملة الخامسة: نجح توقتاميش، بعد خسارته في كوندورشا، باستعاده سلطته التامة على جميع أراضيه، وأخذ يستعد لجولة أخرى مع تيمورلنك، فرأى أن يقوي جبهته بالتحالف مع المماليك في مصر، وكان هؤلاء قد ساعدوا أحمد بن أويس الجلائري على استعادة حكمه في بغداد التي كان قد طرد منها من قِبَل تيمورلنك، ويعكس هذا الوضع مدى توتر العلاقات بين القوى في المشرق الإسلامي، فأوفد رسله إلى السلطان برقوق ليتباحثوا معه في إمكان تنسيق الجهود والتحالف ضد أطماع تيمورلنك. استقبل السلطان المملوكي أعضاء البعثة في دمشق في (جمادى الأولى ٧٩٦هـ/ آذار ١٣٩٤م)[٢].

والواقع أن المماليك لم يبدوا، في ذلك الوقت، رغبة جديَّة في مقاومة

---

(١) الرمزي: جا ص٥٧٨، ٥٧٩.
(٢) المقريزي: جه ص٣٥٦.

أطماع تيمورلنك بدليل أن السلطان برقوق على الرغم من موافقته على مبدأ التحالف مع توقتاميش، إلا أنه لم يتخذ أي إجراء على أرض الواقع، غير أنه لم يهمل مراقبة تحركات الغازي التركي، وعندما ابتعد الخطر التيموري عاد إلى القاهرة بعد أن جدَّد قلاع بلاد الشام وترك عدداً كافياً من الجند للمحافظة على سلامتها(١).

وكان تيمورلنك قد علم بالمباحثات التي جرت بين الطرفين، المملوكي والمغولي، وبالمراسلات بين كل من السلطان بايزيد العثماني وأحمد بن أويس الجلائري، مع السلطان برقوق، من أجل توحيد الجهود ضده، لذا حرص على ضرب أعدائه منفردين قبل أن يتوحَّدوا، فأجرى تعديلاً على خططه، فصرف النظر مؤقتاً عن مهاجمة بلاد الشام كما كان ينوي ذلك، وفضل أن ينقل عملياته العسكرية إلى الشمال حيث كان يتوقع أن يقوم توقتاميش بعملية عسكرية مباغتة، فهاجم بلاد الكرج، القريبة من الخانية الذهبية، بانتظار ما سوف ينجلي عنه الموقف.

والواقع أن مسألة أذربيجان هي التي فجرت الموقف، فقد أصرَّ توقتاميش على انتزاعها من تيمورلنك بوصفها من الأملاك السابقة للقبيلة الذهبية، وإذا نجح في ذلك فإنه يُفقد تيمورلنك ميزة سرعة التحرك والتنقل من وإلى بلاد ما وراء النهر. وما دامت قواته موجودة في تلك المنطقة، فإن بلاد ما رواء النهر تصبح تحت رحمته، لذلك عبرت قواته بوابة دربند في (محرم ٧٩٧هـ/ تشرين الثاني ١٣٩٤م)، فتصَّدت لها القوات التي أرسلها تيمورلنك وهو في ضواحي تفليس في بلاد الكرج، ولما وصل تيمورلنك في إثر طلائعه، إلى ضفاف نهر كر في شروان، لاذ توقتاميش بالفرار عائداً إلى بلاده عبر بوابة دربند.

ورأى تيمورلنك أنه من الضروري أن يرد على تحرشات توقتاميش بضربة تستهدف عاصمته سراي مستفيداً من وجوده قريباً منها، وإمكان الوصول إليها من دون أن يعبر الصحاري والقفار التي عبرها في حملته السابقة والتي كلّفت قواته كثيراً من الجهد، وبدأ حركته إلى الشمال في (جمادى الأولى ٧٩٧هـ/ آذار ١٣٩٥م). وحاول توقتاميش، كما فعل في المرة السابقة، أن يثنيه عن عزمه على غزو بلاد القبجاق، فوجّه إليه رسالة بعبارات منمقة أعلن فيها عن

(١) المقريزي: جـ٥ ص٣٦٥، ٣٦٦.

ندمه عما بدر منه من أعمال عدائية ونسب ذلك إلى فساد أمرائه. واستقبل تيمورلنك الوفد القبجاقي الذي جاء يحمل الرسالة، وأظهر لأعضائه عدم اقتناعه بالحجج التي قدَّمها توقتاميش، وتابع استعداداته للحرب.

وعندما أنجز تيمورلنك استعداداته العسكرية، استأنف زحفه باتجاه الشمال والتقى بتوقتاميش الذي كان بانتظاره على رأس جيوشه، على ضفاف نهر ترك، ودارت هناك رحى معركة ضارية في (٢٣ جمادى الآخرة/ ١٦ نيسان) لتقرير من سيتولى حكم العالم الإسلامي الشمالي: الأتراك أم المغول.

لم يسبق لتيمورلنك أن تعرّض في أية معركة للهزيمة والقتل كما تعرّض في هذه المعركة، وظهر توقتاميش ومن معه من الجند وراء خطوط القوات التيمورية، وحاول الوصول إلى تيمورلنك إثر فجوة حدثت في صفوف قواته، وفي غفلة من حراسه المنهمكين بالقتال.

وفجأة رأى القائد الطوراني نفسه مطوَّق بالقوات المغولية ومعزولاً عن قواته، فاضطر أن يدافع عن نفسه، فانكسر سيفه وكُسر رمحه، ولكن أحد قادة الحرس، وهو الأمير نور الدين، مع خمسين من أفراد الحرس، أحاطوا بقائدهم، وحالوا بينه وبين توقتاميش وأمرائه، ونجحوا في صدّ الهجوم وردّ المغيرين على أعقابهم. واتصف القتال بين الجانبين بالضراوة، واستحال ميدان المعركة إلى بحر من الدماء، وقد جُرح في هذه المعركة ميرانشاه بن تيمورلنك والأمير سيف الدين.

رأى توقتاميش، أمام ثبات جنود تيمورلنك، وبسبب كثرة الخسائر التي ألمَّت بقواته، وليأسه من إحراز النصر؛ أن الفرار هو المخرج للخلاص، ففرَّ إلى الغابات الشمالية، وكان فراره إيذاناً لقواته أن تحذو حذوه وتتفرَّق.

وتقدم تيمورلنك في إثر عدوه حتى ضفاف نهر كورا، أحد روافد نهر ترك، حيث كان يقع معسكر توقتاميش، فاستولى عليه، وتابع المطاردة إلى الشمال عبر وادي الڤولغا من دون أن يتمكّن من إدراك خصمه الذي كان مختبئاً في غابات البلغار القائمة على ضفاف نهر كاما، أحد روافد نهر الڤولغا.

أمضى تيمورلنك بعض الوقت على ضفاف نهر كورا للاستراحة والاستجمام، ثم تحرَّك شمالاً وتقدم في الحوض الأعلى لنهر الدون. وأضحت بلاد القبيلة الذهبية الواسعة حتى نهر الدنيبر تحت حكمه، وتابع ابنه ميرانشاه اجتياحه للجناح الغربي لدولة توقتاميش، فأغار على منطقة

كراسو[1]، واستولى على شهر سراي ووصل إلى الحدود البولندية، ثم قفل راجعاً ليلتحق بقوات والده على مقربة من موسكو.

عند هذه النقطة تختلف الروايات، فيذكر بعضها أنه دخل موسكو ونهبها، ويروي بعضها الآخر أنه عسكر في ضواحيها ثم غادرها على وجه السرعة متوجهاً نحو الجنوب بفعل اقتراب فصل الشتاء القاسي، فأغار على المستعمرة الجنوية تانا، وكانت مستودعاً للبضائع الآتية من مصر وإيران وإيطاليا وإسبانيا، فقتل سكانها غير المسلمين باسم الجهاد، وترك المدينة طعماً للنيران، ثم تابع زحفه عبر سفوح جبال القوقاز ليتوجَّه بعد ذلك إلى الشمال من جديد، فاقتحم مدينة حاجي طرخان، الواقعة على مصب نهر الدون على بحر قزوين، وأحرقها بعد أن أخرج سكانها منها.

وسار تيمورلنك بعد ذلك على ضفاف نهر الڤولغا قاصداً مدينة سراي، عاصمة القبيلة الذهبية، فاقتحمها وطرد سكانها منها وأحرقها، وكانت رداً على اعتداء توقتاميش، قبل سبعة أعوام، على زنجير سراي في بلاد ما وراء النهر، وكان في المدينة رسول السلطان برقوق إلى توقتاميش، الأمير طولو بن علي شاه، فاشترك في الدفاع عنها مع الحامية القبجاقية، ثم غادرها عائداً إلى بلاده عن طريق القرم، وبلاد العثمانيين. وذكر هذا الأمير، لدى عودته إلى القاهرة، أن فشل توقتاميش في الدفاع عن عاصمته كان بسبب التحاق قسم من قواته بتيمورلنك أثناء القتال.

وبانتهاء العمليات العسكرية على ضفاف نهر الڤولغا، كان قد حلّ فصل الشتاء، فقرَّر تيمورلنك أن يعود إلى إيران عن طريق حاجي طرخان وبوابة دربند، فوصل إلى أذربيجان في (منتصف ٧٩٨هـ/ربيع ١٣٩٦م)، وعيَّن قبل رحيله الأمير قويرجق بن أوروس خاناً على القبيلة الذهبية، وكان يرافقه في حملته[2].

أضحى تيمورلنك، بعد هذا الانتشار، مطمئناً على بلاد ما وراء النهر من ناحية المنطقة الساحلية اليسرى لبلاد القبيلة الذهبية، وبقي عليه أن يضم

(١) كراسو: أوكرانيا الحالية

(٢) Karamazin: V, p154. Von Hammer: pp351, 355, 358, 361. Howorth· Prt II, Div.I, pp251-254, 259

المنطقة الساحلية اليمنى لاستكمال خطته، أي الأراضي الممتدة من نهر الڤولغا حتى نهر الدنيبر، فأرسل جيشاً إلى هناك، بقيادة شمس الدين عباس، استولى على آق كرمان وأزاق وبعض مناطق كوبان والدون، كما ضمَّ بعض المدن الواقعة على نهر سيحون مثل سغناق وأوترار وياسا.

الواقع أن تيمورلنك حقَّق، من خلال عملياته العسكرية الناجحة في القبجاق، هدفين، فبالإضافة إلى تأمين حدود بلاده من ناحية القبيلة الذهبية، فإنه أضعف هذه الدولة الجبارة التي رأى فيها دوماً تهديداً قائماً لدول آسيا الوسطى.

ذيول غزوات تيمورلنك ـ وفاة توقتاميش

عاد توقتاميش إلى عاصمته سراي بعد انسحاب تيمورلنك، وسعى إلى إعادة تكوين دولته المفكَّكة، فجمع عساكره المشتَّتة، وأتباعه المتفرقين، وأرسل إلى حكام الأطراف والولايات يعلمهم باستعادة سلطته، ولكن لم يلبث إلا قليلاً حتى خرج عليه منافسوه، وبخاصة أيديكو وتيمور قتلغ بن تيمورملك، وهكذا ستشهد خانية القبيلة الذهبية خلال الأعوام القليلة القادمة صراعاً حاداً على السلطة سيؤثر سلباً على أوضاعها.

والواقع أن بلاد القبجاق بعامة قد تجزأت إلى ثلاثة أجزاء، وتوزَّع الحكم فيها بين ثلاثة خانات حكموا في الوقت نفسه.

الجزء الغربي، وقد انقسم بدوره إلى قسمين شمالي وجنوبي، فسيطر توقتاميش على القسم الأول بما فيه العاصمة سراي في حين حكم تيمور قتلغ القسم الجنوبي، واستقر قويرجق خاناً على القبيلة البيضاء في الجزء الشرقي من البلاد.

وهاجم تيمورقتلغ، في غمرة الصراع مع توقتاميش، العاصمة سراي واستولى عليها، وفرَّ توقتاميش منها مع أسرته وخزائنه وأتباعه. وبسبب عداوته القديمة مع موسكو، توجّه إلى كييف ملتجأ إلى فيتولد، حاكم ليتوانيا، وطلب منه المساعدة، وكان قد عقد معه حلفاً دفاعياً هجومياً في عام (٧٩٤هـ/ ١٣٩٢م)، فتعهد هذا بإعادته إلى عرش القبيلة الذهبية. وفي المقابل أضحى من الواضح أن توقتاميش سوف يعترف بالأمير الليتواني أميراً كبيراً على جميع الروسيا ويمنحه مقاطعات كثيرة معظمها تابع لأمير موسكو وبعضها يخص القبائل الذهبية مباشرة. وهكذا أضحى لفيتولد شبه حق بالمطالبة ببعض أراضي القبيلة الذهبية بهدف مد سلطانه إلى البحر الأسود.

وشكّل تيمورقتلغ العقبة التي يجب عليه تذليلها، وهو الذي طلب منه تسليمه توقتاميش وشدّد الضغط عليه من أجل ذلك. وبعد عدد من الغزوات التمهيدية التي جعلته يظن أنه من السهل عليه كسر شوكته ودفعته للتقدم جنوباً على ضفاف نهر الدنيبر. تعرّض لهزيمة حاسمة على ضفاف نهر فورسكلا في (٢ ذي الحجة ٨٠١هـ/ ٥ آب ١٣٩٩م)، وهو أحد روافد نهر الدنيبر، واضطر إلى صرف النظر عن التوسع على حساب القبيلة الذهبية والتخلي عن توقتاميش[١].

لم ينعم تيمورقتلغ بانتصاراته طويلاً، فقد توفي في (أوائل ٨٠٢هـ/ خريف ١٣٩٩م) وخلفه أخوه شادي بك، وقد وقع تحت تأثير الأمير أيديكو المستبد بأوضاع الخانية[٢].

وحاول توقتاميش أن يصلح علاقته بتيمورلنك التي رأى فيها الوسيلة الفضلى لاستعادة الحكم، وقد وعده الغازي التركي بتحقيق رغبته، لكن وفاة هذا الأخير في (شعبان ٨٠٧هـ/ شباط ١٤٠٥م) حالت دون تحقيق ذلك. وقضى توقتاميش بقية حياته مشرّداً حتى قُتل في عام (٨٠٨هـ/ ١٤٠٦م) في تومين إحدى مدن سيبيريا، فاراً من وجه شادي بك[٣]، ويُعدّ آخر الخانات الكبار في القبيلة الذهبية.

أحدثت غزوات تيمورلنك في بلاد القبيلة الذهبية تغييرات جذرية سياسية وسكانية، فقد قوّضت سلطات خانات القبجاق على أتباعهم من الأمراء الروس، وأتاحت الفرصة لهؤلاء للانعتاق من الطوق المغولي، والسير في ثبات لبناء الدولة الروسية القوية. وأخذت أوضاع البلاد تسير من سيء إلى أسوإ في طريقها نحو الهاوية بسبب الحروب الداخلية بين أمراء البيت المالك، كما أحدثت هذه الغزوات تغييراً في التوزيع السكاني في أوروبا الشرقية وآسيا الصغرى، وذلك بسبب الاضطراب والفزع الذي انتاب نفوس السكان، ما جعلهم يفرّون أمام جيوش تيمورلنك خشية القتل. ونزلت بعض جماعات من المغول على سواحل بحر قزوين الشرقية، وتقدّمت جماعات أخرى إلى دوبروجة ومولدافيا[٤]، ونزحت بعض الجماعات الأخرى إلى

(١) Karamazin: V, pp202, 204. Von Hammer: p330.

(٢) Howorth: Prt II, Div.I, pp262, 263.

(٣) ابن عربشاه: ص١٤٩. ويجعل مقتله على يد الأمير أيديكو. الرمزي: جا ص٥٩٦، ٥٩٧.

(٤) هي مناطق في رومانيا اليوم.

ليتوانيا على شواطئ بحر البلطيق حيث لا يزال أحفادهم هناك حتى الوقت الحاضر، كما لا تزال أسماء كثير من الأماكن من أصل مغولي، لكن هؤلاء نسوا أخلاق المغول وعاداتهم ولغتهم، واستقرت بعض الجماعات أيضاً في منطقة تراقيا في الروملي وعلى سواحل بحر إيجة حول أزمير في آسيا الصغرى[١].

(١) الرمزي: جا ص٥٩٤.

الفَصْلُ الرَّابع

المرحلة الأخيرة من تاريخ مغول القبيلة الذهبية

شادي خان
(٨٠٢ ـ ٨١٠هـ/ ١٤٠٠ ـ ١٤٠٧م)

استقرت أوضاع القبيلة الذهبية، بعد وفاة توقتاميش، بأيدي الأمير أيديكو الذي استبدَّ بشؤون الخانية، فأعاد لها قوتها وسيطرتها ما جعلها تجبي الجزية من الأمراء الروس، وراح يولي الخانات ويعزلهم، فعين تيمور قتلغ بن تيمور، خاناً، وتعاون معه في حرب قويرجق خان كما طاردا توقتاميش وتوفي قويرجق في عام (٨٠١هـ/ ١٣٩٩م)، في حين توفي تيمور قتلغ في العام التالي، فعين أيديكو أخاه شادي مكانه، واشتدت في أيامه حدة النزاعات الداخلية بين الأمراء(١).

ويرتبط تاريخ القبيلة الذهبية منذ ذلك التاريخ بتاريخ روسيا، ذلك أن المقاطعات الروسية، موسكو وتوير وريازان وغيرها، كانت تتنازع على الإمارة العظمى، وتتسابق لكسب ودّ الخان المغولي الذي كان يمنح البراءة في الحكم، ما أدّى إلى ازدياد تدخل الخانات في شؤون الروس الداخلية وتصاعد حدة التوتر، واصطدم الطرفان أكثر من مرة في معارك حدودية. ففي عام (٨٠٢هـ/ ١٤٠٠م) تغلّب جيش روسي مشترك، من ريازان وبرونسك وموروم وكوسلسك، على جيش مغولي في مكان على الحدود مع شرنايار على نهر الدون، وأسر قائده محمد سلطان، وفي العام التالي، توغل جيش روسي أرسله الأمير الكبير ڤاسيلي الثاني، ابن ديمتري دونسكي (٧٩١ ـ ٨٢٨هـ/ ١٣٨٩ ـ ١٤٢٥م) في أراضي موردفين بحجة البحث عن أرملة الأمير سيمون ديميتروڤيتش التي كانت قد وقعت أسيرة واحتجزت في شبيرشيا. وفي عام

---

(١) ابن عربشاه: ص١٥٠. Howorth: Prt II, Div.I, p263.

(٨٠٤هـ/ ١٤٠٢م) هاجم المغول حدود ريازان، وجدَّدوا هجماتهم عليها بعد عامين إلا أنهم تعرضوا للهزيمة وتكبدوا عدداً من القتلى والأسرى[١].

وكان ڤاسيلي الثاني قد تعمَّد، لعدة أعوام، تأخير دفع الضرائب والرسوم المتوجبة عليه، فأرسل إليه شادي خان رسالة يستدعيه إلى بلاطه، وذلك في عام (٧٠٤هـ/ ١٣٠٥م)، وبدلاً من الذهاب، أرسل إليه هدية قليلة القيمة[٢]، وهذا يدل على أن الأمراء الروس بعامة وأمراء موسكو بخاصة لم يعودوا يخشون سطوة المغول، وبدأوا مسيرة الانعتاق من الطوق المغولي.

ودخل الطرفان المغولي والمسكوفي في نزاع مع ليتوانيا عدوتهما المشتركة، فطلب ڤاسيلي الثاني من شادي خان أن يمده بمساعدة عسكرية لغزوها، فأرسل إليه بعض القوات، لكن أي إجراء حاسم، لم يُتخذ، ويبدو أن الطرفين خشيا خوض معركة سافرة مع القوات الليتوانية غير مضمونة النتائج، وفي المفاوضات التي جرت بين الأطراف الثلاثة تعيَّن نهر أوغرا كحد فاصل بين حدود الدولتين المسكوفية والليتوانية[٣].

وحدث في عام (٨١٠هـ/ ١٤٠٧م) أن خلع بولاد خان بن تيمور قتلغ شادي خان وجلس مكانه على عرش الخانية، وفرَّ الخان المخلوع إلى داغستان وشيروان[٤].

بولاد[٥] خان

(٨١٠ ـ ٨١٤هـ/ ١٤٠٧ ـ ١٤١١م)

استمرت علاقة التبعية بين المغول المهيمنين على مقدرات المقاطعات الروسية وبين الأمراء الروس. ففي عام (٨١٢هـ/ ١٤٠٩م)، عاد إيفان أمير برونسك من سراي محملاً بالهدايا والألقاب الشرفية، ويبدو أن هدف الزيارة يتعلق بطلب المساعدة لضمّ ريازان إلى أراضيه. وفي الخريف أغار بولاد خان

(١) Von Hammer: p369. (٢) Karamazin: V, p229.

(٣) Ibid: p223-227.

(٤) يجعله خواندمير ابنه، ويعتقد هوارث أنه أخوه أو الأمير الذي هاجمه تيمور في عام ١٣٩٥م، ثم التجأ إلى أيديكو. انظر: روضة الصفا: جـ٤ ص١١٨.
Von Hammer: p370. Howorth: Prt II, Div.I, pp265, 266.

(٥) بولاد أو فولاد.

على ليتوانيا، وأرسل في العام التالي، سفارة إلى موسكو للطلب من ڤاسيلي الثاني الانضمام إليه لحرب الليتوانيين.

ويبدو أن الأمير الكبير رفض الانصياع لهذا الطلب وهو الذي تجاهل، على مدى أعوام، تقديم الطاعة للمغول، وامتنع عن إرسال الضرائب المفروضة عليه للخان منتهزاً فرصة حصول الاضطرابات في بلاد القبيلة الذهبية، وتمادى حين منح أولاد توقتاميش حق اللجوء السياسي في بلاده؛ الأمر الذي أثار الخان المغولي والأمير المستبد أيديكو، فقرّرا تأديبه وإعادته إلى الطاعة. وحتى يأخذه على حين غرّة، أبلغ أيديكو، الذي قاد الجيش المغولي، ڤاسيلي الثاني أنه أرسل بولاد خان على رأس جيش مغولي لغزو ليتوانيا وطلب منه مساعدته، هذا في الوقت الذي كان يزحف باتجاه موسكو[١].

وللوقوف على حقيقة الوضع، أرسل الأمير الكبير القائد يوري ليستطلع أخبار الجيش المغولي، فقبض عليه أيديكو، وتابع تقدمه باتجاه موسكو، وبقي بولاد خان في سراي. ولما علم ڤاسيلي الثاني بهذا الخبر انتابته الدهشة وارتبك في تصرفه لأنه كان غافلاً عن خدعة أيديكو، فأحجم عن التصدي له في الميدان خشية الهزيمة، واقتضى بأبيه، ففرَّ من المدينة وتوجّه إلى كوستروما تاركاً عاصمته تحت رحمة المغول، وأبقى فيها حامية عسكرية بقيادة عمه فلاديمير أندريه، واعتقد أن تحصينات المدينة وفصل الشتاء القارص ستصدّ المهاجمين، وأمل بأن ينجح في تجهيز جيش من شمال روسيا، يزحف به إلى الجنوب لمساندة المدينة وطرد المغول.

ظهر الجيش المغولي أمام أسوار موسكو في (٣ شعبان ٨١٣هـ/ الأول من كانون الأول ١٤١٠م)، وضرب عليها حصاراً مركزاً، ومنع دخول المؤن إليها، وانتشرت بعض فرقه في كافة أنحاء الولاية تنهب وتحرق، ولم تسلم بعض المدن من تعدياتهم، منها بريسلاف وزاليسكي وروستوف وديميتروف وسربوكوف ونبشي نوفغورود وغيرها، وقد أعادوا ذكرى اجتياح باطو وتوقتاميش من قبل[٢].

وأرسل أيديكو قوة عسكرية من ثلاثين ألف جندي إلى كوستروما لتعقب

(١) Von Hammer: p371. (٢) Howorth: Prt II, Div.I, p267.

فاسيلي الثاني والقبض عليه، كما أرسل أحد الأمراء، ويدعى بولاد، إلى أمير توير، إيفان بن ميخائيل، يطلب منه الانضمام إليه مع عساكره ومدفعيته[1].

وشدّد الأمير المغولي الحصار على المدينة، وانتظر وصول الإمدادات من توير، وعانى السكان خلال ذلك من قلة المؤن، وضاقوا ذرعاً من الحصار الشديد والمحكم «حتى جرت الدماء من عيون الأصنام». وفجأة فكّ أيديكو الحصار عن موسكو وعاد مسرعاً إلى بلاده. فما الذي تغيَّر في الأفق السياسي حتى أقدم على هذه الخطوة؟ الواقع أن هناك أربعة عوامل دفعته إلى المغادرة على وجه السرعة هي:

١ ـ إحجام إيفان، أمير توير، عن الاستجابة لطلب المساعدة، والواقع أنه خرج من عاصمته في طريقه إلى موسكو ولما وصل إلى منتصف الطريق عاد أدراجه متعللاً بأنه مريض، والحقيقة أنه رفض أن يناصر المغول ضد قومه، فتمارض، وأشاع بأنه مريض.

٢ ـ انتشار مرض الطاعون.

٣ ـ نجاح أمير موسكو في تجهيز جيش من شمالي روسيا، وقد غادر كوستروما على رأسه متوجهاً نحو عاصمته لفك الحصار عنها وطرد المغول.

٤ ـ النداء الذي وجَّهه بولاد خان إلى أيديكو بوجوب العودة سريعاً إلى سراي لأن مؤامرة قد حيكت للإطاحة به. ذلك أن الأمير نور الدين بن أيديكو قد تآمر ضد والده لأنه رفض أن يستأثر بالحكم ويجلس على عرش الخانية أو يُعيِّنه خاناً، وعيَّن الأمير نور الدين تيمور بن تيمور قتلغ خاناً وأشركه معه في المؤامرة ليضفي عليها الصفة الشرعية[2].

ومهما يكن من أمر، فقد وجَّه أيديكو نداء إلى سكان موسكو، أعرب لهم فيه عن عدم نيته اقتحام المدينة، وأن هدفه تأديب فاسيلي الثاني على جرأته وامتناعه عن دفع الضرائب المفروضة، وطلب منهم دفع الضرائب المتأخرة وإعلان طاعتهم له، حتى يعود إلى بلاده. قَبِل سكان موسكو بهذا المخرج للتخلص من عبء الحصار الثقيل، ووافقوا فوراً على طلب أيديكو. ونهب، أثناء عودته مقاطعة ريازان ودمَّرها تماماً بحيث لم تُعمَّر إلا بعد سنين كثيرة.

---

(١) Howorth: Prt II, Div.I, p266.
(٢) Ibid: p267.

وكتب إلى فاسيلي الثاني رسالة تتضمن إنذاراً بوجوب العودة إلى الطاعة ودفع الضرائب المفروضة، لكن الزعيم المسكوفي لم يُعر هذه الرسالة ولا ذلك الإنذار التفاتة جدية، لأنه كان على علم بالأوضاع السيئة التي تمر بها خانية القبيلة الذهبية[1].

وحدث في عام (٨١٤هـ/ ١٤١١م) أن خُلع بولاد خان عن العرش المغولي ونُصِّب تيمور بن تيمور قتلغ مكانه[2].

تيمور خان ـ جلال الدين خان
(٨١٤هـ/ ١٤١١م) ـ (٨١٤ ـ ٨١٥هـ/ ١٤١١ ـ ١٤١٢م)

نَصَّبَ نور الدين بن أيديكو، في غمرة الصراع على السلطة، تيمور بن تيمور قتلغ خاناً في سراي، ثم جهَّز جيشاً ونهض لحرب أبيه الذي كان آنذاك يحاصر موسكو، ففك الحصار عنها كما ذكرنا، والتحق بخوارزم خشية من ابنه، فعمَّت الفوضى في البلاد[3].

انتهز أحد أولاد توقتاميش، ويدعى جلال الدين، الوضع السيء الذي وصلت إليه الخانية، وكان يعيش في كييف في كنف الأمير فيتولد، فزحف إلى سراي وطرد تيمور خان ونور الدين منها، فلحقا بأيديكو في خوارزم، واستولى على السلطة، وذلك في عام (٨١٤هـ/ ١٤١١م)، وأرسل قوة عسكرية لتتعقبهما بقيادة سراي بك الباريني والميرزا جهان باي، فقبضت هذه القوة عليهما بجوار جبل قيات آرقاسي في خوارزم، فقتلت تيمور خان وأبقت على حياة نور الدين للضغط على أبيه. وعندما وصلت القوة إلى باب قلعة خوارزم علّقت رأس تيمورخان على رمح ليشاهده أيديكو، وطلب منه سراي بك الباريني أن يسير معه إلى سراي معززاً مكرماً فقبل، إلا أنه احتاط بعد ذلك، فأرسل ابنه الصغير السيد أحمد بدلاً منه، واحتجز الميرزا جهان عنده كرهينة. أثار هذا الإجراء غضب جلال الدين خان لأنه كان ينوي التخلص من أيديكو، وقتل ابنه السيد أحمد[4].

كانت علاقة جلال الدين خان بأميري توير وليتوانيا جيدة، الأمر الذي أثار

---

(١) Karamazin: V, pp231, 234-242. Howorth: Prt II, Div.I, pp265-267. Von Hammer: P371.
(٢) ابن عربشاه: ص١٥٠.
(٣) Howorth: Prt II, Div.I, p268.
(٤) Von Hammer: pp374, 375.

الأمير الكبير ڤاسيلي الثاني الذي كان يخشى أن تتعرّض بلاده للغزو من قِبَل جيرانه، لذلك ذهب إلى سراي في محاولة لاستقطاب الخان ونيل مودته، وعندما وصل كان جلال الدين خان قد قُتل.

كريم بردي خان

(٨١٥ ـ ٨١٦هـ/ ١٤١٢ ـ ١٤١٣م)

الواقع أن الخان المغولي، الذي اتصف بسرعة الغضب، تجاهل إخوته، ولم يعبأ بهم، لذلك تآمر عليه أخوه كبك بالاتفاق مع أتابكه بخشي خوجة بن ركتيمور، وجرت بين الطرفين بعض المناوشات أسفرت عن هزيمتهما، لكن الخان أصيب بسهم في رجله أثناء القتال، فتوفي بعد ثلاثة أشهر متأثراً بجراحه، وكان أخوه كريم بردي حاضراً عنده، فجلس على عرش الخانية وذلك في عام (٨١٥هـ/ ١٤١٢م)[١].

كانت علاقة كريم بردي بروسيا حسنة بفعل أنه كان لاجئاً هناك مع إخوته، فحفظ لڤاسيلي الثاني معاملته الجيدة له، ووعده بالمساعدة ضد أطماع جيرانه أمراء سوزدال وليتوانيا في الأراضي المسكوفية، وزار الأمير الكبير القبيلة الذهبية، فاستقبله الخان بالترحاب، وبالغ في إكرامه[٢].

وفي (محرم ٨١٦هـ/نيسان ١٤١٣م) أرسل كريم بردي خان سفارة إلى المجر تحمل هدية إلى الملك لاديسلاس وعرضاً للتحالف مع المغول، ويبدو أن لهذه السفارة علاقة بمدى ما كان يخطط له الخان من اجتياح مقاطعة ريازان، وفعلاً تعرَّضت هذه المنطقة للتدمير وقُتل أميرها خلال الاجتياح[٣].

وبقدر ما كانت علاقة كريم بردي جيدة مع موسكو كانت علاقته بليتوانيا متدهورة، فاتهم أميرها بالتدخل في شؤون الخانية من واقع تنصيب خانات موالين له، والمعروف أن حاكم ليتوانيا ساند من قبل اعتلاء جلال الدين بن توقتاميش عرش الخانية، ونصّب الآن المدعو بيتسابولاد خاناً، وأرسله لمهاجمة أراضي الخانية، فقبض عليه كريم بردي وقتله[٤].

(١) Howorth: Prt II, Div.I, pp269, 270.
(٢) Ibid: p270.
(٣) Ibid.
(٤) Von Hammer: p376. Karamazin: V, p246.

لم يحكم كريم بردي خان سوى خمسة أشهر فقط، فقد تنازل عن الحكم إلى أخيه الأكبر جبار بردي، ويبدو أن هذا التنازل كان قسرياً بدليل نشوب الخلاف بين الأخوين والذي أدّى إلى مقتلهما، فتبوأ أخوهما كبك عرش الخانية في سراي[١].

كبك خان (المرة الأولى) ـ جكرة أوغلان ـ السيد أحمد خان

كان الأمير أيديكو لا يزال يهيمن على مقدرات الشؤون العامة في القبيلة الذهبية، وكان على خلاف مع كبك، فعزله وولّى مكانه جكرة أوغلان الذي يعود بنسبه إلى أوروس خان[٢]. ويبدو أن العصبيات الأسرية كانت وراء اختياره، فأسرة أوروس معادية لأسرة توقتاميش، وإن أيديكو كان يتأرجح بين الأسرتين للمحافظة على مكانته المتميزة في الخانية.

كان جكرة أوغلان يعيش في بلاط ميرانشاه وأبي بكر، ابني تيمورلنك، في بلاد ما وراء النهر، فجاءته سفارة من أيديكو تطلب منه أن يعود إلى القبجاق ليتسلم الحكم، فاستجاب فوراً لهذا الطلب، ووضع أبو بكر تحت تصرفه قوة عسكرية مؤلفة من ستمائة فارس لمساندته، فسار عبر بلاد الكرج إلى شيروان، ثم عبر دربند وإستراخان في طريقه إلى سراي[٣].

كان أيديكو آنذاك في سيبيريا، في رحلة صيد، فلحق به جكرة أوغلان، وأثناء عودتهما إلى القبجاق اصطدما بكبك خان في مشتاه عند مصب نهر بوزان وقتلاه. وفي رواية أن كبك خان عاش بعد عزله في حمى أولوغ محمد، المتحدر من سلالة توقاتيمور، وأعتلى عرش القبيلة الذهبية مرة ثانية، وكانت له علاقات عدائية مع براق خان بن قويرجق خان[٤].

وحدث أن دبَّ الخلاف بين أيديكو وجكرة أوغلان بعد تسعة أشهر من حكمه، فعزل الأول الثاني ونصَّب مكانه السيد أحمد أوغلان، وهو من أولاد الأمير ميسّر، والراجح أن نسبه يتصل بأوروس خان، وفرَّ جكرة أوغلان إلى التركستان، فتعقَّبه أيديكو، إلا أنه لم يدركه. ولما عاد إلى سراي وجد أن السيد أحمد خان قد توفي، وقد حكم هذا الخان مدة

(١) الرمزي: جا ص٦١٢، ٦١٣.
(٢) Howorth: Prt II, Div.I, p271.
(٣) Ibid.
(٤) الرمزي: جا ص٦١٣، ٦١٤. Ibid: pp271, 272.

خمسة وأربعين يوماً فقط، وكذلك توفي جكرة أوغلان في التركستان فاختار أيديكو أحد أولاد ميسَّر أيضاً خاناً ويدعى درويش أوغلان، وكان في عقله خفة[1].

كوجك محمد خان ـ كبك خان (المرة الثانية) ـ أولوغ خان

وشهدت الخانية صراعاً حاداً بين أيديكو وأسرة توقتاميش. ففي عام (٨٢٢هـ/ ١٤١٩م) خرج قادر بردي بن توقتاميش للأخذ بثأر أسرته، وجرى قتال بين الرجلين أسفر عن انتصار قادر بردي. ووصل هذا في إحدى مراحل القتال إلى قلب جيش عدوه، فرمى أيديكو بسهم فأصابه، فسقط على الأرض، وضربه أيديكو بالسيف فقتله. ونُقل أيديكو بعد المعركة إلى ساحل غدير هناك، لكن كُشف أمره، وقُبض عليه، وأُحضر أمام كوجك محمد، فقتله. والمعروف أن كوجك محمد هو ابن إيجكلي حسن بن جغاي، أخي توقتاميش، وقد اختاره الأمراء والقادة خاناً بالضرورة في ميدان القتال لئلا ينفرط عقد الجيش[2].

وفي الوقت الذي كانت تجري فيه هذه الأحداث، في القسم الغربي من القبجاق ـ القبيلة الذهبية ـ، كان القسم الشرقي ـ القبيلة البيضاء ـ، يشهد تطوراً مثيراً. فقد توفي قويرجق خان وخلفه ابنه براق خان، وكانت أولى اهتماماته إعادة توحيد بلاد القبجاق بعامة. وبعد أن ثبَّت أقدامه في القسم الشرقي، نهض لانتزاع القسم الغربي من يد حكومة سراي؛ فجرى قتال بينه وبين كبك خان الذي اعتلى العرش للمرة الثانية، في عام (٨٢٥هـ/ ١٤٢٢م)، إلا أنه لم يتمكَّن على الرغم من انتصاره من اقتطاع أي جزء من أراضي القبيلة الذهبية، فتحول عندئذٍ إلى مدينة أودوييف، التابعة للأمير الروسي يوري رومانوڤيتش، وحاصرها، غير أنه ارتد عنها بفعل مناعتها ووعي المدافعين عنها. ويبدو أن كبك خان أراد أن يقتدي ببراق، فهاجم المدينة وحاصرها، وأسر كثيراً من سكانها، غير أن الأمير الروسي نجح في استعادتهم، وهزم الخان وقتله وأسر زوجتيه، فأرسل إحداهن إلى ليتوانيا،

(١) الرمزي: جا ص٦١٣، ٦١٤. Von Hammer: p382.

(٢) Ibid: p384.

وأرسل الأخرى إلى موسكو[1].

وبرز في هذه الأثناء ألوغ محمد كمنافس قوي لكوجك محمد، فتولى عرش الخانية وثبَّت أقدامه في الحكم، وبدا للوهلة الأولى أنه سيد بلاد القبجاق، واستمرت روسيا في عهده بدفع الجزية للمغول كالمعتاد[2].

والواقع أن بلاد القبجاق قد انقسمت آنذاك إلى أربعة أقسام مستقلة ومنفصلة وهي في حال عداء دائم.

فقد استقل براق خان بالشطر الشرقي من البلاد. وراح يتطلع إلى ضم الشطر الغربي، وانقسم الشطر الغربي إلى ثلاثة أقسام.

ففي الشمال، أي في ولاية البلغار، حكم أولوغ محمد، وهو منافس قوي لكوجك محمد، وفي الجنوب الغربي، أسس فرع من المغول خانية القرم، وحكم السيد أحمد خان الغرب والمناطق الواقعة بين نهري الدون والدنيبر.

واشتدت، في غضون ذلك، حدة الصراعات الداخلية، فاصطدم أولوغ محمد ببراق في عام (٨٣٢هـ/ ١٤٢٩م)، وانتصر عليه وقتله وضمَّ أراضيه إلى خانية سراي ووحَّد بلاد القبيلة الذهبية، لكن نازعه كوجك محمد الذي لم يرض عن تعاظم نفوذ خصمه، فهاجم سراي واستولى عليها وطرده منها، وذلك في عام (٨٤١هـ/ ١٤٣٧م)، فهرب أولوغ محمد إلى روسيا، لكن ڤاسيلي الثالث بن ڤاسيلي الثاني، المعروف بالمكفوف (٨٢٨ ـ ٨٦٦هـ/ ١٤٢٥ ـ ١٤٦٢م)، رفض استقباله وأمره بمغادرة البلاد، وجهَّز قوة عسكرية لمطاردته، وعلى الرغم من انتصاره على متعقِّبيه، فقد آثر مغادرة روسيا، فذهب إلى البلغار واستقر فيها، وبنى مدينة قازان، وأسس دولة مستقلة ومنفصلة عن سراي عُرفت في التاريخ باسم خانية قازان[3].

أحمد خان

(٨٥٠ ـ ٨٨٥هـ/ ١٤٤٦ ـ ١٤٨٠م)

تفرَّد كوجك محمد بالحكم في سراي بعد طرد أولوغ محمد، وخلفه بعد وفاته ابنه أحمد، وورد أول ذكر له في عام (٨٥٠هـ/ ١٤٤٦م)، فتكون

(١) Von Hammer: p382.

(٢) Howorth: Prt II, Div.I, pp275-282.

(٣) Von Hammer: p346. Howorth: Prt II, Div.I, pp282-283.

وفاة الأب قد حدثت في التاريخ المذكور أو قبله بقليل.

عُرف عن أحمد خان عداوته للروس، وبخاصة سكان موسكو، لأنه كان مصراً على طلب الأتاوة والخراج من ڤاسيلي الثالث، ويهدّده باجتياح بلاده إن رفض أداءهما، لذلك تعرَّضت روسيا لعدة هجمات مغولية على مراحل زمنية متقاربة للضغط عليها.

ففي عام (٨٤١هـ/ ١٤٣٧، ١٤٣٨م)؛ أي قبل عهد ولاية أحمد خان، هاجم المغول مقاطعة ريازان، وجدّدوا غاراتهم عليها في عام (٨٤٦هـ/ ١٤٤٢م)، وكانت ترافق الغارات أعمال سلب ونهب وحرق قرى، واجتاحوا في عام (٨٤٩هـ/ ١٤٤٥م) بولندا بسبب إيواء ملكها، كازيمير الرابع، حاجي كراي المعادي لخان سراي. والمعروف أن هذا الأمير الليتواني الكبير أضحى منذ عام (٨٥١هـ/ ١٤٤٧م) ملكاً على بولندا بفعل التوافق الثقافي والديني بين البلدين، وتوغلوا حتى مدينة لمبرج، كما جدَّدوا غاراتهم على ريازان بقيادة الأمير مصطفى. وكان الفصل شتاء فنفقت خيلهم من شدة البرد ولم يعد بوسعهم العودة إلى بلادهم، واضطروا إلى قضاء فصل الشتاء في مدينة بيريصلاول، غير أن ڤاسيلي الثالث لم يتركهم وشأنهم، فأرسل إليهم قوة عسكرية مؤلفة من قوزاق ريازان والموردفينيين، بقيادة الأمير أوبولنسكي، لطردهم. وجرت بين الطرفين رحى معركة ضارية تكبدا فيها كثيراً من القتلى حتى ذاب الثلج من كثرة ما أريق من الدماء الحارة، وانتهت بانتصار الجيش الروسي، وقُتل الأمير مصطفى في المعركة. ونهض المغول في ربيع العام التالي للأخذ بثأرهم، فاجتاحوا مقاطعة ريازان ونهبوها وأحرقوا قراها[1].

وأرسل أحمد خان في عام (٨٥٥هـ/ ١٤٥١م) جيشاً إلى موسكو بقيادة ابنه الأمير مازوفشاه[2] لإرغام ڤاسيلي الثالث على استئناف دفع الجزية والضرائب المقررة، والمعروف أن الأمير الكبير كان يؤدي جزءاً مما عليه ويتباطأ في ذلك بسبب أوضاع المغول الداخلية المضطربة.

غادر الأمير الكبير عاصمته للتصدي للزحف المغولي خارجها، ولكنه تهيب الدخول في معركة سافرة عندما علم بكثرة أعداد المغول، وعاد أدراجه، وترك

(١) Howorth: Prt II, Div,I, pp367-369.

(٢) تجعل المصادر الروسية الأمير مازوفشاه ابناً للسيد أحمد خان. Ibid: p304.

قوة عسكرية على نهر أوكا بقيادة أمير زينيغورود لتمنعهم من عبوره والتوجه إلى موسكو، لكن هذه القوة فرَّت من أمامهم.

وحاصر الأمير مازوفشاه مدينة موسكو، وخرج ڤاسيلي الثالث منها إلى الڤولغا ليجمع قواتاً من مختلف المدن تاركاً للسكان مهمة الدفاع عنها. وأضرم المغول النار في ضواحي المدينة، فحجب الدخان الكثيف الرؤية عن الطرفين. ولما أصبح الصباح خرجت قوة عسكرية من المدينة واصطدمت بالجيش المغولي وأبعدته عن العاصمة. واستفاق سكان موسكو في صباح اليوم التالي وقد غادر المغول المنطقة. ويبدو أنهم سمعوا عن عودة ڤاسيلي الثالث على رأس جيش لإنقاذ المدينة، فعادوا إلى بلادهم حاملين ما خفَّ من الغنائم[1].

توفي ڤاسيلي الثالث في (١٥ جمادى الآخرة ٨٦٦هـ/ ١٧ آذار ١٤٦٢م) بمرض السل الرئوي[2] تاركاً لابنه وخليفته إيڤان الثالث، النشيط والمرهوب الجانب، دولة قوية إلى درجة تضع معها حداً لحكم المغول واستعادة الأراضي الروسية الغربية الواقعة تحت حكم البولنديين والليتوانيين. واتخذ هذا الحاكم لقب العظيم لأنه أنجز هذه المهمة ووحّد روسيا. لقد خُلق للشدائد، وكان مجرداً من المبادئ الخلقية، لا يتورع عن فعل أي شيء، حاد الذهن، ماكراً حذراً عنيداً قاسياً، يقود جيوشه إلى النصر على مسافات بعيدة، وهو مستقر في مكانه في الكرملين، يعاقب على العصيان أو العجز والقصور؛ عقاباً وحشياً، بأن يعذب أو يضرب بالسياط أو يبتر الأطراف أو يقطع الرؤوس. وهكذا بمثل هذه الصرامة كان يسيطر على شعبه وحاشيته، وأطلق عليه الروس اسم الرهيب.

كانت روسيا، في بداية حكمه، مقسمة إلى مقاطعات عديدة بعضها تحت حكم أمراء روس مستقلين، والبعض الآخر واقع تحت السيطرة البولندية ـ الليتوانية. وكانت موسكو تسيطر على ذلك القسم الذي أضحى فيما بعد يشكل قلب روسيا الكبرى. ونظر إيڤان الثالث إلى نفسه كوريث لكل روسيا وليس كأمير لموسكو، لأن إمارته أصبحت تملك في ذلك الوقت الرموز القومية لهذا البلد. وأكّد طموحه بتوحيد كل الأراضي التي كانت تخضع لروسيا في ذروة

(١) Howorth: Prt II, Div.I, p304.

(٢) Karamazin: V, pp427, 428.

قوتها، وذلك بوضعها تحت السيطرة المسكوفية، وقد عُرف هذا المشروع باسم تجميع الأراضي الروسية وتكتلها.

كانت إمارة نوڤغورود أيسر فتوحه، وهي تُعدُّ أقوى مركز تجاري في الأراضي الروسية، إذ كانت تسيطر على المناطق التي تحيط بها مباشرة، وكذلك على طرق واسعة في شمالي روسيا تمتد شرقاً حتى جبال الأورال. وعلى الرغم من أنها كانت تفوق موسكو اقتصادياً إلا أنها كانت دونها من حيث القوة العسكرية. وقد نظر إيڤان الثالث بجشع إلى هذه السوق المزدهرة الخاضعة للضريبة، وحرَّضه تجار موسكو على القضاء على منافسيهم في الشمال، فسيطر على السهول الممتدة بين موسكو ونوڤغورود حيث كانت الجمهوريات التجارية تشتري المواد الغذائية اللازمة لها وتبيع بضاعتها، ولم يكن على إيڤان الثالث إلا أن يُغلق هذا المخزن المورِّد للحبوب، وتلك السوق، لكي تقع المدينة والدولة في ضائقة وتفلس أو تخضع وتستسلم، واستطاع أن يحولها في عام (٨٧٦هـ/ ١٤٧١م) إلى إمارة تدفع له الجزية، وبعد سبع سنوات توالت فيها الحرب والهدنة، استسلمت للفاتح الروسي، وتنازلت عن استقلالها في عام (٨٨٣هـ/ ١٤٧٨م)، وضمَّ أراضيها إلى إمارته موسكو، ونقل سبعة آلاف من صفوة سكانها إلى سوزدال، وطرد منها عصبة الهانسا التجارية، وورث تجار موسكو أسواق نوڤغورود، كما ورث الأمير الكبير دخلها، وكان هذا كسباً كبيراً للإمارة[1].

وما إن ضمّ إيڤان الثالث الإمارة المندثرة حتى بسط حكمه على المنطقة المتجمدة والأورال. وخضعت بسكوف حفاظاً على مصالحها تحت سيادة الأمير العظيم. وتلمَّست توير أسباب الحماية عن طريق التحالف مع ليتوانيا، ولكن إيڤان الثالث سار إلى المدينة بنفسه في عام (٨٩٠هـ/ ١٤٨٥م) واستولى عليها وأخضع أميرها ميخائيل، وتبعتها روستوف وياروسلاف. ولما مات إخوته رفض أن تؤول مخصصاتهم إلى ورثتهم، وضمّها إلى ممتلكاته. وإنحاز أحدهم، ويدعى أندريه، إلى ليتوانيا فقبض عليه إيڤان الثالث واعتقله. ومات أندريه في السجن، ثم بدأ حرباً من أجل استعادة الأراضي الروسية التي كانت تخضع لبولندا ـ ليتوانيا، إذ لم يطق صبراً، لا هو ولا

(١) Karamazin: V, p419, VI, pp157-159.

مطران موسكو، على السلام، ما دامت أوكرانيا وكييف وروسيا الغربية تحتفظ بقوة تُهدِّد موسكو وتدعو الأرثوذكس إلى النصرانية اللاتينية. وزعم إيڤان الثالث أن ثمة مؤامرة لاغتياله، واتخذ من ذلك ذريعة لشن حرب مقدسة لتخليص الإمارات الروسية المغرَّر بها، استمرت بشكل متقطع من عام (٨٩٧هـ/ ١٤٩٢م) إلى عام (٩٠٩هـ/ ١٥٠٣م)، فما كان من أمراء ليتوانيا، الذين استشعروا القلق في ظل اتحاد الرومان الكاثوليك البولنديين، إلا أن فتحوا أبوابهم أمام جيوش إيڤان الثالث. وتوقف ألكسندر، أمير ليتوانيا العظيم، في فدروشا وهُزم في عام (٩٠٥، ٩٠٦هـ/ ١٥٠٠م). واحتفظت موسكو بالأقاليم التي كسبتها إلى الغرب من نهر سوز بما في ذلك شرينكوف في سمولنسك تقريباً. وكان إيڤان الثالث قد بلغ آنذاك سن الثالثة والستين، فترك تخليص البقية لحفدته[1].

وبدا لإيڤان الثالث أن التحرر من ربقة المغول لم يعد مستحيلاً وثبت أنه أمير يسير، ذلك أن بقايا هؤلاء انقسموا ثلاث جماعات متنافسة ومتنافرة، وتركَّزوا في سراي وقازان والقرم، فراح يضرب كلاً منها بالأخرى حتى وثق أنها لن تتحد ضده. وفي عام (٨٧٣هـ/ ١٤٦٨م) امتنع إيڤان الثالث عن دفع الجزية، فأرسل أحمد خان جيشاً إلى موسكو لإخضاعه، ولما اقترب من أعالي نهر الدون تصدى له حاجي كراي صاحب القرم وأجبره على العودة، ويُعدُّ هذا أول صدام بين خانات سراي وخانات القرم، والراجح أن ذلك كان بتشجيع من إيڤان الثالث. والجدير بالذكر أن تلك الاشتباكات كانت بداية مرحلة جديدة من الصراع القديم بين أسرتي أوروس وتوقتاميش، وقد صبَّت في مصلحة الروس[2].

وبفعل طموح إيڤان الثالث، أجرت ليتوانيا مباحثات ناجحة مع سراي بهدف التعاون على حرب روسيا، فيهاجم المغول موسكو من الجنوب والليتوانيون من الشمال، فتقع بين فكي الكماشة.

وتنفيذاً لهذا الاتفاق، وبعد أن أتمَّ أحمد خان استعداداته العسكرية، خرج من سراي على رأس جيش كبير قاصداً موسكو، ووصل إلى نهري أوكا وأوغر

(١) Karamazin: VI, pp218, 224, 376. Howorth: Prt II, Div.I, pp340, 341.

(٢) Karamazin. VI, pp58, 59

في جنوبي المدينة. وعندما علم إيڤان الثالث بتقدم المغول باتجاه عاصمته، أرسل قوة عسكرية من كولومنا، بقيادة الأمير فيودر بن داويد، لترابط على نهر أوكا، وتمنع القوات المغولية من عبوره، ثم أرسل قوتين أخريين، الأولى بقيادة دانيال كولمسكي وأوبولنسكي ستريغا والثانية بقياة القائد المغولي دانيال بن قاسم، الموالي له، وقد بلغ مجموع عدد القوات الروسية مائة وخمسين ألف جندي تقريباً، وعسكرت هذه القوات على الضفة الأخرى لنهر أوكا في مواجهة القوات المغولية. وعلى الرغم من هذه الاستعدادات الضخمة كان اسم المغول يثير الرعب في قلوب الروس، فهربت والدة إيڤان الثالث من موسكو إلى روستوف خشية على حياتها.

تقدم الجيش المغولي على محاذاة الشاطئ، باتجاه قلعة ألكسين الواقعة على النهر، وبدأ عملياته العسكرية بحرقها. وأسرت القوات المغولية كثيراً من سكانها، كما احترق بعضهم وغرق بعضهم الآخر في النهر، ولم تتحرك القوات الروسية لنجدتهم وهي تشاهد مأساتهم من الشاطئ الآخر.

وعمدت القوات الروسية إلى استعراض قوتها وأسلحتها أمام القوات المغولية، وبخاصة المدفعية التي أجرى الروس عليها تحسينات مهمة، الأمر الذي أثار الحذر في نفس الخان المغولي، وخشي الدخول في معركة سافرة مع هذه القوات، وآثر الانسحاب تحت جنح الظلام، وأسرع بالعودة إلى بلاده حاملاً معه ما خفّ من الغنائم، وقد قطع المسافة في ستة أيام، في حين استغرقت رحلة التقدم ستة أسابيع، ولم تجرؤ القوات الروسية على مطاردته، ويبدو أن الروس خشوا أيضاً الدخول في معركة سافرة مع المغول[1].

وتوترت، في هذه الأثناء، العلاقات بين سراي والقرم. ففي عام (٨٧١هـ/ ١٤٦٦م) توفي حاجي كراي، خان القرم، وخلفه ابنه منكلي كراي، وكان على عداء مع سراي وليتوانيا. وحتى يقوي موقفه عرض على إيڤان الثالث التحالف، ووافق الأمير الروسي على هذا العرض بعد تردد. والمعروف أن لهذين الحاكمين أهدافاً متعارضة، فقد كان منكلي كراي يسعى إلى التغلب على منافسيه في سراي، ويتطلع إيڤان الثالث إلى التوسع نحو الجنوب الشرقي

(١) Karamazın· VI, pp59 61 Von Hammer p404

بالاستيلاء على تشيرنيكوف وسيفيريا، وهذا ما دفع أحمد خان إلى التحالف مع كازيمير الرابع، أمير بولندا وليتوانيا.

ويبدو أن منكلي كراي لم يستفد من هذا التحالف الذي ظل معطلاً طالما أن كل واحد منهما كان منهمكاً في سياسة منفصلة لا تستدعي تعاونهما المشترك. إذ في الوقت الذي كان فيه حاكم موسكو يرنو ببصره إلى تثبيت أقدامه في ولاية نوڤغورود، التي احتلها مؤخراً، نرى خان القرم يسعى إلى تصفية حساباته مع منافسيه ثم تجار جنوة في القرم. فقد خرج عليه، بعد ثلاثة أشهر من ولايته، نور دولت سلطان، من بني أعمام أحمد خان، وطرده من البلاد، فالتجأ إلى الجنويين في كفّا. وتعرّض نور دولت سلطان بدوره لمؤامرة من قبل كلدي، فقتله وجلس مكانه، ثم ظهر منكلي كراي من جديد فاصطدم بكلدي وتغلّب عليه واستعاد عرشه[1]، ثم راح يسعى إلى تصفية حساباته مع تجار جنوة في القرم، إذ إن مستوطنات الجنويين قد ازدهرت وعظم شأنها في ظل تراجع مستوطنات البندقية، وأضحى جميع ساحل القرم الجنوبي عملياً بيد التجار الجنويين ابتداء من عام (٧٦٦هـ/ ١٣٦٥م) فصاعداً، ولكن مصالحهم تضرّرت كثيراً بسبب توسُّع الليتوانيين تجاه البحر الأسود، وذلك لأن الطرق التجارية تحوّلت إلى الطريق الواقعة بين مولدافيا وبودوليا وغاليسيا نتيجة للتسهيلات التي منحها أمراء ليتوانيا ومولدافيا وملوك بولندا. لكن حدث في هذه الأثناء أن تمدَّد العثمانيون باتجاه الشمال وسيطروا على السواحل الجنوبية للبحر الأسود، ثم انطلقوا للاستيلاء على سواحله الشمالية وذلك بهدف جعل البحر الأسود بحيرة عثمانية، والسيطرة على التجارة الدولية بين القرم وأوروبا. ولتحقيق ذلك كان عليهم أن يصطدموا بالجنويين ويستولوا على مستعمراتهم، كفّا والسوداق ومنكب وأزوف وغيرها، وبعد تجريد حملات عسكرية عدة، نجحوا في ذلك، وأسسوا لواء كفّا بعد أن فصلوه عن القرم. وانحاز الجنويون إلى ملوك بولندا الذين كانوا في الواقع أعداءهم في المجال التجاري وقبلوا حماية الليتوانيين، الأمر الذي أثار غضب منكلي كراي وسخطه، لكن القضاء على الجنويين في القرم أزال عقبة مهمة من أمام منكلي كراي، إلا أن البلاد لم تصفُ له، فقد كان عليه أن يواجه أحمد خان الذي

(١) وفي رواية: أن حيدر، أخا منكلي كراي، هو الذي خرج عليه فطرده واستولى على العرش.

نَصَّب خاناً من قِبَله، على القرم، يُدعى جان بك، وضمَّ البلاد إلى أملاكه، ورأى أن تفاهمه مع السلطان العثماني محمد الثاني الفاتح يحقق له هذه الغاية، فأجرى معه مباحثات أسفرت عن عقد تحالف بينهما تنازل بموجبه منكلي كراي عن الأراضي التي انتزعها السلطان العثماني من الجنويين مقابل حمايته ضد أحمد خان. وتمتيناً لهذا التحالف زوَّج خان القرم ابنتيه بأميرين عثمانيين هما سليم ومحمد حفيدي الفاتح وابني ولي العهد بايزيد الثاني، لكن هذه الحماية كانت واهية لأن السياسة العثمانية الخارجية كانت آنذاك متجهة نحو التوسع في أوروبا، لذلك اضطر منكلي كراي للتعاون مجدداً مع إيڤان الثالث في مواجهة أحمد خان. وكان أمير موسكو قد تفرَّغ، بعد أن أحكم سيطرته على نوفغورود، لمعالجة شؤون روسيا الجنوبية، أوكرانيا، ولكن هذا الوضع دفع ملك بولندا كازيمير الرابع للرد على ذلك بالدخول في حلف مع أحمد خان، الذي رأى في اتفاق مغول القرم والعثمانيين أنه موجه ضده بخاصة وضد المغول بعامة، وأن منكلي كراي يسعى إلى القضاء على دولة المغول، وأن السياسة السليمة تقضي بالتصدي له ومنعه من تحقيق ذلك، فأرسل أخاه مرتضى سلطان إلى بلاد القرم لاستطلاع أوضاعها تمهيداً لغزوها، فتظاهر هذا بأنه فار من وجهه أخيه، وطلب اللجوء إلى الخان.

وتحرّى مرتضى سلطان أوضاع الخانية، واطلع على نوايا الخان العدوانية تجاه سراي، فأرسل تقريراً بذلك إلى أخيه. ويبدو أن منكلي كراي وقف على مهمته الحقيقية فقبض عليه وزجّه في السجن، وكان قد أرسل طليعة من جيشه باتجاه سراي بقيادة أمير لواء شرين، فلحق بها.

وتصدى أحمد خان للجيش الزاحف باتجاه بلاده، قرب بغجة سراي وانتصر عليه، وجُرح منكلي كراي في القتال، وفرَّ من أرض المعركة وتحصَّن في قلعة قرقر[١]، فتعقبه أحمد خان، وتوغَّل في بلاد القرم. فاستولى على قلعة صلغات الواقعة قرب كفَّا بعد أن حاصرها أربعين يوماً، ثم توجه إلى كفّا، فطلب من قائد حاميتها العثماني قاسم باشا تسليمه إياها، فتظاهر هذا بالموافقة. وفي الوقت الذي كانت تجري فيه المباحثات بشأن عملية التسليم قدم مبعوث من إستانبول يحمل أمراً من السلطان محمد الثاني الفاتح بعدم

(١) قرقر: قرق آر.

تسليم كفّا، وأنه سيرسل جيشاً لإخراج أحمد خان من القرم. وعمد قاسم باشا إلى إخراج السفن إلى عرض البحر ليوهم مبعوث أحمد خان وكأنها قدمت من إستانبول حاملة الجنود، كما أمر بإطلاق المدافع وسائر الأسلحة ليلقي الرعب في قلب أحمد خان وعساكره. وفعلاً قرّر أحمد خان الانسحاب من القرم وعاد إلى بلاده، وفرّ جان بك إلى روسيا، وجلس منكلي كراي الأول على عرش الخانية، وأعلم أيڤان الثالث بذلك، وطلب منه تجديد الاتفاق السابق بينهما، وبرّر الأمير الروسي إيواءه لكل من نور دولت وجان بك، حتى لا يجدِّدا الخروج عليه[١].

وأرسل أحمد خان الميرزا بوجق، على رأس وفد، إلى إيڤان الثالث يطلب منه أن يحضر إلى بلاطه ليقدم له الولاء والطاعة ويؤدي الجزية، كما جرت العادة. استقبل الأمير الروسي المبعوث المغولي بالترحاب ووعده بتنفيذ رغبات الخان، إلا أنه كان مخادعاً، فراح يبحث عن حليف قوي معاد للمغول كي يتعاون معه، فوجد ضالته في أوزون حسن[٢]، حاكم العراق ومؤسس أسرة الآق قوينلو[٣]، فأرسل إليه يطلب منه التحالف معه ضد المغول، والمعروف أن أوزون حسن تركماني الأصل ويبغض المغول، إلا أنه كان منهمكاً في صراعه مع الأتراك العثمانيين، فلم يُعر رسالة إيڤان الثالث أية التفاتة.

وزار موسكو، في هذه الأثناء، مبعوث منكلي كراي لتجديد التحالف بين القرم وموسكو، فانتعشت آمال إيڤان الثالث بإعلان الاستقلال عن المغول، فمزَّق فرمان أحمد خان الذي أرسله لطلب الخراج ورماه على الأرض وداسه برجله، وقتل السفراء المغول باستثناء واحد منهم، فأطلقه ليخبر الخان بما أقدم عليه، وهدَّده بقتل سفرائه إذا أرسلهم إلى موسكو مرة أخرى؛ ما أغضب أحمد خان، وصمَّم على الرد[٤].

كان على الخان المغولي أن يؤمن جبهته الداخلية قبل الزحف إلى موسكو، فاستقطب ابن أخ له يدعى قصيدة، كان ينازعه على الحكم، وعيَّنه ولياً للعهد وقائداً لجيوشه، ونسّق مع كازيمير الرابع الذي تربطه به معاهده تحالف، واتفق معه على أن تدخل الجيوش المغولية الأراضي الروسية عبر نهر أوكا،

(١) الرزمي: جا ص٦٤٦ ـ ٦٥١.

(٢) أوزون حسن: حسن الطويل.

(٣) الآق قوينلو: الخروف الأبيض.

(٤) Karamazin: VI, pp176, 177.

وتدخل القوات الليتوانية من أعالي نهر أوغرا[١].

وعندما علم إيفان الثالث بهذا الاتفاق خشي على نفسه، وبخاصة إنه كان يمر بظروف داخلية حرجة من واقع الصراع على السلطة بينه وبين إخوته وأقاربه، فرأى أن أفضل وسيلة لتخفيف الضغط عنه هي تفرقة الحلفاء. فطلب من منكلي كراي أن يغير على ليتوانيا ليشغل كازيمير الرابع ويمنعه من الاشتراك في الحملة، كما أرسل نور دولت مع بعض الأمراء على رأس قوة عسكرية لمهاجمة سراي للضغط على أحمد خان ومنعه من الزحف نحو موسكو. والمعروف أن الخان المغولي اصطحب معه في هذه الحملة قواته كافة ولم يخلف في عاصمته من يدافع عنها، وهذا خطأ عسكري سيؤثر سلباً على نتيجة الصراع.

وخرج أحمد خان من عاصمته في (ربيع الآخر ٨٨٥هـ/ حزيران ١٤٨٠م) قاصداً مدينة موسكو لتأديب إيفان الثالث على جرأته وتحديه له، وعسكر على ضفاف نهري أوكا وأوغرا بانتظار وصول القوات الليتوانية. ومن جهته، غادر إيفان الثالث عاصمته في (١٥ جمادى الأولى/ ٢٣ تموز) على رأس جيش يُقدر بمائة وخمسين ألف جندي للقاء أحمد خان تتنازعه عوامل التردد والإحجام، وعسكر على الضفة المقابلة لنهر أوكا. وواجه العدوَّان بعضهما لعدة أشهر من دون أن تقع بينهما معركة، فخشي الأمير الروسي أن يغامر بعرشه وحياته في لحظة حرجة كهذه، وفي المقابل خشي أحمد خان من مدفعية إيفان الثالث المتطورة، كما خشي على عاصمته من هجوم نور دولت، بالإضافة إلى أن حليفه كازيمير الرابع أحجم عن مساعدته.

وعندما تجمَّدت الأنهار، ولم تعد تحمي الجيوش بعضها من بعض، أصدر إيفان الثالث أوامره بالانسحاب، وبدلاً من تعقب الجيش الروسي المنسحب، انسحب أحمد خان أيضاً عائداً إلى سراي[٢] ولكن الأمير الكبير، الذي لم يظهر أي ثبات أثناء الساعات الحرجة، استطاع أن يعود إلى موسكو ويدخلها دخول الظافرين، في حين قُتل أحمد خان أثناء انسحاب جيشه، حيث تعرض لهجوم آباق خان الشيباني مع أمراء النوغاي[٣]، أمثال يغموري وموسى

(١) Karamazin VI, pp176, 177

(٢) Ibid pp180-196.

(٣) كان الشيبانيون وأمراء نوغاي من المغول، ويسكنون الأراضي الواقعة بين نهر بهزوالق وبحيرة آرال.

وغيرهما. ذلك أنه أراد أن يقضي فصل الشتاء على ساحل نهر الدون، فذهب إلى مكان قريب من قلعة آزوف وأقام به، وسمح لأكثر فرق جيشه بالانفصال عن جسم الجيش والعودة إلى مضاربهم، واستبقى معه فئة قليلة، متخلياً عما تحلّى به من الحذر، فهاجمه أعداؤه بغتة، وأحاط به ستة عشر ألف فارس من القوزاق، فتشتّت شمل من كان معه، بقتل أو بأسر وفرار. وقتل آباق خان أحمد خان بيده وهو نائم، وأسر زوجاته وأولاده الذين رافقوه، واستولى على ما كان يحمله من غنائم، والراجح أنه كان لإيفان الثالث دور في ذلك[١].

شكّل مقتل أحمد خان كارثة حقيقية ضربت خانية القبيلة الذهبية في الصميم، إذ أناخت سيطرة المغول عن صدر الروس التي رزحت أمداً طويلاً، وحدّت من كل رغبة فيهم للتجلي والبروز، فانتهز إيفان الثالث الفرصة لتعزيز مركزه في روسيا. ففي العقود القليلة الماضية كان أمراء موسكو قد عقدوا معاهدات مع الأمراء الروس الآخرين، يجبرونهم بها أن يسلموا الجزية التي كانوا يدفعونها للخان، لهم بدلاً من الخان، وهكذا أجبر جميع الأمراء الآن على عدم دفع أي شيء للخان، وتمادى حين شجعهم على قطع علاقاتهم كلياً بالمغول. وقوبل تفتت القبيلة الذهبية بارتياح شديد في موسكو، وشعر الشعب الروسي بالراحة من مضايقات المغول المتكررة، ولكن من الخطأ القول إن هذه الخانية وصلت إلى نهايتها، لأنها استمرت في البقاء لعدة سنوات أخرى، إلا أنها فقدت قدرتها على فرض إرادتها ونفوذها على جيرانها، وزالت هيبتها من قلوب أعدائها.

الأعوام الأخيرة من حياة القبيلة الذهبية

انقسمت خانية القبيلة الذهبية، بعد وفاة أحمد خان، إلى قسمين:

تضَّمن القسم الأول الأراضي الشمالية والوسطى الواقعة بين الدون ويايق، وحكمه أولاد أحمد خان، كان من بينهم سيد محمود ومرتضى وشيخ أحمد، ودعى الأتراك هذا الفرع من المغول باسم تاختيل، أي القبيلة الكبرى أو القبيلة الأولى، وعُرف عند الروس والبولنديين باسم فولغنسيس، أي الذين يعيشون فيما وراء الفولغا.

(١) Von Hammer: p408.

واقتطع فرع من الأسرة، ممن نزح عن سراي، الأراضي الجنوبية وأسَّس خانية أستراخان الصغيرة واستقلَّ عن الدولة الأم، وقد شكل هؤلاء القسم الثاني[1].

استمرت في عهد الإخوة العداوة التقليدية بين سراي وخانية القرم، ولعل لذلك علاقة بمدى تدخل إيڤان الثالث، أمير موسكو، بين الطرفين وتأجيج الخلافات بينهما ليقضي كل منهما على الآخر، وقد حرّض منكلي كراي على مهاجمة سراي والقضاء نهائياً على القبيلة الذهبية. وحتى يُحكم الطوق على سراي، عقد معاهدة صلح مع أمير ليتوانيا الكبير ألكسندر، الذي كان صهره، كما دخل في علاقات سياسية مع السلطان العثماني بايزيد الثاني، فاضطر شيخ أحمد، نظراً لوضع بلاده الجغرافي غير المؤاتي، إلى التغاضي عن هزيمة والده وتجاربه المريرة عام (٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م)، فاستأنف علاقته الودية مع ليتوانيا وبولندا، ولكن هذا سبَّب غضب السلطان العثماني بفعل أن القوات الليتوانية ـ البولندية المتحدة دخلت مولدافيا في محاولة للوصول المباشر إلى البحر الأسود بهدف استعادة المناطق التي انتزعها الأتراك العثمانيون حول كيليا في عام (٨٨٩هـ/ ١٤٨٤م) وآق كرمان. وقد أصدر السلطان العثماني أمراً إلى خان سراي شيخ أحمد أن يتوقف عن أعماله العدوانية ضد القرم، ونتيجة لذلك نجد أن عدة فرق عسكرية مغولية هربت من جيش شيخ أحمد وانضمت إلى منكلي كراي قبل أن تنتهي الحرب، ووقعت المعركة الأخيرة بين شيخ أحمد ومنكلي كراي في (ذي الحجة ٩٠٧هـ/ حزيران ١٥٠٢م). فقد هاجم الثاني سراي بجيش بلغ تعداده خمسة وعشرين ألف فارس، وقدَّم له إيڤان الثالث عدداً من المدافع المتطورة لقصف أسوارها، فاقتحمها وقتل كثيراً من سكانها وأسر من بقي على قيد الحياة، ثم هدمها وسوّاها بالأرض، قاضياً بذلك على هذه الخانية الكبرى التي عمَّرت مائتين وثمانية وستين عاماً، وفرَّ آخر خاناتها، شيخ أحمد، ناجياً بحياته، فهام في الصحراء، ثم حاول السفر إلى إستانبول للاحتماء بالسلطان العثماني بايزيد الثاني، لكن السلطان رفض استقباله على أراضيه بوصفه عدو منكلي كراي الذي تربطه به علاقة أسرية،

---

(١) ورثت خانية أستراخان القبيلة الذهبية، إلا أنها لم تُعمِّر أكثر من ستين عاماً، فقد قضى عليها الروس وضموها إلى أراضيهم في عام (٩٦٥هـ/ ١٥٥٨م).

فيمَّم وجهه صوب ليتوانيا، ولما دخل مدينة كييف قبض عليه حليفه الأمير الليتواني ألكسندر وسجنه في مدينة تروكي الليتوانية.. ثم حدث أن أرسل مغول النوغاي بعثة إلى ألكسندر يطلبون منه إطلاق سراحه، فرفض، لكن الخان استطاع الفرار من سجنه، بمساعدة أفراد من النوغاي، فطاردته فرقة من الخيالة البولندية وقبضت عليه، وأعيد إلى سجنه في تروكي، ثم نُقِل إلى سجن آخر في مدينة كوفنو، وعامله ألكسندر كعدو، ما أثار دهشته واستغرابه[1].

والواقع أن ألكسندر تصرف وفقاً لمصلحته، فقد خسر، بزوال خانية القبيلة الذهبية، حليفاً قوياً في مواجهة عدويه، منكلي كراي وإيڤان الثالث، لذلك كان عليه التقرب منهما حتى لا يقع بين فكي الكماشة، فحاول أولاً التقرب من منكلي كراي، فأبدى استعداده لتسليمه شيخ أحمد مقابل تحسين العلاقات بينهما، ويبدو أنه أراد فك تحالفه مع إيڤان الثالث.

لم يلتفت أمير القرم إلى رغبة ألكسندر، إذ إن شيخ أحمد لم يعد يهمه في شيء بعد زوال حكمه، ورأى أن تحالفه مع الأمير الروسي يحقق مصلحة بلاده.

وتوفي شيخ أحمد في سجنه في عام (٩١١هـ/ ١٥٠٥م)، فانقرض بوفاته خانات القبيلة الذهبية.

وعلى هذا الشكل كان زوال هذه الخانية التي سيطرت على مساحات واسعة، وملأت حيزاً هاماً في تاريخ أوروبا الشرقية، والتي وقعت تحت رحمة جيرانها في أعوامها الأخيرة، وانتهى أمرها في وسط المعترك السياسي المعقد لأوروبا الشرقية.

ولكن خانات قازان وأستراخان والقرم ظلوا قائمين، يحافظون على أملاكهم. وتأسَّست خانية مغولية جديدة في غربي سيبيريا.

وهكذا نرى أن العطاء السياسي لفتوح المغول عام (٦٣٨هـ/ ١٢٤٠م) لم يندثر وظل قائماً، ولكن العلاقات والصلات الجغرافية بين خانات الڤولغا والقرم قد انقطعت، وبقيت أراض واسعة من البلاد من دون حماية ضد هجوم أمراء موسكو. إذ إن الروس لم يهملوا انتهاز الفرص المتاحة لهم، وبخاصة بعد أن حقَّق إيڤان الثالث أهدافه ضد ليتوانيا في (٩٠٩هـ/ ١٥٠٣م). ووقعت

---

(١) Karamazin: VI, pp390, 391.

خانية قازان تحت حكم موسكو بعد فشل محاولات مغول القرم لإنقاذها، كما أن الخصومات الداخلية الدائمة جعلت هذه الخانية قليلة الشأن، هذا وقد دخل كثير من أمراء الأسرة الحاكمة في قازان في خدمة الروس، واعتنق بعضهم النصرانية.

وعمد إيڤان الرابع الرهيب، في عام (٩٥٩هـ/ ١٥٥٢م)، إلى مهاجمة خانية قازان من دون أن يلقى مقاومة تذكر، واستولى عليها في (٢٦ شوال/ ١٥ تشرين الأول)، كما سقطت أستراخان في عام (٩٦١هـ/ ١٥٥٤م)، وشكَّلت هاتان الحادثتان علامتين فارقتين لانتهاء النفوذ الآسيوي في أوروبا الشرقية. وانتهى أمر خانية سيبيريا الغربية في عام (٩٩٢هـ/ ١٥٨٤م)، ولم تبق إلّا خانية القرم تحت حكم أسرة كراي التي اعترفت بسيادة العثمانيين، وقد ساعدها موقعها الجغرافي، البعيد عن طرق زحف المسكوفيين، على الصمود، وهم الذين عدُّوا وجودها مشكلة سياسية خارجية أكثر منها مشكلة داخلية وطنية، وذلك في الصراع مع العثمانيين. ونتج عن خسارة هؤلاء أمام الروس في الحرب التركية ـ الروسية في عام (١١٨٢ ـ ١١٨٨هـ/ ١٧٦٨ ـ ١٧٧٤م)، وما تلا ذلك من عقد معاهدة كوتشوك قينارجي عام (١١٨٨هـ/ ١٧٧٤م)؛ خاتمة تقرير مصير خانية القرم. فعلى الرغم من أنها بقيت مستقلة اسمياً لكنها أضحت تحت رحمة روسيا مع اعتراف الروس بسلطة السلطان العثماني الاسمية على المسلمين في القرم بوصفه خليفة للمسلمين، بموجب معاهدة إينالي كافاك في عام (١١٩٣هـ/ ١٧٧٩م)، وأدى تنازل شاهين خان عن عرش خانية القرم في عام (١١٩٧هـ/ ١٧٨٣م) إلى إلحاقها بالولايات الروسية.

وهكذا انتهت تلك الموجة التي بدأت عام (٦٣٨هـ/ ١٢٤٠م)، والتي عُرفت بالغزو المغولي الكاسح.

الباب الثاني

مغول الهند

(٩٣٢ ـ ١٢٧٤هـ/ ١٥٢٦ ـ ١٨٥٨م)

الفصل الخامس

ظهير الدين محمد بابر، مؤسس الدولة المغولية في الهند

(٩٣٢ ـ ٩٣٧هـ/ ١٥٢٦ ـ ١٥٣٠م)

الأوضاع السياسية في الهند قبيل غزو بابر

شهدت الهند[١] عشية غزو بابر[٢] تفككاً في أوضاعها بفعل النزاعات والانقسامات بين عدد من الإمارات الإسلامية والهندوسية المتفاوتة في القوة والمتصارعة أبداً، وفقدت الحكومة المركزية في دلهي قدرتها في المحافظة على وحدة البلاد وفرض هيبتها أمام الأمراء المتنازعين؛ لذلك كانت البلاد فريسة سهلة لأي غاز طموح ومستعد للسيطرة عليها. وأدّى الغزو التيموري للبلاد، بدءاً من عام (٨٠١هـ/ ١٣٩٨م)، دوراً آخر في زيادة حدة الانقسام والتفكك، ذلك أن معظم ولاياتها الكبرى، كمالوة والكجرات وجونبور والبنغال والدكن، ما لبثت، على أثر هذا الغزو، أن انفصلت عن سلطنة دلهي انفصالاً تاماً في ظل التدهور الحاد الذي أصاب مؤسستها العسكرية المرتبط بتراجع الموارد الاقتصادية والفوضى السياسية، وأعلن حكامها استقلالهم. وفشل سلاطين دلهي في بسط نفوذهم على هذه الولايات بعامة، من جديد، إلا في عصر الدولة المغولية التي أسسها بابر، على أن معظم حكام هذه الولايات المستقلة، التي سنتحدث عن أشهرها، قد حرصوا، على الرغم من محاولاتهم توسيع رقعة أراضيهم أو الدفاع عنها ضد الطامعين، على العمل على الأخذ بأسباب الرقي والنهضة بها.

---

(١) اختلف العلماء في منشأ تسمية الهند، فمنهم من نسبها إلى الإله أندرا، إله الهند القديم، ومنهم من ردّها إلى السند الذي كان يعرفه الفرس القدماء باسم هند هو، أي النهر. وقد بسط هؤلاء نفوذهم على الجزء الغربي من هذه البلاد، وأطلقوا كذلك اسم الهندستان، أي أرض الأنهار، على شمالها. وتضم شبه القارة الهندية اليوم جمهوريات الهند وباكستان وبنغلادش. انظر: حوليات كلية الآداب، جامعة الكويت، الحولية التاسعة، الرسالة ٥٢، عام ١٩٨٧، ١٩٨٨م

(٢) بابر: معناها نمر.

دلهي: تولى حكام ما يُعرف بأسرتي السيد (٨١٧ ـ ٨٥٥هـ/ ١٤١٤ ـ ١٤٥١م) ولودي (٨٥٥ ـ ٩٣٢هـ/ ١٤٥١ ـ ١٥٢٦م) الحاكمتين رئاسة دولة لم تكن إلا ظلاً لكيانها السابق والتي استمرت في التمزق. فسلطنة دلهي كانت محاطة، وأحياناً مهددة، بسلطنات إسلامية منافسة، مثل جونبور والكجرات ومالوة والبنغال، بالإضافة إلى إمارات هندوسية عادت إلى الحياة مجدداً في كل من ميوار وآلوار، وفي عدد من المناسبات، ظلّت دلهي معرّضة لتهديد غزاة هذه المملكة الإسلامية أو تلك[1].

يستند لقب السيد المعطوفة على أسرة خضرخان، أحد القادة التيموريين، إلى التحدر عن النبي محمد ﷺ. وكان خضرخان يدفع الخراج لشاه رُخ بن تيمورلنك الذي أصبح مهيمناً على القسم الشرقي من العالم الإسلامي من عاصمته هراة، وحصل مقابل ذلك على خلعة شرف وراية[2]. ومن المحتمل أن تكون هذه السيادة قد تعرضت للانقطاع مع اندلاع الحرب الأهلية بعد وفاة شاه رُخ في عام (٨٥٠هـ/ ١٤٤٧م)، غير أن بابر، سليل تيمورلنك، كان لدى قيامه بشن غزواته على الهند، في أوائل القرن السادس عشر الميلادي، يُعيد إحياء ادعاءات أجداده القائمة على المطالبة بالسيادة على شرقي الهند، على الرغم من أن الاستيلاء على دلهي كان هدفه الأسمى.

وفي عام (٨٥٥هـ/ ١٤٥١م) استلمت الحكم أسرة لودي، وهي أسرة تركية[2]، وأول حكامها يُدعى بهلول لودي، الذي كان قد مُنح لاهور وديبلبور مقابل مساعدة قدّمها لسلطنة دلهي ضد قوات مالوة الغازية، وبذل محاولتين للاستيلاء على دلهي. وحين قرَّر علاء الدين علم شاه، آخر الحكام السادة هجر عاصمته ليرحل إلى بداؤون في عام (٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م)، فهاجمها بهلول لودي ودخلها بعد ثلاثة أعوام حيث جرى تنصيبه على العرش سلطاناً[3].

شهدت الحقبة اللودية نوعاً من الإحياء أو الصحوة بفضل مقدرة علاء الدين

(١) جاكسون، بيتر: سلطنة دلهي ص٥٦٠.
(٢) بقيت أوامر الزعيم التيموري نافذة في دلهي طوال ما يقرب من أربعين عاما.
(٣) بخشي، نظام الدين أحمد: المسلمون في الهند من الفتح العربي إلى الاستعمار البريطاني، وهي الترجمة لكتاب طبقات أكبري: جا ص٢٣٥، ٢٤٠.

بهلول لودي العسكرية الفائقة. فقد أعاد هذا الحاكم سلطة دلهي على كثير من الأراضي التي خرجت عن الطاعة، وثمة صدامات مع جونبور، التي أعلنت استقلالها في عام (٧٩٦هـ/ ١٣٩٤م)، انتهت بإعادتها في عام (٩٠٦هـ/ ١٥٠٠م) على يد السلطان إسكندر شاه بن بهلول (٨٩٤ ـ ٩٢٣هـ/ ١٤٨٩ ـ ١٥١٧م)[1]. وتحقَّقت في ظل حكم هذا السلطان مكاسب ذات شأن في الجنوب، فتوسعت سلطنة دلهي، من نهر ساتلاج في البنجاب إلى مقاطعة بندلخند شرقاً. وعلى الرغم من أن حكام الولايات والأمراء الموالين تمتعوا بدرجة عالية من الحرية في العمل؛ إلا أن إسكندر حرص على ألا يرهق الموارد المالية للبلاد أو يثير الثورات باتباعه سياسة مالية سيئة، وقد تمتعت الهند في عهده بالهدوء والتطور النسبي[2].

وأقدم إسكندر في عام (٩١١هـ/ ١٥٠٥م) على نقل مقر إقامته من دلهي إلى أكرا، وقد ترتَّب على هذه السياسة الجريئة، والطموح نحو الجنوب، أن أُهملت الحدود المعرضة للخطر في البنجاب. وبقيت هجرة الزعماء الأفغان وأتباعهم متسارعة في ظل الحكام اللوديين الأوائل، وبخاصة حين حاول بهلول أن يُعزِّز قوته العسكرية عبر استدعاء رجال القبائل الأفغان، من عشائر الروه، لمواجهة التهديد القادم من جونبور.

وأثبت إبراهيم بن إسكندر، الذي خلفه على الحكم، أنه غير قابل للمساومة على مخططاته الرامية إلى تحجيم وكبح نفوذ الأمراء، وبناء نخبة يمكنه الاعتماد عليها. وما لبثت تصرفاته المتعسفة ضد عدد من الشخصيات القيادية أن دفعت هؤلاء إلى طلب المساعدة من بابر، حاكم كابل، كان من بينهم دولت لودي حاكم البنجاب، وعلاء الدين لودي عم إبراهيم[3]. ويُعدّ تدخل هذا الحاكم في شؤون الهند فاتحة عهد جديد في تاريخ هذا البلد في العصر الحديث، وشكَّل بداية الدولة المغولية الكبرى.

الكجرات: تُعدُّ هذه الإمارة ثاني إمارات الهند الإسلامية بعد سلطنة دلهي من حيث الثراء والقوة. فبفضل تربتها الخصبة وما تحويه من ثروات طبيعية، بالإضافة إلى موقعها الجغرافي المتميز على الساحل الغربي للهند، ما جعلها

(١) بخشي: جا ص٢٥١.
(٢) جاكسون: ص٥٦٣.
(٣) بخشي: جا ص٢٧٤، ٢٧٥.

أعظم مراكز هذا البلد التجارية ومنفذه إلى إفريقيا وآسيا وأوروبا. واشتهر ميناؤها ديو وخليجها كمباي بأنهما مرسى للسفن التجارية التي تبحر حاملة منتجات الهند، من التوابل والثمار والعطور والسيوف والمنسوجات الحريرية والقطنية والأحجار الكريمة، إلى الجزيرة العربية والبحر الأحمر، ثم تُنقل براً إلى موانئ البحر الأبيض المتوسط لتحملها مراكب أخرى إلى ثغور أوروبا[1]، لذلك كانت هذه الإمارة محط أنظار الأوروبيين، وقد أعلن حاكمها مظفر خان استقلاله عن سلطنة دلهي في عام (٨٠٤هـ/ ١٤٠١م)[2]، وخلفه حفيده أحمد شاه، الذي قضى معظم أيام حكمه في حروب متواصلة أتاحت له توسيع رقعة الإمارة. بنى هذه الأمير مدينة أحمد آباد[3]، وشجَّع التجار والصنَّاع على النزوح إليها، وأقام كثيراً من المنشآت العمرانية، وبذل نشاطاً ملحوظاً في نشر الدين الإسلامي بين السكان الهندوس. ويُعدُّ حفيده محمود بيكرة[4] (٨٦٣ ـ ٩١٧هـ/ ١٤٥٨ ـ ١٥١١م) أعظم حكام الكجرات، إذ بلغت الإمارة أوج قوتها في عهده. توسَّع هذا الأمير على حساب جيرانه، فاستولى على جانبانير وجوناكره وكوتشر، واشتهر بمقاومته للبرتغاليين لطردهم من سواحل الهند الغربية، وتلقّى خلفاؤه المساعدة من المماليك في مصر والعثمانيين في آسيا الصغرى من أجل هذه الغاية[5].

وعلى الرغم من بسالة المقاومة، فقد تمكّن البرتغاليون من تثبيت أقدامهم في بضع أماكن على الشاطئ الغربي للهند من بينها جوا.

توفي محمود بيكرة بعد أن حكم ثلاثة وخمسين عاماً، وواجه ابنه وخليفته مظفر شاه الثاني أعداءه الراجبوت بزعامة رانا سانغا، وتوفي في عام (٩٣٢هـ/ ١٥٢٦م)[6]، وخلفه ابنه بهادور شاه الذي يُعدُّ آخر حكام الكجرات الكبار. وعلى الرغم من هزيمته أمام همايون، ثاني سلاطين المغول في الهند، فقد نجح بعد ذلك في استرداد جزء كبير من أراضيه، وبذل جهداً صادقاً في طرد

---

(١) Depping, G.B. Histoire du Commerce entre le Levant et L'Europe, Depuis les Croisades Jusqu'à la Fondation des Colonies d'Amérique, I, pp35-37

(٢) بخشي: جـ٣ ص٦٦. (٣) المصدر نفسه: ص٧٠.

(٤) بيكرة: هي بقرة ترتفع قرونها إلى أعلى وتكون على هيئة حلقة، وكان شاربه بهذا الشكل ولهذا سموه بيكرة. المصدر نفسه: ص١١٠.

(٥) بخشي: جـ٣ ص١٠٣. (٦) المصدر نفسه: ص١١٨ ـ ١٢١.

البرتغاليين من ثغر ديو، وكاد ينجح في ذلك لولا أن تعرّض لمؤامرة من قبل أعدائه، وضمَّ أكبر، ثالث سلاطين المغول، هذه الإمارة إلى دولته في عام (٩٨٠هـ/ ١٥٧٢م)[1].

مالوة: تقع هذه الإمارة شرقي الكجرات في وسط الهند، استقلّت عن دلهي في عام (٨٠٣هـ/ ١٤٠١م) على يد ديلاور خان الغوري، وهو من رجال فيروز تغلق خان، واتخذ من مدينة دهر حاضرة له، وخلفه ابنه ألب خان، الملقب بهوشنك شاه، عام (٨٠٧هـ/ ١٤٠٤م)، فنقل عاصمته إلى ماندو[2]. تعرّضت هذه الإمارة بفعل خصب أراضيها إلى أطماع جيرانها، دلهي وجونبور والكجرات، ومني هوشنك بهزيمة قاسية في حروبه مع الكجرات، وخلفه على العرش ابنه غزني خان الذي غلبه وزيره محمود خان الخلجي على أمره وقتله وحلّ محله في الحكم[3]. اتصف هذه الأمير بالطموح السياسي والقدرة العسكرية، فبلغت مالوة في عهده شأواً عظيماً بما أحرزه من انتصارات في حروبه العديدة ضد الراجبوت وإمارة بهمني، حتى امتدت حدودها شمالاً إلى موار، وجنوباً إلى ساتبورا، وشرقاً إلى بندلخند وغرباً إلى الكجرات، وحاول دخول دلهي لكن صدَّه بهلول لودي. اشتهر هذا السلطان، إلى جانب حروبه الكثيرة، باهتمامه بالعلوم والفنون والآداب مع حرصه البالغ على إشاعة العدل بين جميع رعاياه المسلمين والهندوس[4].

وحافظ خليفتا هوشنك، غياث الدين وناصر الدين، على إنجازاته[5]. وفي عهد محمود الثاني، الذي خلف ناصر الدين، نجح الراجبوت، بقيادة مديني راو، في تأسيس إمارة لهم على حساب مالوة، ما أثار المسلمين، فتحالف محمود الثاني مع مظفر شاه حاكم الكجرات ضده. وتلقى مديني راو مساعدة من رانا سنغا أمير جيتور. واصطدم الطرفان في رحى معركة ضارية أسفرت عن انتصار الراجبوت، ثم تعرّضت الإمارة للنزاعات الداخلية، ودبّت فيها الفوضى، حتى انتزعها بهادور خان، صاحب الكجرات في عام (٩٣٧هـ/

---

(١) الساداتي، أحمد محمود: تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وباكستان وحضارتهم: ص١٤٤ ـ ١٤٦.

(٢) بخشي: جـ٣ ص١٨٦، ١٨٧. Raychoudhry, S.C.: History of Mughals: IV, p7.

(٣) المصدر نفسه: ص١٩٩، ٢٠٠. (٤) المصدر نفسه: ص٢١٣ ـ ٢٢١.

(٥) المصدر نفسه: ص٢٢١ ـ ٢٣٧.

١٥٣١م)، ليستخلصها همايون، ثاني سلاطين المغول في الهند، لنفسه بعد ذلك بأربعة أعوام[1].

خاندش: تقع هذه الإمارة المهمة في وسط الهند إلى الجنوب من مالوة، انسلخت عن دلهي في نهاية القرن الرابع عشر الميلادي على يد ملك راجا فاروقي الذي اقتدى بديلاور خان الغوري أمير مالوة. ودخل هذا الأمير في حروب كثيرة مع جيرانه لا سيما مع مظفر شاه حاكم الكجرات، خسر معظمها، فمال إلى السلم وانصرف إلى الاهتمام بأوضاعه الداخلية، وخلفه بعد وفاته ابنه ناصر شاه، وكان قديراً وطموحاً، حارب الهندوس وانتزع منهم بعض الحصون كان أهمها أزيركاه، لكن أصاب خلفاءه الضعف، فتراجعت قوة الإمارة، وبخاصة بعد وفاة الأمير عادل فاروقي، بفعل الصراع الداخلي على السلطة، وسقطت في أيدي محمود بيكرة الكجراتي وخلفائه، ثم ضمها السلطان أكبر المغولي إلى أملاكه في عام (١٠١٠هـ/ ١٦٠١م)[2].

جونبور: تقع هذه الإمارة الواسعة إلى الجنوب الشرقي من دلهي، أسسها فيروز تغلق عام (٧٦٠هـ/ ١٣٥٩م) عند عودته من حملته الثانية ضد البنغال، لتكون قاعدة عسكرية ضد ما قد يحدث من اضطرابات في تلك النواحي البعيدة عن دلهي، بالإضافة إلى ما قد تتعرّض له جيوشه في سيرها إلى هناك، وقد أطلق عليها هذا الاسم تخليداً لذكرى ابن عمه الأمير فخر الدين محمد جونه.

وعيَّن محمود تغلق، في عام (٧٩٧هـ/ ١٣٩٥م)، وزيره وقائده خواجة جهان سرور حاكماً على الأراضي الواقعة بين قنّوج وبيهار، ولقّبه بـ شاه شرقي، أي ملك الشرق، وما لبث هذا الحاكم أن بسط نفوذه على الدوآب واتخذ من جونبور حاضرة له، ثم انتهز فرصة الغزو التيموري للهند فأعلن استقلاله بما تحت يده[3].

وتعاقب ملوك الشرق على حكم هذه الإمارة، أمثال مبارك شاه وإبراهيم شاه[4]،

(١) بخشي: جـ٣ ص٢٥٤ ـ ٢٥٨. الساداتي: ص١٤٧. Raychoudhry: p7.
(٢) الساداتي: ص١٤٧. (٣) بخشي: جـ٣ ص١٧٣.
(٤) المصدر نفسه: ص١٧٤.

وكانوا من القوة بحيث استردوا إقليم قنّوج على أثر هزيمة إقبال خان ومقتله في الملتان، وحاولوا السيطرة على دلهي، لكن إبراهيم شاه تراجع عنها عندما علم بزحف مظفر خان صاحب الكجرات إليها، والتمس محمود تغلق المساعدة من إبراهيم شاه لاسترداد عرشه من أيدي إقبال شاه.

وركن إبراهيم شاه بعد ذلك إلى السلم وانصرف إلى تنظيم حكومة بلاده، والالتفات إلى النواحي الثقافية، حتى غدت بلاده من أعظم المراكز الإسلامية في الهند، وساعد على قيام هذه النهضة طائفة كبيرة من العلماء الذين لجأوا إليها هرباً من الغزو التيموري.

وظل ملوك الشرق يحكمون هذه الإمارة مدة طويلة تعرّضوا خلالها لهجمات اللوديين الأفغان، أصحاب دلهي، حتى انتزعوها منهم في عهد أميرها حسين شاه في عام (٨٨٤هـ/ ١٤٧٩م)[1].

بهمني[2]: تشغل هذه الإمارة الجنوبية مساحات واسعة في نواحي بمباي وحيدر آباد، استقلّت في عام (٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م) إثر ثورة قامت ضد حكم السلطان محمود تغلق حاكم دلهي، ونصّب أعيانها الأمير حسن على عرشها، فاتخذ لقب عبد المظفر علاء الدين بهمن شاه.

كان بهمن شاه حاكماً طموحاً، اتخذ من غولبارغا عاصمة له، ثم راح يوسع أراضيه ببسط نفوذه على كافة الأقاليم الدكنية، من نهر واينيغانغا في الشمال إلى نهر كريشنا في الجنوب، ومن دولت آباد في الغرب إلى بونغير في الشرق، كما كان إدارياً قديراً، قسّم إمارته إلى أربعة أقسام إدارية هي، العاصمة غولبارغا ودولت آباد وبرار وبيدار، وتوفي في عام (٧٥٩هـ/ ١٣٥٨م)[3].

اصطدم سلاطين هذه الإمارة براجا تلنجانا، وضموا إلى أراضيهم إقليمي غولكوندة وأورانكل وأجزاء واسعة من أوريسَّا في الشرق. وبلغت الإمارة ذروة قوتها في عهد وزيرها محمود جوان الذي هزم راجا صاحب إمارة

(١) بخشي: جـ٣ ص١٧٩ ـ ١٨١. Sharma, L.P.: History of Medieval India: pp230, 231.
(٢) عرفت بهمنى بهذا الاسم نسبة إلى جد يدعى بهمن بن أسفنديار، أحد ملوك الفرس القدماء.
(٣) Ferishta, M.K.: History of the Rise The Mahomedan Power in India: II, p309.

فياناكار الهندوسية. وازدهرت الحركة العلمية في عهده بفضل جهوده، فظهرت مؤلفات قيمة في الرياضيات والطب والأدب، واشتهرت مكتبته، في مدرسته بمدينة بدر، بما كانت تحويه من ذخائر المخطوطات[1].

ويبدو أن عنف هذا الوزير البالغ، في معاملته لمنافسيه وأعدائه من الأمراء المسلمين والهندوس، قد دفعهم إلى التآمر عليه عند السلطان محمد الثالث الذي قتله في (٥ صفر ٨٨٦هـ/ ٥ نيسان ١٤٨١م)، فكان مقتله إيذاناً بانهيار هذه الإمارة[2].

تعاقب على إمارة بهمنى أربعة عشر سلطاناً اتصف معظمهم بالغلظة والقساوة والميل البالغ إلى سفك الدماء، ولم يمنعهم ذلك من الاهتمام بالنواحي الحضارية مثل رعاية العلوم والفنون، وتحسين الزراعة بشق الترع والأقنية، وتشجيع الصناعة والتجارة، وإقامة المنشآت العمرانية من مدارس ومساجد.

لم يمض عامان على مقتل الوزير محمود جوان حتى انفرط عقد إمارة بهمنى بالتدريج، حتى إذا ما دخل عام (٩٣٣هـ/ ١٥٢٥م) أُسدل الستار نهائياً على هذه الدولة التي عمرّت قرابة قرنين من الزمان، فقُسِّمت أراضيها إلى خمس ممالك إسلامية مستقلة ومتحاربة دائماً، هي برار وبيجابور وأحمد نكر وغولكوندة وبيدار[3].

البنغال: كانت إمارة البنغال، في بادئ الأمر، جزءاً من سلطنة دلهي ثم استقلّت عنها في عهد فيروز تغلق علاء الدين حسين، الذي أسس إمارة وراثية في عام (٧٥٢هـ/ ١٣٥١م)[4]. اتصف هذا الشاه بالطموح السياسي، وسَّع رقعة أراضيه، فاستولى على كاماتبور في كوش بيهار على الحدود مع أسام، وعندما توفي خلفه ابنه نصرت شاه الذي يُعدُّ من بين أكبر أمراء الهند، وهو الذي ظل ممسكاً بزمام الأمور من عام (٩٢١هـ/ ١٥١٥م) إلى عام (٩٣٩هـ/ ١٥٣٢، ١٥٣٣م)، وتمدَّد باتجاه الشمال، فاستولى على شيتاكونغ وترهوت وحاجي بور إلى الشمال من بيهار. استمرت الأسرة الحسينية في الحكم حتى عام (٩٤٥هـ/ ١٥٣٨م) عندما أخضعها شير شاه سور الأفغاني، ثم خضعت الإمارة

(١) Prasade, Ischwari: Medieval India· p373.
(٢) Ferishta: II, pp312-314.
(٣) الساداتي: ص١٥١.
(٤) بخشي: جـ٣ ص١٦٤.

للسلطان المغولي أكبر[1].

فياناكار: تقع هذه الإمارة الهندوسية في أقصى الجنوب الغربي للساحل الهندي، أسسها الأخوان هاري هارا وبوكا، اللذان ينحدران من الأمير سنغاما، من أسرة يادافا حكام دواكر، وكانت في حال عداء دائم مع الإمارات الإسلامية المجاورة وبخاصة إمارة بهمنى. وزر الأخوان، في بداية حياتهما السياسية، لراجا أنّاغوندي حاكم المليبار، ووقعا معه في أسر محمد بن تغلق سلطان دلهي الذي أجبرهما على اعتناق الإسلام. وعندما نشبت الثورة في كامبيلي أرسلهما إليها كنائبين له لإخمادها، غير أنهما ما لبثا أن نزعا إلى الاستقلال بما تحت أيديهما من أقاليم وانفصلا عن حكم المسلمين، وذلك في عام (٧٣٦هـ/ ١٣٣٦م)، وبادرا فوراً بتأسيس مدينة فياناكار الحصينة على شاطئ نتجيهاردا، فأُطلق اسمها بعد ذلك على الإمارة كلها، وعُيِّن هاري هار أول ملك عليها.

ويُعدُّ كريشنا ديوفا (٩١٥ ـ ٩٣٥هـ/ ١٥٠٩ ـ ١٥٢٩م) أعظم حكام الإمارة، فازدهرت في عهده عبادة وشنا، واعتنى بنشر الآداب السنسكريتية، كما راجت العمارة والنحت[2]، وبدأت في عهده غزوات بابر للهند. وتحالف هذا الحاكم مع البرتغاليين، وقد جمعت الطرفين مصلحة مشتركة وهي العداء للمسلمين. وعندما سقط ثغرجوا بأيدي هؤلاء، أرسل إليهم يهنئهم، وتمادى حين سمح لهم بإقامة حصون على شواطئ بلاده الغربية، على أن خلفاءه لم يستطيعوا الوقوف في وجه جبهة أمراء الدكن المسلمين الذين انتصروا عليهم في معركة تليكوتا الشهيرة في (٢٠ جمادى الآخرة ٩٧٢هـ/ ٢٣ كانون الثاني ١٥٦٥م) حيث جرى تدمير الجيش الفياناكاري والعاصمة، ولكنها لم تقض على الإمارة وإن أضعفت سلطة الهندوس في الجنوب وأدّت إلى القضاء على نفوذ البرتغاليين الاقتصادي هناك.

تعرّضت الإمارة في أواخر أيامها للاضطرابات السياسية بفعل الصراع على السلطة، وسارت في طريق التدهور. ولعل آخر حكامها القادرين هو رانغا الثالث، إلا أنه كان عاجزاً عن السيطرة على البلاد في ظل التوجه القوي نحو التجزئة التي أدّت في النهاية إلى زوالها.

(١) الساداتي: ص١٤٩، ١٥٠. Sharma: p232.
(٢) Ibid: pp242-245.

لم تؤد هذه الإمارة دوراً سياسياً فاعلاً في شمالي الهند، لكنها شكّلت حاجزاً في وجه التمدد الإسلامي باتجاه الجنوب[١].

هكذا كانت شبه القارة الهندية مفكّكة الأوصال ومجزأة إلى إمارات عدة متقاتلة ومتصارعة فيما بينها، وبدا واضحاً التفوق الإسلامي في الشمال والوسط، وتركّزت الهندوسية في الجنوب. وقد مهدّت هذه الظروف الطريق أمام بابر، صاحب كابل وغزنة، ليندفع بجيوشه إلى سهول الهند ويستولي على دلهي، ويؤسس في ربوعها دولة مغولية حضارية.

ظهور بابر على المسرح السياسي

اعتلاؤه العرش في فرغانة[٢]

يُعدّ ظهير الدين محمد بابر من كبار رجال التاريخ الإسلامي بعامة وتاريخ الهند بخاصة، فهو من أبرز الشخصيات المغولية المتتركة[٣] على المستويين السياسي والأدبي، وهو مؤسس دولة المغول في الهند التي استمرت في الحكم من مطلع القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي، إلى أواخر القرن الثالث عشر الهجري/التاسع عشر الميلادي.

امتزجت في عروق بابر دماء الأتراك والمغول[٤]. فوالده هو شيخ عمر ميرزا ابن السلطان أبو سعيد ميرزا أحد أحفاد تيمورلنك. وأمه قتلق نكار خانم ابنة يونس، خان المغول الجغتائيين وأحد أحفاد جغتاي بن جنكيزخان[٥]. ولد

---

(١) Sharma: pp242-245.

(٢) فرغانة: مدينة وكورة واسعة فيما وراء النهر، متاخمة لبلاد تركستان. الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت: معجم البلدان: ج٤ ص٢٥٣.

(٣) حتى لا يتعرض اصطلاح المغول المتتركين لأي تأويل، يجب أن أوضّح أن ما يُسمّى مغول الهند بوصفهم ليسوا من أصل مغولي أو تركي خالص، والمعروف أن الامتزاج والتزاوج بين هذين العنصرين لم يكن بعيد الاحتمال عند المغول والترك الذين دخلوا في الإسلام. والحقيقة أن الإمارات المغولية في وسط آسيا فقدت كل سماتها المغولية منذ قبيل نشوء الدولة التيمورية، وأضحت تعبيراً عن هذه اللهجات التركية المحلية.

(٤) كان بابر يعتز بتركيته، ومع هذا فقد نُسبت دولته في الهند إلى المغول، إذ اعتاد الهنود، منذ غزو جنكيز خان للهند، على إطلاق اسم المغول على كل موجة بشرية تفد إليهم من بلاد ما وراء النهر.

(٥) تاريخ بابرشاه المعروف بـ «بابر نامة وقائع فرغانة»: ص٨٩.

في أندجان[١] في (١٦ محرم ٨٨٨هـ/ ٢٤ شباط ١٤٨٣م)، وأطلق عليه الولي الزاهد نصر الله عبيد الله اسم ظهير الدين محمد، بينما أطلق عليه أبناء عشيرته من المغول والأتراك لقب بابر، أي النمر، التزاماً بالأعراف التركية، وهو الاسم الذي اشتهر به في التاريخ وعرفه الناس به.

بعد مقتل السلطان أبو سعيد ميرزا، على يد أوزون حسن، زعيم تركمان الآق قوينلو ـ الخروف الأبيض ـ في عام (٨٧٣هـ/ ١٤٦٨م)[٢]. انقسمت الدولة التيمورية في بلاد ما وراء النهر وتوزّعت على أبنائه. فنال ابنه الأكبر أحمد ميرزا سمرقند وما جاور بخارى. وكان نصيب ابنه الثاني محمود ميرزا منطقة بدخشان. ويدخل فيها المنطقة الواقعة بين هندوكوش وجبال حصار في الجنوب الشرقي من سمرقند، ونال الابن الثالث عمر شيخ ميرزا، والد بابر، بخارى وما حولها ومن ضمنها مدينة فرغانة. وكان هؤلاء الإخوة مرتبطين برباط المصاهرة مع يونس خان الجغتائي. أما الابن الرابع، وهو أولغ ميرزا، فكان نصيبه كابل وغزنة.

اتصف عمر شيخ ميرزا بالطموح السياسي، فأراد أن يوسّع أراضيه على حساب إخوته وجيرانه، وكان يطمع في ضمّ سمرقند إلى أملاكه. لذلك قضى معظم أيام حكمه في حروب معهم، فضاق هؤلاء ذرعاً به، واتحدوا ضده لوضع حد لطموحه، فاتفق السلطانان أحمد ميرزا ومحمود، خان طشقند، وهو خال بابر، على مهاجمة فرغانة وانتزاعها من يده[٣].

وحدث في هذه الأثناء أن هوى عمر شيخ ميرزا إلى الأرض من أعلى قلعة أخسي، حيث كان يتفقّد حمائم له، وتوفي في (٤ رمضان ٨٩٩هـ/ ٨ حزيران ١٤٩٤م)، وكان عمره تسعة وثلاثين عاماً، وخلفه ابنه الصبي بابر الذي لم يكن قد تجاوز الثانية عشرة من عمره[٤].

المشكلات التي واجهت بابر

واجهت بابر، في بداية حياته السياسية، مشكلات عدة هدّدت سلطته، فقد

---

(١) أندجان، وتكتب أيضاً أنديجان وأندكان. إحدى قصبات فرغانة. تقع على مسافة ٤٠كم شرقي حجندة، وهي اليوم في أوزبكستان.

(٢) إقبال، عباس: تاريخ إيران بعد الإسلام: ص٦١٩.

(٣) تاريخ بابرشاه، المسمى بـ «بابر نامة، تاريخ فرغانة»: ص٨٢، ٨٣.

(٤) المصدر نفسه. Ferishta II, P2

استغل أعمامه وفاة والده، من جهة، وصغر سنه، من جهة أخرى، فنهضوا لوضع أيديهم على تركة أخيهم المتوفى، وبذل بابر جهوداً لحملهم على وقف اعتداءاتهم، لكن من دون جدوى. وقرّر أحدهم، وهو أحمد ميرزا، مهاجمة فرغانة وانتزاعها منه، فزحف إليها في عام (٨٩٥هـ/ ١٤٩٠م)، غير أنه تعرّض لكارثة قبل أن يصل إليها. فأثناء عبور جيشه على أحد الجسور الواقعة على نهر قبا، انهار تحت أقدام الجنود فغرق معظمهم، كما تفشّت الأمراض في خيلهم فنفق معظمها؛ فأضحى عاجزاً عن مواصلة الزحف، وقنع بالهدنة مع ابن أخيه[١].

توفي السلطان أحمد ميرزا بعد مرور عام تاركاً سمرقند تعمها الفوضى والاضطراب، فاستدعى أمراؤه أخاه محمود ميرزا ليخلفه، فتوجّه إلى المدينة واعتلى العرش من دون منازع، وكان قد وسّع أراضيه بضم إقليم حصار الجبلي حتى جاورت حدود بلاده الهندوكوش، كما ضمّ الصغانيان والختل وبدخشان[٢].

وتعرّض بابر لهجوم قام به خاله محمود، صاحب طشقند، على قلعة أخسي، ويبدو أنها استعصت عليه، وداهمه مرض في غضون ذلك، فاضطر إلى رفع الحصار عنها وعاد إلى بلاده، وصدّ بابر الأمير أبا بكر دوغلت، صاحب كاشغر وختن الذي هاجم أراضيه[٣].

وهكذا زال الخطر الذي كان يتهدّد بابر من جانب عميه، وأتاح له ذلك أن يسترد قسماً من أملاك والده المسلوبة حول فرغانة.

الصراع حول سمرقند

بعد أن ثبّت بابر أقدامه في الحكم في فرغانة، قرّر استعادة ما أشاع بأنه حقّه في عرش جده تيمورلنك، على الرغم من حداثة سنه، مدركاً ببصيرته النفّاذة أنّ صرح سلطان التيموريين في بلاد ما وراء النهر قد أخذ يتفتت، فنهض يبذل جهده في تفادي وقوع هذه الكارثة. فهاجم سمرقند بعد وفاة عمه محمود ميرزا في (ربيع الآخر ٩٠٠هـ/ كانون الثاني ١٤٩٥م)، وكانت تحت حكم ابنه بايسنقر ميرزا، وكانت المدينة تتعرّض آنذاك لضغط عسكري من ثلاث جهات. فقد كان

(١) بابر نامة: ص١٠٩. Ferishta: II, p2-3.
(٢) المصدر نفسه: ص١٢٢، ١٢٣.
(٣) المصدر نفسه: ص١١٠، ١١١. Ferishta: II, p3.

سلطان علي، أخو بايسنقر، يهاجمها من جهة الغرب، وأخوه مسعود ميرزا يزحف نحوها من ناحية الجنوب وبابر يهاجمها من الشرق[١].

وهكذا غدت سمرقند في مستهل عام (٩٠١هـ/١٤٩٦م) والأخطار تهددها من ثلاث جهات دفعة واحدة. وإذ حلّ فصل الشتاء، وكان قاسياً في تلك السنة، فكّ المهاجمون الحصار عنها وعادوا إلى بلادهم. واتفق بابر وسلطان علي على أن يقتسما بلاد ما وراء النهر فيما بينهما، إلا أنهما اضطرا بدورهما إلى تأجيل نشاطهما العسكري بسبب قسوة البرد. وما إن حلّ فصل الربيع وذاب الثلج حتى هاجم الحليفان، بابر وسلطان علي، المدينة وضربا عليها حصاراً مركزاً وذلك في عام (٩٠٣هـ/ ١٤٩٧م)[٢].

ويبدو أن بايسنقر كان عاجزاً عن مقاومتهما، فطلب المساعدة من الأوزبك، الذين كانوا ينزلون عند حوض سيحون الأدنى وهم مستعدون للإقدام على أي عمل من شأنه أن يؤمّن لهم توسيع أملاكهم. وتقدم هؤلاء بقيادة شيباني محمد خان حتى مشارف المدينة، حتى إذا ما تبين لهم استحالة الدخول في معركة مع القوات المتحالفة، ارتدوا على أعقابهم عائدين إلى تركستان[٣]. ويبدو أن شيباني اختلف مع بايسنقر في تحديد مقدار الغنيمة التي سيفوز بها في حال الانتصار على بابر.

استمر حصار سمرقند مدة سبعة أشهر تبدّد خلالها أمل بايسنقر في الانتصار وبخاصة بعد انسحاب حليفه، فغادر المدينة سراً مع ثلاثمائة من رجاله، فعبر نهر جيحون عند ترمذ وتوّجه إلى قونذوز للاحتماء بخسرو شاه. ودخل بابر سمرقند للمرة الأولى في (ربيع الأول/ تشرين الثاني)، فاستقبله أمراؤها وسكانها بالترحاب، وجلس على عرش جده تيمورلنك، ولم يكن قد تجاوز الخامسة عشرة من عمره[٤].

وتقاسم الحليفان بلاد ما وراء النهر، فكانت بخارى ومنطقة ميان تحت حكم سلطان علي، وحصل بابر على مدينة سمرقند والقسم الشرقي من الأقليم، على أن أحداً منهما لم يستطع أن يحتفظ بما في يده من أراضٍ مدة

(١) بابر نامة: ص١٥٥ ـ ١٦٠. Ferishta: II, p4. (٢) المصدر نفسه.
(٣) المصدر نفسه: ص١٧٠.
(٤) المصدر نفسه: ص١٧٠، ١٧١. Ferishta: II, p4, 5.

طويلة، فقد اضطر سلطان علي أن يفرَّ من وجه حليفه القوي، فلاذ بالسلطان حسين ميرزا في هراة، في حين تعرّض بابر لمشكلات عدة اضطرته إلى أن يغادر سمرقند، وعاد إلى بلاده. فقد ألّم به مرض لم يبرأ منه إلا بعد ثلاثة أشهر، واستحال عليه أن يؤمِّن المؤن لجنده في تلك الأراضي الخربة حول سمرقند، بالإضافة إلى تضرعات والدته الملحة للعودة إلى موطنه بسبب شدة الحنان المتبادل بينهما، وانتهاز وزيره الطموح أوزون حسن[١] والسلطان أحمد تنبل، صاحب ولاية أوش، غيابه عن فرغانة، فنصّبا أخاه الأصغر جهانكير على العرش، وشيَّع الوزير بأن بابر قد مات، كما انفضّ رجاله من حوله، وانضموا إلى وزيره، ولم يبق معه سوى ما يقرب من ألف رجل، وهاجم الحلفاء أندجان واستولوا عليها[٢].

وبعد إبلاله من مرضه، خرج بابر من سمرقند، بعد مائة يوم من دخوله إليها، ليقضي على ما أثاره أخوه ووزيره وأتباعهما، فاستغل ابن عمه سلطان علي، صاحب بخارى، فرصة خروجه، وزحف إلى المدينة، فهزم حاميتها واستولى عليها[٣].

وهكذا خسر بابر عرشه في فرغانة وسيطرته على سمرقند، ولم يبق تحت يده في عام (٩٠٤هـ/١٤٩٨م) سوى خجندة، وهي مدينة صغيرة على الطريق بين فرغانة وسمرقند.

وما دام الهدف هو السلطة وطلب الملك، فحري بالمرء ألا يتخلّى عنه حتى لو أخفق في إدراكه مرة أو مرتين، ولا ينبغي الوقوف أمامه موقف المتفرج[٤]. وانطلاقاً من هذه النظرة السياسية لبابر حاول استعادة أندجان وسمرقند، واستعان بالسلطان محمود، خان طشقند، من أجل ذلك. وبعد ثلاث محاولات استعاد الثانية، ودخل قلعة أخسي، واضطر أخيراً إلى التفاهم مع أخيه على أن تكون الولايات الواقعة في ناحية أخسي من ماء خجندة لجهانكير، وتكون الولايات التي في ناحية أندجان من نصيب بابر بما فيها

(١) أورون حسن، من عشائر القراقوينلو ـ الحروف الاسود ـ والأخ الأكبر للأمير قرابرلاس، وكن يعمل في خدمة بابر، وهو عير اوزون حسن من الاق قوينلو ـ الخروف الأيص ـ الذي حكم أذربيحاد والعراق، والذي توفي في عم ١٤٨٧م.

(٢) Ferishta: II, p5 بابر نامة: ص٢٠٦ ـ ٢١٣.

(٣) المصدر نفسه: ص١٨٩ Ibid: p8.

(٤) المصدر نفسه: ص١٩٣.

أوزكند على أن يغادرها أتباع جهانكير، واتفقا على مهاجمة سمرقند، فإذا استوليا عليها تكون من نصيب بابر مقابل أن يتنازل لأخيه عن أندجان[١].

كان سلطان علي يحكم آنذاك سمرقند لكنه كان ألعوبة في يد القاضي خواجة أبو المكارم[٢]، وقد برهن الرجلان على عدم جدارتهما الاضطلاع بشؤون الحكم، ولم يكونا كفوئين كذلك لمواجهة الخطر الذي أخذ يتهددهما من جانب شيباني الذي حاصر المدينة مدة عشرة أيام، عاد بعدها إلى بخارى من دون أن يستولي عليها، إذ صدَّته حاميتها، ويبدو أنه أصرّ على الاستيلاء عليها، فلجأ إلى الحيلة، فاستغل رغبة زهرة بيكي، والدة سلطان علي، في الحصول على زوج، وبخاصة أنها أرسلت إليه سراً تعرض عليه التعاون معه إذا قبل الزواج منها، وأن ابنها سيسلمه سمرقند في حال تمّ ذلك الزواج ثم يردها إليه مرة أخرى لأنها ولاية أبيه[٣]. وفي رواية أن شيباني حاصر المدينة مدة ثمانية أشهر تعرّض خلالها السكان للمجاعة بسبب نفاد المؤن، ثم نشب الخلاف بين سلطان علي وأبو المكارم الطموح. وحين وقف شِيباني على ذلك كله كتب إلى السلطان الضعيف يخبره بأنه، وقد تضايق بوصاية وزيره، فهو على استعداد للتعاون معه، ثم تقدم من والدة السلطان يطلب يدها إظهاراً لمودته وإخلاصه، فقبلت منه ذلك[٤].

ومهما يكن من أمر، فقد دخل شيباني المدينة بهدوء، في الوقت الذي كان فيه أبو المكارم يؤدي صلاة الجمعة في أحد مساجدها على الجانب الآخر، ولا علم له بما يجري، وقد حدث ذلك في (مستهل عام ٩٠٦هـ/أواسط ١٥٠٠م). وذُهل سكان المدينة من هول المفاجأة، فاستسلموا لمصيرهم. واحتفل بالزواج من زهرة بيكي، أرملة السلطان أحمد ميرزا، وتوفي سلطان علي بعد ذلك بقليل، والراجح أنه تمَّ اغتياله.

وكان بابر في غضون ذلك يتجول عند حوض نهر زرفشان الأعلى في نفر قليل من أتباعه، وقد انضمَّ إليه خواجة أبو المكارم قبل وفاته.

وما لبث شيباني أن فَقَدَ المدينة بالطريقة نفسها التي استولى عليها بها. فقد رابط أكثر جنده في سهل كان گل، بالقرب من سمرقند، عند أجمة بودانة،

(١) بابر نامة: ص٢٢٩.

(٢) اسمه: خواجة يحيى، وكنيته أبو المكارم.

(٣) بابر نامة: ص٢٣٩ Ferishta: II, p9.

(٤) فامبري: ص٣٠٤.

وترك في المدينة حامية مؤلفة من خمسمائة أو ستمائة فارس بقيادة أحد قادته ويُدعى جان وفا ميرزا، ففاجأهم بابر بجنوده واقتحم المدينة. وحين تبين لشيباني أن موقفه بات حرجاً أسرع بالخروج منها مع من بقي من رجاله متوجهاً إلى بخارى[1].

ولئن أضحت سمرقند في حوزة بابر مرة ثانية، إلا أنه لم يستطع الاحتفاظ بها مدة طويلة، فقد هاجمها شيباني واصطدم ببابر في سربول عند شواطئ زرفشان بين بخارى وسمرقند، وتغلّب عليه، فانسحب بابر من ميدان المعركة مع قليل من رجاله ممن ثبتوا معه وتحصّن بقلعة المدينة، وعزا سبب هزيمته إلى انصراف أحلافه من المغول إلى السلب والنهب، ويبدو أن هذا السبب لم يكن السبب الوحيد للهزيمة، بل وجد حلفاء بابر من مقاتلي بلاد ما وراء النهر، الذين بلغ عددهم أربعين ألفاً، أنفسهم آخر الأمر لا قِبَل لهم بالصمود في وجه اندفاع شيباني الوحشي وخشونته الزائدة في القتال، كما أن ثورة نائبه في خجندة، أحمد تنبل، شكّلت سبباً آخر في اندحاره وانتصار شيباني، وكان تصرف تنبل هذا من الأسباب التي جعلت شيباني يبسط له حمايته[2].

تقدم شيباني خان بعد انتصاره نحو القلعة وحاصرها، ومنع دخول المؤن إليها، فتعرّض من بداخلها للجوع بفعل نفاد المؤن والغذاء، فاستبدّ بهم اليأس وبدأوا بالانفضاض من حول بابر، وهربوا من القلعة. وإذ قطع هذا الأمل في الحصول على أي إمدادات أو مساعدة؛ أدرك الحقيقة المرة وهي ضياع كل رجاء له في تثبيت حق أسرته في بلاد ما وراء النهر، ولم يكن أمامه سوى الفرار والنجاة بحياته، ووقعت أخته الكبرى، خانزادة بيكي، في أسر الخان الأوزبكي، فتزوج بها[3].

---

(١) بابر نامة: ص٢٤٦ ـ ٢٥٠ Ferishta: II, p11.

(٢) قمبري: ص٣٠٩.

(٣) ذكر بابر في سيرته أن شيباني عرض عليه الصلح فجأة. والراجح أن ذلك ليس بصحيح لأن الخان الأوزبكي كان في وضع المنتصر ولا يعقل أن يعرض الصلح على بابر الذي كان وضعه حرجاً. كما أن من غير المتصور أن تقع خانزادة، أخت بابر، في يد شيباني فيأخذها إذا كان خروج بابر من سمرقند قد تمّ بناء على مصالحة. ومما يدعم هذا الرأي أن محمد حيدر توغلات، صاحب كتاب رشيدي، وهو ابن خالة بابر، يذكر أن بابر زوّج أخته، خانزادة بيكي، لشيباني فداء لنفسه، وقد سُرّ شيباني لهذا، وخشي بعد ذلك أن تؤذيه، ثأراً لأخيها، فطلقها ووهبها إلى -

وهكذا سقطت سمرقند في عام (٩٠٧هـ/ ١٥٠١، ١٥٠٢م)، وسقطت معها دولة التيموريين في بلاد ما وراء النهر، وتوجّه بابر إلى بلاد الخطاي عند الصين الشمالية في محاولة لتأسيس ملك وراء جبال الهندوكوش بعيداً عن بلاد ما وراء النهر.

الاستيلاء على كابل والصراع مع الأوزبك

ظل بابر، بعد أن غادر بلاد ما وراء النهر، يجوب منطقة تلال أسفرا، التي تفصل فرغانة عن ولاية حصار في إقليم بخارى، حتى قرّر التوجه إلى خراسان علّه يصيب ملكاً عند ابن عمه السلطان حسين ميرزا. لذا غادر في (محرم ٩١٠هـ/ حزيران ١٥٠٤م)، وهو في الثالثة والعشرين من عمره، مصطحباً معه أتباعه البالغ عددهم ثلاثمائة رجل، وما إن تخطّى ولاية حصار باتجاه الجنوب حتى انضم إليه خسرو شاه صاحب الولاية مع جموعه الفارين من وجه شيباني خان، لكن خراسان كانت هدف شيباني خان التالي. ولما كان متردداً في تكرار تجربة التصدي له، فإنه يمّم وجهه صوب أرض كابل وغزنة البعيدتين عن منطقة الصراع، وكانتا تشهدان تطورات سلبية من خلال الفوضى التي عمتهما بعد وفاة السلطان أولوغ، ابن السلطان أبي سعيد ميرزا. فقد تولى الحكم في كابل مكين بك بعد أن أزاح عبد الرزاق، عم بابر، عن العرش. وشجّع وصول بابر الأمراء على الثورة ضد مكين بك، وأجلسوا بابر على العرش، وهو الذي تجري في عروقه الدماء الملكية، من دون إراقة دماء، وعلى هذا الشكل ملك كابل وغزنة، واتخذ لقب بادشاه[1]، ويُعد ذلك خطوة مهمة لوثوبه في المستقبل على الهند.

بعد أن ثبّت حكمه في كابل، تطلع بابر إلى التوسع، ورنا ببصره إلى سمرقند، وكانت المدينة آنذاك تحت حكم شيباني خان القوي، فأدرك أنه لا يستطيع التغلب عليه إلا إذا ضمَّ كافة الأمراء التيموريين، ووحّد البيت التيموري، والتقت توجهاته مع سياسة السلطان حسين ميرزا.

- أحد أمرائه، فلما قُتل زوجها في حرب مرو، التي دارت بين الأوزبك والشاه إسماعيل الصفوي، وقعت خانزادة بيكي في أسر الشاه الصفوي، ولما علم بأنها أخت بابر أكرمها وأعادها إليه. انظر: بابر نامة: ص٢٦٩ Ferishta: II, p13.

(١) Babur-Nama. Trans by A.S. Beveridge: pp198, 199.

ووجد شيباني خان، من جهته، بعد سيطرته على سمرقند، وقد بات يملك كل بلاد طوران وأندجان، في الشرق، وشاهرخية وطشقند، في الشمال، ومنطقة حصار الجبلية وبلخ وبدخشان، في الجنوب، وخوارزم، في الغرب؛ أنه حان الوقت لمهاجمة البيت التيموري في خراسان[١].

أدرك السلطان حسين ميرزا مدى الخطر الداهم الذي يتهدَّده، فدعا أبناءه وأقرباءه وحُلفاءه ليساندوه بقواتهم ويسيروا معه لحرب شيباني خان، فجاءته الإمدادات من بلاد الأفغان وسيستان وخراسان وفارس وجرجان، واحتشدت هذه الجموع شمالي هراة، غير أنها على كثرتها عانت من التصدع بسبب عوامل عصبية وأهواء مختلفة الأمر الذي أفقدها القدرة على القتال، فلم تصمد أمام قوات شيباني خان وتراجعت عند الاصطدام الأول الذي جرى عند كركي في عام (٩١١هـ/ ١٥٠٥م). وفرّ السلطان حسين ميرزا من أرض المعركة ناجياً بنفسه، غير أن الموت كان بانتظاره أثناء فراره حيث توفي في (١٦ ذي الحجة ٩١١هـ/ ١٠ أيار ١٥٠٦م)، ويُعَدُّ موته إيذاناً بالقضاء على أسرته[٢].

وتابع بابر تقدمه باتجاه هراة بعد أن تلقى إشارات مشجعة من أبناء السلطان المتوفى. وعقد خلفه، بديع الزمان ميرزا، مجلس الأسرة، وشارك بابر في هذا الاجتماع مع وزيره جهانكير، على أن هذه الوحدة المصطنعة التي تمثلت في مجلس الأسرة لم تكن ذات جدوى أو نفع، ذلك أن شيباني خان المنتصر كان قد تقدم حتى بلغ الشاطئ الأيمن لنهر مرغاب في مرو الشاهجان، وأرسل رسولاً إلى بديع الزمان ميرزا في هراة يطلب منه الاستسلام، فرفض هذا طلبه، فما كان من شيباني خان إلا أن تقدم من مرو واصطدم بالجيش التيموري في سهل مرو جاق في (١١ محرم ٩١٣هـ/ ٢٣ أيار ١٥٠٧م) وانتصر عليه، وفرَّ أولاد السلطان حسين ميرزا بكل اتجاه، وسيطر شيباني خان على هراة وكامل خراسان[٣].

توقف بابر عن الزحف نحو هراة، بعد هذه التطورات الميدانية التي جاءت لغير مصلحة الأسرة، وراح يبحث عن حلفاء ليقاتل شيباني خان، فوجد ضالته في شاه بك ومقيم بك، حكام قندهار[٤]، اللذين كانا في نزاع مع شيباني

(١) Babur-Nama: p255.

(٢) Ibid· pp255, 256. Ferishta: II, p16.

(٣) فامبري: ص٣١٢ ـ ٣١٥.

(٤) قندهار: من بلاد السند أو الهند.

خان، غير أن هذين الأخوين كانا مراوغين، فلم يُظهرا أي اهتمام ببابر، وأعرضا عنه، الأمر الذي أغضبه ودفعه إلى مهاجمة المدينة والاستيلاء عليها، ثم غادرها عائداً إلى كابل، وترك فيها حامية عسكرية بقيادة أخيه نصير ميرزا. وبعد أسبوع من عودته إلى كابل، هاجم الخان الأوزبكي المدينة وحاصرها، وفرَّ نصير ميرزا منها، وعاد إلى غزنة. ويُعدُّ هذا الحصار بمثابة إنذار لبابر، لكن شيباني خان اضطر إلى فك الحصار عن المدينة بفعل نشوب ثورة ضده في خراسان[١].

لم يخل حكم بابر في كابل من بعض المشكلات، فقد تآمر أعيان الدولة والأمراء ضده لخلعه عن العرش وتنصيب عبد الرزاق مكانه، فأحبط بابر هذه المحاولة، وقبض على المتآمرين، فقتل بعضهم وسجن آخرين.

واندلعت، في هذه الأثناء من عام (٩١٤هـ/١٥٠٨م)، الحرب بين الأوزبكيين والصفويين في إيران بفعل دوافع سياسية توسعية ومذهبية. فقد أراد شيباني خان أن يتابع فتوحه، بعد أن حقّق الانتصارات في خراسان وأضحى على أبواب إيران، كما أن الاختلاف المذهبي بين الأوزبك السنة والصفويين الشيعة، ومحاولة إسماعيل الصفوي نشر مذهبه بين الأوزبك بالقوة؛ كان سبباً آخر دفع الطرفان إلى الاصطدام.

وأرسل شيباني خان رسالة جريئة إلى الشاه إسماعيل الصفوي دعاه فيها إلى التخلي عن مذهب التشيع ونشره بالقوة، وهدَّده باجتياح بلاده إن رفض الدعوة. وحدث آنذاك أن توغلت قوة مغولية أوزبكية في جنوبي خراسان حتى تجاوزت قندهار، وأعملت فيها السلب والنهب، كما توغلت قوة أخرى في أراضي كرمان، فأرسل عندئذ الشاه إسماعيل الصفوي رسالة إلى شيباني خان يطلب منه ردع قواته، ووقف اعتداءاتهم وما يمارسونه من أعمال السلب والنهب، فردَّ شيباني خان برسالة ملأها بالتعريض به والسخرية منه. ولما كانت التوجهات السياسية والمذهبية على هذا الشكل من التناقض كان لا بد من الحرب.

وتوغل الشاه إسماعيل الصفوي في خراسان ودخل مشهد، واقتحم هراة حتى إذا بلغ مرو تحصَّن شيباني خان بها، وقد أعاقه عن الزحف جنوباً، للتصدي له،

(١) Babur-Nama: pp333-339. Ferishta: II, pp18, 19.

ما كان من ثورة سكان فيروزكوه الجبلية المنيعة، بالإضافة إلى ورود أنباء من بلاد ما وراء النهر عن مباغتة بيونسز حسن لابنه محمد تيمور عند سيحون وتغلبه عليه. وهكذا أضحت الحاجة ماسة للحرب على ثلاث جبهات.

وفي الوقت الذي كان يفكر: أيبادر بعبور جيحون أم ينتظر عدوه عند حدود الصحراء، كان الشاه في طريقه إليه، وعمد إلى الخدعة، فاستدار بجيشه في اتجاه العراق ليوهم شيباني خان أنه الرحيل والجلاء، وكمن على بُعد عشرة أميال من مرو، على مقربة من محمود آباد، وحين خرج الخان في عشرين ألفاً من الجند لمطاردته وقع في الكمين، ولقي وقواده حتفهم فيه. وسيطر الشاه الصفوي على خراسان كلها، وأضحى نهر جيحون، الحد الفاصل بين طوران وإيران[1].

نتج عن انتصار الصفويين على الأوزبكيين أمران:

الأول: قيام حاجز شيعي بين السنة في بلاد ما وراء النهر، وبين المسلمين السنة في غربي آسيا، وانقطاع الآتراك العثمانيين بخاصة عن جذورهم، الأمر الذي دفع السلطان سليم الأول العثماني للقيام بغزو إيران وكسر هذا الحاجز في معركة تشالديران (٢ رجب ٩٢٠هـ/ ٢٣ آب ١٥١٤م).

الثاني: بعث الأمل في نفس بابر لاسترداد عرش أبائه، وبخاصة أن الشقاق قد دبّ بين أفراد الأسرة الشيبانية بشأن خلافة شيباني خان، وكان مستعداً أن يضع يده بيد الشاه الصفوي على الرغم من اختلاف المذهب الديني. واتفق العاهلان على أن يُزوِّد الشاه جيش بابر بما يلزمه من مؤن خلال العمليات العسكرية ضد الشيبانيين. وعبر بابر نهر جيحون في جيش مكون من الفرس واللاجئين من أواسط آسيا ومن البدخشانيين والأفغان، فاستولى على بخارى وسمرقند في (١٥ رجب ٩١٧هـ/ ٨ تشرين الأول ١٥١١م)[2].

وحدث، في هذه الأثناء، أن تجاوز الشيبانيون خلافاتهم واختاروا كجكونجي خاناً عليهم بعد وفاة محمد تيمور بن شيباني خان، إلا أن تقدم سنه منعه من المشاركة في الحرب وندب أميراً قديراً من أسرته لينوب عنه في قيادة الجيش يدعى عبيد الله، وهو ابن السلطان محمود خان الأخ الأصغر لشيباني.

(١) Babur-Nama: pp350, 351. Ferishta: II, p20.

(٢) Ibid: pp354-356. Ibid: p21.

وخرج هذا الأمير على رأس خمسة آلاف فارس، فعبر نهر سيحون وسلك الطريق الصحراوي الذي يقع على الضفة اليسرى للنهر، وغزا القسم الشمالي من خانية بخارى في غفلة من بابر. وحين علم هذا بزحف الأوزبك، خرج من سمرقند على رأس سبعين ألفاً واصطدم بعدوه عند بحيرة قولي ملك في منطقة خير أباد على مسافة قصيرة من بخارى، إلا أنه تعرض للهزيمة، وانطلق جنده يلتمسون طريق الفرار. ودخل عبيد الله سمرقند من دون مقاومة في (صفر ٩١٨هـ/ نيسان ١٥١٢م) بعد أن حكمها بابر ستة أشهر، ولم يتح له بعدها مشاهدة أرض أبائه وأجداده. ونصَّب عبيد الله عمه كجكونجي على العرش في سمرقند واحتفظ لنفسه بحكومة بخارى[1].

كان انتصار الأوزبك يعني استعادة هؤلاء قدرتهم على توجيه الضربات إلى الأجزاء الشمالية الشرقية لإيران، بالإضافة إلى ضياع آمال الشاه إسماعيل الصفوي في السيطرة على تلك الأقاليم الشرقية. وإذا كان قد تطلع إلى التعاون مع بابر لتحقيق هذا الهدف فإن ذلك لن يتحقق لو تمكّن الأوزبك من القضاء على جيش بابر وإخراجه من الصراع. وكان الشاه إسماعيل الصفوي يدرك مدى أهمية هذا التعاون مع بابر قبل أن يصبح عبيد الله في وضع يستطيع معه أن يُرغم بابر على الخروج نهائياً من الصراع، أو أن يصبح قادراً على ضرب كل طرف بشكل منفرد، لهذا أسرع بإرسال المساعدات العسكرية إلى جيش بابر، بقيادة حاكم خراسان أمير يار أحمد أصفهاني، الملقب بنجم ثاني، فلحق به عند ترمذ وانضم إليه. وهاجمت الجيوش المتحدة مدينة قارشي واستولت عليها، لكن تصرف نجم ثاني الانتقامي بحق الحامية والسكان، كان من العوامل التي أدّت إلى تحول جذري في موقف بابر، فقد استسلمت الحامية بعد أن أدركت استحالة الدفاع عن المدينة. وما أقدم عليه القائد الصفوي من قتل خمسة عشر ألفاً من السكان والحامية، بمن فيهم نخبة من علماء السنة والأعيان، بدافع التعصب المذهبي؛ أثار بابر، فآثر أن يُضحي باسترداد بلاد ما وراء النهر، ففكّ تحالفه مع الشاه وترك القائد الصفوي يتخذ طريقه إلى بخارى منفرداً. وإذ تعرّض للهزيمة على يد الأوزبك عند غجديوان في (رمضان ٩٢٠هـ/ تشرين الثاني ١٥١٤م)، لقي حتفه في المعركة مع عدد

(١) Babur-Nama: pp356-358.

كبير من قادته وجنوده[١].

كان التحالف بين بابر والشاه إسماعيل الصفوي محدوداً، وقد جمعت الرجلين مصلحة مشتركة هي العداء للأوزبك ومحاولة القضاء على قوتهم، بالإضافة إلى استعادة بابر لعاصمة أجداده سمرقند، ولكن لم يحدث تقارب مذهبي بينهما في الوقت الذي كان فيه للفكر المذهبي أهمية بالغة في عقد التحالفات أو شنّ الحروب. وكان بابر مسلماً غير متشدِّد، وله آفاقه الفكرية المنفتحة والبعيدة عن التعصب المذهبي، على عكس الشاه الصفوي، ولذلك طالما كانت المصلحة المشتركة، وهي العمل ضد الأوزبك، قائمة استمر التحالف بين الرجلين قائماً، وعندما تجلّت قسوة القائد الصفوي نجم ثاني تجاه أهل قارشي، وهي صادرة عن نفس متعصبة مذهبياً، بدا لبابر أن هذا التحالف مع المتعصبين يجب أن ينحل، وبخاصة أنه لم يكن رأيه وحده، بل كانت كل عشائر أواسط آسيا تنظر بخوف إلى توسع الشاه إسماعيل الصفوي، الذي، إذا نجح في بسط سيطرته على بلاد ما وراء النهر، سيسلط سيفه على رقاب الناس باستمرار إذا ظلوا متمسكين بمذهبهم السني، لذلك كانت الظروف تلح على بابر أن يعيد النظر في تحالفه مع الشاه، ولم يلبث أن قطع علاقته به[٢].

وارتد بابر إلى إقليم حصار، غير أن هذا التحالف الذي أقامه مع الشاه أثّر سلباً على وضعه السياسي وكان سبباً في إثارة رعاياه من السنة وابتعادهم عنه، فانهارت آماله ببلاد ما وراء النهر كلها، وقفل عائداً إلى كابل ليولي وجهه صوب البنجاب والهند التي غزاها أجداده من قبل، والتي غدت الآن مسرحاً للاضطرابات والفوضى في ظل حكومة ضعيفة، وهي باتساعها وغناها تصلح لتحقيق حلمه بإقامة دولة كبيرة له.

محاولات بابر الأولى لفتح الهند

سبقت معركة بانيبات، وهي معركة فتح الهند، محاولات تمهيدية لغزو هذا البلد. والواقع أن هجرة الزعماء الأفغان وأتباعهم بقيت متسارعة في ظل الحاكمين اللوديين الأولين، وبخاصة حين حاول بهلول لودي، في مواجهة

(١) نواز، شاه خان: مآثر الأمراء: ص٤٠٩. Babur-Nama: p359-361.

(٢) نوار، عبد العزيز سليمان: الشعوب الإسلامية: ص٢٣١، ٢٣٢.

التهديد القادم من جونبور، أن يُعَزِّز قوته العسكرية عبر استدعاء رجال القبائل الأفغان من عشائر الروه، وقد حكم هذا السلطان بوصفه بين أنداد ليس إلا. وقام إسكندر لودي الذي كانت طموحاته فردية بتعزيز موقعه تدريجياً وبمهارة، وأثبت إبراهيم لودي منذ البداية أنه غير قابل للمساومة على مخططاته الرامية إلى كبح نفوذ «الأرستقراطية» القديمة وبناء نخبة يمكنه الاعتماد عليها، وما لبثت تصرفاته المتعسفة ضد عدد من الشخصيات القيادية أن تمخّضت عن انفصال بيهار، بقيادة عمه علم خان، الذي تمكَّن من السيطرة على المنطقة الممتدة حتى قنّوج غرباً، وعن مبادرة دولت خان لودي والي البنجاب إلى دعوة بابر لغزو الهند[١].

غزا بابر الهند خمس مرات، لم تكن الأربع الأولى أكثر من مجرد حملات استطلاعية. فقد خرج في عام (٩٢٥هـ/١٥١٩م) من عاصمته كابل إلى الهند عن طريق بيشاور، فاجتاح بجبور بعد أن ضربها بالمدفعية، وأقبل عليه زعماء القبائل يعلنون ولاءهم له، فبسط نفوذه بذلك على مناطق جينات وخوشاب وجينوت، وكانت جميعها من أملاك التيموريين السابقة، ثم عبر إلى بهيرة فأذعن له أهلها على جزية من دون قتال. وأرسل في (ربيع الأول/آذار) الملّا مرشد مبعوثاً إلى دلهي يطلب من سلطانها إعادة الأملاك التي كانت تحت سيطرة الأتراك في البنجاب إليه بوصفها كانت تحت حكم أجداده، إلا أن أمير البنجاب دولت خان حبس مبعوثه، فلم يطلقه إلى غايته ولا هو ردّه إلى بلاده[٢].

لم يستقر بابر، إثر هذه الغزوة، في الهند، ويبدو أن لذلك علاقة بمدى تأثر جنده بحرها اللافح ما أثر بالتالي على مقدرتهم القتالية، فجنح إلى التفاهم مع سلطان دلهي وردَّ إليه جميع أملاك التيموريين بالبنجاب وعاد إلى كابل[٣].

وقام بابر بغزوته الثانية إلى الهند في (رمضان/أيلول)، فعبر ممر خيبر وأخضع بعض قبائل الأفغان، ونفذ إلى بيشاور في محاولة للاستيلاء عليها، غير أن نشوب الاضطربات في بدخشان أجبره على العودة إلى كابل من دون

(١) بداوني، عبد القادر بن ملوك شاه: منتخب التواريخ: جا ص٣٣.

(٢) الساداتي: ص٢١٦، ٢١٧. Babur-Nama: pp367-370. Ferishta. II, pp22-23.

(٣) Ferishta: II, p23.

أن يحقق غايته[١].

وحدث بعد عودته أن خرج أهالي بهيرة على حكمه وطردوا نائبه عليها، كما ثار سكان بجبور، فغادر كابل في عام (٩٢٦هـ/ ١٥٢٠م) إلى الهند، في حملته الثالثة، ليعيد الأمور إلى نصابها. وبعد أن عاقب الثائرين وأعاد بسط سيطرته على المناطق الثائرة؛ هاجم سيالكوت واستولى عليها من دون صعوبة تُذكر، ثم تحرك نحو سيدبور وسيطر عليها أيضاً.

ومرة أخرى اضطر بابر أن يقطع خططه في الهند وارتد مسرعاً عائداً إلى بلاده للتصدي لشاه بك أرغون الأوزبكي الذي هاجم قندهار التي تشكل شوكة في جنبه وتهدد مشروعاته في الهند وكانت تحت حكم الأفغان. وأقنعته المحاولات التمهيدية السابقة بأنه لا يستطيع فتح الهند قبل تقوية قاعدة ملكه فيها، ولهذا بدأ بالاستيلاء على هذه المدينة وانتزاعها من يد الأفغان. وبعد أن تمَّ له ذلك أخذ يعدُّها لتكون مركزاً من مراكز الدفاع. فعيّن عليها ابنه كمران ميرزا، كما أعاد بسط سيطرته على بدخشان وأقام عليها ابنه الأكبر همايون[٢].

وغزا بابر الهند للمرة الرابعة في عام (٩٣٠هـ/ ١٥٢٤م)، وقد شجّعه على ذلك التماس دولت خان أمير البنجاب المساعدة منه ضد تعسف سلطان دلهي إبراهيم لودي. والواقع أن بابر لم يكن ليتردد عن غزو الهند مرة أخرى، وبخاصة أنه اطّلع على أوضاعها الداخلية المضطربة، وعلى ما تتمتع به من ثروات طبيعية وغنى، خلال غزواته السابقة، فطمع في إقامة دولة كبيرة له في ربوعها، فخرج من كابل باتجاه لاهور. وحدث أن خرج إبراهيم لودي في هذه الأثناء على رأس جيشه لتأديب دولت خان وإبعاده عن البنجاب، فاصطدم بابر به بالقرب من لاهور وانتصر عليه، ثم دخل لاهور وأحرقها، وتوجه بعد ذلك إلى ديبالبور واستولى عليها، وانضم إليه دولت خان فيها، وقد ظنَّ أنه لن يلبث، بعد هذا الانتصار على عدوه سلطان دلهي، أن يعود بابر إلى بلاده ويترك الهند لحلفائه من أهلها، لكن هاله ما أقدم عليه من إجراءات في المناطق التي سيطر عليها والتي تُثبت عزمه على البقاء فيها، على الرغم من أنه

(١) Babur-Nama pp389

(٢) Ibid: pp430-436. Lane Poole, St: Medieval India under Mohamedan Rule: p209 Ferishta: II, pp23, 24

منحه إقطاع سلطان بور، لذلك انقلب عليه وراح يتآمر ضده حتى كاد يوقع به، وانتهى أمره بأن سُجن مع بعض أولاده وأتباعه، بعد أن انكشف أمره، إلا أنه نجح بالفرار من سجنه مع ابنه غازي[١].

زحف بابر بعد ذلك إلى دلهي، وعلم وهو في الطريق بفرار دولت خان. فعاد أدراجه إلى لاهور خشية من أن يقطع عليه خط الرجعة، ومضى في تراجعه إلى كابل بفعل ظهور خطر الأوزبك، وعيَّن على البنجاب كلاً من عالم خان لودي، عم إبراهيم لودي، وديلاور خان ابن دولت خان، وترك فيها حامية عسكرية لإقرار الأمن[٢].

عندما علم دولت خان برحيل بابر نزل من التلال التي اختبأ فيها بعد فراره من السجن، فهاجم سلطان بور وانتزعها من ابنه ديلاور خان، كما طرد عالم خان من ديبالبور في خطوة لاستعادة السيطرة على كامل البنجاب، غير أنه تعرض للهزيمة على يد الحامية المغولية في سيالكوت. وأرسل إبراهيم لودي، في هذه الأثناء، قوة عسكرية لتنظيف البنجاب من المتمردين والغزاة، غير أن هذه القوة هُزمت. ومن جهة أخرى، زار عالم خان كابل، ودخل في تحالف مع بابر على أن يساعده في تولي عرش دلهي مقابل حصوله على البنجاب[٣].

والواقع أن بابر لم يتمكّن من التدخل بنفسه في شؤون الهند بسبب تعرضه لخطر الأوزبك في بلخ، فأمر قادته في لاهور أن يسيروا مع عالم خان، فإذا دخلوا دلهي أجلسوه على عرشها. ويبدو أن الأمير اللودي ارتاب بنوايا القوة المغولية المساندة له، فقرَّر التفاهم مع دولت خان وابنه غازي على الرغم من معارضة قادة المغول. ودخل في مفاوضات معهما اتفق الجميع في نهايتها على تقسيم البلاد فيما بينهم، فيأخذ دولت خان وابنه المناطق الواقعة غربي دلهي، وتكون دلهي وأكرا من نصيب عالم خان. وسار الطرفان إلى دلهي فتصدى لهما إبراهيم خان في ظاهرها وهزمهما. وفرّ عالم خان من أرض المعركة تحت جنح الظلام ناجياً بنفسه، والتمس عدد كبير من القادة مخابئ

(١) الساداتي: ص٢١٨ Babur-Nama: pp441, 442. Ferishta: II, pp24, 25.

(٢) Babur-Nama: pp443, 444.

(٣) Ibid. Ferishta: II, p25.

لهم في الجبال، في حين آثر عدد آخر الانضمام إلى قوات دلهي، وذهب دولت خان إلى لاهور للاستيلاء عليها.

دفعت هذه التطورات العسكرية بابر للخروج بحملته الخامسة إلى الهند[1].

معركة بانيبات

خرج بابر من كابل في (صفر ٩٣٢هـ/ تشرين الثاني ١٥٢٥م) على رأس جيش، يُقدَّر باثني عشر ألف مقاتل، في غزوة الفتح والاستقرار، وهي آخر غزواته إلى الهند وأعظمها. فعبر السند حتى إذا بلغ شاطئ جهلم أرسل قوة استطلاعية إلى لاهور لتوافيه بأخبار دولت خان، فاصطدمت بقوات هذا الأخير وهزمتها وأسرته مع ابنه غازي ليدخل بابر بعد ذلك حصن بلوت، وهو معقل خصمه، ويستولي على ذخائره وأمواله، وما لبث دولت خان أن توفي في سجنه بقلعة بهيرة، بعد ذلك بقليل[2].

أمّنت هذه الضربة خطوط بابر في البنجاب فتابع تقدمه باتجاه دلهي، حتى إذا بلغ نهر جمنة عسكر في مواجهة بلدة سرهند، وأرسل كشافته ليستطلعوا له أخبار إبراهيم لودي، ويبدو أن أنباء دخول بابر إلى الهند وانتصاره على دولت خان، وصلت إلى مسامعه، فقرَّر التصدِّي له، وخرج على رأس مائة ألف مقاتل، ما عدا الفيلة، وعسكر في سهل بانيبات، وهي قرية صغيرة بالقرب من دلهي، وأرسل قوة عسكرية كطليعة بقيادة حميد خان، ما لبثت أن تعرَّضت للهزيمة، فأرسل قوة ثانية بقيادة داود خان وحاتم خان، لاقت المصير نفسه.

عند هذه المرحلة من استكشاف المواقع والوقوف على جهوزية الخصم وقوته، قرّر بابر الدخول في معركة فاصلة مع عدوه، فزحف إلى بانيبات، حيث يعسكر إبراهيم لودي، وعندما وصل، عسكر في مواجهته، وعبّأ قواته وفق تشكيلات العثمانيين القتالية، فأقام سياجاً من العربات المتصلة معزَّزة بالأسوار والخنادق، وقد تُركت بها ثغرات تسمح لمائة من الجند بالخروج للقتال منها، واصطفَّ حملة البنادق من ورائها.

والتحم الطرفان، بعد ثمانية أيام، في رحى معركة ضارية صباح (٩ رجب ٩٣٢هـ/ ٢١ نيسان ١٥٢٦م) تقرر بنتيجتها مصير الهند، وأسفرت عن انتصار

(١) Babur-Nama: pp443, 444.

(٢) بخشي: جا ص٢٨٠، ٢٨١. Ibid: pp445, 453.

بابر. وقُتل إبراهيم لودي في المعركة[1]، وطاردت قواته فلول القوات الأفغانية المنهزمة حتى أبواب دلهي.

أرسل بابر، بعد انتصاره، عدداً من رجاله إلى دلهي ومعهم قاضيه زين الخوافي، فدخلوا المدينة وسط ترحيب الأعيان والسكان، ودعوا له على منابرها في (١٥ رجب/ ٢٧ نيسان) في حين وجّه ابنه همايون مع نفر آخر من قادته إلى أكرا مقر اللوديين، فدخلوها واستولوا على كنوزهم وذخائرهم[2].

تعقيب على معركة بانيبات

ـ تعد معركة بانيبات من بين أشهر المعارك في التاريخ الوسيط. فقد وضعت حداً لحكم الأفغان في الهند، وكانت إيذاناً ببدء الحكم المغولي الذي فتح صفحة جديدة في تاريخ هذا البلد، وأضحى بابر حاكماً على دلهي.

ـ جعلت المعركة سلاح المدفعية عنصراً أساسياً في النظام العسكري الحديث في الهند، إذ بفضل هذا السلاح، بالإضافة إلى استعمال البارود الذي لم يعرف المسلمون في الهند عنه الشيء الكثير، حقّق بابر النصر في المعركة.

ـ من الخطأ القول إن معركة بانيبات أسفرت فوراً عن تأسيس الدولة المغولية في الهند، وأن بابر أضحى حاكماً على هذا البلد، لأنه بعد النصر مباشرة كان عليه أن يذلِّل بعض الصعوبات التي كانت تنتظره والتي لم تسمح له بتأسيس هذه الدولة.

ـ كان جيش بابر، على الرغم من قلّة عديده، يمتاز بحسن التدريب، كما حوى فرقة ممتازة من المدفعية، وأثبتت خططه العسكرية، التي اقتبسها من العثمانيين، فعاليتها، ولهذا سرعان ما انتصر على خصمه الذي كانت قواته، على الرغم من كثرة عديدها، سيئة التدريب وافتقرت إلى الخبرة في القتال، بالإضافة إلى أنها اعتمدت النظام العشائري في القتال، بحيث كانت الوحدات العشائرية تتلقى الأوامر من رؤسائها المباشرين في العشيرة وليس من القائد العام، الذي هو السلطان.

ـ أدّى انقسام اللوديين على أنفسهم دوراً فاعلاً في انتصار بابر، فقد انفضَّ

(١) Babur-Nama. pp455, 456, 468, 469, 474 بخشي: جا ص٢٨٢ ـ ٢٨٥
Prasade: The Mughal Empire: p87

(٢) بخشي: جا ص٢٨٥، ٢٨٦. Ferishta: II, pp25, 26.

معظم الأمراء اللوديين الأفغان عن إبراهيم لودي وساند بعضهم بابر، أمثال دولت خان وعالم خان، الأمر الذي أثّر على مقدرة الزعيم الأفغاني القتالية.

ـ كان بابر ثالث غاز مسلم يتوغل في أرض الهند، ويُعد من بين أعظم سلاطينها، والمعروف أن أول هؤلاء الغزاة هو محمود الغزنوي، وثانيهم هو شهاب الدين الغوري، ولم يكن الحكام المسلمون، الذين خلفوا هذين العاهلين في حكم البلاد، إلا من أبنائهم وقادتهم ومواليهم في الغالب. ويتميز بابر عن سلفيه بفرط الجرأة والإقدام والطموح والإصرار على تسجيل الانتصارات، فسطّر بذلك صفحة من أروع صفحات المغامرات في التاريخ.

الصعوبات التي واجهت بابر

لم يكن جلوس بابر على العرش في أكرا وسيطرته على دلهي يعني خضوع سلطنة دلهي لحكمه. على الرغم من أنه قضى على السلطان إبراهيم لودي، ذلك أن الأمراء الأفغان من حكام الولايات اللودية أدركوا أن انتصار بابر لم يكن سوى مقدمة لاغتصاب بلادهم، وأنه لن يركن إلى الهدوء حتى يقضي على نفوذهم وسلطانهم، وظل نفر منهم يحتفظون بإقطاعاتهم في بعض الأقاليم ورفضوا الخضوع لمغتصب دخيل، وشايع بعضهم أمير بيهار، جلال الدين درياخان، ونادوا به سلطاناً، وانضم بعضهم الآخر إلى الراجبوت الهندوس، وتهيأ لهؤلاء تحصين مراكزهم في الوقت الذي كان فاتح الهند الجديد منهمكاً بتقسيم وتوزيع ما لديه من غنائم، وما إن فرغ من ذلك حتى وجد حول أكرا مدناً وقرى قد هجرها أهلها وتركوها خراباً يباباً، حتى كان لا يجد الطعام لجنوده والعلف لخيله. ومما زاد في حرج موقفه أن كثيراً من أتباعه همّوا بأن يتركوه ويعودوا إلى بلادهم بفعل قسوة فصل الصيف. فقد ضايقتهم حرارة الهند الشديدة وأثّرت في صحتهم، فراحوا يلتمسون منه أن يعود بهم إلى ديارهم، وكانوا قد ظنوا، بعد أن أصابوا من الغنائم أكثر مما كانوا يأملون، أن أميرهم لن يلبث أن يعود بهم إلى موطنهم بعد أن تمّ له هزيمة عدوه والاستيلاء على كنوزه وأمواله.

لكن أهداف بابر من فتح الهند لم تكن مماثلة لأهداف جدّه الأكبر تيمورلنك. إنه لم يأت إلى الهند لكي يفتحها ويلحقها بملكه الأصلي، بل أتى ليؤسس له دولة في ربوعها، ولن يرتدّ عنها كما ارتد محمود الغزنوي من قبل،

وبخاصة أن الفرصة مواتية له لتحقيق هدفه، لذلك ما زال بقادته وجنده حتى أقنعهم بالكف عن تذمرهم ليوجّه قوة منهم، بقيادة ابنه همايون، إلى المناطق الهندية الشرقية، وتوجّه هو بنفسه إلى بيانة وكوالبور ودولبور، وضمّها إلى أملاكه. وانضم إليه كثير من شيوخ القبائل الأفغانية في الدوآب، بحكم الواقع، كان من بينهم نصير نوحاني ومعروف فرملي، اللذان استوليا على قنّوج ثم اتخذا طريقهما إلى أكرا. واستطاع ابنه همايون أن يخضع الثائرين ويطاردهم حتى حدود البنغال، وانتزع منهم جونبور وغازيبور وكالي وخير آباد، ثم عاد إلى أكرا بناء على دعوة والده ليساعده على محاربة الراجبوت الهندوس الذين هدّدوا المناطق القريبة من دلهي[1].

معركة خانواه

برز، منذ أيام السلطان إبراهيم لودي، رانا سنكرام سنك المعروف بـ «رانا سنكا» صاحب ميوار، والمتمتع بمكانة متقدمة بين أمراء الراجبوت الهندوس، والطامع بتولي عرش الهند كلها، وطرد المسلمين منها بدافع الشعور القومي والنزعة الدينية. ولتحقيق هذا الهدف دعّم قواته وموارده العسكرية بحيث أضحى أكثر الأمراء الهنود نفوذاً، وبخاصة بعد أن وسّع أراضيه التي شملت بهيلة وسرنكبور ورنثنبور وغيرها. وزاد من عدد قواته فبلغت مائة وعشرين ألف جندي بالإضافة إلى خمسمائة فيل، واعترف له راجات أمبر ومروار وأجمير وسكرى وتشاندري، بالسيادة والولاء[2].

وكان رانا سنكا قد اتصل ببابر في كابل قبل زحفه على الهند، وتعهّد له بمسالمته معتقداً أنه، بعد أن يقضي على حكم اللوديين ويجمع الغنائم، سيعود إلى بلاده، فيصفو الجو له ويحقق أهدافه، ولكنه عندما علم بما استقر عليه رأي بابر من الاستقرار، راح يستعد لمقاومته، وكان بابر يهاجم آنذاك إقليم راجبوتانا، واستولى على بعض أجزائه.

بدأ رانا سنكا أعماله العسكرية حين استغلّ انهماك بابر بالقضاء على الفتن في المناطق الشرقية وحول عاصمته، فاستولى على حصن كهندار، وهاجم نظام خان، صاحب بيانة، واستولى على المدينة، كما انتزع دهلبور وكالبي،

---

(١) بخشي: جا ص٢٨٦ ـ ٢٨٨. Ferishta: II, pp27, 28.

(٢) Prasade: Muslim Rule in India· pp258, 272.

ثم راح يؤلب الأمراء الأفغان ضده ويدعوهم إلى الانضمام لجبهته، فاستجاب له عدد منهم، مثل حسن خان، صاحب موات، ومحمود خان، آخو إبراهيم لودي، الذي نودي به سلطاناً على قومه. وأخذوا يستعدون للزحف على أكرا(١).

لم يكن بابر ليسكت عن هذا الخطر الذي هدّد إنجازاته، وقرّر التصدي للحلف الراجبوتي. فخرج من أكرا في (٩ جمادى الأولى ٩٣٣هـ/ ١١ شباط ١٥٢٧م) وتوجّه إلى سكرى، وهي قرية صغيرة قريبة من فتح بور. وكان أعداؤه يعسكرون في خانواه، وهو مكان يبعد عشرة أميال عن سكري. فعسكر في مواجهتهم، ثم أخذ يحصّن مواقعه بحواجز من العربات المتصلة وبحفر الخنادق وإقامة المتاريس(٢)، على غرار الخطط العسكرية العثمانية. ويبدو أن جنده خشوا خوض المعركة وقتال الهندوس حيث لم يكن لهم بلقائهم عهد من قبل، وبخاصة أن رانا سنكا، الذي يقودهم، قد اشتهر في أنحاء البلاد كافة بالبطولة والجرأة. حدث ذلك في الوقت الذي انتهز فيه عدد من الأمراء الأفغان، في الدوآب وما حولها، الفرصة، واستعادوا حصونهم القديمة من أيدي حامياتها التركية. فرأى بابر أن يستنهض همم جنوده ويقوي روحهم المعنوية، فألقى فيهم خطبة حماسية أثار من خلالها النزعة الجهادية في نفوسهم، وألغى ضريبة التمغة عن كاهل رعاياه، وأقلع عن الشراب توبة وتقرباً إلى الله، فأهرق دنان النبيذ، وحطّم كؤوس الخمر التي كان يشرب بها(٣).

ابتدأت المعركة في ضحى يوم (١٣ جمادى الآخرة/ ١٧ آذار) واستمرت حتى الغروب، وأسفرت عن انتصار بابر وهزيمة عصبة الراجبوت هزيمة حاسمة، وهرب رانا سنكا من أرض المعركة قانعاً بنجاته ومثقلاً بجراحه التي أصيب بها(٤)، وتشتّت جيشه وقُتل عدد كبير من قادته(٥).

أتاح هذا الانتصار الكبير لبابر أن يقضي على الخطر الهندوسي بشكل تام، وهو الذي ظل يتهدّد المسلمين في الهند قروناً عديدة، وازدادت هيبته بين المسلمين في هذا البلد، وتوطّد مركزه في أكرا، ووضع الأساس الذي قامت عليه دولته المغولية. وتوسّط هذا الانتصار مرحلتين من حياته السياسية، فقد

(١) بداوني: جا ص٣٣٨. بخشي: جا ص٢٩٠ ـ ٢٩٢.
(٢) Fenshta: II, p35 (٣) Babur-Nama: pp551-553.
(٤) توفى بعد عام ونيف من هزيمته.
(٥) بخشي: جا ص٢٩١، ٢٩٢. Babur-Nama: pp558, 559. Lane Poole: p210

طوى مرحلة الدفاع عن الإنجازات المكتسبة وتثبيت حكمه، وفتح مرحلة كفاح جديدة لتنظيم هذا الملك وتدعيمه من خلال التوسع على الأرض، ونقل منذ ذلك الوقت مقر إقامته من كابل إلى أكرا في الهند.

معركة تشاندري

كان على بابر، حتى يصبح سيد بلاد الهند كلها، أن يستولي على بعض الحصون التي ما يزال يعتصم بها أمراء من الهندوس، ويقضي على ما تبقّى من نفوذ الأمراء الأفغان في المناطق الشرقية، ويُخمد ما يثيرونه من فتن هناك.

والواقع أن النصر الذي حقّقه بابر في معركة خانواه أضعف مقاومة الهندوس، غير أن فلول المنهزمين تجمّعت من جديد تحت قيادة مديني راو، صاحب حصن تشاندري(١)، وراحوا يعملون لاستعادة سلطانهم على الهند. وحاول بابر، في بادئ الأمر، أن يستقطبه، فعرض عليه إقطاع شمس آباد بدلاً من تشاندري، إلا أنه رفض هذا العرض، عندئذ خرج بابر بنفسه لقتاله في (٧ جمادى الأولى ٩٣٤هـ/ ٢٩ كانون الثاني ١٥٢٨م)، فاقتحم جنوده الحصن، على الرغم من مناعته ومتانة أسواره، وجرى قتال ضار مع حاميته قُتل خلاله مديني راو، واستولى بابر على الحصن(٢).

معركة ككرا

كان بابر قد خطّط، بعد استيلائه على تشاندري، أن يخضع بعض الحصون المجاورة في إقليم مالوة ثم يهاجم الراجبوتانا من جديد ليقتحم جنبور، عاصمة ميوار، ومقر خصمه رانا سنكا، غير أن ما بلغه من أنباء عن زحف الأفغان باتجاه الشرق بقيادة محمود لودي ومحاولتهم استعادة دلهي، وسيطرتهم على إقليم بيهار، وانتصارهم على جيشه بقيادة ابنه عسكري، وارتداد أفراده إلى قنّوج بعد أن أُرغموا على إخلاء لكناو؛ اضطره أن يترك المنطقة على عجل ويتوجه إلى الشرق ليعالج الموقف المتدهور. فذهب إلى

(١) يقع حصن تشاندري عند أقصى الجنوب من كواليور على الحدود مع مالوة وبندلخند، ويتمتع بميزتين سياسية واقتصادية، فهو يساعد على السيطرة على مالوة ويؤمن طريق التجارة مع غربي الهند.
(٢) Babur-Nama: pp592-600 Ferishta. II, pp37, 38.

قنَّوج، وعبر نهر جمنة تحت وابل من نيران المدفعية والبنادق ليواجه الثائرين في إقليم بيهار، ولم يكد يقترب من هذا الإقليم حتى فرَّ العدو هارباً، فأخضع جزءاً منه وغادر المنطقة بفعل حلول موسم الأمطار الذي يتعذر معه القيام بالعمليات العسكرية، ما أتاح للثائرين أن يُجدِّدوا انتفاضتهم في العام التالي. ونجح محمود لودي، بما تجمَّع لديه من قوات بلغت حوالي مائة ألف جندي، في أن يستعيد إقليم بيهار كله وبعض الأراضي المحيطة به. فأرسل بابر ابنه عسكري للتصدي له، ثم أردفه بنفسه، فدخل الله آباد وتشونار وبنارس، وأقبل عليه بعض الأمراء الأفغان مستسلمين بعد أن انفضُّوا عن محمود لودي، والتجأ بقية الثائرين إلى إقليم خريد، التابع لنصرت خان صاحب البنغال، فعمد بابر إلى تحييده، فتعهد له بعدم التدخل في شؤونه مقابل عدم مساعدة الثائرين[١].

وهكذا واجه محمود لودي قوات بابر بمفرده، وجرى اللقاء الحاسم بين الطرفين عند ضفاف نهر ككرا، أحد روافد نهر الغانج، في (٢٧ شعبان ٩٣٥هـ/ ٦ أيار ١٥٢٩م) وأسفر عن انتصار بابر، وفرّ محمود لودي إلى البنغال، واستسلم كثير من الثائرين الأفغان[٢].

وعقد بابر معاهدة مع نصرت خان تنص على أن لا يحاول أي منهما الإغارة على أملاك الآخر، ويبدو أن الزعيم البنغالي لم يلتزم بمضمونها، فقد هاجم ولاية ساسرام واستولى عليها بتحريض من محمود لودي، فاضطر بابر إلى مهاجمة البنغال بوصفها مركزاً للأفغان الثائرين[٣].

وفاة بابر

عاد بابر من حملة البنغال في (شوال ٩٣٥هـ/ حزيران ١٥٢٩م)، فمكث في أكرا بعض الوقت خرج بعدها إلى البنجاب في طريقه إلى بدخشان ليصد الأوزبك عنها. ولعل خشيته من قيام القلاقل في الهند أثناء غيابه، بالإضافة إلى بداية تدهور صحته، قد منعاه من مواصلة الذهاب إلى كابل، وكان قد قرّر زيارتها. وقدم عليه، وهو في لاهور، ابنه همايون الذي ألمّ به مرض بفعل شدة القيظ، فصحبه إلى أكرا، وتمنى على الله أن يجعله فداءه، فلم يبرأ الابن

(١) Babur-Nama: pp600-602.　(٢) Ibid: p602.

(٣) الساداتي: ص٢٣٤، ٢٣٥. الشيال، جمال الدين: تاريخ دولة أباطرة المغول الإسلامية في الهند: ص٣٠ .Raychoudhry: pp25, 26 Sharma: p257

من علته حتى رقد الأب في فراشه مريضاً، وحين شعر بدنو أجله دعا رجال دولته وأخذ منهم البيعة لابنه همايون، وأوصاه بالرأفة بهم وبأهل بيته وإخوته، ونصحه بالحلم والحزم في حكمه. وتوفي بابر في (٦ جمادى الأولى ٩٣٧هـ/ ٢٦ كانون الأول ١٥٣٠م)، وكان في الخمسين من عمره، ودُفن في أرام باغ في أكرا، ثم نُقل جثمانه بعد ذلك إلى كابل فدفن بربوة تطل على هذه المدينة التي كانت أحب البقاع إليه[١].

إنجازات بابر المدنية

النظم والإدارة

حكم بابر الهند مدة أربع سنوات، بعد معركة بانيبات، قضاها في حروب متواصلة لذلك لم يتمكَّن من تنظيم شؤون دولته وإرساء قواعدها ويضع لحكومته نظاماً وقوانين جديدة، فأبقى على هيكل الإدارة الهندية السائد في عصره مع بعض التعديلات الطفيفة. فقسَّم المملكة إلى إقطاعات، وعيَّن على كل إقطاع نائبين يختص أحدهما بقيادة الجند ويراقب جمع الضرائب ويرعى مصالح الناس، ويتولى الآخر الإشراف على الواردات والمصروفات ويوازن بينهما، ويدفع أجور الجند والعمال. وحضَّ نوابه في المقاطعات كافة بعدم الاشتطاط في جمع الضرائب والمكوس، وعدم إلحاق الأذى بالناس، وأمرهم بتحقيق العدالة من دون تفرقة بين مسلم وهندوسي.

وما ذهب إليه بابر من البذخ والعطاء اللامحدود، ورفعه ضريبة التمغة عن الناس قبيل حرب رانا سنكا؛ أدّى إلى خلل في الموازنة، الأمر الذي دفعه إلى زيادة الضرائب، وأمر بمسح الأراضي، وشقَّ شبكة من الطرق ربط بها بين مختلف الولايات، لعل أهمها الطريق الطويل بين كابل وأكرا، وأقام المنائر لهداية السابلة، وشيَّد منازل للمسافرين وخانات للدواب[٢].

العمارة والفنون

اهتم بابر بالعمارة، فشيَّد القصور والمساجد والحمامات والنافورات وخزانات المياه في أكرا وسكرى وبيانة ودهلبور وكواليار وكول وغيرها من

(١) بخشي: ج١ ص٢٩٢ .Ferishta: II, p41. Raychoudhry. p26. Sharma: pp260, 261

(٢) الساداتي: ص٢٤٠، ٢٤١ .Ferishta: II, pp42, 43

المدن، واستخدم بضعة آلاف من النحاتين والبنائين المهرة في بنائها، وقد بقي من إنجازاته المعمارية حتى الآن ثلاثة مساجد في بانيبات وسنبل وحصن اللوديين في أكرا. ودفعه ولعه بالطبيعة إلى إقامة الحدائق والبساتين جارى بعضها ما كان في كابل، منها بستان جارباغ بظاهر أكرا، وجلب إليه كثيراً من النباتات وأشجار الفاكهة التي لم تكن تعرفها الهند من قبل.

وصف بابر للهند

يعرض بابر في سيرته وصفاً دقيقاً للهند وقت غزوه لها. فهي عالم قائم بذاته يختلف عن الأقاليم كلها التي عرفها، سواء في طبيعة أرضها أو مناخها وزرعها وأنواع الحيوان فيها، وعروق سكانها، وطباعهم، وعاداتهم، وألسنتهم، وعقائدهم. وما يكاد الإنسان يعبر حدودها في ناحية الغرب حتى يرى معالمها واضحة في تباينها بالمقارنة مع جيرانها. وتعتمد أراضيها الزراعية على مياه الأنهار وروافدها، إذ لا قنوات عندهم أو ترعاً أو مصارف أو قناطر، ويعتمد سكانها في السقاية على الأمطار الموسمية.

وذكر بابر أنواع الحيوانات والطيور والثمار والفاكهة، وتحدّث عن التقويم الشائع عند الهنود، وأسماء الشهور وأيام الأسبوع، وأقسام الليل والنهار وكيفية حسابهما الذي يختلف عن غيرهم من الأمم والشعوب، والمعروف أن الهنود قسموا الليل والنهار إلى ستين قسماً يدعى كل قسم منها «غرى»، ومدته أربع وعشرون دقيقة، وقسموا اليوم إلى أربعة أقسام يُعرف كل قسم منها باسم «بهر» وهو الساعة الزمنية الهندوسية.

وتحدث بابر عن الأوزان وما تعادل، ومعايير الجواهر والأحجار الكريمة. فوحدة الوزن الهندية هي الماشة، وتعادل كل خمس منها مثقالاً واحداً، أما معيار الجواهر فهو «تانك» ويعادل أربع ماشات.

وتحدث بابر عن طبائع أهل الهند وصفاتهم، فهم ليسوا على شيء من صفاء العقل والخصال الحميدة، فلا إنسانية عندهم ولا إثارة من عبقرية، أو ميل إلى الاختراع، أو مهارة في الحرف والمهن، أو خبرة في العمارة والنقش والزخرفة، وتنفر النفس منهم ولا تطيب إلى معاشرتهم، ولا تقوم فيما بينهم صداقة أو يضمهم مجتمع. لا يعرفون الخيل المطهمة والطعام الطيب والفواكه الجيدة والماء المثلج، وليس لديهم حمامات أو مغاسل أو مدارس، ولا

يعرفون الشموع، ويستضيئون بمسارج الزيت القذرة، وتصاميم أبنيتهم رديئة مجردة من الجمال ولا تتلاءم مع البيئة، وهم لا يمدون الماء إلى دورهم في القنوات ولا يجرونه كذلك إلى الحدائق، فخلت قصورهم وبساتينهم من ذلك كله، ويسير عامة الفلاحين والعاملين شبه عراة إلا مما يستر عوراتهم.

ومناخ الهند لطيف في فصل الأمطار، وأمطارها غزيرة جداً، وتتكثف الرطوبة في هذا الفصل فتصيب كل ما تصادفه بالتلف. ويتخلل هذا الفصل رياح شديدة محملة بالأتربة، يسميها أهل البلاد «آندهي»، تحجب الرؤية في بعض الأحيان. ولا يخلو الشتاء والصيف من أوقات لطيفة، إلا أن حرّ الصيف لا يطاق حين يشتد، ولا يقارن بغيره في البلاد المجاورة.

وتحدث بابر أيضاً عن حدود الهند وموقع البلاد الجغرافي، وما تحويه من ولايات مما هو بأيدي المسلمين وما هو بأيدي الهندوس، كما فصَّل خراج كل ولاية. ويتحدث بإعجاب عن ثروة البلاد من الفضة والذهب وتوفر فرص العمل وازدهار التجارة.

يلاحظ أن المدة التي قضاها بابر في الهند لم تكن كافية لتمكينه من التعرف على أخلاق الهنود وعلى عاداتهم وتقاليدهم وآرائهم، لذلك ربما علينا أن نأخذ آراءه عن الهند، وبخاصة ما وصف به الشعب الهندي، بحذر.

مذكرات بابر[١]

تمدنا سيرة بابر، المعروفة باسم بابرنامه، التي كتبها بنفسه، بمعلومات قيمة عن صاحبها وحاشيته، كتبها بلغة تركية ـ جغتائية ـ بأسلوب سهل جميل ومعبِّر؛ وهي تنمُّ عن إلمام صاحبها بأصول الثقافة الإسلامية وآداب العربية والفارسية؛ ولهذا تعدُّ أعظم آثاره الأدبية، وتحتل مكانة خاصة في الأدب التاريخي الهندي؛ ولا زالت تنال تقديراً عالمياً بفعل ما تمتاز به من الوضوح في تصوير شخصية مؤلفها بفضائله ورذائله وانتصاراته وهزائمه وما صادفه من محن ومتاعب، وما كان يجري في مجالس شرابه من عبث ولهو وتناظر بالأشعار، كما تحتل مكانها إلى جانب أحسن السير الشخصية التي كُتبت في العالم، ولكنها تبقى فريدة بين ما كتب من سير مماثلة لها في آسيا.

---

(١) Babur-Nama: pp487, 518-520.

تعرض السيرة صور بابر ورجال دولته وحاشيته ومعاصريه، في ملابسهم ومظهرهم وأذواقهم ونضالهم وأخلاقهم وعاداتهم وهواياتهم؛ بشكل واضح ودقيق، كما تمدنا بوصف دقيق للبلاد التي زارها بابر ولمظاهرها الطبيعية وإنتاجها وأعمالها الفنية والصناعية.

وتمتاز سيرة بابر بما يتخللها من تعليقات المؤلف الحاذقة وانطباعاته الحية. فهو كثيراً ما يستطرد، عند ذكر الحوادث، بشكل يضفي على ذكرياته نكهة نادرة المثال.

وخلّدت بابرنامه ذكر صاحبها في عالم الأدب والتاريخ، وما من شك بأنها تعد المثل الصالح التي يستلهمها أصحاب الطموح على الدوام.

شخصية بابر

وضع بابر أسس دولة المغول العظيمة في الهند، وهو يشبه الإسكندر المقدوني في شجاعته وجاذبيته. ولما كان سليل جنكيزخان وتيمورلنك معاً، فقد ورث كل ما اتصف به هذان العاهلان من قدرة، من دون أن يرث ما كان لهما من غلظة القلب، وكان يعاني من فيض نشاط جسده وعقله، فطفق يقاتل ويخرج للصيد وللرحلة من دون أن يروي بذلك غليله، ولم يكن عسيراً عليه أن يقتل بمفرده خمسة أشخاص من أعدائه في خمس دقائق. وحدث أن قطع في يومين مسافة مائة وستين ميلاً وهو راكب على ظهر جواده، ثم واصل مجهوده فسبح نهر الغانج مرتين وكأن الرحلة لم تكفه دليلاً على نشاطه، وهو الذي قال عن نفسه في أواخر حياته، إنه منذ عامه الحادي عشر لم يصم رمضان مرتين في مكان واحد.

ترتكز مكانة بابر في التاريخ على غزواته في الهند التي مهدت لقيام دولة مغولية قوية تولى حكمها عدد من الأمراء من نسله، أكثر مما ترتكز على مخاطراته الجريئة وجهوده التي بذلها في الأعوام الأولى من حياته، أو على سيرته التي كتبها بنفسه. وإلى جانب كونه جندياً مغامراً، كان أديباً، ذا ذوق رفيع وبصيرة نفاذة، وشاعراً مجيداً في اللغة الفارسية، لغة الثقافة في ذلك العصر، كما كان ضليعاً في لغته القومية، اللغة التركية.

وكان الأمراء الأتراك في عصره يفتخرون بثقافتهم الأدبية، ويتسابقون للتفوق في وصف مطاردة غزال أو نسخ كتاب بخط جميل أو ترديد أغنية

جميلة، ولم تكن هذه الأعمال عندهم أقل قيمة من المهارة في حمل السيف أو الضرب بالرمح، وتضاهي الجرأة والشجاعة والفضيلة.

وكان بابر كثيراً ما يقطع روايته لبعض القصص ليستشهد ببيت من الشعر، كما كان يلتمس بعض الوقت، خلال متاعبه والأخطار المحيطة به، ليقضيه في نظم قصيدة يشكو فيها الخطوب التي أصابته. والحقيقة أنه استطاع أن يُصوِّر حروبه ومباذله تصويراً إنسانياً في نفثات شعره. وإذا استعرضنا تاريخ آسيا بتجرد، لوجدنا أن عدداً قليلاً من الأمراء استطاع أن يرتفع إلى مكانة بابر أو يفوقه مكانة في عبقريته وثقافته، كان من بينهم حفيده أكبر.

والحقيقة أن مواهب جنكيزخان وتيمورلنك تقف بهما عند غزواتهما وحروبهما الرائعة على الرغم من القسوة التي رافقتها، وهما يتفوقان على بابر في هذا الميدان، إلا أنهما افتقدا النشاط الفكري ورباطة الجأش والروح التي لا تفقد اتزانها في السراء والضراء، والتحلي بالفضائل الاجتماعية.

الفصل السادس

همايون ـ شير شاه وخلفاؤه

نصير الدين همايون

المرة الأولى (٩٣٧ ـ ٩٤٧هـ/ ١٥٣٠ ـ ١٥٤٠م)

ارتقاء همايون العرش

وُلد همايون في كابل في (٤ ذي القعدة ٩١٣هـ/ ٦ آذار ١٥٠٨م)، وهو الابن الوحيد للسلطانة مهيم. تربى تربية عسكرية وسياسية، وأبدى اهتماماً بالرياضيات والفلسفة والفلك والتنجيم، وتعلم لغات عدة: التركية والعربية، والفارسية. وعندما توجه والده بابر لفتح الهند، كان ساعده الأيمن، فاكتسب خبرة في العمل العسكري والإداري. وعندما بلغ العشرين من عمره عيّنه والده والياً على بدخشان، وأرسله إلى البنجاب لمساعدة حاكم لاهور. وعندما توجه بابر لحرب إبراهيم لودي، أرسله على رأس حملة ضد حميد خان، فانتصر عليه قرب حصار فيروزا، وعيّنه والده بعد هذا الانتصار والياً على هذه المقاطعة، ولما استقر بابر في دلهي توجه همايون إلى أكرا واستولى عليها[(١)]. وعندما مرض بابر، واشتدَّ المرض عليه، عهد إليه بالملك، وأوصاه أن يحسن معاملة إخوته على ألا يغفل عنهم. والمعروف أن بابر ترك بعد وفاته أربعة أولاد هم همايون وكمران وهندال ميرزا وعسكري ميرزا. وحاول الوزير نظام الدين، الذي كان يشك في قدرات همايون على تسيير شؤون الحكم، أن يولي صهر بابر، مهدي خواجة، غير أنه لم يوفّق، وبالتالي ارتقى همايون العرش خلفاً لوالده في (٩ جمادى الأولى ٩٣٧هـ/ ٢٩ كانون الأول ١٥٣٠م)[(٢)].

---

(١) بخشي: جا ص٢٩٣، ٢٩٤. انظر فيما يتعلق بإنجازات همايون العسكرية، قبل أن يعتلي العرش: Humayun-Nama: pp84-109.

(٢) Ibid: p110.

المشكلات التي واجهت همايون

واجهت همايون، خلال حياته السياسية، مشكلات عدة لعل أهمها:

ميراث بابر

ورث همايون عن والده ملكاً قام على الفتح والقهر، ولم يتمكّن، خلال مدة حكمه القصيرة، من تدعيم هذا الملك، فترك لخلفه دولة مفكّكة الأوصال لا تتدعّم إلا بالقوة، ولم يكن همايون من القوة والذكاء بحيث يستطيع أن ينجز ما لم يستطع أبوه إنجازه، بل إنه على العكس أضاف متاعب جديدة بفعل لينه وتصرفاته المتناقضة، كما ترك له أبوه خزانة خاوية استنفدت هباته وعطاياه من أموالها أكثر مما استنفدته حروبه وغزواته.

تقسيم الدولة

حرص همايون على تنفيذ وصية والده بشأن تعيين إخوته حكاماً على الأقاليم المختلفة، فولى أخاه كمران إقليمي كابل وقندهار، وأضاف إليه ولاية حصار فيروزا على أن يكون تابعاً اسمياً لدلهي، كما عيّن هندال ميرزا حاكماً على ألوار وميوات، وأخاه عسكري ميرزا على سانبهال، وولّى ابن عمه سليمان ميرزا والياً على بدخشان[1].

أبدى همايون عطفاً شديداً على إخوته. وأحسن معاملتهم. ولكنهم لم يبادلوه هذا العطف، ولم يكونوا معه، وظاهروه بالعداوة. وتُعدّ فكرة التقسيم هذه من أخطائه الكبرى لأنها أدّت إلى ازدياد تفكك الدولة ونشوب الحروب الأهلية. فقد طمع كمران في توسيع أراضيه، فاستخلف أخاه عسكري على إقطاعه وخرج على رأس جيش كبير لحرب أخيه همايون مدعياً أنه إنما خرج لتهنئته بمناسبة توليه العرش، غير أن همايون لم يكن بهذه السذاجة بحيث تخدعه هذه الحيلة، وأدرك فوراً مرامي أخيه وأهدافه، غير أنه آثر السلامة فمنحه لمغان وبيشاور ليضمهما إلى إقطاعه. ويبدو أنه لم يقتنع بهذه الترضية، فعبر السند واستولى على إقليم البنجاب وضمَّ إلى ملكه كابل وقندهار ومدينة لاهور. واستسلم همايون للأمر الواقع وتجنّب الدخول في حرب مع أخيه، مبرهناً عن قصر نظر في الحقل السياسي، لأن استيلاء أخيه على البنجاب

(١) بخشي: جا ص٢٩٤.

بعامة وعلى حصار فيروزا بخاصة، كان ضربة قاصمة، بفعل أن ضياع هذه الأقاليم أفقده أراضي خصبة، وأقام حاجزاً بينه وبين مركز المغول العسكري في شمالي الهند الغربي، الغني بالإمكانات العسكرية، وقطع الصلة بين دلهي وبين البلاد الواقعة فيما وراء الهندوكوش، كما أن الاستيلاء على حصار فيروزا أتاح لكمران السيطرة على الطريق العسكري الجديد الذي يربط بين دلهي وقندهار، وأضحى من اليسير عليه أن يقطع الطريق على قوات همايون[1].

أقرباء همايون

كان بابر قد عيَّن عدداً كبيراً من أقربائه كأمراء في بلاطه، ومنحهم الإقطاعات الواسعة؛ فملكوا بذلك عصب الحرب وأسلحتها، واستخدموها في حروبهم الداخلية ضد بعضهم البعض وضد همايون نفسه. واستمرت مؤامراتهم ضده لإشباع رغباتهم وطموحاتهم في السيطرة والنفوذ. وتطلع أحدهم، ويُدعى مهدي خواجة، إلى اعتلاء العرش بعد وفاة بابر، كما ذكرنا، وثار اثنان منهم ضده، وهما صهره الوزير محمد زمان وعمه محمد سلطان، والتمسا المساعدة من الأعداء، والتجأ محمد زمان إلى الكجرات حيث انضم إلى بهادور شاه.

غياب وحدة الجيش

لم يكن الجيش المغولي وطنياً، بل تألف من جنسيات مختلفة من الجغتائيين والأوزبك والمغول والفرس، وإن جيشاً خليطاً كهذا لا يكون متجانساً وفعالاً إلا في ظل قيادة قوية وحازمة مثل قيادة بابر، ويتحول إلى عصابات في ظل حاكم ضعيف كهمايون.

صفات همايون

اتصف همايون، كشخص، بالشجاعة والكياسة، ولكنه عاني، كملك، من الضعف، ولم يكن من القوة والذكاء بحيث يستطيع أن ينجز ما لم يستطع أن ينجزه والده، بل إنه، على العكس، أضاف متاعب جديدة، ولعل أهم عيوبه اللين والتناقض والكرم المفرط. كان كفيلاً بإتمام ما بدأه أبوه من عمل لولا تراخيه في كسب ود أمراء والده ثم فتور همته وخور عزيمته، فنراه لا يكاد يمضي في الإجهاز على أحد خصومه والقضاء عليه حتى ينصرف فجأة إلى عدو

(١) بخشي: جا ص٢٩٦. الشيال: ص٤٦ Ferishta: II, p45. Raychoudhry: pp37, 38.

آخر غيره، وهو حين يبلغ غايته في القضاء على أحد من أعدائه، كان يستخف به الطرب فينصرف إلى متعة عابرة غير مدرك لوجوب تدعيم ما أحرزه من انتصار، أو مستمع إلى نصيحة القادة المجربين الذين قادوا الجيوش في عهد أبيه.

وفشل همايون في تفهُّم فداحة مشكلاته وضرورة تأمين قيادة موحدة لأتباعه، وبرهن عن عدم مقدرة في متابعة الأحداث، لذلك تعد صفاته من بين المشكلات التي واجهها.

جهود همايون للتخلص من الأفغان

الحملة ضد كالنجر

كان الأفغان ألدّ أعداء همايون، والمعروف أنهم حكموا دلهي في الماضي وحتى قبل بضع سنوات، ولا زالت تراودهم الآمال في استعادة ملكهم المندثر، نذكر منهم: إبراهيم لودي، الذي عاد إلى بيهار وحاول مهاجمة دلهي بالتعاون مع نصرت شاه، حاكم البنغال، وبهادور شاه حاكم الكجرات، الذي استولى على مالوة وضغط على ميوار والتجأ إليه الأمراء الأفغان المشردون، وشير شاه الذي راح يجمع الأفغان تحت سلطانه ويكتّلهم ضد المغول، فكان منافساً خطيراً لهمايون.

نهض همايون بعد بضعة أشهر، من توليه الحكم، لمواجهة أعدائه الأفغان وإخضاعهم، وبدأ بمهاجمة كالنجر، بفعل توجّه صاحبها براتا برودراديو للتعاون مع الأفغان، وبخاصة مع بهادور شاه صاحب الكجرات، وضرب عليها حصاراً مركزاً في عام (٩٣٧هـ/ ١٥٣١م). وعلم في غضون ذلك باستيلاء شير شاه على قلعة تشونار، وتقدم الأفغان بقيادة محمود لودي نحو جونبور، فاضطر إلى عقد صلح مع براتا برودراديو، وفك الحصار عن كالنجر لقاء مبلغ من المال. ليواجه أعداء دولته في مناطق أخرى، وعُدّت حملته ضد كالنجر فاشلة وغير ذي جدوى[1].

معركة دوريا

كان الأفغان، بقيادة محمود لودي، قد طردوا الحاكم المغولي في جونبور،

(١) Ferishta. II, p45.

وعزّزوا مركزهم في أوَد، فخرج همايون في عام (٩٣٨هـ/ ١٥٣٢م) على رأس حملة عسكرية باتجاه الشرق لتأديبهم، فاصطدم بهم في دوريا وهزمهم، وفرَّ محمود لودي من أرض المعركة ناجياً بنفسه في جو الهزيمة القائم، وفَقَدَ هيبته أمام الأفغان. واكتفى همايون بهذا الانتصار من دون أن يُكلِّف نفسه عناء مطاردة أعدائه، وكان ذلك في متناول يده، وذهب إلى تشونار وحاصرها، وكانت تحت حكم شير شاه. وعلم في غضون ذلك بأن بهادور شاه صاحب الكجرات هاجم حلفاءه الراجبوت، فآثر التفاهم مع شير شاه ليتفرغ لصاحب الكجرات، وقنع منه بالولاء الاسمي من دون أن يدرك مدى خطورة هذا الثائر. ففك الحصار عن تشونار بعد أربعة أشهر من حصاره لها وعاد إلى أكرا[1].

الصراع مع بهادور شاه

كان بهادور شاه، أحد سلاطين الكجرات الكبار، طموحاً، يحكم إقليماً غنياً بموارده، فأتاح له ذلك العمل على تقوية جيشه وزيادة عدد فرسانه، كما أسس فرقة للمدفعية بمساعدة رومي خان التركي[2]، واستولى على أحمد نكر وبرار وكواليار ومالوة بمساعدة رانا موار، فجاور سلطنة دلهي في أماكن كثيرة. وغدت أكرا على قاب قوسين من مرمى مدفعيته. وازداد نفوذه وخطره حين لجأ إليه رؤساء الأفغان وأمراء المغول، الفارون من وجه همايون، وفيهم عالم خان، عم إبراهيم، آخر سلاطين اللوديين، وجماعة من رجال بابر السابقين، وراحوا يحثونه على مهاجمة أكرا والجلوس على عرش الهند. يضاف إلى ذلك، فقد وثّق علاقاته بالبرتغاليين الذين اعترفوا بسيادته، وكانت مستعمراتهم منتشرة على شواطئ بلاده ذات المركز التجاري الممتاز، وأمدوه بمدافع متطورة، كما تحالف مع شير شاه ونصرت شاه، صاحب البنغال.

شكّل توسع بهادور شاه وتحالفاته خطراً جدياً على وضع همايون، فنهض لتأديبه ومعاقبته، فطلب منه إبعاد اللاجئين الأفغان، فرفض، فاتخذ من ذلك ذريعة لشن الحرب، فارتد سريعاً من المناطق الشرقية قبل أن يجني ثمن انتصاراته هناك، وما إن بلغ مالوة حتى وجد خصمه منهمكاً في القتال مع صاحب جيتور، فأبى أن يهاجمه فوراً حتى يفرغ من حربه مع الأمير

(١) Ferishta: II, pp45, 46.

(٢) اسمه مصطفى بن بهرام الرومي.

الراجبوتي[١]، مفوتاً فرصة ذهبية للانتصار عليه، وهذا خطأ عسكري فادح.

وسقطت تشيتور في يد بهادور شاه بعد عشرة أيام، فتقدم همايون باتجاه أراضي خصمه، ولما وصل إلى ماندو، على بُعد ستين ميلاً من تشيتور، خرج بهادور شاه باتجاهه. لكنه أساء تقدير قوة خصمه، فحاول أن يقتدي بخطة بابر في معركة بانيبات، وتوقع أن يكرِّر همايون الخطأ الذي ارتكبه إبراهيم لودي بأن يدفع جنده لمقابلة مدفعيته القوية، غير أن همايون لم يقع في الفخ الذي نصبه له، بل على العكس، فقد أبقى قواته بعيداً عن مرمى المدفعية. وحتى يضعف خصمه، أرسل فرقاً من جنده لتستولي على غلات الأقاليم المتصلة بمؤخرة جيشه، وتمنع عنه الإمدادات، فاضطر بهادور شاه نتيجة ذلك أن يمتنع بحصونه. واشتد الحصار على سكان الكجرات وانتشرت المجاعة بينهم، ولم ير بهادور شاه طريقاً للنجاة غير الفرار مع نفر من أتباعه المخلصين في (٢٢ ذي القعدة ٩٤١هـ/ ٢٥ نيسان ١٥٣٥م)، وحطّم مدافعه حتى لا يستولي عليها عدوه، فطارده همايون من مكان إلى آخر من دون أن يتمكَّن من القبض عليه، ولجأ أخيراً إلى حصن ديو التابع للبرتغاليين. وضمَّ همايون قسماً كبيراً من الكجرات ومالوة كما استولى على تشمبانير[٢].

ويبدو أن همايون اغترَّ بنصره، فأهمل اتخاذ وسائل الحيطة والحذر، والإجراءات الضرورية للإقامة الآمنة والدائمة في الأقاليم المفتوحة، وانصرف إلى إقامة الأفراح والاحتفالات، وظنَّ أن الأمور قد استقرت له في الكجرات، فعيّن أخاه عسكري نائباً له هناك وعاد إلى ماندو[٣].

أثبت عسكري، أثناء غياب أخيه، عن قصر نظر في الحقل السياسي، فأهمل تصريف شؤون الحكم، وانغمس في اللهو وتدبير المؤامرات، وانصرف إلى حياة الدعة والترف، وكرهه قادة الجيش لغلظته، ما أدى إلى ثورة السكان بقيادة عماد الملك، أحد قادة بهادور شاه الموثوقين[٤].

كان بهادور شاه يترقب هذه الفرصة، فاستغلها، وأوعز إلى قائدة فهاجم أحمد آباد واستولى عليها، وتلقّى وعداً من البرتغاليين بمساعدته. وبعد معركة

---

(١) بخشي: جا ص٢٩٦، ٢٩٧.

(٢) المصدر نفسه: ص٢٩٧، ٢٩٨ Humayun-Nama: pp131, 132.

(٣) المصدر نفسه: ص٣٠٠ ـ ٣٠١. (٤) المصدر نفسه: ص٣٠٠.

صغيرة مع عسكري قرّر هذا الأخير الانسحاب إلى تشمبانير، فرفض حاكمها تاردي بك استقباله، فتوجه عندئذ إلى أكرا واستولى بهادور شاه على تشمبانير وتراجع تاردي بك إلى ماندو. وسرعان ما استعاد بهادور شاه ملكه المفقود شيئاً فشيئاً، وخسر همايون كامل الكجرات، بالإضافة إلى مالوة، لصالح خصمه[١].

وخشي همايون أن يستقل عسكري بأكرا، فغادر ماندو وتوجه نحوها[٢]. والتقى بأخيه في الطريق حيث جدّد عسكري ولاءه له.

لم يهنأ بهادور شاه بفتوحه، ولم يتمكّن من جني ثمار انتصاراته، إذ سقط في البحر غدراً بتدبير من البرتغاليين، وهو في طريقه للتفاوض معهم على الرغم من حذره الشديد وفرط تحوطه، وذلك في عام (٩٤٤هـ/ ١٥٣٧م)[٣].

الصراع مع شير شاه[٤]

في الوقت الذي كان فيه همايون منهمكاً بقتال بهادور شاه، كان شير شاه، وهو أحد القادة الأفغان الأقوياء، يُعزِّز مركزه في جنوبي بيهار، ثم ما لبث أن سيطر على هذا الإقليم بما فيه قلعة تشونار الحصينة، وانضوى معظم الأمراء الأفغان تحت سلطانه[٥].

وحدث آنذاك أن توفي نصرت شاه، صاحب البنغال، وخلفه محمود شاه الذي ثبت عجزه في إدارة شؤون الحكم ما أتاح لشير شاه أن يهاجم البنغال في عام (٩٤٣هـ/ ١٥٣٦م) ويتوغل فيه، وحاصر عاصمته غور، وأجبر محمود شاه على دفع الجزية، وجدّد هجومه على هذا الإقليم في العام التالي في محاولة للسيطرة عليه[٦].

ونتيجة لنشاط شير شاه العسكري، أدرك همايون وحده، من بين الحكام الآخرين، وجوب وقفه عند حده، فزحف في عام (٩٤٤هـ/ ١٥٣٧م) نحو بيهار وحاصر في طريقه تشونار واقتحمها بعد ستة أشهر، وهي مدة أتاحت لشير شاه

---

(١) بخشي: جا ص٣٠٠ Ferishta· II, p52. (٢) Humayun-Nama: p133.

(٣) بخشي: جا ص٣٠٣.

(٤) انظر، فيما يتعلق بهذا الصراع، تاريخ شير شاه المسمى تحفة أكبر شاهي، لعباس خان سرواني. مجموعة إليوت، الجزء الرابع ص٣٥٠ ـ ٣٨٤.

(٥) بخشي: جا ص٣٠٣.

(٦) المصدر نفسه Humayun-Nama: p133.

أن يستولي على غور، ثم تابع زحفه إلى بنارس. ويبدو أنه تهيَّب الدخول في صدام مع خصمه وآثر إحلال السلام، فتفاوض معه من أجل ذلك، واتفقا على:

- إعطاء البنغال لشير شاه على أن يحكمه باسم المغول.
- يدفع شير شاه مبلغاً من المال سنوياً للإدارة المركزية في أكرا.
- تُعطى بيهار للمغول.

لكن قبل توقيع الاتفاقية وصل مبعوث من قِبَل محمود شاه حاكم البنغال، وطلب من همايون مهاجمة الإقليم لتخليص سيده من ضغط الأفغان، فتوقف هذا عن توقيع الاتفاقية وزحف نحو البنغال، فاسترد غور، وارتد شير شاه إلى إقليم بيهار، وراح ينهب المناطق بين بيهار وقنَّوج وجونبور[1].

ظنَّ همايون أن إقليم البنغال قد استقر له، فقضى فيه مدة ثمانية أشهر للاستجمام والراحة من دون أن يتابع نشاط عدوه شير شاه، أو يدرك أن عدوه إنما تركه يتوغل في أراضي الإقليم حتى يقطع عليه خط الرجعة. والواقع أن هذا كان خطأً جسيماً أتاح لشير شاه أن يستولي على كارا وبنارس وسمبهال ويحاصر تشونار وجونبور، حتى إذا ما تنبَّه إلى هذا الخطأ، بعد فوات الوقت، استدار نحو عدوه للاصطدام به، فعبر نهر الغانج ووصل إلى جوسا، الواقعة بين بيهار وأوتار برادش، كما وصل شير شاه أيضاً إلى هناك، فظل الجيشان متواجهين لبعضهما مدة ثلاثة أشهر (ذو القعدة، ذو الحجة ومحرم ٩٤٥ ـ ٩٤٦هـ/ نيسان، أيار وحزيران ١٥٣٩م) حاول خلالها شير شاه تأخير اللقاء حتى هطول الأمطار الموسمية التي تشكل عائقاً أمام المغول، الذين كانوا يعسكرون في الأرض الواطئة بين نهري الغانج وكرماناسا، وأضاع الوقت في مفاوضات لإحلال السلام تعمَّد إفشالها من دون أن يدرك همايون مراميه وغاياته، فأرسل إليه يؤكد طاعته وولاءه له، حتى إذا اطمأن همايون إلى تلك العهود عرض على عدوه إمارتي البنغال وبيهار ثمناً لخضوعه له. والواقع أنها كانت خدعة إذ ما إن بدأت الأمطار بالهطول حتى اشتبك مع عدوه في (٨ صفر/ ٢٥ حزيران). وعمد شير شاه أيضاً إلى خداع همايون، فتظاهر بالانسحاب نحو بيهار وطارده همايون، وعند حلول صباح اليوم التالي توقف فجأة عن الانسحاب، وهاجم القوات المغولية المطاردة وأخذها على حين غرَّة، ودمَّرها، على الرغم مما بذله همايون

(١) بخشي: جا ص٣٠٥، ٣٠٦. Humayun - Nama: pp133, 134.

من جهد وما أظهر من جلد في القتال، ونجا هذا بأن قذف بنفسه في نهر الغانج وكاد أن يغرق لولا أن أنقذه سقاء. وعندما علم شير شاه بعودة همايون إلى أكرا تأسف وقال: «كنت أريد له الموت، ولكنه نجا».

كانت النتيجة الفورية لمعركة جوسا استيلاء شير شاه على البنغال، وأعلن نفسه سلطاناً، واتخذ لقب خان، وأمر بأن تضرب السكة باسمه، وتجري الخطبة بالدعاء له، وتحالف مع أصحاب الكجرات ومالوة لمحاربة همايون[1].

عاد همايون إلى أكرا ليواجه المتاعب التي انصبَّت عليه من كل ناحية، فهو قد هُزم أمام شير شاه الذي أضحى منافسه الرئيسي، يُهدِّده بضياع ملكه، كما أن إخوته استمروا بالتآمر ضده غير مبالين بالخطر الذي يتهدّد عرش المغول في الهند، ظانين أن باستطاعتهم أن يعتلوه بدلاً من أخيهم همايون، وكان هذا وهماً منهم، فقد كان الصراع في الحقيقة عنصرياً بين الأفغان، الذين يمثلهم شير شاه، والمغول، الذين يمثلهم همايون.

الواقع أن همايون لم يفقد الأمل، على الرغم من الصعوبات التي واجهها، في التغلب على عدوه العنيد، فاستمر نحو عام وهو يعد جيشاً للاصطدام به بلغ تعداده مائة ألف جندي. ومن جهته استغل شير شاه وضع عدوه الحرج ليصطدم به ويقضي عليه قضاء تاماً، فعبر نهر الغانج على رأس جيش يبلغ خمسين ألف جندي متوجهاً إلى قنَّوج، وما إن علم همايون بزحفه حتى تقدم هو الآخر على رأس جيشه البالغ مائة ألف جندي. وجرى اللقاء الدامي بين الطرفين في قنَّوج في (١٠ محرم ٩٤٧هـ/ ١٧ أيار ١٥٤٠م). وأدّى تراخي جنود همايون في القتال، عندما رأوا انسحاب عدد كبير من الأمراء مع قواتهم من أرض المعركة، مع بدء هطول الأمطار؛ إلى انتصار الأفغان. وكاد همايون أن يلقى حتفه في هذه المعركة غرقاً لولا أن أنقذه قائده شمس الدين محمد غزنوي، الذي وزر بعد ذلك لابنه أكبر، واضطر أن يخرج من الهند كلها والتجأ إلى إيران، فاحتمى بالشاه طهماسب الصفوي الذي أكرمه وأحسن ضيافته، تاركاً حكم الهند للأفغان، وبذلك ذهبت كل الجهود التي بذلها أبوه بابر في فتوحه أدراج الرياح[2].

(١) بخشي: جا ص٣٠٧، ٣٤٦، ٣٤٧. سليم، غلام حسين: رياض السلاطين، أو تاريخ بنغالة: ص١٤٧ ـ ١٤٩.

(٢) بدواني: منتخب التواريخ: جا ص٣٥٥. بخشي: جا ص٣٠٦، ٣٠٧
Ferishta: II, pp57, 58. Manucci, Niccolao: Mogul India, or Storia Do Mogor· Prt I, pp112, 113.

عودة الأفغان إلى الحكم

شير شاه وخلفاؤه

شير شاه
(٩٤٧ ـ ٩٥٢هـ/ ١٥٤٠ ـ ١٥٤٥م)

حياته المبكرة

هو فريد الدين بن حسن، مؤسس أسرة سور الأفغانية في دلهي، وُلد في مدينة حصار فيروزاً في عام (٨٩١هـ/ ١٤٨٦م)، تلقى والده، من إسكندر لودي، إقطاع سيسرام وخواسبور في إقليم بيهار. لم تكن طفولته مستقرة، فقد أهمله والده وأساء معاملته بتأثير صغرى زوجاته، فغادر فريد الدين منزل أبيه والتجأ إلى إقطاع جمال خان في مدينة جونبور[١]، وكانت هذه المدينة منتدى الصفوة من رجال العلم والأدب، فانكب على دراسة اللغتين العربية والفارسية، وقرأ گلستان وبوستان لسعدي الشيرازي، وهما كتابان في الأخلاق والتصوف، وإسكندرنامه وكافية ابن الحاجب وشروحها[٢]، وغير ذلك من علوم عصره، وقد أُعجب جمال خان بنشاطه، فأرسل إلى والده حسن يوصيه به خيراً، فاستدعاه ليعود إلى المنزل، غير أنه رفض ذلك. وانتشر ذكر فريد الدين في الآفاق الأمر الذي دفع والده للذهاب إلى جونبور لإعادة ابنه إلى البيت، وهناك سمع بنفسه حديث الناس عن ذكائه ونشاطه.

وعاد فريد الدين إلى بلده، فعهد إليه أبوه بإدارة إقطاعاته في سيسرام وخواسبور، فاكتسب معرفة دقيقة بجميع التفصيلات الخاصة بإدارة الأملاك. وبدأت تدابيره الجديدة تظهر، وراح الناس يتحدثون عنها وهم الذين لم يكن

(١) سرواني: ٣٠٨ ـ ٣١١.
(٢) المصدر نفسه: ص٣١١.

لهم بها عهد. فأدخل نظام المحاسبة المباشرة مع الفلاحين وحماهم مما كانوا يتعرضون له من عنف واضطهاد، فكان ذلك سبباً في استقرار الحياة الاجتماعية وسعادة الناس. وبعد أن وضع إدارة خراج الإقطاع على أسس سليمة أخضع الزميندارية المشاكسين وأجبرهم على الطاعة[١].

أثارت شهرة فريد الدين حنق صغرى زوجات والده، فراحت تضايقه حتى هجر البيت مرة ثانية، فذهب إلى أكرا، أيام إبراهيم لودي، وتقرّب من دولت خان. وقدَّر اللوديون مواهبه حتى إذا توفي والده عيَّنه إبراهيم لودي مكانه في الإقطاعة.

لكن الأمور سرعان ما تغيَّرت عندما دخل بابر إلى الهند وهزم إبراهيم لودي، وبدأ حكم المغول، فلجأ فريد الدين عقب ذلك إلى محمد بن درياخان لوحاني صاحب بيهار والتحق بخدمته. وإذ كان الأمير في رحلة صيد هاجمه أسد حتى كاد يقضي عليه لولا شجاعة فريد الدين، الذي اندفع نحوه وقضى عليه بضربة سيف سريعة، فأعجب الأمير به وسماه شير شاه ليشتهر، من بعد ذلك، بهذا الاسم، وجعله مربياً لابنه جلال خان[٢].

شير شاه يعتلي عرش الهند

قضى شير شاه نحو أربعة أعوام في خدمة صاحب بيهار (٩٢٨ ـ ٩٣٢هـ/ ١٥٢٢ ـ ١٥٢٦م) فقدَّر جهوده التي بذلها في إدارة الشؤون المدنية والمالية. لكن الخلاف ما لبث أن دبَّ بينهما، فغادر شير شاه بيهار وذهب إلى جنيد برلاس، والي جونبور من قبل السلطان بابر، فاستقبله بترحاب ومهَّد له الوصول إلى خدمة بابر، فنال الحظوة عنده وعيَّنه حاكماً على عدد من الإقطاعات بما فيها إقطاع أبيه، فمكث في خدمته مدة توجس خلالها خيفة منه. ويبدو أن بابر وقف على طموحاته وذكائه، فراح يراقبه، الأمر الذي دفعه إلى مغادرة بابر وعاد إلى محمد خان والي بيهار الذي عفا عنه وأعاده إلى عمله معه. ولما توفي هذا خلفه ابنه القاصر جلال خان، فتولى شير شاه كفالته، فاستحوذ بذلك على النفوذ والسلطان وأضحى الحاكم الفعلي للبلاد[٣].

وعندما بلغ جلال خان أشده رفض أن يكون ألعوبة في يد شير شاه،

(١) سرواني: ص٣١٣.
(٢) بداوني: جا ص٣٥٨. Ferishta: II, pp61 - 64. بخشي: جا ص٣٢٤ ـ ٣٣٦.
(٣) بخشي: جا: ص٣٤٢، ٣٤٣ Ibid: p67.

فالتمس المساعدة من حاكم البنغال للتخلص منه، غير أن الحليفين هُزما أمامه في سوراججرة، والتجأ جلال خان إلى البنغال تاركاً إقليم بيهار يقع فريسة في يد كفيله.

وأخذ شير شاه بعد ذلك يوسع رقعة أراضيه، فضمَّ قلعة تشونار، في عام (٩٣٦هـ/ ١٥٣٠م)، من دون قتال حيث تزوج أرملة حاكمها[١]. وقد أشرنا فيما سبق إلى صراعه مع همايون الذي انتهى بمغادرة الأخير أرض الهند واعتلاء شيرخان العرش في أكرا، وأضحى سيد البلاد[٢].

والواقع أن المغول انتزعوا الحكم في الهند من الأفغان، ولكن بعض الولايات كانت ما تزال بأيدي هؤلاء وبخاصة في الشرق، مثل جونبور وبيهار وغيرهما، وكان الأفغان يتطلعون إلى استرداد ملكهم الذي فقدوه، وهي نظرة شير شاه منذ أن بدأ يبرز على مسرح الحياة السياسية، وكثيراً ما تحدث عن نيته في طرد المغول.

توسُّع شير شاه

ضمّ البنجاب وجغار

رأى شير شاه، بعد أن جلس على العرش في أكرا، وأضحى حاكم البنغال وبيهار وجونبور ودلهي، أنه لا سبيل إلى المحافظة على إنجازاته واستمرارية حكمه، إلا بالقضاء نهائياً على الأمراء المغول في الهند حيث ما زال هؤلاء يحكمون كابل وكشمير، وتأمين حدود بلاده الشمالية الغربية، منفذ الغزاة إلى سهول الهند، ولتحقيق هذا الهدف بدأ سلسلة من الغزوات انتزع في بدايتها البنجاب من يد كمران، ثم استولى على أراضي قبيلة الجغار الواقعة بين نهري السند وجيلوم، والتي تتحكم بالطرق العسكرية القادمة من الشمال الغربي، لقطع الطريق على أي هجوم قد يأتي من هناك، وقد خشي أن يتحالف كمران حاكم كابل وميرزا حاكم كشمير ويقوما بمهاجمته من تلك الناحية، ولهذا أنشأ قلعة روهناس على نهر جيلوم وشحنها بخمسين ألف جندي تحت قيادة عدة من القادة الذين يثق بهم، ثم عاد إلى البنغال لوضع حد لثورة حاكمه خيزر خان، وعندما اقترب من المنطقة خرج هذا لاستقباله، فقبض عليه وسجنه. وحتى يتجنَّب حصول تمرد آخر قسَّم البنجاب إلى أقسام عدة وعيَّن على كل

(١) بخشي: جـ١ ص٣٤٣.

(٢) Manucci: I, p114.

قسم حاكماً من قبله، وولّى عليهم أميراً لمراقبتهم دُعي أمين البنغال أو أميري بنغالي وذلك في عام (٩٤٨هـ/ ١٥٤١م)[١].

فتح مالوة

بعد أن أُتيح لحاكم الهند الجديد أن يقضي على الفتن في البنغال ويثبّت نفوذه فيه، تطلع إلى فتح مالوة ليؤمن حدود بلاده من ناحية الشرق، والمعروف أنه بعد وفاة بهادور شاه حاكم الكجرات انقسم الإقليم إلى إمارات صغيرة مستقلة ومتنازعة، برزت منها إمارة مالوخان أو قادر خان وقد ضمَّ هذا ماندو وأوجان وسارانغبور.

كان بين شير شاه وقادرخان عداوة شخصية، كما أن بلداً ضعيفاً مثل مالوة قد يشكل له تهديداً عن طريق التحالف مع همايون والاستقواء به، لذلك جهَّز جيشاً لغزو قادرخان، فاستولى على غواليور وسارانغبور، فأدرك الأخير، بعد هذه الضربات، أنه لا قِبَل له بمواجهة شير شاه فمال إلى الخضوع له. ولما كان شير شاه يريد السيطرة على ماندو المهمة، عرض على قادرخان حاكمية كالبي أو إقطاعية البنغال مقابل التنازل عنها، فرفض قادرخان هذه الصفقة وفرَّ إلى الكجرات تاركاً إمارته تقع فريسة سهلة في يد خصمه. وسار شير شاه بعد ذلك إلى رفثنبور فاستسلم حاكمها عثمان خان من دون مقاومة. وعلى هذا الشكل سقط إقليم مالوة بكامله في عام (٩٤٩هـ/ ١٥٤٢م)، وعاد الزعيم الأفغاني بعد ذلك إلى أكرا بعد أن عين عليه حكاماً من قبله، وحاول قادر خان بعد رحيله استعادة ملكه إلا أنه فشل[٢].

الاستيلاء على رايسين

التفت شير شاه بعد ذلك إلى رايسين، التي شكّلت يوماً جزءاً من أملاك بهادور شاه حاكم الكجرات وانتقلت بعد وفاته إلى بورسال مال الراجبوتي. وإذ أدرك أن هذا الحصن سوف يقع تحت هيمنة الراجبوت أسرع للاستيلاء عليه وضمَّه إلى أملاكه، فقاومه الراجبوت، ورفض بورسال مال طلبه بتسليم الحصن إلى حاكم بنارس.

ويبدو أن الحصن قد استعصى عليه بعد عدة أشهر من الحصار، فعرض

(١) Syed, M H: History of the Glorious Mughal Empire. I, pp46, 47.

(٢) بخشي: جـ٣ ص٢٥٩ ـ ٢٦١، ٣٤٨. Ferishta: II, pp75, 76. Syed: I, pp47, 48.

على بورسال مال الاستسلام مقابل الحفاظ على حياته وحياة أتباعه. ولما كان الراجبوت يعانون بدورهم من شدة وطأة الحصار، وافق بورسال مال على العرض، فخرج مع أتباعه من الحصن ونزل بالقرب من معسكر شير شاه، غير أن هذا نزل على رغبة المسلمين في الحصن، وعلى رأسهم الشيخ رفيق الدين شغاثي، الذين تعرَّضوا للاضطهاد على يد الراجبوت، فحنث بوعده وحاصر الراجبوت من كل اتجاه تمهيداً لاستئصالهم. وإذ شعر هؤلاء بذلك، قتلوا نساءهم وأطفالهم وقاوموا حتى قُتل أكثرهم وأُسر الباقون، وانتحر القائد قطب الدين، الذي كان واسطة الاتصال مع الراجبوت، خجلاً، وذلك في عام (٩٥٠هـ/ ١٥٤٣م)[١].

فتح مروار

تعرضت مروار لموجة من الصراع الداخلي على السلطة، بعد وفاة راجا سينكا، الأمر الذي أضعفها أمام توثب المسلمين بقيادة شير شاه، فاضطر حاكمها أوداي سينغ إلى الاستسلام في عام (٩٤٩هـ/ ١٥٤٢م). أخضع شير شاه بعد ذلك راجا، صاحب رنثنبور، وبعض الأمراء الراجبوت الآخرين وتركهم يحكمون باسمه، لكنه باعد بينهم بأن وضع حاميات أفغانية في بعض الحصون، حتى لا يتحدوا[٢].

فتح الملتان والسند

في الوقت الذي كان فيه شير شاه منهمكاً بالاستيلاء على البنجاب، حصل تمرد ضد حكمه في البنغال، فاضطر إلى ترك المنطقة، تحت إدارة قواص خان وهيبات خان، وذهب إلى البنغال لإخماد الثورة.

ويبدو أن القائدين كانا على خلاف فلم تستقم الأمور في البنجاب، ما دفع شير شاه إلى تعيين هيبات خان حاكماً منفرداً على الإقليم وكلّفه بإخماد الفتن والثورات. وكان على الحاكم الجديد أن يتعامل مع اثنين من الثائرين على الأقل هما فتح خان، الذي كان يحكم الأراضي بين لاهور ودلهي، وباخشو لانغاش، الذي أسس لنفسه حكماً مستقلاً في الملتان.

---

(١) بخشي: جـ٣ ص٣٤٨ ـ ٣٥٠. Ferishta. II PP 75, 76. Sharma, L.P: History of Medieval India: p280.

(٢) Ferishta: II, p76. Syed: I, pp48, 49.

هاجم هيبات خان أولاً فتح خان، وحاصر مقره أجودهان، ثم طارده حتى أجبره على الاستسلام، فقبض عليه وسجنه، ثم تحرك نحو باخشو لانغاش، فانتزع منه الملتان وقبض عليه وسجنه أيضاً، ثم سلَّم الأسيرين إلى شير شاه، فقتل فتح خان وصفح عن باخشو لانغاش، واستولى شير شاه أيضاً على عدد من إمارات السند، وذلك في عام (٩٥٠هـ/ ١٥٤٣م)[١].

الصراع مع مالديو، حاكم جدهبور

التفت شير شاه بعد ذلك إلى إخضاع مالديو حاكم جدهبور، والمعروف أنه اعتلى العرش في عام (٩٣٧هـ/ ١٥٣١م) مستغلاً الوضع السياسي للراجبوت، فاستولى على بعض المواقع، مثل ميرتا وسيوانا وغالور وتونغ وناغوار وأجمير، حتى تاخمت حدوده إمارة دلهي، وكانت جيجار الداخلة في ممتلكاته تبعد عنها حوالي ثلاثين ميلاً.

والواقع أن وجود حاكم قوي على أبواب دلهي شكّل حرجاً لشير شاه الذي خشي من التمدد الراجبوتي، بالإضافة إلى ذلك، فقد رفض مالديو طلب شير شاه في القبض على همايون وتسليمه إياه، بل أنه قدّم له المساعدة، لذلك قرّر الزعيم الأفغاني الاستيلاء على مروار، فهاجمها في عام (٩٥١هـ/ ١٥٤٤م) على رأس جيش يبلغ ثمانين ألف جندي. وحتى يُضعف من قوة خصمه عمد إلى الحيلة للإيقاع بينه وبين أمرائه، فكتب رسائل على لسانهم يعدونه فيها بالقبض على زعيمهم مالديو وتسليمه إياه، مقابل بعض الامتيازات، وأوصلها إلى مالديو، فشكَّ هذا في نوايا أمرائه وقرّر الانسحاب إلى حصن سيوانا على الرغم من إنكار هؤلاء. وحتى يُبعدوا شبح الخيانة عنهم ويُبرِّئوا أنفسهم، هاجم اثنان منهم، هما جاباتا وكومبا، جيش شير شاه بإثني عشر ألف مقاتل، غير أنهم قُتلوا عن آخرهم. وسيطر شير شاه بعد ذلك على المنطقة، من أجمير إلى جبل آبو، من دون صعوبة تُذكر، وترك مالديو ولم يطارده، ثم غادر إلى ميوار وترك قائديه قواس خان وعيسى خان لاستكمال السيطرة على مروار[٢].

---

(١) بخشي: جـ١ ص٣٤٨. Raychoudhry: pp52, 53.

(٢) المصدر نفسه: ص٣٤٩. Ferishta: III, pp76, 77. Raychoudhry: pp53, 54. Syed: I, p49.

الاستيلاء على بندلخند

بعد سيطرته على مالوة ومروار، قرّر شير شاه الاستيلاء على حصن كالنجر في بندلخند، ولعل السبب الأبرز لهذه الحملة هو موقع الحصن العسكري المتميز، فهو يؤمِّن الحماية للأراضي من دلهي ومالوة إلى المقاطعات الشرقية، كما أن صاحبه كيرات سينغ كان على عداء مع شير شاه بفعل إخلاصه لهمايون، وقد ساعده على الهرب بعد معركة جوسا. وحدث أن وجَّه شير شاه دعوة لحاكم ريوا، راجا بيربهان، لزيارته، فرفض. ويبدو أنه اشتم منها رائحة الخطر على حياته وممتلكاته، ففرَّ إلى كالنجر واحتمى بكيرات سينغ، ولما طلب منه شير شاه تسليمه إياه رفض ذلك، ما كان سبباً لمهاجمة أراضيه.

وحاصر شير شاه حصن كالنجر مدة سبعة أشهر وضربه بالمجانيق. وحدث في (١٠ ربيع الأول ٩٥٢هـ/ ٢٢ أيار ١٥٤٥م) أن أُطلقت قذيفة مدفعية على البوابة الرئيسية للحصن، فارتدت ووقعت على مخزن الذخيرة قرب خيمة شير شاه، فانفجر، وأُصيب شير شاه بشظايا وحروق توفي على أثرها، إلا أنه علم، قبل وفاته، بسقوط الحصن[١].

إنجازات شير شاه الإدارية

التقسيمات الإدارية

يُعدُّ شير شاه من بين الأمراء المسلمين الكبار الذين حكموا الهند، فهو رجل إدارة وسياسة من الطراز الأول، بالإضافة إلى احترافه الجندية، وأن الأساليب المبتكرة التي طبَّقها لحكم الشعب الهندي، المتباين في التوجهات والعادات والثقافة والدين واللغة؛ لدليل قوي على أنه كان حاكماً ذكياً قديراً وطيباً. أنجز في غضون خمسة أعوام ما يثير الدهشة والإعجاب، فقد وضع قواعد للحكم والنظام والإدارة بقيت أساساً سار عليها من جاء بعده من الحكام، وبخاصة أكبر العظيم، وتهدف إلى رفاهية الشعب والرقي بمستواه وتخليصه من آثار الظلم والمعاناة من دون تفرقة بين مسلم وغير مسلم.

قسَّم شير شاه مملكته إلى سبعة وأربعين مديرية، وهي الوحدة الإدارية الكبرى في الدولة، وعيَّن عليها رؤوساء القبائل بهدف الحد من أطماعهم،

(١) نداوني: جا ص٣٧١، ٣٧٢. Sharma: p281. Syed: I, p49. بخشي: جا ص٣٥٠.

ويسمى رئيس المديرية سوبا هدار، وهو مسؤول أمام السلطان عن أعماله المدنية والعسكرية الخاصة بمديريته. وقسَّم كل مديرية إلى مجموعات من المدن، مقاطعات، تُسمى ساركار، ويحكم كل مقاطعة موظفان مدنيان كبيران هما شكدار أول ومنصف أول. اختص الأول بتطبيق القانون وفرض النظام في المقاطعة وإخضاع الثائرين فيها، ومن أجل ذلك، وُضعت قوة عسكرية تحت تصرفه، ويمارس أيضاً أعمال الشكدار في المراكز. ومهمة الثاني الحكم في القضايا المدنية والخلافات، إنه القاضي الأعلى، ويمارس السلطة على حكام المراكز. وقسَّم كل مقاطعة إلى مراكز عدة، تدعى باركاناس، يحكم كل مركز شكدار وخزنجي، أمين صندوق أو منصف، وكاتب حسابات هندي أو فارسي. وتنحصر اختصاصات الشكدار والمنصف بما ذكرنا أعلاه، إنما على صعيد المركز، ويضم كل مركز عدداً من القرى، والقرية هي الوحدة الإدارية الصغرى، ويسمى رئيس القرية باردهان. ولكل قرية جمعية، بانشايا، يمارس أعضاؤها السلطتين المدنية والقضائية، وكان السلطان نفسه رأس هذا النظام[١].

النظام المالي

اعتقد شير شاه أن استقرار الأمور في الدولة لا يتحقق إلا إذا توافرت الرفاهية للفلاحين، وأدرك أن الأسلوب المتبع لتوريث وظائف الخراج كانت تُضيِّع على الدولة جزءاً كبيراً من الضرائب المستحقة. فقد كانت سياسة الدولة من قبله تقوم على أساس أن الملك هو مالك الأرض كلها يقطعها لمن يشاء، وعلى الفلاحين أن يزرعوها ويؤدوا تسعة أعشار المحصول لصاحب الإقطاع، ولهذا أجرى شير شاه إصلاحات مالية شملت فيما يلي من تدابير:

- أمر بمسح الأراضي، وقسَّمها إلى ثلاثة أنواع، وفقاً لجودتها: جيدة، متوسطة ورديئة. وحدَّد مقدار ما يؤخذ من كل مزارع من خراج بنحو ربع الإنتاج، وله الخيار في أن يؤديه نقداً أو عيناً، تبعاً لظروفه وأوضاعه، على أن يتمتع بثلاثة أرباع المحصول، كما كان يقدم له القروض في أوقات الشدة لمساعدته على تخطي المحنة.

(١) الشيال: ص٦٦ ـ ٦٨. Sharma: pp285, 286

- شدد المراقبة على المحصّلين حتى لا يظلموا الناس، وجعل للفلاح الحق في تخطيه ودفع متوجباته مباشرة إلى خزينة الدولة.
- وفّر الأمن والحماية للمحاصيل الزراعية، من واقع وضع حراس في مختلف المناطق لمنع المعتدين.
- أعفى صغار الفلاحين من المكوس الباهظة، وحدَّد مقدار الضريبة التي تؤخذ من التجار من دون إرهاق مع توفير الأمن لهم خلال تنقلاتهم.
- ألغى كثيراً من المكوس الجائرة واكتفى بجمع الضرائب الشرعية، وأمر بجمع ضرائب الإنتاج عند الحدود وفي محل البيع داخل أراضي الدولة. فانتعشت التجارة وخفّت الأعباء المالية عن كاهل السكان، فشعروا بشيء من الطمأنينة. وكانت ضريبة الجزية من بين الضرائب التي ألغاها.
- عمل على تشجيع الزراعة، وأمر بقطع أشجار الغابات لاستغلال أراضيها في الأعمال الزراعية، وأنشأ الإهراءات لخزن الغلال بغية استهلاكها وقت الحاجة(١).

والمعروف أن مصادر دخل الدولة تكمن في: الخراج، ضريبة التجارة، ضريبة الملح، ضريبة الأملاك، خُمس المحاصيل خلال أوقات الحرب، هدايا من الحكام والأمراء والتجار، واثنين ونصف في المائة من دخل المزارعين لبناء الإهراءات والمخازن، وهي ضريبة غير دائمة. وكانت هذه المداخيل تصرف على تجهيز الجيش والحملات العسكرية ودفع رواتب الموظفين، ومصروف القصور السلطانية.

هيكلية النظام السياسي

السلطان: هو رأس النظام المركزي، يجمع كافة السلطات في يديه، ويتولى الحكم بنفسه، يعمل لمدة ستة عشر ساعة يومياً، يعاونه رئيس الوزراء، بالإضافة إلى أربعة وزراء وبعض الضباط العاملين في البلاط وقيِّم البلاط ورئيس الطهاة، ويتكوَّن من مجموع هؤلاء مجلس السلطان الخاص الذي يقدم المشورة له ثم يحتفظ لنفسه باتخاذ القرار اللازم في نهاية الأمر، وكان كتبة السر يحرصون على قراراته هذه.

(١) Kulke, Herman and Dietmar Rothermund: A History of India. p189. Syed: I, p51, 52.

الوزراء: كان الوزراء بمثابة أمناء سر عند شير شاه، صلاحياتهم محدودة جداً، ولا يحق لهم اتخاذ القرارات النهائية، وينفذون أوامر السلطان الذي يعينهم ويعزلهم، ويساعد هؤلاء عدد من رؤوساء الأقسام والدواوين هم:

ديوان الوزارة: يتولى رئيس الوزراء رئاسة هذا الديوان، ويمارس، بالإضافة إلى رقابة أعمال الوزراء، أعمال الدخل والخرج، فهو بمثابة وزير للمالية.

ديوان الأرز: يتولى وزير الدفاع رئاسة هذا الديوان، وهو مسؤول عن تطبيق النظام العسكري وجهوزية القوات العسكرية، ودفع رواتب الجند وكل ما يتعلق بإدارة القوى العسكرية، وليس له إمرة القوات، إذ إن السلطان هو القائد الأعلى للجيش.

ديوان الرسائل: يُعدّ من يتولى رئاسة هذا الديوان مسؤولاً عن الشؤون الخارجية، فهو يستقبل البعثات الخارجية والسفراء، كما يرسل البعثات والسفراء إلى الدول الخارجية ويتبادل الرسائل معها، وفق توجيهات السلطان.

ديوان الإنشاء: يُعدُّ صاحبه مسؤولاً عن الإعلانات والبلاغات السلطانية، ويدعى متوليه دبيري خاس، يتلقّى رسائل حكام الولايات ويعرضها على السلطان ويرسل إليهم توجيهاته وأوامره.

بالإضافة إلى الدواوين أعلاه يوجد ديوانان آخران لكل منهما رئيس له صلاحيات الوزير وإن لم يُسمَّ وزيراً.

أحدهما، ديوان القاضي: ورئيسه هو أمير العدل، ويتلقى تعليماته من السلطان مباشرة، والمعروف أن شير شاه اهتم اهتماماً خاصاً بنشر العدل بين رعيته. وينظر القضاة في شكاوى الناس وقضاياهم في دار العدل، ولهذا لم يكن أحد يستطيع أن يخالف القانون أو يفر من العقوبة اعتماداً على نسبه أو مركزه في المجتمع، وكانت الأحكام الصادرة عنهم قاسية ورادعة.

والآخر، ديوان البريد: نظَّم شير شاه البريد، وحسَّن الطرق التي يسلكها صاحب البريد، وكان يرابط في الاستراحات والسرايات، التي بناها على الطرقات التي تربط أنحاء البلاد، لراحة المسافرين، حصانان في كل استراحة، مخصَّصان لنقل البريد، يركب صاحب البريد الفرس إلى الرباط الآخر حيث يتسلم فارس آخر من راكبها الرسائل ويجري بها ويسلمها لمن يليه، وهكذا حتى يصل البريد بسرعة إلى أقصى البلاد. ولهذا الديوان مهمتان: **الأولى:** نقل الرسائل من دار السلطنة وإليها. **والثانية:** أن موظفي

هذا الديوان كانوا عيوناً للسلطان، يراقبون الولاة والعمال في أعمالهم ومسلكهم ويرفعون إليه تقارير بكل ما يصل إلى علمهم من ذلك حتى يكون السلطان على علم بأوضاع الولايات وما يحدث فيها، وبذلك أتيح له أن يقف على أخبار البلاد أولاً بأول[١].

نظام الشرطة

ابتكر شير شاه نظاماً جديداً لتحقيق الأمن الداخلي، فهو لم يوكل الأمن إلى الرجال المهذبين والشرفاء، وإنما طوّع اللصوص والثائرين والساقطين والأشرار، وأقامهم جميعاً حراساً على الأمن. واتبع مبدأ المسؤولية المحلية. فكان القيّمون مسؤولين عن كشف الجرائم التي تحصل في أقسامهم الإدارية، من سرقة وقطع طرق، فإذا عجزوا عن القبض على اللصوص وقطاع الطرق أُلزموا بدفع تعويض عن الأشياء المسروقة، وكذلك إذا جرت حادثة قتل في دائرة حكمهم ولم يتمكّنوا من القبض على القاتل، فإنهم يُعدموا، وقد نجح هذا النظام عند التطبيق العملي، فانتشر الأمن في ربوع المملكة. وكان المحتسبون يساعدون إدارة الشرطة، ومهمتهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويعملون، بوجه خاص، في مكافحة الزنا وشرب الخمر[٢].

تحسين طرق المواصلات

اعتنى شير شاه عناية كبيرة بوسائل النقل والمواصلات، بهدف تنشيط حركة التجارة الداخلية والخارجية وتسهيل تنقُّل السكان، فأنشأ كثيراً من الطرق العامة التي تربط أجزاء البلاد بعضها بالبعض الآخر، وأخرى تربط المدن الهامة بالعاصمة، وأهم هذه الطرق هي:

- الطريق التي تربط سونارجاون في البنغال بالسند، وطولها نحو ثلاثة آلاف ميل، وهي أطول الطرق التي أنشأها.
- الطريق من أكرا إلى برهانبور في وسط الهند.
- الطريق من أكرا إلى جونبور وجتور وغربها.
- الطريق من لاهور إلى المتان في البنجاب.

وغرس شير شاه الأشجار المثمرة والمظللة على جوانب الطرق حتى يأكل منها المسافرون ويتمتعوا بظلالها، وبنى عليها الاستراحات في أماكن متقاربة،

(١) Raychoudhry pp56 60 Sharma p283   (٢) الشيال: ص٦٨، ٦٩.

كل ميلين، ورتّب فيها مائدتين للمسلمين والهندوس، فيجدون ما يريدونه من راحة وطعام، وأسَّس في كل استراحة مسجداً عيَّن فيه أماماً ومؤذناً. وأدى قيام هذه المحطات إلى تجمع ما يشبه الأسواق الصغيرة من حولها ما ساعد على رواج أوضاع صغار التجار وعامتهم.

وخصَّص شير شاه سفينتين كبيرتين لنقل الحجاج كل عام، من دون مقابل، وكان ينوي إنشاء طريق آمن للحجاج يربط الهند ببلاد الروم والشام والحجاز، بالتعاون مع السلطان العثماني، لكن الأجل لم يمهله فمات قبل أن يحقق أمله[١].

الإصلاحات العسكرية

لقي الجيش عناية كبيرة من شير شاه، بوصفه العمود الفقري للدولة، فأجرى إصلاحات عسكرية بالغة الأهمية لعل أبرزها:

- ألغى النظام الإقطاعي، ليجعل الصلة مباشرة بينه وبين الجنود، فهو القائد الأعلى للجيش يدفع الرواتب للضباط والجند، وأمر هؤلاء بطاعة أولئك لا بوصفهم قادتهم، بل لأنهم أتباع السلطان. ووضع حداً للتقليد السائد، القاضي بتأييد جنود الولايات لحاكم الولاية في ثورته على السلطان، فأمر الجند بإطاعة أوامر السلطان أولاً ثم أوامر رؤسائهم المباشرين ثانياً. وبهذا الإجراء الحكيم، وضع حداً لكثير من أسباب الثورات.
- أمر بمنع طرق التدليس المتبعة في الجيش، من واقع إحياء النظام الذي كان قد وضعه علاء الدين الخلجي، ويقضي بوسم الخيل الرسمية، أي المخصَّصة لخدمة الدولة، بميسم خاص، وإنشاء قيود تتضمن أوصافاً للفرسان وأوطانهم وخصائصهم، وتشكل هذه العلامات الجسمية التي تميزهم، وتُثبَّت هذه القوائم وتحفظ للتمكن من العودة إليها ومراجعتها في أوقات التفتيش. ووزَّع الجيش على مراكز متعددة في البلاد، وكانت دلهي وروهناس أهمها وأكبرها.
- اختص السلطان وحده بتجنيد الجند، فهو يختبر الذين يتطوعون في الجيش، ويحدد رواتبهم وينظم شؤونهم واستعراضهم، وألغى النظام القديم الذي كان يمنح الجندي إقطاعاً مقابل خدمته، وأحلّ محله نظاماً جديداً يقضي بدفع رواتب شهرية من خزانة الدولة.

(١) Prasade: Muslim Rule in India: pp801, 802.

ـ التشكيلات الدورية، بحيث لم يعد يُسمح للضباط الإقامة في مكان واحد أكثر من عام، وأمرهم بأن يسلكوا أثناء تحركاتهم سلوكاً مرضياً، وحذّرهم بأن لا يُعرِّضوا المحصولات الزراعيّة للتلف، وسنَّ قانوناً من أجل ذلك، وشدَّد على رجاله بصيانة أموال الناس ما استطاعوا، فكان بذلك الحاكم الثاني الذي يعتني بالجهاز العسكري وتنظيمه بعد علاء الدين الخلجي.

ـ أنشأ قلاعاً حصينة، في مختلف أنحاء البلاد ليمنع الغارات، ما أكسب البلاد مناعة تامة ضد الغزو الأجنبي وضد محاولات الشغب الداخلية[١].

إصلاح النقد

كان النظام النقدي مضطرباً، عندما تولى شير شاه السلطة، فكان عليه أن يُجري إصلاحات نقدية ويُحقِّق الاستقرار المالي من واقع إعادة تقويم النقد، فأصدر نقوداً ذهبية وبرونزية جديدة ذات معايير ونقاوة محددة، وقد أتت هذه الإصلاحات النقدية ثمارها، فانخفضت الأسعار ونشطت التجارة[٢].

المنشآت العامة

اعتنى شير شاه بالإنشاءات العمرانية العامة التي توفر الرفاهية لشعبه، فشجّع الزراعة وأنشأ الطرق وأقام الجسور والحدائق العامة وبيوت الزكاة، وبنى المستشفيات وخانات القوافل، ورعى الآداب والفنون، وأسس الكتاتيب والمدارس، ورتَّب الأجور للطلبة والمعلمين على السواء وحثّهم على طلب العلم والاستزادة منه، وبنى المساجد وعيَّن فيها القراء والمؤذنين والأئمة، كما بنى عدداً كبيراً من المطاعم للفقراء بالمجان، فساهم بذلك في تخفيف وطأة المجاعات التي كانت تجتاح بعض مناطق الهند من حين إلى آخر. وبذل كل ما يستطيع لتحسين أوضاع رعيته، وكان مبدؤه الإصلاحي، الذي يعمل على تحقيقه، أنه يجب ألا يُحرم أحد من نصيبه الذي يستحقه من رعاية الدولة، ويجب ألا يأخذ أحد من هذه الرعاية أكثر من نصيبه. وجعل من دلهي مدينة فخمة، وبنى قلعة روهناس الشهيرة في البنجاب. ويُعدُّ ضريحه، الذي بناه أثناء حياته والذي دُفن فيه بعد مماته، من بين أجمل الآثار الباقية في الهند حتى اليوم، أما القصر الذي بناه في قلعة أكرا فقد كان يثير إعجاب كل من يراه[٣].

---

(١) الشيال: ص٧١.　(٢) المرجع نفسه: ص٧٢.

(٣) المرجع نفسه: ص٧٢، ٧٣ Ferishta:II, P78.

معاملته للرعية

كان شير شاه يتطلع إلى تحقيق المثل العليا في حكمه، وقد نجح في ذلك إلى حد كبير. لم يتعرّض لشعبه الهندوسي في قضاياه الداخلية إلا ما كان يمس منها أمن الدولة وسلامتها، ولم يكن هناك من فروقات دينية واجتماعية بين مسلم وهندوسي، على الرغم من أنه كان مسلماً مغالياً في سنِّيته. كان يعطف على الضعفاء، خصَّص للشيوخ والمرضى والعميان والعجزة المقعدين رواتب لسد نفقاتهم من الطعام والملبس، يأخذونها من خزانة الدولة، لا فرق بين مسلم وغير مسلم، وكان شعاره أن الملك يجب أن يكون قدوة وأسوة لكل ما يطلبه من شعبه، فإن الناس على دين ملوكهم، وعليه أن يتذكّر دائماً أن القوة لله القادر القهار، وهو الذي مكّن له في الأرض وجعل له السلطان، فالأمر بيده وحده، يعز من يشاء ويذل من يشاء، وعليه أن يُذكِّر أنه ينوب عن الله في عباده، فتجدر به الدولة ما دام قائماً بالعدل والحق، ويستحق العقوبة إذا حاد عن ذلك، وأن روح الرعاية الملكية تتمثل في حماية أرواح الشعب وممتلكاتهم، وعلى الملوك أن يراعوا مبادئ العدالة والمساواة في معاملتهم لكل طبقات الشعب، ولزام عليهم أيضاً أن يُصدروا تعليماتهم إلى أصحاب السلطان في حكومتهم أن يحاولوا ما استطاعوا تجنب القسوة والاضطهاد في أحكامهم[١].

ومن خلال هذا التوجه تزداد معرفتنا بنفسية هذا السلطان العظيم. وهناك ذكر لبرنامج عمله اليومي: كان يستيقظ من نومه في ثلث الليل الأخير ليتهجد ويقرأ الأوراد، ثم ينظر في حساب الإدارات المختلفة، ويعطي تعليماته لكبار رجاله، وبعد أن يصلي الفجر في جماعة يُقبل عليه الأمراء، فيسلمون عليه، ثم يسأل الناس عن حوائجهم ويعطيهم ما يحتاجون إليه، ثم يتوجَّه إلى المظلومين والمستغيثين ويعمل على إغاثتهم، وبعد ذلك، تُعرض عليه عساكره: فينظر إليهم وإلى أسلحتهم ويُثبِّت من يراه صالحاً للجندية بعد اختباره، ثم تُعرض عليه الجبايات التي ترد عليه يومياً، ويقابل الأمراء والسفراء، ثم يُقبل على الطعام مع جماعة من العلماء والمشايخ والأمراء، وعندما يدخل وقت الظهر يقوم ويصلي جماعة ويتلو القرآن الكريم. وهكذا يمضي في أعماله حتى يتمّ يومه.

---

(١) مجلة ثقافة الهند، عدد كانون الأول، ١٩٥٣م.

هل لنا أن نُصدر حكماً على السلطان شير شاه ونضعه في المرتبة التي يستحق؟ الواقع إن إصلاحاته الإدارية والمالية والاجتماعية والاقتصادية وسياسته الدينية السمحة التي التزم بها، قد مهّدت الطريق لعظمة السلطان آكبر من بعده.

خلفاء شير شاه

سليم شاه

اعتلاء سليم شاه السلطة

ترك شير شاه ولدين: الأكبر هو عادل خان، وكان ولي عهده، والأصغر هو جلال خان، وعندما توفي لم يكن أحد منهما موجوداً معه. فالأول كان في رانثنبور، وكان الثاني في روا، الأقرب إلى العاصمة، فاختاره أمراء شير شاه لتولي الحكم متجاوزين وصية سيدهم، وقد فضّلوه على أخيه لأنه أبلى بلاءً حسناً في حرب همايون، مدركين في الوقت نفسه أن اعتلاءه العرش سوف يؤدي إلى استقرار أوضاع المملكة. ويبدو أنه تحفَّظ على ذلك حتى أقنعه الأمراء بأن اعتلائه العرش يحقق مصلحة البلاد العامة. ومهما يكن من أمر، فقد اعتلى جلال خان العرش في أكرا في (١٣ ربيع الأول ٩٥٢هـ/ ٢٥ أيار ١٥٤٥م) وتلقَّب بلقب سليم شاه، أو إسلام شاه[١].

علاقة سليم شاه بأخيه عادل خان

ابتدأت العلاقة بين الأخوين. سليم شاه وعادل خان. جيدة وودية. ولكنها ما لبثت أن تحوَّلت إلى عدائية بفعل تصرف السلطان اللامسؤول تجاه أخيه. فقد ظنَّ أنه لن ينعم بالسلام ما دام أخوه الأكبر حياً، فاستدعاه للمثول بين يديه. ويبدو أن عادل خان كان حذراً فلم يذهب إلا بعد أن بذل له أخوه السلطان الأمان على لسان أمرائه النافذين، أمثال قواص خان وعيسى خان وجلال خان جلواني. وعندما وصل إلى أكرا اجتمع بأخيه الذي أبدى رغبة في التنازل له عن العرش، وأنه لم يكن إلا حافظاً لحقه، والواقع أنه كان مخادعاً لأنه أعدَّ خطة للقبض عليه والتخلص منه. فرفض عادل خان ذلك

(١) Ferishta: II, p79. Sharma: p293. Syed: I, p56.

واكتفى بتولي إقطاع بيانة. ويبدو أنه خشي أن يكون اقتراح أخيه خطة للإيقاع به من واقع إثبات طموحه للسلطة كي يقبض عليه. وهكذا انتهى اجتماع الأخوين بسلام، ولكن بشكل ظاهري، فجلس سليم شاه على العرش، وانصرف عادل خان إلى إقطاعه[١].

وما لبث أن دبَّ الخلاف بين الأخوين بشأن حق وراثة العرش، ونشبت الحرب بينهما. فأرسل سليم شاه أحد أمرائه بقيد من ذهب إلى أخيه ليأتيه به مقيداً، ولكن أخاه قبض على رسوله وقيده. واستقطب الأمراء، الذين كانوا قد حملوا إليه عهد الأمان، وقد غضبوا لنقض سليم شاه هذا العهد، واتفقوا مع عادل خان على أن يحضر إلى العاصمة، في الجزء الأخير من الليل، لخلع سليم شاه، وتعهدوا بمساعدته وتمهيد الطريق له.

وسار عادل خان بجيشه في طريقه إلى أكرا، ومرّ بالشيخ سليم سيكري، وكان رجلاً صالحاً ومتعبداً، وكانت الليلة ليلة الخامس عشر من شعبان، فنزل مع جيشه عند الشيخ لإحياء هذه الليلة، ثم ناموا، ففاتهم الموعد، ووصلوا إلى العاصمة نهاراً، فانكشف أمرهم. وعندما تصدى لهم السلطان فرّ عادل خان باتجاه الشرق، إلى بيانة، حيث غاب في النسيان، فلم يعرف أحد عنه شيئاً بعد ذلك، وهرب الأمراء الموالون له بكل اتجاه، واستقر سليم شاه بالسلطة من دون منازع[٢].

ثورة الأمراء

أثار تصرف سليم شاه الأمراء، الذين حملوا الأمان إلى عادل خان، ومن بينهم قواص خان وعيسى خان، وقد غضبوا لنقض سليم شاه الأمان الممنوح لأخيه، وقرروا الثورة عليه. وقرَّر السلطان من جانبه التخلص من كل الأمراء الذين ساندوا أخاه أو تعاطفوا معه. وتحالف هؤلاء مع أمراء آخرين ممن شعروا بقوة السلطان وضغطه عليهم، وعلى رأسهم شجاعت خان حاكم مالوة. فقتل السلطان كلاً من الأميرين جلال خان جلواني وأخيه حداد خان مع ثلاثة عشر أميراً آخر. وفرَّ سعيد خان من العاصمة والتجأ إلى أخيه هيبات خان حاكم لاهور. واستدعى سليم شاه كلاً من شجاعت خان وهيبات خان

(١) Ferishata: II, pp79, 80.

(٢) Ibid: P80.

إلى أكرا لتقديم فروض الولاء والطاعة. فأسرع الأول بتلبية الدعوة، وأرسل ممثلين عنه إلى العاصمة يعلنون ولاءه وخضوعه، فثبَّته سليم شاه في حكم مالوة. وبدا لبعض الوقت أن علاقته بالسلطان باتت طيبة، لكن هذه العلاقة الطيبة ما لبثت أن انقلبت إلى علاقة عدائية بتأثير الأفغان الذين حاولوا قتل شجاعت خان، وقد ظنَّ أن هذه المحاولة إنما تمت بموافقة السلطان، والواقع أنه كان واهماً، وقد وقع ضحية الأفغان الذين غرَّروا به ودفعوه إلى الثورة على سليم شاه، فنهض هذا لمحاربته، غير أن أي اشتباك لم يحصل بين الرجلين لأن شجاعت خان فضَّل الفرار من دون قتال، وذهب إلى بانسوارا، واستعاد سليم شاه مالوة. ورفض هيبات خان الذهاب إلى أكرا، فعدَّ سليم شاه ذلك خروجاً على الطاعة، ونهض للتصدي له. وانضم قواص خان إلى هيبات خان، غير أنهما تعرَّضا للهزيمة قرب إمبالا في عام (٩٥٤هـ/ ١٥٤٧م) وطاردهما السلطان حتى ضفاف نهر جيهلم، ثم كلف فرقة عسكرية بمتابعة المطاردة وعاد هو إلى أكرا[١].

نتائج الثورات

نجح سليم شاه في القضاء على الثورات التي واجهته خلال حياته السياسية، وكَسْر شوكة الأمراء الذين هدَّدوا حكمه، وعيَّن أمراء موالين له يثق بهم، في الوظائف الكبرى، وتفوَّق في هذه المسألة على والده، لكن هذه السياسة الرادعة لم تكن في مصلحة الدولة وأدَّت إلى نتائج عكسية، ذلك أن السلطان تعرض لثلاث محاولات قتل على الأقل، جاءت كلها فاشلة، كما أن الأمراء الذين اضطروا إلى الخضوع تحت الضغط، تفجَّرت أطماعهم بعد موت السلطان وفرضوا مرشحهم للسلطة بقوة السيف. والحقيقة أن سليم شاه ارتكب خطأً فادحاً عندما فرّق الأفغان بدلاً من أن يجمعهم، الأمر الذي أدَّى إلى سقوط الحكم الأفغاني.

الأيام الأخيرة للحكم الأفغاني

توفي سليم شاه في عام (٩٦٠هـ/ ١٥٥٣م) وخلفه ابنه الصبي فيروزشاه البالغ من العمر اثني عشر عاماً، وكان صغيراً، فطمع خاله مبارزخان بالحكم، فقتله

(١) Ferishta: II, pp80, 81 Sharma: pp293, 294. Raychouldhry: pp70, 71.

بعد ثلاثة أيام واعتلى العرش في أكرا تحت اسم محمد عادلي شاه[١]. اتصف هذا السلطان بالجهل، فكان الناس يتندَّرون بجهله، وبالإسراف ببذل الأموال من دون حساب حتى فرغت الخزينة، فلجأ إلى أخذ مال كبار الأمراء والأغنياء، فسخط هؤلاء عليه، ولم يرض عليه منهم أحد. واستوزر هندوسي يُدعى هيمو، وفوَّض إليه الأمور كلها، فأدار دفة الحكم بحزم وحكمة، وانصرف هو إلى ملاهيه ومباذله، فزاد ذلك في عدد أعدائه والناقمين عليه[٢].

ونشبت الثورات في كل ناحية، ولم يتمكَّن الوزير، على الرغم من كفاءته، أن يقمعها، وكان من أخطر نتائجها استيلاء أحد أقارب السلطان، ويدعى إبراهيم سور، على أكرا ودلهي. وفرّ عادلي خان منهزماً نحو الشرق ليلحق بوزيره الذي ذهب ليقمع ثورة البنغال. أثارت هذه الاضطرابات إسكندر خان سور، حاكم لاهور، فنهض لحرب إبراهيم خان وانتزع منه دلهي وأكرا وجلس على العرش، وسيطر على المنطقة الواقعة بين نهري السند والغانج، وما غدا هيمو أن استردَّ أكرا لسيده، فأضحت الهند تحت حكم ثلاثة سلاطين هم: عادلي خان في أكرا ومالوة وجونبور، وإسكندر خان في دلهي والبنجاب، وإبراهيم خان في رقعة تمتد من بيانة إلى حدود غواليور[٣] وكان همايون قد استعد، وهو في كابل، لغزو الهند، وهذا ما سنتحدث عنه.

(١) بداوني: منتخب التواريخ، مجموعة إليوت: جـ٥ ص٤٩٠ ـ ٤٩٢. Ferishta: II, p88.

(٢) بداوني: مجموعة إليوت: جـ٥ ص٤٩٠، ٤٩١. Ferishta: II: pp89. Syed: I, pp57-59.

(٣) يادكر، أحمد: تاريخ سلاطين أفغاني. مجموعة إليوت: جـ٥ ص٤٥.

نصير الدين همايون

المرة الثانية (٩٦٢ ـ ٩٦٣هـ/ ١٥٥٥ ـ ١٥٥٦م)

همايون في المنفى
(٩٤٧ ـ ٩٦٢هـ/ ١٥٤٠ ـ ١٥٥٥م)

همايون في قندهار

ذهب همايون، بعد هزيمته في معركة قنّوج أمام شير شاه، إلى أكرا في طريقه إلى كشمير، فتصدّى له أخوه كمران، فتحول عندئذٍ إلى السند، وهناك تلقّى دعوة من حاكم جدهبور روال مالديو، فلبّى الدعوة. لكن في الوقت الذي كان في طريقه إلى مروار علم بأن مالديو لم يكن صادقاً في دعوته، وهو ينوي القبض عليه بالاتفاق مع شير شاه، فاضطر أن يعود إلى السند وهو في حالة بائسة لا يجد من يأويه، ولا يملك إلا بعيراً واحداً، وإخوته ما زالوا يأتمرون به، كما تخلّى عنه معظم رجاله. وتزوج، أثناء تجواله، من حميدة بانو ابنة الشيخ علي أكبر جامي، ثم التجأ إلى راجا براساد، حاكم عمركوت، الذي أبدى استعداده لمساعدته على مهاجمة بهكر وثاتّا. وولدت له زوجته في هذه الأثناء ابنه أكبر (٩٤٩هـ/ ١٥٤٢م) الذي صار ملكاً فيما بعد. وبعد أن احتفل بهذه المناسبة تقدم لمهاجمة بهكر، وقدّم له راجا براساد قوة عسكرية من الراجبوت. ويبدو أنه نشب خلاف بينهم وبين المسلمين ما أدّى إلى انسحابهم من جيشه، فتحرَّج موقفه، ولم ينقذه إلا أمير بهكر الذي طلب الصلح بعد أن سئم القتال. واتفق الطرفان على أن يقدم صاحب بهكر لهمايون ثلاثين قارباً وعشرة آلاف مثقال وألفي حمل من الغلال وثلاثمائة جمل[١].

وتقدم همايون إلى قندهار، ولما وصل إليها علم بأن أخاه كمران، الحاكم

(١) بخشي: جا ص٣٠٨، ٣٠٩.

الوحيد لبلاد الأفغان، خرج إليه ليأسره، فراح يفكر في البحث عن ملجأ آخر يأوي إليه. فغادر قندهار ميمماً وجهه صوب إيران بعد أن أخبر الشاه طهماسب الصفوي بنيته لزيارته، وترك زوجته وابنه في قندهار، وصحبه قائده بيرم خان الذي وفد من الكجرات ولازمه طوال محنته[١].

همايون في إيران

وصل همايون إلى سيستان في طريقه إلى تبريز عاصمة الصفويين، فاستقبله نائب طهماسب مُرحِّباً، وعندما وصل إلى هراة رحَّب به محمود ميرزا، أكبر أولاد العاهل التيموري، وظل نواب طهماسب على المدن يبالغون في الحفاوة به على طول الطريق بأمر من الشاه حتى بلغ نواحي قزوين، وعرض عليه الشاه الصفوي المساعدة مقابل أن يتحوَّل إلى المذهب الشيعي ويعطيه قندهار عندما يستولي عليها[٢].

امتعض همايون في بادئ الأمر من العرض الصفوي، ولكنه نزل عند نصيحة مستشاره بيرم خان الشيعي المذهب، وقبل أن يُغيِّر مذهبه، والراجح أنه تظاهر بالتشيع طمعاً في تلقي المساعدة من الشاه، كما وافق على منحه مدينة قندهار. وقد أفاض همايون أمام الشاه ما لاقاه من إخوته الذين تنكروا له حتى خشي بهرام، أخو الشاه، أن يقدم أخوه على التخلص من إخوته اقتداءً بهمايون، فحرَّض أخاه على قتله بحجة الانتقام من تقاعس والده بابر عن مساعدة الفرس في قتالهم الأوزبك عند نخشب أيام إسماعيل الصفوي، فتدخَّلت أخت طهماسب، سلطان بيكم، في هذا الأمر، واستطاعت بحكمتها أن تحبط هذا التدبير[٣].

عودة همايون من إيران

صراعه مع إخوته

ظل همايون في إيران يراقب تطور الأوضاع في الهند وأفغانستان حيث خلفاء شير شاه يتنازعون الملك فيما بينهم، ويحكم إخوته في أفغانستان، فقرَّر

(١) بخشي: جا ص٣١٥ ـ ٣١٧.

(٢) المصدر نفسه: ص٣١٧، ٣١٨. Ferishta: II, pp95, 96.

(٣) المصدر نفسه: ص٣١٨، ٣١٩. بداوني: جا ص٤٤٤. Manucci: I, p116.

أن يستعيد حكمه. وبدأ بأفغانستان، فأمدَّه الشاه بأربعة عشر ألف جندي من القزلباش، زحف بهم على قندهار واستعادها من أخيه كمران، وسلَّمها إلى مراد خان، ابن الشاه طهماسب، وفقاً للاتفاق المسبق، كما قتل أخاه هندال[1].

وطلب همايون من مراد خان أن يقضي الشتاء في قندهار، فرفض، ويبدو أنه خشي من بقائه في المدينة ما دفع همايون إلى اقتحامها عنوة، وتعهد لمراد خان بردها إليه ثانية إذا ما نجح في الاستيلاء على بدخشان وكابل. وما لبث الأمير الصفوي أن وافته منيته، فبقيت المدينة بأيدي همايون. ودخل عليه كثير من جند كمران وانضموا إليه، فهاجم بهم كابل واستولى عليها، والتقى فيها بزوجته وابنه أكبر، وقد بلغ الخامسة من عمره، وفرَّ كمران منها ملتجئاً عند السلطان سليم شاه سوري، خليفة شير شاه، ويبدو أنه لم يرحب به، فنزح إلى السند واستقر في منازل الجكر، فبادر زعيمهم بتسليمه إلى أخيه، فأشفق عليه همايون ولم يقتله عملاً بوصية والده، ولكنه سمل عينيه حتى لا يثير عليه المتاعب في المستقبل، ثم أرسله إلى مكة، بناءً على رغبته، وظل فيها حتى آخر حياته[2]. وما لبث الأخ الثالث عسكري أن وقع في قبضة أخيه الذي سمح له باللحاق بأخيه كمران إلى الحجاز، لكن المنية وافته وهو في الطريق[3].

وهكذا استطاع همايون أن يقضي نهائياً على المتاعب التي أثارها إخوته بتخليهم عن مساعدته ومداومتهم على التآمر ضده، والتي أدَّت إلى خروجه من الهند، وتفرَّغ لاستعادة ملكه في هذا البلد.

همايون يستعيد ملكه في الهند

كان همايون يراقب ما يجري في الهند من أحداث في ظل تنازع خلفاء شير شاه، ويترقَّب الفرصة للعودة إليها واستعادة أملاكه. ولم يُقدم في عهد شير شاه وابنه سليم شاه على القيام بذلك نظراً لتماسك الدولة في عهدهما، فاستغل هذه الاضطرابات، وخرج في عام (٩٦٢هـ/ ١٥٥٥م) على رأس جيش يقدر بخمسة عشر ألف مقاتل، فاستولى على لاهور، من دون مقاومة تذكر،

(١) بخشي: جا ص٣١٨، ٣١٩. Ferishta: II, p96.
(٢) Ferishta: II, pp97-101. (٣) بخشي. جا ص٣٢١ - ٣٣١.

بعد أن هزم جيش أميرخان وترخان، ثم تابع زحفه إلى دلهي، فاصطدم بقوات إسكندر شاه سور المؤلفة من ثمانين ألف جندي وبضع مئات من الفيلة عند سرهند وهزمها، ودخل دلهي وأكرا في جو الانتصار، وسط ترحيب السكان، وفرَّ إسكندرشاه إلى جبال البنجاب[1].

وأدَّى مساعد همايون المخلص، بيرم خان، دوراً رئيساً في تلك الانتصارات، فكافأه همايون بعد فتح البنجاب بأن أنعم عليه بلقب خان خانان، أي أمير الأمراء، وعيَّنه مستشاراً لابنه أكبر عندما عهد إليه بحكم البنجاب، وكلَّفهما بمطاردة الأمير السوري[2].

لم يهنأ همايون بانتصاراته مدة طويلة، ولم يجن ثمار جهاده الطويل والشاق، فقد التوت قدمه وهو ينزل درج مكتبته بدلهي، وكان من المرمر الخالص، فوقع مغشياً عليه، وأدركه خدمه ونقلوه إلى الحرم الملكي ليعالجه الأطباء، ولكنه قضى نحبه بعد ذلك بقليل في (١٥ ربيع الأول ٩٦٣هـ/ ٢٨ كانون الثاني ١٥٥٦م) وهو في الواحدة والخمسين من عمره، ودُفن في المقبرة المعروفة باسمه، وهي تُعدُّ من أفخم الآثار الفنية التي خلَّفها المغول، والتي تعتز بها الهند الآن[3].

مآثر همايون

شخصيته

لا يُعدُّ همايون حاكماً بعيد النظر من الناحية السياسية، ولكنه كان إنساناً مهذباً مرحاً مبتهجاً، مثالياً في تعامله مع أسرته وأقربائه وبخاصة إخوته، حليماً رقيقاً، يغلبه حلمه على غضبه فيعفو عمن أساء إليه، إلا أنه افتقر إلى الحكمة العملية، ولذلك استغل إخوته وأقرباؤه هذه الثغرة وتجرؤوا على الثورة عليه مرات عدة. يتمتع بمواهب طبيعية فذَّة يتمثَّل فيها مزيج من نشاط الإسكندر المقدوني وعلم أرسطو، غير أن الكثير من صفاته الطيبة أفسدها إدمانه على تعاطي الأفيون، ومع هذا فإن الشجاعة التي تحلَّى بها والمصائب التي حلَّت

(١) بخشي: جا ص٣٣٢ - ٣٣٤. Ferishta: II, pp107, 108. Manucci: I, p117.
(٢) المصدر نفسه: ص٣٣٤، ٣٣٥.
(٣) المصدر نفسه: ص٣٣٥. Ferishta. II, p109.

به وطبيعته المرحة؛ تدعو إلى العطف عليه والإعجاب به، وتقويمه كحاكم مرتبط بالصعوبات التي واجهها عند توليه الحكم وأهمها خيانة إخوته، ومعارضة الأفغان الذين كانوا لا يزالون يعدّون المغول دخلاء، وأوضاع الدولة المغولية المزعزعة التي نجح والده في إنشائها ولكنه توفي قبل أن يقوِّي أسسها. وإذا كان قد فشل في المحافظة على الملك الذي ورثه عن أبيه فإنما يعود ذلك في المقام الأول إلى الأوضاع السياسية المضطربة، ولم يكن لأخطائه الشخصية غير تأثير ضئيل، هذا على الرغم من أنه استعاده بعد ذلك.

لم يكن همايون مثل أبيه بابر في الشجاعة والصبر والجلد، ولذا لقي كثيراً من المتاعب، وبخاصة أنه لم يكن يقضي على خصومه بشكل حاسم بل كان يحارب هنا ثم إذا لاحت له بوادر النصر أسرع إلى مكان آخر، ولعله كان مضطراً إلى ذلك نظراً لكثرة الخارجين عليه في كل مكان، ولكنه حمل من الإعباء ما لم يحمله غيره، ولقي في أيامه ما لم يلقه غيره. وإذا كان بابر يُعدُّ مؤسس الدولة المغولية في الهند، فإن همايون يعد المؤسس الثاني بعد أن استعاد ملكه فيها.

ثقافته

كان همايون محباً للعلم ومصاحبة العلماء، شغوفاً بمطالعة الكتب، يجيد نظم الشعر وله أشعار تمتاز بالبلاغة وقوة التعبير إلا أنها لم تصل إلى مستوى شعر بابر، بارعاً في العلوم الرياضية وفي علم الفلك، متبحراً في علم الاسطرلاب، عالماً في الجغرافيا، ألّف رسائل عدة في طبيعة العناصر، أمر العلماء، بعد توليه الحكم، بصنع كرات فلكية وكرات أرضية، وأنشأ سبع قاعات للاستقبال، سماها بأسماء الكواكب السبعة، نذكر منها:

قاعة القمر: مخصصة لاستقبال القضاة والقراء والشعراء والرحالة.

قاعة المريخ: مخصصة لاستقبال القادة ورجال الجيش.

قاعة عطارد: مخصصة لاستقبال الرؤساء المدنيين.

قاعة المشتري وزحل: مخصصة لاستقبال رجال الأدب.

قاعة الزهرة: مخصصة لاستقبال الموسيقيين والمنشدين[1].

(١) النيول. ص٥٢.

وبوصفه رجلاً مثقفاً اهتم بنشر التعليم بين رعاياه، فأنشأ مدرسة كبيرة في دلهي كان من بين مدرسيها الشيخ حسين، أكبر علماء عصره.

وكان همايون محباً للكتب والمكتبات، فقد ضمَّت مكتبته الملكية عدداً ضخماً من الكتب. وأصدر في مدة حكمه الثانية، فرماناً بتحويل شيرمندل، وهي الدار التي كان يقضي فيها شير شاه سور أوقات سمره وسروره، إلى مكتبة. وكان شغوفاً بالاطلاع على أفضل المؤلفات في عصره، ويصطحب معه في خروجه للقتال نخبة من الكتب المختارة لاستعماله الخاص خلال استراحة المحارب، وعلى الرغم من انهماكه الدائم بالحروب، فإنه كان يُخصص جزءاً من وقته للقراءة والمطالعة[1].

إنجازاته العمرانية

اشتهر البلاط المغولي في عهد همايون بالفخامة، فإلى هذا الحاكم يرجع الفضل في ابتداع بعض فنون العمارة. فقد أوعز إلى نجاريه بأن يبنوا له أربعة قوارب أنزلها في نهر جمنة، ويعلو كل قارب قوس مؤلف من طبقتين تعلوان في الجو علواً كبيراً. وإذا وُضعت القوارب معاً، جنباً إلى جنب بحيث تصبح الأقواس متقابلة، تتكوَّن منها نافورة مثمنة تثير إعجاب الناظرين، وهي مزودة بالأسواق والحوانيت. وكان همايون يبحر فيها مع خاصته من فيروز آباد إلى أكرا. وبهذا كان يتحرك في نهر جمنة سوق عائم يحتوي على كل ما يشتهيه الإنسان، كما أقام بستانيو القصر لملكهم حديقة عائمة على سطح النهر نفسه.

ولعل أعجب أعمال همايون الإبداعية ذلك القصر الخشبي المتحرك ذو الطبقات الثلاث، وقد رُكِّبت أجزاؤه بمهارة فائقة حتى لتبدو وكأنها قطعة واحدة. وُضعت السلالم التي تؤدي إلى الطابق العلوي بحيث كان من اليسير فكُّها وإعادة تركيبها، ولم يكن الجسر المتحرك الذي بناه بأقل إعجاباً من هذا القصر أو تلك القوارب[2].

وأحبَّ همايون الحدائق، غير أن كفاحه الطويل مع شير شاه لم يتح له الفرصة لإشباع رغبته هذه. فقد أنشأ حديقة جميلة رائعة متصلة بضريحه، وهي

(١) الشيال: ص٥٧. (٢) المرجع نفسه: ص٥٣.

لا تزال إلى اليوم إحدى آيات الروعة، كذلك يُعدُّ ضريحه أحد الآثار المغولية الجميلة، وهو القائم بالقرب من دلهي.

الإدارة في عهده

لم يكن همايون إدارياً مبدعاً، فلم يبذل جهداً لتحسين الإدارة، ويبدو أنه افتقر إلى الوقت الكافي لتحقيق إصلاحات إدارية، وكان ينتقل من مشروع إداري إلى مشروع إداري آخر من دون أن ينجز المشروع الأول، وهو خطؤه الرئيس. ولعل المشروع التنظيمي الملفت الذي أنجزه يتعلق بتقسيم الأعمال الحكومية تبعاً للعناصر الأربعة، وهي بمثابة أربعة دواوين لتسيير عمل الدولة، وهي: النار (آتش)، الهواء (باد)، الماء (آب) التراب (خاك)، وعيّن وزيراً خاصاً للإشراف على كل قسم منها.

اختص قسم النار، ساركاري آتشي، بأعمال المدفعية وتنظيم الأسلحة، يشرف عليها خواجة عبد الملك. وكوّنت إدارة الاصطبلات والمطبخ وغيرها إدارة خاصة باسم ساركاري هوائي، يشرف عليها خواجة لطف الله.

وشكّلت أعمال شربات خاناه والحواصل وإنشاء الترع، وكل الأعمال المتصلة بالماء، إدارة واحدة تُسمّى الإدارة المائية، ساركاري آبي، ويشرف عليها خواجة حسن. واختصت إدارة التراب، ساركاري خاكي، بشؤون الزراعة والمباني والإشراف على الأراضي الخاصة والملكية والقصور، ويشرف عليها خواجة جلال الدين ميرزا بك.

العدالة في عهده

حرص همايون على تطبيق العدالة ونشرها في كافة أنحاء بلاده، فأوجد ما يسمى بطبل العدالة، ووضع له نظاماً يقضي بأن يدق صاحب الشكوى هذا الطبل مرة واحدة إذا كان يشكو من عداوة عدو، ومرتين إذا كان قد أخطأه الإنصاف، وثلاث دقات إذا كان قد سُرق منه شيء، وأربع إذا كانت الحادثة حادثة قتل. والملاحظ أن هذا الطبل لم يكن يُستعمل كثيراً، ولكن فكرة إنشائه تدل على شعور السلطان بالعدل وعنايته بنشره واستتبابه[1].

---

(١) الشيال. ص٥٤، ٥٥.

طبقات المجتمع

قسّم همايون شعبه إلى ثلاث طبقات اجتماعية، وحدّد أياماً خاصة لمقابلة كل طبقة.

الأولى: طبقة أهل السعادة، وتشمل الفقهاء والأتقياء وعلماء الدولة.

الثانية: طبقة أهل الدولة من سراة القوم، وتشمل أقارب السلطان ووزراءه والأمراء وقادة الجيش.

الثالثة: طبقة أهل المراد، وتشمل الموسيقيين والمغنين ورواة القصص والشعراء وأهل الفن. ويعتمد أهل هذه الطبقة على الهبات الممنوحة لهم، ومهمتهم إدخال السرور على نفس السلطان عن طريق الأغاني والموسيقى والجمال.

ويُمنح رئيس كل طبقة سهماً علامة على تشريفه، نذكر من بين الذين مُنحوا هذا الشرف، محمد فرغلي، ممثل أهل السعادة، ووظيفته تحديد الرواتب والمنح التي تُعطى للأشراف والمشايخ والفقهاء والزهاد والمدرسين وطلاب العلم، ووكل إليه حق تعيينهم وفصلهم، والأمير هندو بك الذي مُنح سهم أهل الدولة، وعهد إليه بتنظيم شؤون هؤلاء، ومن واجبه تحديد المرتبات ورتب الجند وموظفي الدولة، والأمير ديساي الذي انحصرت واجباته في الإشراف على شؤون أهل المراد، وتوفير الحاجات الضرورية التي تُضفي على البلاط المغولي مظاهر العظمة والفخامة.

وقسّمت الطبقات أعلاه بدورها إلى اثني عشرة طبقة صغرى، على رأسها السلطان ثم أفراد الأسرة الحاكمة وحكام الأقاليم وكبار الموظفين، فرجال الدين والقلم، ثم الملوك والأمراء والنبلاء، فرجال البلاط وموظفو السلطان الخصوصيون، ثم الموظفون العموميون، فحريم السلطان وجواري القصر ممن حسن سلوكهن، ثم الجواري اللائي يخدمن الحريم السلطاني، فموظفو الخزانة والمكوس والخراج، ثم المحاربون، فصغار الخدم، وأخيراً حراس القصر، وحداة الإبل ومن يشبههم.

وممن جالس السلطان، من الأدباء والفقهاء والشعراء، خواند أمير، مؤلف كتاب حبيب السير، وجوهر، مؤلف تذكرة الواقعاتي همايون، أو مذكرات همايون الخاصة، وكان جليسه الخاص، والعلّامة عبد اللطيف، مؤلف كتاب لب التواريخ، وكان السلطان قد استدعاه لينضم إلى بلاطه ولكنه لم يدركه، إذ

عندما وصل كان السلطان قد توفي، وشهاب الدين خاني، صاحب الأشعار ذات الألغاز، والشيخ حسين، المدرِّس في إحدى مدارس دلهي الكبرى[1].

نزعاته الدينية

كان همايون رجلاً متديناً، حريصاً على إقامة الشعائر الدينية كمسلم بشكل منتظم، إلا أنه لم يكن متشدداً. احترم الديانات الأخرى المختلفة، وبخاصة الهندوسية، وعلى الرغم من أنه أبدى تسامحاً مفرطاً تجاه الهندوسيين، إلا أنه تساهل في هدم المعابد الهندوسية، كما فعل في معبد كالنجر.

ويشير مؤرخوه إلى أنه كان سنياً مخلصاً لمذهبه السني، لكن إقامته الطويلة في إيران وقوة نفوذ مستشاره بيرم خان، الشيعي المذهب، وزواجه من حميدة بانوبيكم، الشيعية المذهب أيضاً، دفعت كثيراً من الشيعة في إيران والعراق إلى المجيء إلى الهند وتولي الأعمال الحكومية، وربما أثّرت في ميوله المذهبية.

(١) التشيال. ص٥٧.

الفَصْلُ السَّابع

جلال الدين محمد أكبر

(٩٦٣ ـ ١٠١٤هـ/١٥٥٦ ـ ١٦٠٥م)

اعتلاء أكبر العرش

وصلت أنباء وفاة همايون إلى ابنه أكبر وهو في كلانور في البنجاب يطارد الثائر إسكندر سور، فبادر أتابكه بيرم خان بالمناداة به سلطاناً على الهند باسم جلال الدين محمد، وذلك يوم الجمعة في (٢ ربيع الآخر ٩٦٣هـ/ ١٤ شباط ١٥٥٦م) وقد أتمَّ الثالثة عشرة من عمره، ولذا قام بيرم خان بالوصاية عليه والنيابة عنه في تدبير أمور السلطنة[1].

شخصية أكبر

يُعدُّ أكبر أعظم ملوك الهند في العصر الوسيط على الإطلاق، فقد حكم حوالي خمسين عاماً، أسهم خلالها بجهوده الكبيرة في نهضة البلاد، وجعل الدولة المغولية في الهند إحدى أفضل الدول في العالم آنذاك. كان منفتحاً سياسياً ودينياً، بعيد النظر، أضاف فصلاً جديداً في تاريخ الهند، أوتي من القوة البدنية وقوة الاحتمال، ومن النشاط والشجاعة الشيء الكثير بحيث أصبح مفزعة الشرق كله. كان يروِّض، وهو ابن أربعة عشر عاماً، أشد الفيلة شراسة، وحدث أن تمردت إحدى القرى ضده فأسرع يهاجمها على ظهر فيله، ولم يبال بالنبال المنهالة عليه والتي راحت تتكسَّر على درعه، ثم اندفع بفيله مخترقاً الحواجز ودخل البلدة وأحرقها.

كان رُبعة، عريض المنكبين، أعقف الساقين، تقدح عيناه النار والشرر، له شاربان خفيفان وصوت جهوري، حنطي اللون، مهيباً، وقوراً بحيث يدرك من

(١) Ferishta: II, p111. Syed: I, p69.

يراه أنه أمام ملك، رصيناً، اتصف بالطيبة واللطف على الإجمال، يمتلك زمام أمره ويخفي سريرته، أما إذا استشاط غيظاً وغضباً، أنزل الرعب في القلوب، وعلى الرغم مما أوتي من قوة بدنية، فقد كان دائماً قلق البال.

كان أمياً يجهل الكتابة والقراءة، وعلى الرغم من ذلك فإنه استمع إلى قصص وحكايات كثيرة، وأوتي ذاكرة هائلة، يحفظ جيداً أسماء شعراء الإسلام ومؤرخيهم، كما ألَمَّ بتعاليم الإنجيل والعقائد الرئيسية في الديانة النصرانية، ومبادئ الهندوسية والزرادشتية. وكان يناقش ويجادل عن معرفة، بدقة وإسناد. عُرف بذكائه الفطري الواسع وبمنطقه السليم، نظر إلى الأمور من فوق، كما عرف الكثير من الأشياء بتفاصيلها، ومع ذلك لا تزال تجيش فيه روح البداوة. أدرك جيداً ما فات بابر وابنه همايون، وكانت له نظرة شاملة وفكرة عالية عن السياسة والدولة، ووقف على الظروف التي تمت فيها الغلبة للمغول وساعدت على ترسيخ دولتهم.

اعتنى دوماً بإعداد الجيش وتجهيزه وتدريبه لينهض على الوجه الأكمل بالحروب التي تَحتَّم عليه خوضها، وقد أدرك جيداً فلسفة التكتيك العسكري القائلة: إذا لم تبادر بالهجوم، استُهدِفْتَ له، وتعرَّضت له بأسرع مما تظن. حارب طوال حياته المديدة مستجيباً لداعي الجهاد المقدس من أقصى الهند إلى أقصاها. غزا الكجرات وسورات ومملكة الأفغان في البنغال ومملكة أوريسّا وسلطنة أحمد نكار، ثم انكفأ ليخمد ثورة الراجبوت وثورة البنغال وبيهار والثورة التي قام بها التيموريون، كما ردَّ الهجمات والتعديات التي تعرَّضت لها من قِبَل الأوزبك، وأعاد فتح كابول، وضم إلى ممتلكاته كشمير. وتمَّ له إكليل الفاتحين ومجد الغزاة المظفرين، واشتهر بتوزيع أسلاب الحرب بين جنوده، وعدّه المؤرخون الهنود أعظم عاهل عرفته الهند منذ أيام آشوك، حامي البوذية[1]، ووضعوه في مصاف أعاظم الملوك الذين

(١) الامبراطور آشوك نريادرشين (٢٦١ ـ ٢٢٧ق.م): موحِّد الهند وحامي البوذية، اشتهر بسعة ثقافته واتساع فتوحه. شملت مملكته كل أجزاء الهند الشمالية والشمالية الغربية وامتدت جنوباً حتى منطقة الاندهرا، وأقام علاقات سياسية مع سوريا ومصر ومقدونيا وكورنثيا وإيبيريا، وعاصمته كبتليسترا التي امتدت على ملتقى نهري العاج والسون على طول خمسة عشر كيلومتراً وعرض ثلاثة كيلومترات، وهو من أسرة الموريا الوطنية. نشر في أرجاء مملكته قراراته الروحية التي أوحت بها إليه البوذية.

عرفهم العالم في عصره[1].

مراحل عهد أكبر

مرّ عهد أكبر بثلاث مراحل زمنية:

الأولى: هي التي كان الحكم الفعلي خلالها في يد أتابكه بيرم خان.

الثانية: هي التي حاول فيها بعض نساء القصر فرض إرادتهن وإملاء رغباتهن على السلطان الشاب، وذلك بعد أن نجحن، من واقع الدسائس والمؤامرات والخداع، في إبعاد بيرم خان بحجة تشيعه.

الثالثة: هي التي انفرد فيها أكبر بشؤون الحكم، وتُعدُّ الأطول بوصفها امتدت بين عامي (٩٦٩ ـ ١٠١٣هـ/ ١٥٦٢ ـ ١٦٠٥م)، والأزهى في تاريخ المسلمين في الهند.

ويمكن تقسيم مدة حكم أكبر التوسعية إلى ثلاث مراحل زمنية أيضاً:

الأولى: بسط أكبر خلالها أكبر سلطانه على الهند كلها، وتغطي المدة الزمنية بين عامي (٩٦٥ ـ ٩٨٣هـ/ ١٥٥٨ ـ ١٥٧٦م).

الثانية: هي التي تمَّ خلالها تأمين الحدود الشمالية الغربية ومناطقها، التي تُعدُّ أخطر أبواب الهند، وتغطي المدة الزمنية بين عامي (٩٨٨ ـ ١٠٠٤هـ/ ١٥٨٠ ـ ١٥٩٦م).

الثالثة: هي التي بدأ فيها أكبر يتوغل في منطقة الدكن حتى تمَّ له إخضاع معظمها، وتغطي المدة الزمنية بين عامي (١٠٠٦ ـ ١٠٠٩هـ/ ١٥٩٨ ـ ١٦٠١م).

الأوضاع السياسية في الهند عشية اعتلاء أكبر العرش

كانت الفوضى تعم أرجاء الهند عندما تبوأ أكبر العرش، كما انتشرت المجاعات والأمراض في أنحاء البلاد، وضرب مرض الطاعون الأجزاء الشمالية، بما فيها دلهي وأكرا، وأودى بحياة الكثير من الناس.

وكان العرش قد أضحى كالكرة تتداوله أيدي الأفغان والمغول، ولم تعد السلطنة إلا تعبيراً جغرافياً أو مجموعة من الولايات. وكان أعداؤه الأفغان

(١) موسينيه، رولان: القرنان السادس عشر والسابع عشر، من موسوعة تاريخ الحضارات العام: ج٤ ص٥٨٣، ٥٨٤. Prasade: History of Medieval India: pp871, 888.

لا يزالون يسيطرون على معظم أنحاء البلاد، فكان الإقليم الشمالي الغربي موضع نزاع بين إسكندر سور ومحمد عادلي سور. استقرَّ الأول في البنجاب وأخذ يتحفَّز للانقضاض على دلهي وأكرا واسترداد الأراضي التي أخرجه همايون منها، واستقرَّ الثاني في تشونار بعد أن أخرجه إبراهيم لودي من دلهي، وراح، بما توافر لديه من الجند، يعمل على توسيع نفوذه في الشرق، وحقَّق قائده هيمو انتصارات في معظم المعارك التي خاضها، وراح ينتظر الفرصة للانقضاض على مُلك المغول واسترجاع مُلك الأفغان المفقود، مرة ثانية.

وتعرّض حكم أكبر لتهديد أخيه حكيم الذي استقل بحكم كابل وسيطر على طريق الإمدادات إلى الهند والتي كان يمر عبرها المحاربون الأشداء من بلاد ما وراء النهر، ثم تطلع نحو الهند لإقصاء أخيه والجلوس مكانه على عرشها.

وكانت ولايات السند والملتان وكشمير قد انفصلت بدورها عن سلطنة دلهي لسنين مضت، في حين أفاق الأمراء الراجبوت في البنغال من الصدمة التي أصابتهم أثناء حكم بابر واستعادوا سيطرتهم على قلاعهم، موار وجسالير وبونديِ وجدهبور،، وراحوا ينتهزون ما أتاحه لهم اضطراب الأوضاع من فرص لاستعادة الكثير من نفوذهم وسلطانهم القديم.

واستردت مالوة والكجرات استقلالهما بعد أن نقضتا الحلف الذي كان بينهما وبين الحكومة المركزية أثناء حكم محمد تغلق، واستقلَّت جندوانا وأوريسًا. وثبَّت أمراء الدكن المسلمون أقدامهم في بلادهم من جديد في خاندش وبرار وأحمد نكر وبيجابور وغولكوندة، كما استقلَّ الأمراء الهنود في فيايانكر في الجنوب وراحوا يدافعون عن استقلالهم أمام هجمات جيرانهم المسلمين في الدكن.

وأقام البرتغاليون في حصونهم القوية، جوا وديو، على شاطئ الهند الغربي، بعد أن خاضوا غمار معارك عنيفة ضد سلاطين الكجرات المسلمين وأعوانهم من المماليك والعثمانيين، ونتج عن انتصارهم اشتداد خطرهم وبسط سيطرتهم على مناطق الخليج العربي وبحر العرب والمحيط الهندي ومنافذ البحر الأحمر، وراحوا يهدِّدون طرق التجارة مع الهند، واقتربوا من الحجاز وهدَّدوا طرق الحجاج.

جهود أكبر في مواجهة الأخطار الداخلية

الصراع مع هيمو

قيِّض لأكبر أن يقف إلى جانبه، في هذه السن الحرجة وفي هذا الوضع المضطرب، رجل مخلص وقدير هو الوزير بيرم خان، الذي بذل جهده لمساعدته وتدعيم ملكه إلى أن بلغ سن الرشد. ووجد هذا الوزير أن الخطر الأكبر يتمثَّل في ال سور، فقرّر التخلص منهم أولاً، وكان هؤلاء يجهدون لاسترداد عرش الهند. وفي الوقت الذي كان فيه بيرم خان يجدُّ في مطاردة إسكندر شاه سور في البنجاب خرج هيمو، قائد محمد عادلي شاه سور، إلى مدينة أكرا على رأس خمسين ألف فارس وخمسمائة من الفيلة، واقتحمها وأرغم واليها إسكندر أوزبك على الارتداد إلى دلهي[١].

أدرك أكبر فوراً، على أثر هذه الضربة، أن دلهي هي الهدف التالي لهيمو، فأرسل إليها تعزيزات عسكرية بقيادة علي قولي خان زمان، حاكم سمبهال، ويبدو أن هيمو علم بذلك، فأسرع إلى المدينة، وسبق التعزيزات المغولية، فاصطدم بحاكمها تردي بك في مكان يدعى تقلق أباد وانتصر عليه، وانسحب هذا من ميدان المعركة ناجياً بنفسه من دون أن يفطن أن عدوه عدل عن مطاردته، وقد فتَّ في عضده تأخر وصول الإمدادات إليه من جهة، وعِظَم قوة عدوه من جهة أخرى، وذهب إلى سرهند مع إسكندر خان، ولحق بهما علي قولي، عندما علم بسقوط دلهي. ودخل هيمو المدينة في جو من الانتصار، واتخذ لقب بكرماجيت الهندوسي القديم[٢]، وأبدى رغبة قوية في إحياء أمجاد أمته القديمة، فناهض الإسلام والمسلمين، وأهمل شأن سيده محمد عادلي شاه، وضرب السكة باسمه، ورفع المظلة السلطانية فوق رأسه، وولّى خاصته ورجاله في مناصب الدولة وشؤون الولايات، وسيطر على المنطقة الواقعة بين غواليور ونهر ساتلوج[٣].

كان أكبر في غضون ذلك في غولندار، وعندما علم بسقوط أكرا ودلهي

(١) بخشي: جـ٢ ص١٠، ١١ .Ferishta: II, p112

(٢) بكرماجيت أو فكرماديت: راجا هندوسي، بدأ تاريخ الهنود على يديه منذ ألف وستمائة سنة حتى عصر بداوني. انظر: منتخب التواريخ: جـ٢ ص١٤ .Ferishta: II, p114

(٣) بداوني: جـ٢ ص١٥، ١٦ .Ibid: pp112, 113

تلقّى نصيحة من معظم أركان حربه بأن يتراجع إلى كابل، لكن بيرم خان عارض هذا التوجه لأنه اعتقد أن في تنفيذه قضاء على آمال الأسرة المغولية، ولعل هؤلاء هالهم كثرة قوات هيمو التي ارتفع عديدها إلى مائة ألف فارس بالمقارنة مع ضآلة قواتهم البالغة عشرين ألفاً بين فارس وراجل[١].

وأمر بيرم خان بالقبض على تردي بك وقتله لأنه فرّ أمام العدو، ولم يحسن التصرف عند مواجهته، وليكون عبرة لغيره من القادة. وربما كانت عملية القتل مردها إلى التنافس والحسد بين الرجلين، وأن الخسارة أمام دلهي أتاحت لبيرم خان أن يُنهي هذا التنافس[٢].

وعهد أكبر إلى صهره خضر خان بمواصلة قتال إسكندر شاه سور، وخرج هو على رأس جيشه للقاء الأمير الهندوسي وأتباعه. والتقى الطرفان في سهل بانيبات في (٢ محرم ٩٦٤هـ/ ٥ تشرين الثاني ١٥٥٦م). واستطاعت فرقة من طلائع الجيش المغولي أن تعرقل جهود هيمو العسكرية بالاستيلاء على مدفعيته، ومع ذلك، استطاع هيمو أن يكتسح جناحي جيش أكبر، فدب الذعر في صفوف أفراده وأوشكوا على الفرار لولا أن تغيَّر وجه المعركة فجأة، ذلك أن سهماً أصاب عين هيمو، وهو على ظهر فيله، فاختل توازنه ووقع على الأرض، وحين طلب من خيَّاله أن يسير به وبدابته إلى خارج ميدان المعركة، توهَّم أفراد جيشه وقوع الهزيمة بهم، فانفرط عقدهم وتفرّق شملهم بعد أن لاحت لهم بوادر النصر، ووقع هيمو نفسه في الأسر، ولقي كثير من القادة الأفغان حتفهم. وجيء بالأسير إلى أكبر، فنصحه وزيره بقتله، لكن السلطان رفض أن يحقق هذه الرغبة، وأبت شهامته أن يقتل أعزلاً وجريحاً، عند ذلك استل الوزير سيفه ووثب على هيمو وقتله. ثم بعث برأسه إلى كابل وبجثته إلى دلهي ليرى الثائرون مصير صاحبهم[٣].

أتاح النصر في بانيبات لأكبر التخلص من أقوى معارض لحكمه، واستعادة دلهي وأكرا والمناطق المجاورة. وتلاشت تماماً آمال الهندوس في تكوين سلطة خاصة بهم في تلك المناطق على حساب المسلمين. وشكّل خطوة تمهيدية للقضاء نهائياً على حكم الأفغان في الهند، وارتفعت مكانة الجيش

(١) Ferishta: II p113.
(٢) بخشي: جـ٢ ص١١ Ibid
(٣) المصدر نفسه: ص١٣ Ibid: pp114, 115.

المغولي، وحاز أكبر على أموال وكنوز عدوه[١].

نهاية أسرة سور الأفغانية

التفت أكبر ووزيره بيرم خان، بعد القضاء على هيمو واسترجاع دلهي وأكرا، إلى القضاء على أفراد أسرة سور الأفغانية الذين ما زالوا يطالبون بالعرش. وكان بيرم خان قد أرسل جيشاً لقتال إسكندر سور في تلال سوالك شمالاً، ففرّ هذا إلى حصن مانكوت واعتصم به، فحاصره الجيش المغولي وضيّق عليه حتى اضطر إلى طلب الصلح، وتعهَّد بالولاء التام للسلطان أكبر مقابل السماح له بالمسير إلى البنغال بأمان، وحفظ أكبر كرامة هذا الأمير فولّاه بيهار وخريد في الشرق، فأقام في إقطاعه حتى وفاته في عام (٩٧٧هـ/ ١٥٦٩م)[٢].

ولقي محمد عادلي خان سور حتفه في (رجب ٩٦٦هـ/نيسان ١٥٥٩م) أثناء هجوم قام به خضر خان البنغالي وإخوته على مقره في تشونار للثأر لمقتل أبيهم محمد خان بنغالي بظاهر أكرا.

وحاول شير شاه الثاني ابن عادلي خان أن يسيطر على جونبور بعد مقتل والده، فتصدى له القائد المغولي خان زمان وهزمه، وضمَّ أملاكه إلى الدولة المغولية[٣].

واغترَّ إبراهيم شاه سور بما التف حوله من القبائل الأفغانية، فهاجم مالوة، حتى إذا فشل في اقتحامها تحوّل إلى أوريسّا في إقليم البنغال، فبقي بها حتى عام (٩٧٥هـ/ ١٥٦٧، ١٥٦٨م) حيث لقي مصرعه على يد القائد المغولي سليمان كراني.

سقوط بيرم خان

بعد القضاء على أسرة سور والانتصارات التي تحقَّقت على يد بيرم خان، بدأ هذا الوزير يوجه جهوده نحو الأوضاع الداخلية، ولكنه لم يلبث أن اصطدم بأطماعه الشخصية وبالسلطان الذي يتولى الوصاية عليه. لقد اعترف أكبر بفضل هذا الرجل عليه، وأنه المسؤول عن نجاحه في الأعوام الأولى من

(١) Ferishta: II, p115.
(٢) بداوني: جـ٢ ص١٨، ١٩. بخشي: جـ٢ ص١٤ Ibid: p116.
(٣) Ibid: pp126, 127.

حكمه، فأنعم عليه بلقب خان خانان، أمير الأمراء، وجعله وكيلاً للسلطنة، وزوَّجه سليمة سلطانة، ابنة أخته[1].

والحقيقة إن بيرم خان كان سياسياً محنكاً وإدارياً حازماً، وقف إلى جانب أكبر في أشد الأوقات حرجاً، وبفضل مشورته ونصائحه، خاض غمار الحروب ضد أسرة سور وانتصر فيها واستعاد دلهي وأكرا وضمَّ أجمير وغواليور وجونبور، لكن هذا الوزير الشيعي ارتكب هفوات عدة أدَّت إلى تكتيل أعدائه ضده، ومن ثمّ إسقاطه، نذكر منها:

- كان يغار من حاشية السلطان، ولا يسمح أن يحصل أحد منهم على شيء من الرعاية أو فضل، إلا بإذنه وبعد استشارته.
- رفع من شأن أبناء مذهبه وخصَّهم بالمناصب الرفيعة في الدولة، وأمعن في اضطهاد السنة، وهم الغالبية العظمى في الهند، مستغلاً حادث اندحار القائد السني تردي بك خان أمام القائد الهندوسي هيمو في معركة دلهي، ما أثار غضب السنة.
- اتصف بالتكبر والتعالي على الحاشية.
- مال سراً إلى أبي القاسم بن كمران، ابن عم أكبر، الذي كان يطمع في اعتلاء عرش الهند.
- عزل صدر الصدور بير محمد، المقرب من السلطان، من منصبه وعيَّن مكانه الشيخ كاداي الشيعي.

كانت النتيجة الطبيعية لهذا السلوك الشاذ آن عاداه رجال البلاط ونساء القصر، وفي مقدمتهم الملكة الوالدة حميدة بانوبيكم ومرضعة أكبر مهيم أنقاه، وأخوه في الرضاعة أدهم خان، وحاكم دلهي شهاب الدين أحمد، والميرزا شرف الدين حسين وبير محمد، وراح هؤلاء يبذلون كل جهودهم لتعكير صفو العلاقة بينه وبين السلطان، ونجحوا في ذلك.

فقد حدث أن كان أكبر يشاهد صراع بين الفيلة، وهي رياضة كانت منتشرة في الهند، فاشتدت ثورة الفيلين المتصارعين وخرجا عن طورهما، وتخطيا الأسوار، وهاجما معسكر بيرم خان القريب وهدَّدا حياته. وعلى الرغم من أن الحادث إنما وقع بطريق الصدفة، فقد اعتذر السلطان لوزيره، لكن هذا انتابه

(١) بخشي: جـ٢ ص١٥. Ferishta: II, p111.

الغضب وأمر فوراً بقتل رجل بريء من خدم السلطان الخاصين، فثار أكبر لكرامته[1].

والواقع أن العلاقات بين السلطان، الذي بلغ سن الرشد في عام (٩٦٧هـ/ ١٥٦٠م)، وبين وزيره سادها الفتور على الرغم مما بذله أكبر من جهود لإرضاء وزيره وتهدئته، وتمادى بيرم خان حين أمر بقتل رجل من حاشية السلطان لجرم قد اقترفه من دون العودة إلى السلطان.

وبدأت المؤامرات تحاك لإبعاده عن السلطة. وحدث آنذاك أن سافر أكبر إلى دلهي ليعود أمه، فاستغلت مرضعته وجوده هناك وأفرغت كل ما كانت تختزنه من أحقاد ضد بيرم خان. وكان أكبر على استعداد لتقبل كل ما يقال له، فقرّر أن ينحيه عن العمل الرسمي بكياسة ولطف، فأبدى أمامه رغبته في تولي الأمور بنفسه بعدما بلغ سن الرشد، وعرض عليه أن يستقيل من الوظائف التي يتولاها ويرحل إلى مكة ليقضي بقية حياته في العبادة بعيداً عن متاعب الحياة العامة[2].

أدرك بيرم خان من فوره ما كان يُدبَّر له في الخفاء، وشعر بخطورة الموقف وأنه في الواقع قد تجاوز حده معترفاً بأنه أخطأ في تصرفاته، فحاول أن يصلح موقفه، فأرسل رسولين إلى السلطان يؤكد ولاءه وإخلاصه وخضوعه له، فقبض أكبر على الرسولين وسجنهما، وأرسل رسولاً من قِبله إلى بيرم خان يؤكد قراره السابق، وضرورة الإسراع بالرحيل إلى مكة[3].

اشتد غضب بيرم خان لهذا القرار، وهو الذي دعَّم الدولة وله فضل على السلطان، وفكَّر بالثورة عليه، فخرج متمهلاً باتجاه البنجاب، ربما لأخذ كنوزه وأمواله، ما أثار ريبة السلطان، فأرسل قوة عسكرية، بقيادة بير محمد، لتعقبه وطرده من الهند. ويبدو أنه قرَّر خوض معركة مع الجيش المغولي، فأرسل أكبر جيشاً كبيراً بقيادة أنقا خان، اصطدم به وهزمه قرب تلوارة في جبل سوالك، وقبض عليه وحمله إلى السلطان في لاهور، ولما مثل بين يديه طلب الصفح منه، فعفا عنه، وخيّره بين ثلاث: إما أن يبقى في القصر، فيعامل بكل احترام وإعزاز، بوصفه صاحب فضل على الأسرة الحاكمة، أو يظل في

(١) الشيال: ص٨٥.
(٢) بخشي: جـ٢ ص٢٢.
(٣) المصدر نفسه.

الخدمة، فيعينه والياً على كالبي وشانديري، أو يذهب إلى الحجاز ويتفرغ للعبادة في مكة، فيقدم له المنح والمساعدات التي تعينه على ذلك.

اختار بيرم خان الحل الثالث، فهو إذ فَقَدَ ثقة السلطان به فإنه لا يستطيع أن يستمر بعد ذلك في الخدمة، ويكفيه أن تدركه رحمته. وافق أكبر على رغبته وسمح له بالانطلاق إلى مكة، وأمدَّه بقوة حراسة ترافقه ووهبه معاشاً كافياً. ولكن الوزير لم يتمكَّن من إتمام رحلته، ففيما كان يجتاز الكجرات في طريقه إلى مكة، ولما وصل إلى بلدة بتن اغتاله مبارك خان لوحاني الأفغاني، ثأراً لمقتل والده على يديه في معركة ماشبوارة، وكان ذلك في (جمادى الأولى ٩٦٨هـ/ كانون الثاني ١٥٦١م)، ودُفن في مقبرة هناك، ثم نُقلت رفاته إلى دلهي ثم إلى مشهد الرضا، وتزوَّج أكبر أرملته وضمَّ إليه ابنه عبد الرحيم، وكان في الرابعة من عمره، فما زال يرعاه حتى عيّنه في مناصب الدولة الكبرى[1].

موقف أكبر من حاشية القصر

مهّد زوال بيرم خان الطريق، للحاشية ورجال القصر ونسائه، للهيمنة على مقدرات الدولة، فيما يُعرف بمرحلة حكم النساء (٩٦٧ ـ ٩٧١هـ/ ١٥٦٠ ـ ١٥٦٤م)، وكان أبرز هؤلاء وأشدهم نفوذاً مرضعة أكبر الداهية مهيم أنقاه، وكانت موضع ثقة السلطان، يستشيرها في كل شؤون الدولة، وكان يحكم من خلالها إلى حد كبير. وأخذت هذه السيدة تُنصِّب أتباعها في مرافق الدولة وفق هواها، ورفعت من مقام ابنها أدهم خان. وسرعان ما تكشّفت خطورتها، فراح أكبر يراقب سلوكها وتصرفات أتباعها بيقظة وحذر، وعندما توفيت في عام (٩٦٩هـ/ ١٥٦٢م) تحرّر أكبر نسبياً من تأثير أفراد الحاشية، ولكن وفاة خاله خواجة معظم في عام (٩٧١هـ/ ١٥٦٤م)، حرّره نهائياً من سيطرة ونفوذ هؤلاء[2].

الثورات الداخلية

ثورة علي قولي: خان زمان

كان علي قولي أحد القادة الأوزبكيين الكبار، رُقِّي إلى رتبة خان زمان بعد معركة بانيبات عام (٩٦٣هـ/ ١٥٥٦م) تقديراً لجهوده وشجاعته، والتف حوله

(١) Ferishta: II, pp119-125. بخشي: جـ٢ ص٢٣ ـ ٢٦.

(٢) المصدر نفسه: ص٤٠، ٤١.

كثير من الجند والقادة والأمراء. وفي عام (٩٦٧هـ/ ١٥٦٠م) حاول الأفغان، بقيادة شير شاه الثاني، الاستيلاء على جونبور، انطلاقاً من حصن تشونار، فتصدَّى لهم علي قولي وهزمهم[1] ويبدو أنه اغتر بقوته فرفض بعد انتصاره أن يرد الفيلة التي غنمها إلى السلطان، فخرج أكبر بنفسه من كالبي لقتاله وزحف نحو جونبور، وعندما سمع علي قولي بخروجه أسرع بتقديم الولاء والطاعة له، واصطحب معه الفيلة وغنائم الحرب وبعض الهدايا ووضعها بين يدي السلطان، فعفا عنه وتغاضى عن عصيانه وثبَّته في حكم جونبور[1].

ثورة أدهم خان

كان أكبر قد أرسل أدهم خان، ومعه مير محمد، لإخضاع باز بهادور بن شجاعت خان، حاكم مالوة، فأحرز انتصاراً عليه بالقرب من سارنكبور، لكنه اقتدى بعلي قولي، فاستحوذ على معظم غنائم الحرب ولم يرسل منها إلى أكرا سوى القليل، ووزّع بعضها على أتباعه لاستقطابهم، كما احتفظ بالرايات السلطانية وشعار الملك، فارتاب السلطان في نواياه وقرَّر تأديبه، فخرج على رأس جيشه متوجهاً إلى مالوة، وفاجأ أدهم خان ليطلع بنفسه على ما بحوزته من أسلاب ضخمة، ولم يملك أدهم خان عند ذاك إلا أن يدعي أنه كان بصدد إرسالها إلى العاصمة، فاستولى أكبر على الغنائم وعزله عن حكم مالوة، واصطحبه إلى أكرا ولم يقتله وأمره بملازمة القصر، وذلك بتأثير مرضعته مهيم أنقاه، وعيّن مير محمد خان حاكماً على مالوة[2].

وحدث في غضون ذلك أن رُقِّي أحد رجال السلطان، ويدعى شمس الدين آتكة خان، إلى مرتبة وكيل، وهي وظيفة تشبه وظيفة الوزير الأول، فاشتعلت نيران الحقد في صدر أدهم خان، ودفعه الألم الذي كان يشعر به، لفقدانه حكم مالوة، إلى التسلل في إحدى الليالي مع بعض رجاله إلى الديوان، وانقضَّ على شمس الدين وقتله، فحدثت ضجة على أثر ذلك أيقظت السلطان، ولما وقف على حقيقة الأمر استدعى أدهم من منزله، ولما حضر إلى مجلسه لكمه بقوة طُرح على أثرها أرضاً ثم أمر به فألقي من شرفات القصر إلى داخل القلعة فمات، وذلك في عام (٩٦٩هـ/ ١٥٦٢م)[3].

(١) بخشي: جـ٢ ص١٨، ١٩.   (٢) المصدر نفسه: ص٢٦ ـ ٣٠.

(٣) بداوني: جـ٢ ص٥٢. وقارن ببخشي الذي يذكر الحادثة في أحداث ٩٧٠هـ: جـ٢ ص٣١، ٣٢.

تجدد ثورة علي قولي واستعادة مالوة

عيّن أكبرُ ميرَ محمد حاكماً على مالوة بعد أن عزل أدهم خان، ويبدو أنه نجح كقائد عسكري، إذ أضاف أراضي جديدة إلى إمارته، فضمَّ ولايتي أسير - خاندش - وبرهانبور إلا أنه ارتكب المجازر بحق سكانها، وأمر بإحضار كثير من العلماء والسادات وأطاح برؤوسهم. أثارت هذه الأعمال الوحشية حاكم أسير وبرهانبور، فتعاون مع باز بهادور، الذي كان قد فرَّ من مالوة إلى هذه النواحي، وهاجمه وأجبره على الفرار. وقام أثناء فراره بأعمال التعدي على الممتلكات والأموال في كافة المناطق حتى شواطئ نهر تربدة الجنوبية، فاجتمع الناس عليه، وما زالوا يطاردونه حتى لقي حتفه غرقاً في النهر وهو في طريقه من ماندو إلى مدينة تربدة، واستقل بازبهادور بحكم مالوة[1].

لم يركن أكبر إلى الهدوء، وهو يرى انسلاخ مالوة عن أملاكه، فأرسل قوة عسكرية لاستعادتها بقيادة عبد الله خان أوزبك، وعندما وصل هذا إليها فرّ بازبهادور منها إلى تلال كمبالمير مفضلاً عدم مواجهة الجيش المغولي في معركة مكشوفة، ثم ذهب إلى مروار، والتمس المساعدة من حاكمها رانا أوداي سينغ، ويبدو أنه فشل في استقطابه، فغادرها إلى الكجرات، ولما رأى نفسه وحيداً، شريداً وطريداً، أرسل إلى أكبر يلتمس عفوه مقابل الخضوع له، فوافق السلطان على التماسه، وفي رواية أنه قبض عليه وسجنه ثم أطلق سراحه وتوفي بعد قليل من ذلك، واستعاد أكبر مالوة في عام (٩٧١هـ/ ١٥٦٤م) وعيّن عبد الله خان حاكماً عليها[2].

وحدث أن طمع عبد الله خان بالملك، فأعلن الثورة على أكبر واستقل بحكم مالوة، فخرج أكبر بنفسه لتأديبه، وعندما وصل قريباً منها، فرَّ عبد الله إلى الكجرات حيث حصل على دعم من علي قولي، الذي كان على خلاف مع أكبر، وتعاون الرجلان في الثورة على السلطان وذلك في عام (٩٧٢هـ/ ١٥٦٥م)، مستغلين انهماك أكبر بإخضاع ثورة البنجاب وصدّ هجوم أخيه ميرزا عليها. واستولى علي قولي على قنَّوج وأوْد فأرسل أكبر جيشاً مغولياً لإخماد

(١) بداوني: جـ٢ ص٥٢. بخشي: جـ٢ ص٣٠ .Ferishta: II, p128

(٢) المصدران نفساهما: ص٥١. ص٣٠، ٣١.

الثورة، إلا أنه هُزم أمام قوى التحالف، فاضطر أن يخرج بنفسه لإخماد الثورة، فعاد إلى أكرا، على وجه السرعة، فجمع جيشاً وخرج على رأسه لمهاجمة علي قولي على الرغم من أن الموسم كان موسم الأمطار والسيول وفيضان الأنهار، ووصل إلى شاطئ نهر الغانج، وكان علي قولي على الشاطئ الآخر مطمئناً إلى أن أكبر لا يستطيع أن يصل إليه في مثل هذه الأيام[1].

وعبر أكبر نهر الغانج ليلاً على ظهور الفيلة لعدم وجود السفن، في ظل معارضة أركان حربه لما في ذلك من المجازفة، وعبر معه عدد قليل من الجند، وهاجم علي قولي المتحصن في قرا مانك بور، وفوجئ هذا بقوات أكبر تطوقه، ففقد السيطرة على الموقف وجرى اشتباك بين الطرفين انتصر فيه أكبر، فاستولى على البلدة وقتل علي قولي، وذلك في (ذي القعدة ٩٧٤هـ/ أيار ١٥٦٧م)، وقبض على أخيه بهادور خان وقتله[2].

العلاقة مع الهندوس

أدرك أكبر ضرورة التقرب من الهندوس لنفخ روح جديدة في الدولة، فبعد أن قضى على دسائس نساء القصر والثورات التي قامت ضد حكمه، رأى أن يبدأ عهداً جديداً في حكم الهند مبرهناً عن بُعد نظر في التفكير السياسي. وإذ أدرك منذ اللحظة الأولى أنه من الحمق اتباع سياسة أسلافه تجاه الهندوس، والتي كانت قائمة في أغلب الأوقات على العداء والحرب والقهر؛ رأى وجوب ارتكاز سياسته على أساس متين من حب رعاياه ورضائهم، بغض النظر عن أديانهم ومذاهبهم، والعمل على توحيد سكان الهند جميعاً، مسلمين وهندوس، ولهذا ابتدأ باستقطاب الراجبوت الذين يُكوِّنون الطبقة العسكرية في المجتمع الهندوسي، واتخذ لتحقيق هذا الهدف وسائل كثيرة، نذكر منها:

الزواج: شجَّع أكبر على قيام تقارب أسري بين المسلمين والهندوس قائم على الزواج، وكان راجا أمير جيبور، ويُدعى بيهار مال كاشهورها، أول راجا يقدم ابنته زوجة لأكبر، وذلك في عام (٩٦٩هـ/ ١٥٦٢م)، وقد ضمن هذا الزواج تأييد هذه الأسرة الراجبوتية القوية للسلطان، ومثَّل فجر عهد جديد في تاريخ السياسة الهندية. وفي عام (٩٧٨هـ/ ١٥٧٠م) تزوج أكبر أميرتين من

(١) بخشي: جـ٢ ص٤٩، ٥٠.

(٢) المصدر نفسه: ص٦١ ـ ٦٤.

جيسالمير وبكانير، معبراً بذلك عن رغبته الشديدة بأن يكون سلطان المسلمين والهندوس على السواء، وزوّج ولي عهده، الأمير جهانكير، ابنة راجا بهجوان داس في عام (٩٩٢هـ/ ١٥٨٤م)، وقد أمدَّ هذا التقارب الأسري بالزواج الدولة بسلسلة من الحكام النابهين، وغذَّاها، خلال أربعة أجيال متعاقبة، بعدد من القادة والساسة العظام[١].

التعيين في مناصب الدولة: عيَّن أكبر الهندوس في المناصب الرفيعة في الدولة من مدنية وعسكرية على السواء، ووضع فيهم ثقته الكاملة، وأتاح لهم الترقي، فتولى عدد من الراجات مناصب القيادة في جيشه كما شكل الهندوس نصف عديده. نذكر من بين الذين تقلدوا المناصب الهامة راجا تُدار مال الذي خلف خواجة ملك اعتماد خان، فأحسن إدارة الشؤون المالية، وراجا بهجوان داس وابنه مان سينغ وغيرهم.

التسامح الديني: كان التسامح الديني من بين أهم المبادئ التي قامت عليها سياسة أكبر، فأتاح لجميع رعاياه حرية العقيدة والعبادة والرأي، وشجّع على إحياء عادات الهندوس وأعرافهم، كما سعى إلى إحياء أساليب تفكيرهم، وكان يختلط بهم ويشايعهم في تقاليدهم وعاداتهم، وألغى ضريبة الجزية المفروضة عليهم بوصفهم أهل ذمة، وألغى الرسوم المفروضة على أماكن حجهم المقدسة، وساواهم في المعاملة مع المسلمين وكذلك في الحقوق والواجبات[٢].

الإصلاحات الاجتماعية

كان أكبر شديد العناية برفاهية شعبه، فبذل جهداً كي يرفع عنهم ما ينزل بهم من الضيم، وفتح بابه للشاكين، وجعل عليه ناقوساً يدقه كل من أراد أن يقدم شكوى إليه، وساعد المزارعين وثبَّت ملكياتهم للأرض، وتجاوز عن ديونهم المتأخرة، ومنع الزواج قبل سن الرشد، وأباح الزواج للأرامل الهندوسيات، وكن لا يتزوجن، ومنع المرأة من إحراق نفسها إذا مات زوجها، وامتنع عن جعل أسارى الحرب عبيداً، وشجّع العلماء الهندوس على

(١) بخشي: جـ٢ ص٢١٢، ٢١٣.

(٢) Raychoudhy: p96.

تعلُّم اللغة السنسكريتية، وأمر ولاته أن يحيطوا علماً بأوضاع رعيتهم، ويعاملوا الناس معاملة حسنة، ويحسنوا إلى الفقراء، وألا يعفوا عن المجرمين، ولا يقبلوا الهدايا، ولا يعترضوا على المخالفين لهم في الدين، ويلاحظوا دخل الناس وخرجهم حتى إذا زاد خرجهم كان ذلك دليلاً على اكتساب حرام، ومنع اغتسال الرجال والنساء في الأنهار سوياً، كما منع شرب الخمر وعصرها، وخروج النساء كاشفات وجوههن، ومنع جبر أحد على الإسلام. ومن أُجبر فله الخيار، وجعل للناس الحرية التامة في اعتناق أي دين يريدون[١].

نتائج سياسة أكبر

- استطاع أكبر، بفضل سياسته المنفتحة على الهندوس، أن يستقطب معظم الأمراء الراجبوت ويكسب تأييدهم، فأدخلهم في خدمة الدولة، واستفاد من خبراتهم السياسية والعسكرية، فزال خطر هذه الطائفة في عهده التي هدَّدت دولة المسلمين في الهند على مراحل زمنية منذ الفتوح الإسلامية الأولى.

- عمل الهندوس بعد اندماجهم في منظومة الدولة على مساعدتها عسكرياً لتحقيق أهدافها في الفتوح، والقضاء على الفتن التي كانت تنشب من حين لآخر في كافة أنحاء البلاد، وكان من بين هؤلاء راجا بهجوان داس وابنه مان سينغ، اللذان قدَّما جنوداً أثناء حصار حصن جيتور، وراجا بيرمال، الذي لقي حتفه وهو يدافع عن حدود الدولة الشمالية الغربية، وتُدار مال، الذي خدم الدولة بإخلاص بدت آثاره واضحة في تاريخ الهند. والمعروف أن هذا الوزير نشأ في بلاط شير شاه، فألَمَّ بالكثير من توجهاته السديدة في شؤون الإدارة العامة، وقد شارك بنجاح في حملات أكبر ضد البنغال، وأظهر كفاءة كبيرة حين عهد إليه بتنظيم شؤون حكومة الكجرات، وأضحى هذا الوزير خير مشير لأكبر فيما شرع من إصلاحات شملت نظم الحكم وشؤون الدولة[٢].

- كان الراجبوت عيوناً للدولة على الأفغان الذين أُبعدوا عن الحكم.

(١) مجلة ثقافة الهند، حزيران، ١٩٥٥م.

(٢) Lane-poole, st: Medieval India under Mohamedan Rule: pp260-262.

ـ نهض لمحاربة الأمراء الذين رفضوا الخضوع لحكمه والدخول في منظومة الدولة الموحدة. كما سيمر معنا.

العلاقة مع البرتغاليين

الحركة التجارية

كان هدف البرتغاليين الأول نشر الدين النصراني في أرجاء آسيا، ومنافسة المسلمين وانتزاع السيطرة منهم على أسواق التجارة بحيث لم يكن يهمهم كثيراً احتلال الهند، أو بعض موانئها إلا بالقدر الذي يخدم أغراضهم الدينية ومصالحهم التجارية، واعتقدوا أن احتلال بعض موانئ البلاد الهامة، وبخاصة تلك التي على ساحل الهند الغربي، من شأنه أن يساعدهم كثيراً على تحقيق ما يهدفون إليه من تطلعات.

وقد عجزت ممالك الهند الوقوف بوجه الأساطيل البرتغالية، كما أن حصونها وقلاعها كانت أعجز من أن تصمد لضرب مدفعيتهم، وهكذا تمَّ اقتسام صامت لعالم الهند، إذ أخذ كل من المسلمين والهندوس البر الهندي، وسيطر البرتغاليون على البحر والشواطئ البحرية.

واعتمدت تجارة البرتغال الهندية على مركزين أساسيين: سواحل الملابار، حيث مدينة كاليكوت، المرفأ الرئيسي، ومالقا، نقطة التقاء التجار والسوق الرئيسي للتبادل التجاري بين الشرق الأقصى والغرب.

لم يُدخل البرتغاليون أي تغيير يُذكر على قواعد الحركة التجارية، فقد احتكروا بعض الأصناف، وحاولوا استغلال التجار المسلمين قبل أن يُقصوهم عن الحركة التجارية، وفرضوا قوانين صارمة على التبادل التجاري وحظَروا تحت طائلة إغراق كل سفينة غير برتغالية تُقدم على الإتجار بين الهند وسواحل إفريقيا الشرقية أو بين الهند والصين واليابان، وبناءً على ذلك احتلوا كوشين وغوا على ساحل ملابار، وجعلوا الأخيرة عاصمة امبراطوريتهم التجارية، كما احتلوا مرفأ باسين، على مقربة من بومباي ومالقا، بالإضافة إلى بعض الموانئ عند مداخل الخليج العربي، وسيطروا على الخط التجاري عبر سورات، ومنها عبر الهند إلى أكرا ودلهي.

وأنشأ البرتغاليون توابع لهم، منهم من تعهد بدفع جزية سنوية مثل سلطان أرمور، ومنهم من وافق على تقديم محاصيل عينية. أما من كان من هؤلاء

الأتباع يتصرف بموانئ تنشط فيها الحركة التجارية، أو يملك أسطولاً حربياً يُخشى جانبه؛ فقد عاملوه بمنتهى الشدّة، وفرضوا عليه قيوداً تجارية وسياسية تخدم مصالحهم، مثل حاكم كاليكوت وحاكم الكجرات، بحيث أمّنوا السيطرة والسيادة في المجال التجاري تاركين لسلاطين الدول الإسلامية الصغيرة وراجات الهند، الذين ارتبطوا معهم بالولاء والتبعية، الحرية التامة بإدارة إماراتهم وممالكهم كما يشاؤون.

عاصر أكبر ظهور قوتين أوروبيتين، القوة البرتغالية والقوة الإنكليزية. وكانت علاقته مع الإنكليز محدودة لأن البرتغاليين كانوا آنذاك القوة الوحيدة التي أسست مراكز تجرية على شواطئ الهند. وسيطرت على التجارة الشرقية وأزاحت التجار المسلمين.

اتصل أكبر بالبرتغاليين أثناء الحملة على الكجرات عام (٩٨١هـ/ ١٥٧٣م)، واستقبل بعض التجار البرتغاليين. أثناء مكوثه في كامبي. الذين قدّموا له احترامهم. ووصل. أثناء حصار صورات، عدد من النصارى من غوا بهدف مساعدة المحاصرين. ولكن عندما شاهدوا قوة السلطان أعلنوا أنهم بعثة جاءت لمقابلة السلطان والتشرف بمقابلته.

لم يشأ أكبر أن يحتكّ بالبرتغاليين، وحتى يؤمِّن طريق الحجاج إلى مكة وافق على طلب الترخيص لنقل هؤلاء بالسفن من صورات إلى مكة مقابل دفع الرسوم المتوجبة، أما التجار المسلمون. فقد ألفوا الحصول على تراخيص لمتابعة نشاطهم التجاري.

واستفاد البرتغاليون من وضع الهند والبلاد المحيطة بها التي لم تنهض اقتصادياتها على نقد معين، والمعروفة بإنتاجها العظيم للمعادن الثمينة لا سيما الذهب، فاحتكروا تجارة هذا المعدن التي كانت المزارات والمعابد الهندوسية بحاجة ماسة إليه، فحمله البرتغاليون من الجزر الأندونيسية وغيرها من الجزر المتناثرة في البحر حتى مشارف اليابان. هذا وقد أثّرت هذه التجارة البرتغالية تأثيراً كبيراً في اقتصاد الهند بما أدخلت عليه من معادن ثمينة وعملات مختلفة ازدادت رواجاً بصورة مطردة في القرن السادس عشر الميلادي.

وطوّر البرتغاليون امبراطوريتهم في الهند الشرقية بحيث تكفي نفسها بنفسها تحت إدارة حاكم الهند العام.

الحركة التبشيرية

جاء البرتغاليون إلى الهند لينشروا في ربوعها الدين النصراني، فوجدوا فيها طائفة من النصارى يبلغ عددهم نحو مائة وخمسين ألفاً من النساطرة الذين اعتنقوا هذا المذهب على يد كهنة سريان، وتوزّعوا في المدن والقرى المتناثرة على سواحل الملابار بخاصة، وشكّلوا طبقة خاصة منعزلة انطوت على نفسها، بهدف المحافظة على بقائهم وسط محيط بشري موزّع بين المسلمين والهندوس. واعترفت البراءات البابوية منذ عام (٨٩٨هـ/ ١٤٩٣م) للبرتغاليين بحق الولاية على المحيط الهندي وعلى بحار الصين، وخوّلتهم حق إنشاء مطرانيات وأسقفيات، وتعيين أساقفة، والتبشير بالإنجيل، ولم يكن لأحد من رجال الدين أن يأتي إلى هذه الديار والمناطق، التي تهب عليها الرياح الموسمية، إلا بإذن خاص من ملك البرتغال وبعد أن يُعرِّج على لشبونة وغوا.

وأنشأ البرتغاليون في غوا مركزاً لرئيس أساقفة، وكاتدرائية ودير للرهبان الفرنسيسكان، ومعهد إكليركي لإعداد الكهنة لعمل الكرازة والتبشير بين الهندوس، كما سمحوا لعدد كبير من المرسلين، من كل الدول الأوروبية، بالمجيء إلى الأقطار الآسيوية والهندية بخاصة، وبذلوا لهم كل عون وحماية، غير أن عملية التبشير قد فشلت لأن رجال الدين استعملوا الشدَّة لحمل الوثنيين على اعتناق النصرانية، فكانوا يعلمونهم، في بضع كلمات، ما يجب عليهم اعتقاده من قضايا الإيمان؛ فلم يُدخل هذا الأسلوب التبشيري الإيمان إلى قلوب الوثنيين الذين سرعان ما عادوا إلى وثنيتهم أو اعتنقوا الإسلام، الأمر الذي دعا السلطات الدينية في أوروبا إلى إرسال البعثات التبشيرية. وقام الآباء اليسوعيون بمجهود كبير للتبشير بالإنجيل ونشر النصرانية، أمثال فرنسوا كسافييه، توفي (٩٥٩هـ/ ١٥٥٢م)، والأب فالغنياني، الذي وصل إلى غوا في (١٩ جمادى الأولى ٩٨٢هـ/ ٦ أيلول ١٥٧٤م) وبرفقته واحد وأربعين راهباً يسوعياً، وقد شهدت حركة التبشير على يديه نقلة نوعية في استقطاب الطبقات الدنيا والمنبوذين، أمثال صيادي السمك وصولاً إلى طبقة الملوك والأسياد وعلية القوم.

وبوصفه سلطاناً منفتحاً على الديانات الأخرى، أراد أكبر أن يطلع على فلسفة الدين النصراني، فأرسل مبعوثاً إلى غوا في عام (٩٨٧هـ/ ١٥٧٩م) يطلب إرسال رهبان لشرح الديانة النصرانية، وإطلاعه على الأسس الفلسفية

لهذه الديانة. استجابت السلطات الدينية لطلب السلطان في جو مفعم بالسرور والطمع في حمل سلطان المسلمين على اعتناق الديانة النصرانية.

ففي عام (٩٨٨هـ/ ١٥٨٠م) أُرسلت من غوا بعثة، برئاسة الأب رودلف أكوافيغا والأب مونسرات، فاستقبلهما أكبر بكل ترحاب واحترام وسمح لهما بأن يبنيا كنيسة في مدينة أكرا، وأظهر إعجابه الشديد بصورة المسيح والعذراء، ووضع ابنه سليم تحت رعايتهما ليجرِّب أثر النصرانية في عقلية طفل صغير غير متعصب، لكن التجربة فشلت، إذ لم يؤثر أي شيء في إيمان الابن بدينه، ومع هذا فإن الآباء لم يلبثوا أن شعروا بخيبة أمل كبيرة لأن السلطان لم يكن غنيمة سهلة. بعد أن مكثت البعثة ثلاثة أعوام في بلاط السلطان عادت من دون أن تستطيع تحقيق هدفها.

وأُرسلت من غوا بعثة ثانية وصلت إلى القصر المغولي في عام (٩٩٨هـ/ ١٥٩٠م) ولكنها لم تكن أكثر نجاحاً من سابقتها، فقد فشلت أيضاً في حمل السلطان على التنصر. وبدأ هؤلاء اليسوعيون يدركون أن عقل السلطان أكبر كان شديد العصيان على الرغم من ترحيبه بوجودهم في بلاده، وما لبثت هذه البعثة أن عادت تجر أذيال الخيبة والفشل بعد أن مكثت في أكرا أكثر من ثلاثة أعوام.

وصلت الإرسالية الثالثة إلى لاهور، حيث كان يقيم السلطان أكبر، وقوبلت بحفاوة، وأحرزت نجاحاً لم تحرزه الإرساليتان السابقتان. فقد سمح السلطان لأعضائها أن يبنوا كنائس في لاهور وأكرا وأن يقوموا بالتبشير إن استطاعوا، كما حصلوا على امتيازات تجارية، وبذلك أضحت الإرساليات التبشيرية، إلى حد ما، مؤسسة دائمة في الدولة المغولية.

وأصدر السلطان أكبر في عام (١٠٠٩هـ/ ١٦٠٠م) أمراً يجيز للمرسلين التبشير بالإنجيل، كما ترك لرعاياه الحرية باعتناق النصرانية. وفي عام (١٠١١هـ/ ١٦٠٢م) أُسِّست أول كنيسة نصرانية في أكرا، ثم رُخِّص بعدها لبعض الأمراء اليسوعيين بإنشاء إرساليات تبشيرية في البلاد.

الواضح أن هدف أكبر، من وراء استدعاء البعثات التبشيرية والاحترام العميق الذي أضفاه على نبيهم لم يكن دينياً بحتاً، والواقع أنه كان غطاءً لهدف سياسي، فقد رغب في كسب ودّ وصداقة البرتغاليين في غوا لأنهم كانوا يملكون مدفعية ضخمة، ويطمع في مساعدتهم ضد قلاع أسيرغرة

الثائرة وضد ابنه سليم الذي خرج عليه، والحقيقة أن السلطان كان دائماً رجل سياسة ورجل دولة أكثر منه رجل دين، وتكمن وراء تصرفاته دوافع سياسية[1].

الفتوح الإقليمية

الفتوح في الشمال والوسط

فتح غوندوانا: أدرك أكبر، من خلال التجارب الماضية والعقوبات التي واجهها في مستهل حياته السياسية، أنه لا يمكن أن يحكم بسلام لو ظلت الهند مجموعة من الإمارات الصغيرة المتفرقة والمتناحرة، وأن السبيل الوحيد لإقرار السلام يكمن في تقوية الحكومة المركزية لتدير أجزاء الهند كافة، أي العمل على توحيد البلاد وإخضاعها لحكم المغول، واستوجبت هذه النظرة السياسية الاندفاع في غزوات وحروب متصلة الحلقات حتى عام (١٠٠٩هـ/ ١٦٠١م) انتهت بتدعيم ملكه وتوسيع رقعة دولته.

ابتدأت سلسلة الفتوح بإخضاع الأمراء الراجبوت الذين رفضوا الدخول تحت حكمه، فغزا غوندوانا، إحدى إمارات الراجبوت الصغيرة في الإقليم الأوسط من الهند، والممتدة من رنثبور في الشرق إلى رايسين في الغرب وروا في الشمال حتى حدود الدكن في الجنوب، وهي تحت حكم ملكة هندوسية تدعى راني درجفاتي نيابة عن ابنها الصغير بير نرايان، وكانت امرأة شجاعة دافعت عن مملكتها ضد هجمات بازبهار وأفغان مالوة من قبل.

أرسل أكبر جيشاً في عام (٩٧٢هـ/ ١٥٦٤م) لفتح غوندوانا بقيادة آصف خان حاكم قرة، فبذلت الملكة الحاكمة جهداً كبيراً للدفاع عن إمارتها الصغيرة، وقاومت الجيش المغولي ببسالة، ولكن من دون جدوى. وعندما أدركت أخيراً استحالة الاستمرار بالمقاومة انتحرت بأن طعنت نفسها وسقطت في ميدان القتال مفضلة الموت على الاستسلام. وحين تبيّن لابنها استحالة الوقوف في وجه القوات المغولية آثر تناول السم على الاستسلام لأعدائه، فلحق بأمه. وبذلك تمَّ إخضاع غوندوانا وضمّها إلى أملاك السلطنة[2].

(١) الشيال: ص٩٤.

(٢) Ferishta: II, p133.

فتح ميوار: التفت أكبر بعد ذلك إلى فتح ميوار، وكان حاكمها أوداي سينغ رانا مروار يُنظر إليه على أنه عدو وأجنبي، ورفض الخضوع له، كما آوى كل ثائر على الدولة، أمثال بهادور خان أمير مالوة السابق، فضلاً عما كان يبذله من مساعدة لأبناء عمومة أكبر الطامعين في ملكه. يضاف إلى ذلك، فإن لميوار أهمية اقتصادية وسياسية بالغة، فهي تتحكم بالطريق التجاري من شمال الهند حتى شاطئ الكجرات، وأن سيطرة أكبر على شمالي الهند تبقى مزعزعة من دون السيطرة على ميوار لأنها تشرف على حدود دولته[1].

هاجم أكبر ميوار وحاصر حصن تشيتور المنيع في (١٦ ربيع الآخر ٩٧٥هـ/ ٢٠ تشرين الأول ١٥٦٧م) والمبني وسط سلسلة من الاستحكامات القوية على امتداد ثمانية أميال، على نتوء صخري وارتفاع شاهق. وتلقّى أوداي سينغ نصيحة من أركان حربه بالخروج إلى التلال المجاورة حرصاً على حياته، ونظَّم قبل خروجه حركة المقاومة، فعيَّن القائدين جاي مال وبتا للدفاع عن الحصن، فأبديا ضروباً من البسالة حالت دون اقتحام أكبر للحصن[2].

وحدث، بعد خمسة أشهر من الحصار والضرب المتواصل، أن أصيب جاي مال برصاصة أطلقها عليه أكبر وهو يُشرف على ترميم أسوار الحصن، وسرعان ما توفي متأثراً بجروحه، ففتَّ ذلك في عضد أتباعه وأحدث خللاً في حركة المقاومة، ودبّ الذعر والخوف في نفوس السكان، فعمد النساء والشيوخ إلى قتل أنفسهم بأيديهم أو حرق أجسادهم.

وقرّر المقاتلون الخروج من الحصن والاشتباك مع الجيش المغولي، وجرى بين الطرفين قتال ضار ووحشي أسفر عن إبادة الراجبوت. ودخل أكبر إلى الحصن وأجرى فيه مذبحة مروعة بمن بقي على قيد الحياة[3].

وأُعجب أكبر بما أظهره الراجبوت من البسالة والاستماتة في الدفاع عن الحصن، وهو الذي يقدر الشجاعة، فاحتفظ بتمثالين للقائدين جاي مال وفتح سينغ، وهما على ظهر فيل، ووضعهما على بوابة حصن أكرا[4].

(١) داود، أحمد: تاريخ ألفي مجموعة اليوت: ج٥ ص١٧٠ ـ ١٧٤.

(٢) بداوني: ج٢ ص١٠٤. بخشي: ج٢ ص٦٧ ـ ٧٠. Ferishta: II, p140.

(٣) Ibid: pp140-142.

(٤) Prasade: Muslim Rule in India: p325.

وهكذا نجح المغول في فتح عاصمة ميوار وحصنها تشيتور، لكن القسم الأكبر من الإمارة استمر تحت حكم أوداي سينغ، وعندما توفي هذا في عام (٩٨٠هـ/ ١٥٧٢م) خلفه ابنه المتشدد رانا براتاب الذي نهض لاسترداد ما فقدته الإمارة من أراضٍ على أيدي المسلمين، على الرغم مما بذله أكبر من جهود لاستقطابه، واضطر أخيراً إلى استعمال القوة لإخضاعه، فأرسل من أجل ذلك جيشاً كبيراً في عام (٩٨٤هـ/ ١٥٧٦م) بقيادة مان سينغ، وآصاف خان، اشتبك مع قوات رانا براتاب في معركة عند هالدي غاني في (٢١ ربيع الأول/ ١٨ حزيران) أسفرت عن انتصار القوات المغولية. وتعرّضت حياة رانا براتاب للخطر أثناء القتال ولم ينقذه إلا استعمال الحيلة، إذ أقدم أحد الأمراء، ويُدعى بيدا جهالا، على انتزاع التاج الملكي من على رأس براتاب ووضعه على رأسه، فحاصره المغول معتقدين أنه الأمير الحاكم، الأمر الذي أتاح لبراتاب الفرار من أرض المعركة والنجاة بنفسه. وفتح المغول توكوندا بعد المعركة، ولم يطاردوا الفارين بسبب الإنهاك الذي بدا عليهم، إلا أن السلطان أرسل بعد ذلك فرقة عسكرية لمطاردته والقبض عليه، وكان قد لجأ إلى التلال والغابات المجاورة، ولكن العملية كانت فاشلة. وفتح أكبر كامل إمارة ميوار وواصل رانا براتاب تحديه للحكومة المركزية ومقاومته لأطماع أكبر ورفض الاعتراف بحكمه، وعندما توفي في عام (١٠٠٥هـ/ ١٥٩٧م) كان قد نجح في استعادة أجزاء واسعة من الإمارة، ويُعدُّ الهندوس كفاح هذا الزعيم الراجبوتي صفحة مشرقة في تاريخهم[1].

فتح رنثنبور: لم يكد السلطان أكبر يفرغ من فتح تشيتور حتى أخذ يستعد لفتح حصن رنثنبور، ثاني أقوى حصون الهند الكبرى، فجهَّز جيشاً اختار أفراده من الذين لم يشتركوا في فتح تشيتور، وخرج على رأسه في عام (٩٧٦هـ/ ١٥٦٨م) باتجاه رنثنبور. كان صاحب الحصن آنذاك راجا سورجان راي أحد أتباع حاكم مروار. وأثناء زحف الجيش علم أكبر بالاضطرابات التي أثارها آنذاك بعض الثائرين من الأوزبك والأفغان الذين ما إن فروا من الكجرات حتى ذهبوا إلى حصن أوجان وحاصروه، فتحول عندئذٍ إلى مروار

(١) بخشي: جـ٢ ص١٢٥، ١٤٠.

للقضاء على ثورتهم، وعندما علم هؤلاء بقرب وصول القوات المغولية فكوا الحصار عن الحصن وفروا باتجاه ماندو، فطاردهم الجيش المغولي حتى نهر تربدة حيث غرق معظمهم أثناء عبورهم النهر.

عاد أكبر مع جيشه إلى رنثنبور، وعسكر على التلال المحيطة بها وراح يضربها بالمدفعية. ويبدو أن راجا سورجان كان عاجزاً عن المقاومة وآثر السلامة، وتوسط له بهجوان داس ومان سينغ لدى السلطان، فخلع عليه وعلى ولديه وعيَّنه حاكماً على إقليم بنارس، كما عهد إليه بحكم قلعة جيتور[1].

فتح كالنجر: أدى سقوط حصني تشيتور ورنثنبور إلى تسهيل مهمة فتح حصن كالنجر في بندلخند، وكان الهدف الثالث للسلطان أكبر، والمعروف أن شير شاه فشل من قبل في فتحه نظراً لمناعته، وهو الآن تحت حكم راجا رام شاندرا. أرسل أكبر في (ربيع الأول ٩٧٧هـ/آب ١٥٦٩م) القائد مجنون خان كاكشال، الذي كان من حكام هذه النواحي، على رأس جيش لفتح الحصن، فاستسلم حاكمه من دون قتال بعد أن علم بسقوط حصني تشيتور ورنثنبور. وحذا صاحبا حصني جدهبور راي مال مالديو وبيكانر راجا كاليان مال، حذوه وخضعوا لأكبر، فأرسل الأول ابنه شاندرا ليقدم الولاء والتبعية، وقدَّم الثاني ابنته زوجة لأكبر[2].

وبسقوط الحصون الثلاثة الكبرى في الهند، وبحلولِ العام (٩٧٨هـ/ ١٥٧٠م) رسّخ أكبر أقدامه في الراجبوتانا باستثناء بعض المدن الصغيرة التابعة لمروار، أمثال دنكر بور وبانسوارا وبارتيغار، وتعزَّزت حدود دولته، وأدّى ما سلكه مع أصحاب تلك الحصون حين استسلموا له حيث صحبهم إلى بلاطه وأجرى عليهم الأرزاق، وعهد إليهم بقدر من المناصب؛ إلى مساهمتهم في بناء الدولة بإخلاص[3].

فتح الكجرات: بعد أن سيطر أكبر على الراجبوتانا وضمها إلى مملكته، أضحت حدوده تجاور مملكة الكجرات الإسلامية، والمعروف أن همايون كان قد ضمَّ هذه الولاية إلى أملاكه في عهد صاحبها بهادورشاه، ولكن هذا الضمّ كان مؤقتاً إذ سرعان ما استعاد بهادورشاه الحكم واستقل عن أكرا أثناء انهزام

(١) بخشي: جـ٢ ص٧٣. (٢) المصدر نفسه: ص٧٤.
(٣) Prasade: pp327, 328.

همايون أمام شير شاه وفرَّ من الهند، وبقيت الكجرات مستقلة منذ ذلك الوقت، وكان يحكمها، في عهد أكبر، مظفرشاه الثالث حفيد بهادورشاه، الذي لم يكن إلا حاكماً ضعيفاً وألعوبة في أيدي رجال دولته، وقد حان الوقت ليعمل أكبر على استعادة هذه الولاية مدفوعاً بعوامل عديدة نذكر منها:

ـ أن الكجرات كانت يوماً تحت حكم والده ولا بد من استعادتها وضمّها ثانية إلى دولة المغول.

ـ لم تكن حال الولاية مستقرة، وكثرت فيها الفتن والاضطرابات، واختل نظام الملك نتيجة للصراع القائم بين مظفرشاه الثالث والحكام الذين كان همايون قد أقامهم هناك إبان حكمه.

ـ كانت الولاية ملجأ لكل القادة الثائرين على حكم المغول، فلجأ إليها الأوزبك والأفغان وأمراء المغول العصاة، وقامت فيها ثورة خطيرة ضد الحكم المغولي.

ـ كانت الكجرات ولاية خصبة، وفيرة الثراء، وتجارتها البحرية مع العالم الغربي مزدهرة بفضل موانئها المتعددة، وتستقطب الطامعين، وفي مقدمتهم أكبر.

ـ أرسل اعتماد خان، وزير مظفرشاه الثالث، يلتمس المساعدة من أكبر لإنقاذ الولاية من الفوضى التي تسودها.

رحَّب أكبر بالدعوة التي وجَّهها إليه اعتماد خان، فجهَّز جيشاً من عشرة آلاف مقاتل بقيادة مير محمد خان أتكة، المشهور بخان كلان، وأرسله إلى العاصمة أحمد آباد في (ربيع الآخر ٩٨٠هـ/آب ١٥٧٢م)، ولحق به بعد ذلك، فأسرع مظفرشاه الثالث إلى الاستسلام وكذلك فعل أمراؤه، وخضعوا جميعاً للسلطان الذي عيَّن أخاه حاكماً على العاصمة، كما عيَّن قائده أعظم عزيز كوكتاش حاكماً عاماً على الكجرات، وأمره بمطاردة أعدائه الذين فروا إلى سورات وعلى رأسهم إبراهيم حسين ميرزا وأخيه محمد، ثم لحق به[١].

كان البرتغاليون قد أسسوا في سورات مركزاً لتجارتهم ووضعوا فيه حامية من الجند، ولما زحف أكبر مع جيشه لإخضاع المدينة نهض هؤلاء لمساعدة

(١) بخشي: جـ٢ ص٨٠، ٨١، ٨٤.

الثائرين اللاجئين إليها، ولكن عندما رجحت كفة أكبر مالوا إلى الصلح حرصاً على مصالحهم التجارية، وعقدوا معه معاهدة تعهدوا فيها بتسهيل الحج إلى مكة وعدم التعرض للحجاج المسلمين في البحر، والمعروف أن الكجرات كانت طريقاً ومنطلقاً للحجاج المسلمين من كافة أنحاء الهند، وكانت سورات الميناء الذي يبحر منه هؤلاء. وفرَّ إبراهيم حسين ميرزا من سورات عندما علم بزحف الجيش المغولي، فطاردته قوة عسكرية، بقيادة سيد محمود خان بارها وراجا بهجوان داس وكانور مان سينغ وآخرين، فاشتبكت معه عند سارنال في (شعبان/كانون الأول) وتغلَّبت عليه. ودخل أكبر مدينة سورات وضمها إلى أملاكه، كما دخل مدينة كامبي واستقبل فيها عدداً من التجار الأتراك والسوريين والفرس والبرتغاليين. ولم يكن قد رأى البحر من قبل، فانتهز الفرصة وقام برحلة بحرية قصيرة في المحيط، وبعد أن استقر له الوضع في ولاية الكجرات عاد إلى عاصمته الجديدة بورسكري أو فتح بور[١].

لم يكد أكبر يغادر الكجرات حتى اندلعت الثورة فيها بزعامة محمد حسين ميرزا، الذي عاد إليها من دولت آباد، وشكل حلفاً مع أمرائها الناقمين على الحكم المغولي. وحاصر الثائرون خان أعظم، حاكم أحمد آباد، ولم يكن هذا في حال يسمح له بالتعامل مع هذا الوضع الجديد، لذلك أرسل إلى السلطان يخبره بتفاصيل الحالة السياسية المستجدة. وعندما تلقى أكبر الرسالة غادر فتح بور في (٢٤ ربيع الآخر ٩٨١هـ/ ٢٣ آب ١٥٧٣م) في طريقه إلى الكجرات ووصل إلى أحمد آباد في (٤ جمادى الأولى/ ٢ أيلول) قاطعاً مسافة أربعمائة وخمسين ميلاً في وقت قياسي بلغ تسعة أيام. وفاجأ الثائرين الذين لم يتوقعوا وصوله بمثل هذه السرعة، واصطدم بهم بالقرب من أحمد آباد وهزمهم، ووقع محمد حسين ميرزا في الأسر إلا أنه تمكّن من الفرار، فأرسل أكبر قطب الدين محمد خان ونورنغ خان لمطاردته والقبض عليه. ودخل السلطان أحمد آباد واستولى على كامبي وباورودا واقتحم سورات، وعهد إلى وزيره تدرمال، ثم إلى شهاب الدين أحمد خان من بعده، بتنظيم شؤون الكجرات المالية والإدارية، ثم غادره عائداً إلى فتح بور[٢].

(١) بخشي: جـ٢ ص٨٤ ـ ٩٠.
(٢) المصدر نفسه: ص٩٢ ـ ٩٤.

خيَّم الاستقرار على الكجرات مدة عشرة أعوام حيث أتيح لمظفرخان الثالث، سلطان الكجرات، أن يعيد تجميع صفوف قواته ويهاجم مدنه وذلك في عام (٩٩١هـ/ ١٥٨٣م)، فاستعاد أحمد آباد وكامبي وبارودا وسيطر على معظم أراضي الولاية، فسيَّر إليه السلطان قائده ميرزاخان، خان خانان، ثم عبد الرحيم خان فردّه عن كثير مما سيطر عليه، وما زالت القوات المغولية تطارده من مكان إلى آخر حتى استسلم في عام (١٠٠٠هـ/ ١٥٩٢م) ليقتل نفسه بعد ذلك بموسى كان يخفيها في ثيابه، وعهد أكبر إلى ثاني أبنائه مراد بشؤون هذه الولاية التي أضحت جزءاً من أراضي الدولة المغولية، وبقيت في حوزة السلاطين المغول زهاء قرنين من الزمان[١].

تعقيب على فتح الكجرات

- يُعد فتح الكجرات إيذاناً ببدء عهد جديد في حكم أكبر. فقد بدأت الدولة المغولية تخطو، بعد هذا الفتح، خطوات واسعة وثابتة نحو المجد والرفاهية، بفعل أن خراج هذه الولاية يُعدُّ من أهم موارد الدولة، حيث يُقدَّر بنحو خمسة ملايين روبية في السنة.
- بدأ السلطان، ولأول مرة، يتصل اتصالاً مباشراً بالبرتغاليين، وقد نتج عن هذا الاتصال آثار سياسية هامة.
- مهَّد فتح الكجرات الطريق لفتوح أخرى لأن هذه الولاية اتُّخذت كقاعدة انطلاق لغزو المملكة الجنوبية المعروفة باسم الدكن، كما أضحى غزو البنغال أمراً ميسوراً.

ضمّ البنغال: كان البنغال تحت حكم سليمان خان كرّاني صاحب بيهار، استولى عليه في عهد سليم شاه سور، وأسَّس فيه مملكة مستقلة في عام (٩٧١هـ/ ١٥٦٤م)، وجرى هذا الأمير على إعلان ولائه للدولة المغولية مؤثراً السلامة، واعترف لأكبر بحق السيادة عليه ودفع الخراج له، وذلك في عام (٩٧٥هـ/ ١٥٦٨م).

توفي سليمان خان في عام (٩٨٠هـ/ ١٥٧٢م) وخلفه ابنه بايزيد، فقتله وزراؤه بعد قليل ورفعوا أخاه داود على العرش، وكان هذا عنيداً صلب الرأي، انتهج سياسة مغايرة لسياسة والده، ويبدو أنه اغترَّ بما خلَّفه أبوه من

(١) بخشي: جـ٢ ص١٧١ - ١٧٧.

أموال وفيرة، وما تهيأ له من جند كثيف، بالإضافة إلى انهماك أكبر بحروبه؛ فأعلن استقلاله عن الدولة المغولية، وامتنع عن دفع الخراج، وضرب السكة باسمه، وخُطب له على المنابر، وراح يهاجم أراضي الدولة المغولية الشرقية، فهاجم رمانية، البوابة الشرقية للدولة وبلغ بتنة وخرّبها. استاء أكبر من موقف داود، فكلَّف قائده منعم خان بإخضاعه واستكمال فتح البنغال[١].

كان داود آنذاك في حاجي بور، وأدرك أمير أمرائه لودي، الذي كان على خلاف معه، أن كفَّة المغول هي الراجحة، وتجنباً لدمار الأفغان، عرض الصلح على منعم خان. وكانت الصداقة القديمة بينه وبين سليمان خان، والد داود، كفيلة بأن تجعله يوافق على عرض الصلح، على أن يُقدِّم داود مائتي ألف روبية نقداً ومائة ألف روبية قماش، هدية ودفع الخراج، مقابل سحب القوات المغولية، وأقطعه منعم خان أوريسَّا على الرغم من معارضة القائد تدرمال الذي كان يرافق القائد المغولي[٢].

كان داود شاباً أحمقَ قصير النظر في الحقل السياسي، فأقدم على قتل أمير أمرائه لودي بناءً على رأي بعض مستشاريه المعادين له، وهو الذي كان يحمي المملكة من الفوضى بحسن سياسته وتدبيره، فأثار مقتله منعم خان الذي تربطه به صداقة، وقرَّر إخضاع داود وتأديبه والاستيلاء على مملكته، وأعلم السلطان بذلك[٣]، فقرَّر هذا التوجه بنفسه إلى بتنة وحاجي بور للقضاء على داود، فخرج من العاصمة في (صفر ٩٨٢هـ/ حزيران ١٥٧٤م)، فاستولى على بتنة وحاجي بور، واضطر داود إلى الفرار، وذلك في (٣ جمادى الأول/ ٢١ آب)، وكلَّف منعم خان بمطاردة الثائر[٤].

تحصَّن داود في تاندة، فهاجمه منعم خان واستولى على المدينة في (٤ جمادى الآخرة/ ٢١ أيلول) وفرَّ الأول إلى أوريسَّا، فأرسل منعم خان راجا تدرمال لتعقبه، فهرب إلى دهربور، وهو مكان بين البنغال وأوريسّا، ثم التجأ إلى قلعة غانج بنارس، وهي مركز ولاية أوريسا، ولمّا علم منعم خان بذلك، قرّر قيادة الحملة بنفسه، فلحق بقائده تدرمال واصطدام بداود وانتصر عليه،

(١) بخشي: جـ٢ ص١٠٩. Ferishta: II, p150.
(٢) المصدر نفسه: ص١١٠ Ibid.
(٣) المصدر نفسه: ص١١٠، ١١١.
(٤) المصدر نفسه: ص١١١ - ١١٦.

فاضطر هذا الأخير إلى طلب الصلح ووافق على دفع الخراج[١].

وعندما توفي منعم خان في عام (٩٨٣هـ/ ١٥٧٥م)[٢]، نهض داود لاستعادة ملكه المفقود، فاستولى على تاندة، فأرسل إليه أكبر جيشاً بقيادة خان جهان، نائب السلطنة الجديد، وعيّنه حاكماً على البنغال وبيهار، فاصطدم به في ساحة راجا محل وقضى عليه وذلك في (ربيع الآخر ٩٨٤هـ/ تموز ١٥٧٦م)[٣]. فزال بمقتله استقلال البنغال، وضُمَّت إلى الدولة المغولية، لكن الحكم المغولي فيها بقي مزعزعاً وغير مستقر بوصفها مملكة كان يحكمها الأفغان، وهي مركز تجمُّعهم، وكانت لهم فيها الإقطاعات الكثيرة والكبيرة بما يصحبها من نفوذ، ولم تستقر تماماً لحكم المغول إلا في عهد جهانكير.

وحدث بعد وفاة خان جهان في عام (٩٨٧هـ/ ١٥٧٩م) أن خلفه مشرف الديوان مظفرخان[٤]، ففرض الضرائب المرتفعة على الملاك وأصحاب الأراضي الأمر الذي أدّى إلى اندلاع ثورة هؤلاء، واتسعت الفتن وعمَّت الاضطرابات فشملت البنغال وجونبور. وأدّى نفور العلماء ورجال الدين المحافظين، من نزعات أكبر الدينية المنفتحة، دوراً في ذلك، وقد أفتوا بوجوب حربه لما استحدثه من بدع تُزعزع بناء الإسلام في الهند.

وبلغ من عنف الثورة أن قتل مظفرخان نفسه، كما اضطرت القوات المغولية، التي قدمت من دلهي بقيادة تدرمال، إلى الاعتصام في حصن منفر، حتى جاء ميرزا عزيز كوكا فقضى على التمرد الذي قاده بابا خان وعشائره الجغتائية في البنغال، وأرسل قائده بازخان إلى بيهار فقضى على التمرد الذي قاده معصوم فرنخودي، وأجبره على الفرار إلى تلال سوالك بالبنجاب[٥].

ضمّ كابل: انتهج ثوار المناطق الشرقية من أفغان وأوزبك، وهم سنيون متشددون، سياسة معادية لأكبر، إذ عدوه ملحداً، وعمدوا، في غمرة العصيان، إلى إثارة القلاقل والفتن عند حدود الدولة الغربية والشمالية الغربية لتخفيف الضغط عنهم، وحتى يُعطوا حركتهم دفعاً معنوياً ومادياً اتخذوا من الأمراء المغول الطامعين في الحكم والمعادين لحكم أكبر، ستاراً يتحركون من

(١) بخشي: جـ٢ ص١٢٢ ـ ١٢٧.
(٢) المصدر نفسه: ص١٣١.
(٣) المصدر نفسه: ص١٣٦.
(٤) المصدر نفسه: ص١٤٧.
(٥) انظر عن أحداث البنغال: المصدر نفسه: ص١٥٢ ـ ١٥٨.

خلاله. وكان ميرزا محمد حكيم، أخو السلطان أكبر، يحكم كابل ويطمع في اعتلاء العرش في أكرا، فرأى في الثائرين عوناً وسنداً للتخلص من نير أخيه الجالس عليه، وقد وعده هؤلاء بمساندته، وانضم إليه عدد من قادة أكبر الناقمين، الأمر الذي شجَّعه على مهاجمة البنجاب في عامي (٩٧٣ و٩٧٤هـ/ ١٥٦٦ و١٥٦٧م)، غير أنه فشل في السيطرة عليه، على الرغم من أنه دخل لاهور ونهب ما جاورها[١].

وهاجم ميرزا محمد حكيم الهند في عام (٩٨٩هـ/ ١٥٨١م) على رأس جيش يقدر بخمسة عشر ألف جندي، وحاول عبثاً استقطاب سكانها. ولما عبر نهر السند مندفعاً إلى لاهور تصدى له أكبر، الذي خرج على رأس خمسين ألف مقاتل وخمسمائة فيل يرافقه ولداه سليم ومراد، فتقدم سليم إلى جلال آباد بعد أن عبر ممر خيبر في حين توجه مراد إلى كابل، فاصطدم بقوات عمه وأرغمه على الاستسلام، فعفا عنه السلطان وردَّه إلى حكم كابل على أن تكون إمارة تابعة للدولة المغولية[٢]. ويبدو أن أكبر خشي من انضمام أخيه إلى أعدائه الأوزبك في بلاد ما وراء النهر.

ظل ميرزا محمد حكيم حاكماً على كابل حتى توفي في عام (٩٩٣هـ/ ١٥٨٥م)[٣] فضُمَّت بعدها إلى الدولة المغولية، وولّى عليها أكبر مان سينغ الهندوسي[٤]، وكان ذلك من دلائل تسامحه وحكمه القوي، إذ كانت هذه أول مرة يُعين فيها هندوسي في حكم ولاية إسلامية في الهند.

كان لضم كابل إلى الدولة المغولية نتائج بالغة الأهمية، نذكر منها:

ـ شكل هذا الضم ضربة قاضية لثورات السنة الذين كانوا يطمعون في تولية ميرزا محمد حكيم حاكماً على الهند، لأنه كان سنياً متشدداً، ثم يتحركون من خلاله، واضطر المترددون منهم والضعاف على الاعتراف بحكم أكبر خوفاً من بطشه.

(١) بخشي: جـ٢ ص٥٥ ـ ٥٨.
(٢) المصدر نفسه: ص١٥٨ ـ ١٦٢.
(٣) بداوني: جـ٢ ص٣٤٦. ويجعل بخشي وفاته سنة ٩٩٤هـ، جـ٢ ص١٨٥.
(٤) بخشي: جـ٢ ص١٨٦.

ـ شعر السلطان بأنه تخلّص من كل القيود التي تُكبله وتمنعه من إتمام إصلاحاته، ولهذا بدأ يعمل على تنفيذ نزعاته الدينية.

ـ أزال هذا الضم الحواجز التي كانت تحول دون تدفق الجنود الأفغان الشجعان إلى الهند، فأتاحت للدولة المغولية تأمين مورد بشري مقاتل لا ينضب.

ـ وضع ضم كابل حداً للغارات المتجددة التي كانت تهدد الهند من الشمال الغربي.

ـ أتاح ضم كابل تأمين الحدود الشمالية الغربية، بفعل إخضاع المنطقة القبلية، التي تعج بقبائل الأوزبك والأفغان المعادية، فنقل أكبر بلاطه إلى لاهور ليكون قريباً من مجرى الأحداث. وكان الأوزبك، بقيادة عبد الله، قد طردوا ميرزا سليمان من بدخشان ووجهوا أنظارهم إلى كابل. وقد لقي عبد الله تأييداً من قبائل يوسف زاي الأفغانية لكرههم الشديد لأكبر، إذ عدُّوه ملحداً، فأرسل أكبر بعض قادته، راجا مان سنغ وزين خان وراجا بير مال، اصطدموا بعبد الله وحلفائه الأفغان وتغلَّبوا عليهم[1].

ضم كشمير: كانت كشمير تحت حكم الملوك المسلمين السنة المتشددين، وقد عاملوا رعاياهم الهندوس بالشدة والقسوة الأمر الذي أثار أكبر، وكان يقيم آنذاك في لاهور، وكان يطمع في ضمّ هذه الإمارة بفعل ما تتمتع به من جو جميل ومناظر ساحرة وأرض خصبة، وكانت آنذاك تحت حكم يوسف خان، فأرسل قائديه، ميرزا شاه رخ وراجا بهجوان داس، لقتاله في عام (٩٩٤هـ/ ١٥٨٦م)[2]، ولكن الثلج والبرد أعاقهما عن إتمام فتحها وإن كان حاكمها قد عقد الصلح على أن يرسل ولديه إلى بلاط أكبر ليكونا رهينة، وتجنَّب هو الذهاب بنفسه. لم يقبل أكبر هذا التصرف من يوسف خان وقد أراد أن يضمّ كشمير إلى أملاكه، فأرسل جيشاً ثانياً بقيادة قاسم خان لإخضاعه، فشدَّد الضغط عليه حتى أجبره على إعلان خضوعه، ودخل في خدمة أكبر، فأكرمه هو وابنه يعقوب الذي كان قد استأنف المقاومة ثم هُزم واستسلم، فعيَّن كلاً منهما في وظيفة منصب دار. وضُمَّت كشمير إلى أملاك المغول وأضحت ولاية من ولاياتهم في الهند، وذلك في

(١) الشيال: ص٩٩. (٢) بخشي: جـ٢ ص١٨٧، ١٨٩، ١٩٠.

عام (٩٩٥هـ/ ١٥٨٧م). زار أكبر كشمير في عام (٩٩٧هـ/ ١٥٨٩م) وعهد بإدارتها إلى عدد من القادة من ذوي الخبرة والمقدرة، وأضحت منذ ذلك الحين مصيفاً للسلاطين المغول[1].

ضم السند: كانت الملتان خاضعة لحكم المغول منذ عام (٩٨٢هـ/ ١٥٧٤م)، وعهد أكبر بحكمها إلى عبد الرحيم خان خانان، وأمره باتخاذ الإجراءات اللازمة لفتح جنوبي السند. والمعروف أن أكبر كان قد أخضع بهاكاراس، ولكنه لم يتمكّن من إخضاع الجزء الجنوبي. كان حاكم هذه المنطقة آنذاك جاني بك الذي رفض الدخول تحت سيادة المغول واستقل بحكمها. خاض عبد الرحيم معركتين ضد جاني بك فانتزع منه حصني ثاتّا وسهوان وأجبره على الاستسلام في عام (١٠٠٠هـ/ ١٥٩٢م)، فحمله إلى أكبر الذي عفا عنه وعيّنه حاكماً على ثاتّا، وخلفه بعد وفاته ابنه غازي بك[2].

ضم أوريسّا: استقل قوتولو خان لوحاني بحكم أوريسّا في عام (٩٩٨هـ/ ١٥٩٠م)، فسار راجا مان سينغ حاكم بيهار لحربه وإخضاعه، وقبل أن يشتبك الطرفان في قتال توفي قوتولو، فخلفه ابنه نزار خان الذي وقع عليه عبء الدفاع عن الإمارة، فاشتبك في قتال خفيف مع القوات المغولية قبل أن يستسلم نتيجة التفاوت في القوة، فأعاده السلطان إلى حكم الإمارة، إلا أنه ثار بعد عامين وحاول الاستيلاء على مقاطعتي بوري وجاغانّا، فتصدَّى له راجا مان سينغ، فهزمه وطرده، وضمّ أوريسّا إلى البنغال، وأضحت جزءاً من الدولة المغولية، واستمرت كذلك حتى عام (١١٦٤هـ/ ١٧٥١م) عندما انتزعها المهرات.

ضم بلوخستان وقندهار: عيّن أكبر في (جمادى الآخرة ١٠٠٣هـ/ شباط ١٥٩٥م) مير معصوم لفتح بلوخستان، وتقع هذه الولاية إلى الشمال من دولته، وكانت تحت حكم الأفغان البارنيين. هاجم القائد المغولي حصن سيبي قرب كوتّا، فاستسلم صاحبه، وضمَّ بلوخستان مع مكران إلى الدولة المغولية.

(١) بخشي: جـ٢ ص١٩١. (٢) المصدر نفسه: ص٢٠٠ ـ ٢٠٢.

مهّد فتح السند وبلوخستان الطريق لفتح قندهار بفعل أن أكبر أطلّ على هذا الإقليم الذي كان يمنّي النفس، منذ أمد بعيد، باستعادته من الفرس، فهو يشكل مفتاح الطريق إلى حدوده الشمالية الغربية، فانتهز فرصة انهماك الشاه عباس الصفوي بحروبه مع العثمانيين والأوزبك، واندفع بقواته إلى هذا الإقليم، وكان حاكمه مظفر حسين ميرزا على خلاف مع الصفويين في طهران، ويخشى خطر الأوزبك، لذلك ارتمى في أحضان أكبر وطلب منه إرسال أحد قادته لتسلم الإقليم، فأرسل شاه بك، فتسلم قندهار من دون حرب، وعيّن مظفر حسين في وظيفة منصب دار وحاكماً على سمبهال.

وبضم قندهار يكون أكبر قد سيطر على كامل شمالي الهند ووسطها باستثناء جزء من ميوار، وأضحى له مملكة واسعة الأرجاء تمتد من آخر حدود البنغال الشرقية إلى ما وراء جبال هندوكوش وأرض كابل وغزنة وقندهار في الغرب، ومن جبال الهملايا في الشمال إلى نهر نربدا في الجنوب، ولمّا ينته من فتوحه بعد.

الفتوح في الجنوب

بعد السيطرة على الشمال والوسط، التفت أكبر إلى التوسع باتجاه الجنوب حيث الممالك الإسلامية الخمس التي قامت على أنقاض الدولة البهنمية في الدكن، وكان يطمع دائماً في ضمها إلى دولته وتوحيد الهند كلها تحت حكمه، وهي دولة بريد شاه في بيدار وممالك بيرار وغولكوندة وبيجابور وأحمد نكر، وكانت في تنافس دائم وعداء مستمر ما خلّف أجواء مناسبة للتدخل الخارجي.

وكان صاحب أحمد نكر قد أغار على إمارة بيرار في عام (٩٨٠هـ/ ١٥٧٢م) وضمّها إلى ملكه، فقويت بذلك شوكته وأضحى يشكل قوة خطيرة. وقامت في شمال هذه الممالك مملكة إسلامية أخرى هي مملكة خانديش وعاصمتها برهان بور، وقد ضمّها ملك الكجرات أخيراً، وعندما ضمَّ أكبر هذه الولاية أضحت خاندش تابعة اسمياً للمغول يدفع صاحبها الخراج لهم.

وأحاط بهذه الممالك الإسلامية بعض الإمارات الهندوسية، وبخاصة إمارة ڤيايانكر التي تقع في أقصى الجنوب في طرف شبه الجزيرة الهندية.

كانت الخطوة الأولى على طريق الضم محاولة سياسية من جانب أكبر،

فأرسل، في (شوال ٩٩٩هـ/ آب ١٥٩١م)، السفراء إلى أصحاب تلك الإمارات يطلب منهم الاعتراف بسيادته وأن يدفعوا له ضريبة سنوية تعبيراً عن هذا الاعتراف، لكن هؤلاء رفضوا طلبه باستثناء صاحب خانديش. ما دفع أكبر إلى انتهاج طريق القوة لتحقيق غايته[1].

كانت إمارة أحمد نكر، بحكم موقعها الجغرافي، أولى الإمارات التي اصطدم بها أكبر، وساعده على ذلك اضطراب أوضاعها بسبب النزاع على السلطة بين اثنين من المتنافسين، هما الأميرة جند بيبي العمة والوصية على الطفل بهادور نظام شاه، صاحب الحق الشرعي في حكم الإمارة. والأمير محمد خدابندة المدعوم من الوزير ميان منجهو، وقد التمس هذا الأخير المساعدة من السلطان أكبر.

أرسل أكبر جيشاً كبيراً لفتح أحمد نكر في عام (١٠٠٣هـ/ ١٥٩٥م) بقيادة ابنه مراد والقائد عبد الرحيم خان خانان، فحاصرا المدينة وضرباها بالمدافع. ودافعت جند بيبي عن المدينة ببسالة ملفتة، والتمست المساعدة من الدول الإسلامية المجاورة، فأسرع لنجدتها كل من إبراهيم عادل شاه صاحب بيجابور وقطب شاه صاحب غولكوندة.

واستعصت إمارة أحمد نكر على المهاجمين الذين بلغ الأعياء والتعب منهم، فجنحوا إلى السلم. ومن جانبها وافقت جند بيبي على إحلال السلام بسبب الإنهاك الذي بدا على جنودها. واتفق الطرفان على أن يأخذ أكبر بيرار ويحتفظ بهادور نظام شاه بمدينة أحمد نكر والقرى التابعة لها، واعترف السلطان أكبر ببهادور نظام شاه ملكاً على أحمد نكر. وبذلك حالت شجاعة هذه المرأة الباسلة دون أن يحقق المغول نصراً سريعاً وحاسماً[2].

وشهدت الإمارة بعد ذلك خلافات حادة بين الأمراء الذين رفضوا المعاهدة المبرمة مع المغول وبين الأميرة جند بيبي، كان من نتيجتها أن قُتلت الأميرة. وحاول المتآمرون نقض المعاهدة واستعادة بيرار، فساروا إليها على رأس خمسين ألف فارس لطرد المغول منها ما أدى إلى إعلان الحرب على أحمد نكر مرة ثانية.

تلقى أمراء أحمد نكر المساعدة من حكام بيجابور وغولكوندة وخاندش،

(١) بخشي: جـ٢ ص١٩٧، ١٩٨.

(٢) Ferishta: II, pp167, 168.

وشكَّلوا حلفاً لمناهضة المغول والتصدي لهم. وتجاه فشل ابنه مراد وقائده عبد الرحيم خان خانان، قرّر أكبر إدارة العمليات العسكرية بنفسه. واشتبك الطرفان في (جمادى الآخرة ورجب ١٠٠٥هـ/ شباط ١٥٩٧م) في عدة معارك كانت سجالاً ولم تنته إلى نتيجة حاسمة. فساد الاضطراب في المعسكر المغولي وبخاصة بعد وفاة مراد، الذي كان يقود الجيوش، نتيجة إدمانه على الشراب، فاضطر السلطان إلى إرسال صديقه ومستشاره المخلص أبا الفضل الذي ذهب إلى ميدان القتال، كما أرسل ابنه الثاني دانيال إلى المعسكر، وذلك في عام (١٠٠٨هـ/ ١٥٩٩م)[١].

واضطر أكبر أخيراً إلى الخروج بنفسه لقيادة العمليات العسكرية، فترأس ثمانين ألف فارس وسار بهم إلى الجنوب بعد أن عهد بأمر حكومته إلى ابنه سليم. وحدث في غضون ذلك أن انقلبت مملكة خانديش على حكمه وانضمت إلى جماعة الثائرين، وذلك بعد وفاة أميرها راجا علي وقيام ابنه ميران شاه بهادور دل بالملك من بعده، وقد ناوأ المغول وامتنع عن دفع الخراج لهم، وكانت هذه المملكة تقع في شمالي الدكن وتعدُّ ممراً إلى الممالك الإسلامية في الجنوب، لذلك كان على أكبر أن يخضعها ليفتح الطريق أمامه إلى الجنوب، فدخل عاصمتها برهانبور ثم شرع بحصار قلعتها المشهورة والمنيعة عسير، في الوقت الذي حاصر ابنه دانيال أحمد نكر. ووافته، في غضون ذلك، أخبار خروج ابنه سليم عليه وتنصيبه سلطاناً في مدينة الله آباد في الدوآب الأدنى، فلم يثنه ذلك عن المضي في خطته[٢].

وافتقد سكان أحمد نكر وجنودها أميرتهم جند بيبي وروحها الموجهة وبطولتها واستماتتها في الدفاع والتضحية، ولهذا سرعان ما هُزموا، وقُتل ألف وخمسمائة جندي من الحامية أثناء الحصار، فدخل دانيال إلى المدينة وضمّها إلى الدولة المغولية وذلك في عام (١٠٠٩هـ/ ١٦٠٠م)[٣].

واستمر حصار عسير مدة سبعة أشهر، دافع خلالها المحاصَرون عنها بشجاعة، ولكن أكبر لجأ إلى استقطاب بعض الأمراء بالمال لإضعاف المقاومة، كما تفشت الأمراض في القلعة، ووقع أميرها ميران بهادور تحت

(١) Ferishta: II, pp171, 172.
(٢) Ibid: p172.
(٣) Ibid.

تأثير الأوهام والخوف، فاستسلم لأكبر الذي دخلها وضمها إلى أملاكه[١]، وبذلك انتهت خانديش وضُمَّت مع أحمد نكر إلى ملك المغول، ولم ينل أكبر من بيجابور وغولكوندة، وبقيتا مستقلتين، وكذلك إمارة فيايانكر الهندوسية القابعة في أقصى جنوب الهند.

وقسّم أكبر الفتوح الجنوبية إلى ثلاث إمارات هي: أحمد نكر وخانديش وبيرار، وعيَّن ابنه الأمير دانيال حاكماً عليها جميعاً.

وبضم الدكن، أضحت الدولة المغولية في الهند أعظم دولة إسلامية في عصرها، وأقواها وأكثرها ثراء وغنى، وتألفت من الولايات التالية: كابل، قندهار، السند، الملتان، لاهور، كشمير، دلهي، أجمير، الله آباد، أودة، بيهار، البنغال، أوريسًا، مالوة، الكجرات، خانديش، بيرار وأحمد نكر.

أيام أكبر الأخيرة

سادت أيام أكبر الأخيرة الأحزان والآلام، فقد شكَّل أبناؤه مصدر قلق له، فتوفي ولداه مراد (١٠٠٧هـ/ ١٥٩٩م) ودانيال (١٠١٣هـ/ ١٦٠٤م) بسبب الإدمان على الشراب، وأضحى ابنه سليم مثار قلق شديد له وهو الذي ثار عليه في عام (١٠٠٩هـ/ ١٦٠٠م) ونصَّب نفسه سلطاناً، وأقام لنفسه مملكة مستقلة في الله آباد. وفي عام (١٠١١هـ/ ١٦٠٢م) أصيب السلطان بصدمة قوية عندما علم بأن ابنه اتفق مع أحد قطاع الطرق لقتل الوزير أبي الفضل، ومع هذا فقد تحسَّنت العلاقة بين الأب وابنه قبل وفاة الأول، وعيَّنه ولياً لعهده. غير أن الأمير سليم لم يكن محبوباً من السكان، ولهذا حاول الراجبوت الموجودون في البلاط، تحويل ولاية العهد إلى الأمير خسرو بن سليم، ومع أن المؤامرة فشلت إلا أنها تسبَّبت في كثير من المتاعب للسلطان العجوز وهو على وشك السقوط ميتاً. وفي عام (١٠١٤هـ/ ١٦٠٥م) أصيب السلطان أكبر بإسهال حاد عجز الأطباء عن علاجه، فتوفي في (٣٠ جمادى الأولى/ ١٣ تشرين الأول) متأثراً به، ودُفن في ضريحه الذي كان قد بدأ ببنائه في سكندرا والذي أتمه فيما بعد ابنه جهانكير[٢].

(١) Ferishta: II, p17.
(٢) Ibid: p173.

امبراطورية المغول في عهد أكبر

الهند عند وفاة أكبر

عن تاريخ الحضارات العام جـ٤ ص٥٩١.

نزعات أكبر الدينية

لا بد لنا، ونحن نؤرخ للسلطان أكبر، أن نتطرق إلى نزعاته الدينية التي أثارت جدلاً واسعاً، والمعروف أنه ولد من أب سني وأم شيعية، أي من أسرة مسلمة حكمت الهند باسم الإسلام وأسدت إليه كثيراً من الخدمات، لذلك كان أي انحراف عن هذا الطريق ملفتاً ومثيراً. ولو ظلت عقيدته التي ابتدعها في المرحلة الثانية من حياته الدينية، سراً بينه وبين نفسه ولم تتسرب آثارها إلى سلوكه السياسي وتتأثر بها الدولة؛ لكان من الممكن ألا نتطرق إليها، ولكن ما طُبع عليه أكبر من الجرأة والبسالة والمجازفة في حروبه وفي مصاهرته للهندوس وتقرُّبه منهم، وتأثره بتوجيهات وزيره بيرم خان الشيعي المتشدِّد وتقريبه العلماء الشيعة، أمثال فتح الله الشيرازي والشيخ مبارك الناكوري وولديه أبي الفيض وأبي الفضل، بالإضافة إلى عدم تلقيه تعليماً دينياً راسخاً في صغره يعصمه من الزلل؛ كل ذلك دفعه إلى التحول من هذه الروح المسالمة الخاضعة، إلى إنسان آخر ملأه الكبر والغرور وعرَّضه للاتهام بالإلحاد والزندقة.

مرَّت نزعات أكبر الدينية بمرحلتين متميزتين ومتناقضتين، استمرت الأولى مدة عشرين عاماً، أي حتى عام (٩٨٢هـ/ ١٥٧٤م)، واتصفت بسلوكه كسني مخلص، محافظ على أصول الدين، يؤدي الصلوات الخمس في المسجد في أوقاتها، ويقوم أحياناً مقام المؤذن يدعو الناس إلى الصلاة، يحترم علماء الدين والمتصوفة الزاهدين ويجلُّهم ويُؤثر صحبتهم ويقضي معهم الساعات الطوال. وكان يذهب بنفسه إلى منزل الشيخ عبد النبي أحمد الكنكوهي ليسمع الحديث، ويرحل في كل سنة، راجلاً إلى أجمير لزيارة قبر الشيخ معين الدين حسن السجزي الجشتي، صاحب الكرامات المشهور، فيطوف به مرات عدة ثم يجلس أمام الضريح وقتاً طويلاً، وكان يتبرَّك بالشيخ سليم بن بهاء الدين السيكوري، وازداد اعتقاده به عندما بشَّره بثلاثة أولاد، فرُزِق بهم بعد أن كان محروماً، ولذلك سمى ابنه سليم باسمه على غير عادة المغول في تسمية أبنائهم، وبنى مدينة في المكان القفر الذي كان يقيم فيه هذا الشيخ، بالقرب من أكرا، وجعلها عاصمة له مبالغة في تكريمه وسماها فتح بور سيكري.

كان أكبر لا يبدأ عملاً أو قولاً إلا بدأه بقوله: «يا هادي، يا معين»، ولم

ينقطع دقيقة عن ذكر الله، وكان لسانه رطباً به، يحنو على الفقراء، يزور زوايا المتصوفة حافي القدمين غالباً. وقد دفعته هذه الروح الدينية إلى الإقبال على دراسة القرآن الكريم والحديث، وساعدته حافظته القوية على استيعاب كل ما كان يُلقى إليه من جانب أساتذته. وعيَّن القضاة والمفتين في كل جزء من أجزاء مملكته ليحكموا بين الناس بالعدل تبعاً لأصول الشريعة الإسلامية، وكان يستجيب لمشورة العلماء في اضطهاد الزنادقة والملحدين. وقرَّب إليه عدداً من العلماء يوجهونه ويُثقِّفونه، كان من بينهم الشيخ عبدوني نبي الذي احترمه بشكل لافت وقدّره حتى أنه عيَّنه صدراً للدولة، وكان يدعوه إلى مجلسه يومياً ليتلقى منه دروساً في الحديث.

هكذا بدأ أكبر المرحلة الأولى من حياته الدينية، ولكنه انقلب فجأة إلى رجل مغاير في المرحلة الثانية. فقد نفض عن عقله وروحه هذا الإخلاص القديم وبدأ يفكر في إيجاد دين جديد بفعل ما شاهد في مملكته من كثرة الطوائف والملل والنحل، ولذا لم يكن واثقاً من نفسه عن مكان الحقيقة. وخُيِّل إليه يوماً أنه يستطيع أن يحل هذه المعضلة، أوليست الملكية نوراً مصدره الله؟ واعتقد في قرارة نفسه أنه شعاع الله وفيض منه. فأمر في عام (٩٨٣هـ/ ١٥٧٥م) بإنشاء بيت العبادة، وهو منتدى للمناقشات، والمجادلات الدينية الطويلة النفس، ودعا الفقهاء والعلماء، من السنة والشيعة، للحضور إلى هذا البيت مساء كل خميس ومناقشة المذاهب الإسلامية المختلفة في حضرته، بهدف التقريب بينها واستنباط مذهب واحد، ولكن هذه المناقشات لم تؤد إلى النتيجة المرجوة، بل على العكس، وسَّعت الشقة بين المذهبين السني والشيعي. وفي إحدى أمسيات الخميس من عام (٩٨٦هـ/ ١٥٧٨م)، اشتد النقاش بين الفقهاء حتى لقد وصم بعضهم البعض الآخر بالكفر في حضرة السلطان، عند ذلك ألقى أكبر سؤالاً على الحاضرين: «من يكون صاحب الحق في إصدار الفتاوى والأوامر الدينية الواجب اتباعها إذا اشتد الخلاف بين الفقهاء؟». فتقدم الشيخ مبارك وقال: «السلطان يكون صاحب هذا الحق». وتنفيذاً لهذا الاقتراح كُتب محضرٌ تضمّن إعلان أكبر «إمامي عادل»، أي إماماً عادلاً، ووقّعه العلماء والفقهاء، وذلك في (رجب ٩٨٧هـ/ أيلول ١٥٧٩م)، كان من بينهم مخدوم الملك وعبدوني نبي. وقد وضعت هذه الوثيقة السلطة الدينية كلها في يد أكبر ورفعته إلى مرتبة الإمام العادل وهي

مرتبة فوق الإمام المجتهد، فأضحى بذلك السلطان الروحي على رعاياه إلى جانب سلطاته الزمنية، وبالتالي فإنه سلب العلماء هذا الحق، ولم يعد لهم أن يتدخلوا في شؤون الحكم.

الواقع أن فكرة اعتبار السلطان إماماً عادلاً وخليفة فوق مرتبة المجتهدين قريبة جداً من فكرة الشيعة عن الإمام إن لم تكن هي؛ تبنّاها أكبر بتأثير العلماء الشيعة وبخاصة الشيخ مبارك بن خضر الناكوري وولديه أبي الفيض وأبي الفضل، فهم الذين زيَّنوا له ذلك، بدليل أن هذا التحول حدث بعد اتصالهم به ودخولهم في حاشيته.

وخطا أكبر خطوة أخرى في سبيل توحيد الأديان، فدعا الهندوس والنصارى إلى الاشتراك في المناقشات الدينية، ودفعه شغفه بالمعرفة إلى التطلع إلى ما عندهم من ثقافات ومعتقدات، فعهد إلى فريق من العلماء بنقل أمهات الكتب الهندوسية القديمة من السنسكريتية إلى الفارسية، من بينها الرامايانا والمهابهارتا، كتاب الهند القديمة المقدس. وبلغ من تلطفه مع أصحاب الملل البرهمية والبوذية والجينية والزرادشتية أن ارتدى مسوح الهندوس ومارس معهم طقوسهم، وكفّ عن استخدام الثوم والبصل في أطعمته وتقديم اللحوم على مائدته[١].

واستدعى أكبر اليسوعيين إلى بلاطه للاطلاع منهم على مبادئ الديانة النصرانية، فجاء منهم ثلاثة مرسلين من غوا، فصدمته التفردية النصرانية وسر الثالوث الأقدس ووجوب رذل تعدد الزوجات، وأمر وزيره أبا الفضل بترجمة الإنجيل.

والواقع أن جهود أكبر في توحيد الأديان والمذاهب قد فشلت، وتقاذف شيوخ العقائد، المجتمعون في بيت العبادة، بأبشع الشتائم والتهم، وعلى الرغم من سخريته من هؤلاء جميعاً، فقد راح أصحاب كل دين يدعيه بدوره لنفسه في غير تورع ولا استحياء[٢].

وأخيراً هدت أكبر قريحته، بمعاونة وزيره أبي الفضل وأخيه أبي الفيض، إلى ابتكار دين جديد يتألف من كل ما هو حسن في سائر الأديان والمذاهب، على وجه يقضي فيما ظنه للوصول إلى السلام والأمن. ففي (جمادى الأولى

(١) بداوني: جـ٢ ص٢٨٨، ٣٢٠، ٣٣٦. (٢) المصدر نفسه: ص٢٩٩.

٩٨٧هـ/ حزيران ١٥٧٩م) ترأس أكبر الصلاة محل الإمام في مسجد فتح بورسيكري الكبير، وبعد أن فرغ من الصلاة قال: «الله أكبر» معلناً بذلك أنه مشارك للطبيعة الإلهية، ثم أعلن عصمته أمام الناس وطلب من جميع العلماء والأمة جمعاء أن يأتمُّوا بهديه ورأيه، ومن لم يمتثل خسر أمواله ومقتنياته، واستوجب الهلاك الأبدي، فالسلطان هو نائب الله على الأرض وينبوع النعم.

لقد سمّى أكبر هذا الدين الجديد «دين إلهي» وهو قائم في أصوله على توحيد الله، حجر الزاوية في الإسلام، وفي طقوسه، على أسس من الصوفية المستمدة من الديانتين الهندوسية والزرادشتية. إنه توحيد إلهي مع شيء من الحلولية، يمتزج فيه التصوف والفلسفة بالعبادات، السلطان فيه هو الإمام العادل وظل الله على الأرض، والمجتهد الأكبر. من أطاعه فقد أطاع الله، ومن عصاه خسر الدنيا والآخرة. وأوصى أكبر بعبادة الشمس عند طلوعها على طريقة الهندوس، واحترم النار، واقتبس عدداً كبيراً من العادات والمراسم الدينية الهندوسية واليانية والزرادشتية والمجوسية، وأنكر الوحي والجن والملائكة والحشر والنشر وسائر المغيبات، كما أنكر المعجزات، وجوَّز التناسخ وحرَّم ذبح البقرة، وأمر بإيقاد النار في حرمه الخاص على طريقة المجوس. وبدّل الكلمة الطيبة «لا إله إلا الله محمد رسول الله» إلى «لا إله إلا الله أكبر خليفة الله». وكان يسجد للشمس والنار في كل سنة يوم النيروز، وَرَسَم القشقة، النقطة الملونة، على جبينه للحصول على البركة اقتداءً بالهندوس. وحثَّ أتباعه على هجر التقليد، ويعني به الدين الإسلامي، لأن واضعه من فقراء الأعراب. وأمر بألا يُقرأ من العلوم بالعربية سوى النجوم والحساب والطب والفلسفة، وألغى تعدد الزوجات على أن يكتفي الرجل بواحدة، لأن الإله واحد.

وراح أكبر يضطهد المسلمين، فالأولاد الذين حملوا اسم محمد أُجبروا على تغيير أسمائهم، وحظّر على المرأة الهندية الزواج من مسلم، وأمر ببيع بعض الشيوخ عبيداً وأرقاء. وراح رجال البلاط والموظفون يعتنقون نظامه رغبة أو رهبة، ويتبادلون التحية بكلمة الله أكبر. وتكاثر أتباع العقيدة الجديدة في أماكن كثيرة إلا أن هذا المذهب الديني، أو الطريقة الإيمانية، توارت عن الأنظار وزالت من الوجود بعد وفاته.

الواقع أن أكبر تأثر بأمرين:

الأول: واقع الأمور في الهند.

الثاني: التيارات الدينية القائمة في هذا البلد، والقائلة بأن على رأس الألف الثانية سيظهر المهدي المنتظر أو المسيح ليعيد العدل إلى الأرض بعد أن ملئت ظلماً وجوراً.

ولا شك بأن أكبر علم بتلك التيارات الدينية. فهل رأى في نفسه أنه أكثر من هؤلاء المدعين بالنبوة حقاً في أن يكون ظل الله على الأرض؟ فهو أكثرهم علماً وأعرف الناس بالمذاهب وأقدرهم على توجيه أمور الرعية لما فيه الخير. وقد يكون هذا تفسيراً لدعوته إلى المذهب الإلهي. إلا أن هذا التحول الديني في حياة أكبر آثار ضجة بالغة المدى في دولته، فقد خرجت عليه بعض الولايات وحاربته، كما عاداه كثير من العلماء وهاجموا آراءه، فشتتهم ونفى بعضهم إلى الحجاز، مثل الشيخ عبد الله السلفانيوري والشيخ عبد النبي الكنكوهي، وذلك بعد أن امتنعوا عن التوقيع على الوثيقة التي تتضمن المبادئ الجديدة. وهلَّل النصارى وغيرهم ممن لا يدينون بالإسلام، وسَرَّهم دائماً مثل هذا السلوك من مسلم في مقام أكبر وخطره.

وإذا كنا نأسف لهذا التحول الديني الخارج على الإسلام ومبادئه، بل الهادم له، والذي يدل على الخطأ الكبير الذي ارتكبه أكبر، والزلل الذي أوقع فيه نفسه حيث لا يمكن اعتباره مسلماً بعد عام (٩٨٧هـ/ ١٥٧٩م)، وهو العام الذي أعلن فيه الدين الإلهي، إلا أن ذلك لا يمنعنا من تقديره كملك وسياسي عظيم هو فخر الملوك المغول أو ملوك الشرق، في عظمته وقدرته كحاكم قوي، شهدت الهند في أيامه عهداً آمناً ومستقراً ومزدهراً، فكرياً وعلمياً، وغنياً بموارده وتجارته قلّما شهدته في عصر من العصور.

الإدارة في عهد أكبر

لم يكن أكبر فاتحاً كبيراً فحسب وإنما كان إدارياً قديراً أيضاً، اقتبس النظام الإداري الذي طبقه شير شاه من قبل، وأجرى عليه تعديلات تتناسب مع تطور الحياة السياسية في الهند ليكون أكثر فاعلية.

كان السلطان أكبر يتولى الحكم بنفسه من دون مساعدة رئيس وزراء، يعاونه أربعة وزراء وبعض الضباط العاملين في البلاط، وقيِّم البلاط ورئيس الطهاة. ومن مجموع هؤلاء كان يتألف مجلس السلطان الخاص الذي كان يقدم له

النصح والمشورة، ويحتفظ السلطان لنفسه باتخاذ القرار اللازم في نهاية الأمر، لا يحد من إرادته أو يقف في وجهه قانون أو دستور. وهؤلاء الموظفون هم:

وكيل السلطنة: وقد تولاها بيرم خان، في أول عهد السلطنة.

الوزير أو الديوان: هو القيم على شؤون المال، ويشغل مركزاً كبيراً في الجيش، منصب دار.

ميربخشي: هو الذي يقوم بدفع مرتبات الجند والقادة ويشرف على شؤون القوات العسكرية، ويُعدُّ مسؤولاً بصفة خاصة عن جيش السلطان الخاص.

خان ساماه: هو صاحب شؤون البلاط، يلازم السلطان في حله وترحاله، ويشرف على شؤونه الخاصة.

قاضي القضاة: هو الموكل بشؤون العدل، وإجرائه وفق الشرع.

المحتسب: هو الذي يراقب سلوك الناس ويمنع ممارسة البدع وارتكاب ما ينافي الشرع والآداب.

وإلى جانب هؤلاء، كان هناك فريق آخر من أصحاب المناصب التي تقل في المنزلة مثل: المستوفي، محاسب الدولة الأول، الكوتول وهو بمثابة رئيس الشرطة، صاحب البريد، أمير العرض، وهو الذي يرفع الشكاوى والالتماسات إلى السلطان.

كان أكبر يقضي في يومه بالأمور العارضة له، ويستقبل في ديوانه الملكي، في جلسات عامة في يوم معلوم من كل أسبوع، كل ملتمس أو مطالب بحق مهضوم أو متظلم من ظلامة واقعة عليه، يعاونه صدر الصدور، والمفتي، وقاضي القضاة ومساعدوهم، في الجزم بالقضايا المختلف عليها وفق قواعد الشرع الحنيف مع مراعاة شرائع الهندوس فيما يتعرضون من مشكلات ويقوم بينهم من خصومات، وكان كتبة السر يحرصون على تدوين قراراته هذه.

أما الإدارة فكانت متشعبة بحيث يجري تسجيل كل قضية بما يلزم من الإيضاحات والبيانات اللازمة، ويقتضي لكل هذه المعاملات جيش من الموظفين والكتبة. ولضبط غلال الأرض والمحاصيل، كان لا بد من عدد كبير من المحاسبين والكتبة، ومثل هذا العدد أو أكثر لجباية الرسوم، ومثلهم لتولي شؤون المال والتحصيلات، وغيرهم من المحاسبين والمفتشين لضبط القيود والإشراف على عمليات الجرد. وكان آلاف من الكتبة يسجلون يومياً مجموع واردات الدولة ومداخيل الضرائب ومصروفات السلطان، كما يسجلون

الحوادث البارزة في البلاد، ويضبطون أسماء الأجانب الذين يدخلون البلاد، مع بيان أسماء البلدان التي قدموا منها والهدف من زيارتهم.

التقسيمات الإدارية في عهد أكبر[1]

لم تعرف الدولة الإسلامية في الهند قبل عهد أكبر التقسيمات الإدارية في الغالب باستثناء ما استحدثه شير شاه من قبل، إذ كان تحديد الإقطاعات مرتبطاً بمشيئة السلطان وحده، قسَّم أكبر أراضي الدولة إلى ولايات، سُبه، وتقسم الولاية نفسها إلى عدد من الأقضية، سركار، وكل قضاء إلى عدة دساكر، بركنا. وكانت هذه الولايات في البداية اثنتي عشرة ثم أضحت خمس عشرة بعد فتح الدكن.

يرأس الولاية حاكم عام. سبهسالار، وهو نائب السلطان بها، ولم يكن له أن يدخل في حرب أو يبرم التحالف والصلح من دون إذن السلطان، ويشرف على شؤون القوات العسكرية والقضاء في ولايته، ولم يكن له أن يتدخل في الأمور الشرعية التي من اختصاص الصدر وحده، أو يصدر الحكم بالإعدام من دون إذن السلطان، غير أن له أن يعين صغار العمال ويقيلهم.

ويليه في المنزلة ثمانية من أصحاب المناصب الكبيرة وهم:

الديوان: المسؤول عن الشؤون المالية في الولاية. وهو يلي الحاكم العام في المرتبة. كان يعين من قبل الديوان في بادئ الأمر ثم رأى السلطان أن يجعله تابعاً له ليكون رقيباً من لدنه على كل ما يصدر عن الحكام من تصرفات وأفعال.

الصدر: هو صاحب الشريعة في الولاية. ومن الطبيعي أن يكون من العلماء، ويأتمر القضاة ورجال العدل بأمره.

العامل: هو صاحب الخراج، ينظم جباية الضرائب ويراقب عماله، ويحدد مقدار خراج الأرض على درجة خصوبتها وجودتها، ويطهر الطرق والسبل من اللصوص وقطاع الطرق، ويراقب عمليات البيع والشراء.

البتخشي: هو المحاسب الذي يراجع أعمال العمال ورجال الدخولية، ويسجل ذلك كله في سجلاته بالتفصيل.

(١) الساداتي: ص٢٩٣ ـ ٢٩٥.

الفوجدار: هو القائد المباشر لقوات الولاية، يعاون الحاكم العام في إقرار الأمن، ويعين العمال لتحصيل الضرائب من أهل القرى والدساكر الذين يمتنعون عن أدائها، ويطارد عصابات اللصوص وقطّاع الطرق، ويخمد كل عصيان أو فتنة في الولاية.

الكوتول: هو صاحب الشرطة المكلف بمراقبة تنفيذ الأوامر والقوانين في المدن، والسهر على شؤون الأمن ومعاقبة المجرمين وتحديد الأسعار، ومراقبة المكاييل والموازين وملاحقة الكسالى وإلزامهم على العمل.

وقائع نويس: هو مسجل الوقائع وضابط الاتصال بين الحكومة المركزية والولاية.

وبواسطة هؤلاء الموظفين كان السلطان يطلع على كل ما يجري في الولايات.

إصلاح النظام الضريبي

امتدت إصلاحات أكبر إلى نظام الخراج، الذي كان يُعدُّ أهم واردات الخزنية بعد رفع ضريبة الرؤوس عن الهندوس وإعفائهم من ضريبة الحج. فحاول أن يزيد واردات الدولة المالية بإجراء بعض التحسينات على الوضع الاقتصادي، فعهد إلى وزير ماليته تدرمال بوضع نظام ثابت لخراج الأرض يؤمن للدولة حقوقها المالية من جهة ولا يرهق كاهل السكان من جهة أخرى، فعمد هذا إلى مسح الأراضي الأميرية وتحديد ما يُزرع فصلياً وسنوياً وما ينبت كل بضعة أعوام، وما يعتمد من الأراضي على السقاية المطرية وما يُسقى منها من الأنهار والينابيع والآبار، وما هو في حكم البور، وما يقع منها في السهل أو يقوم على سفوح الجبال أو تغطيه الأحراج والغابات، ثم ربط الضريبة بمتوسط الإنتاج في عشرة أعوام على أن يكون للدولة ثلث المحصول نقداً، وأبقى سدس الغلة لإدخال تحسينات على نظام حياة الفلاح كضمان له، إذا أصاب الزرع آفة أو انقطع الماء عن الأرض فتجدب.

وحاول أكبر أن يحدَّ من خطر المجاعات التي كانت تداهم الهند من وقت لآخر، بسبب انحباس الأمطار الموسمية، وذلك من خلال استصلاح الأراضي البور وتشجيع السكان على العمل بالزراعة وتوسيع رقعة الأراضي الزراعية، وكان يمدهم بما يحتاجون إليه من البذور.

كانت ثمرة هذه الجهود أن نَعِم السكان بحياة طيبة لم يألفوها منذ زمن بعيد، وازدهرت الحياة الاقتصادية.

الحياة الفكرية والثقافية في عهد أكبر

لم يُتح لأكبر أن يتعلم كما يتعلم أمثاله، ولم يُحصِّل الضروري من التعليم حين ارتقى العرش، فكان جاهلاً بالحروف، لكنه مع ذلك كان على قدر كبير من الذكاء والنبوغ وقوة الشخصية، والرغبة في الاستماع إلى العلماء والاستفادة منهم، فكان مجلسه يحفل دائماً بالمفكرين والفقهاء والشعراء والأدباء والفنانين الذين تجاوز عددهم الثلاثمائة، حيث أتاح لهم حرية البحث مهما كانت النتيجة.

والواقع أن الهند لم تعرف، من قبل أكبر، سلطاناً اجتمع حوله هذا العدد الكبير من رجال العلم والأدب ولقوا منه كل تقدير واحترام، وبلغ من احترامه لشيخه عبد النبي صدر الصدور أنه كان يقدم إليه نعليه بنفسه حين يغادر مجلسه[1].

ولم يكن من الغريب، وهذه روحه العلمية، أن تنشط في عهده وبأمره حركة التأليف والترجمة، نذكر من بيت المؤرخين الذين عرفهم بلاط أكبر: المؤرخ محمد قاسم فرشته صاحب التاريخ المعروف باسمه، وعبد القادر بداوني، صاحب منتخب التواريخ، ونظام الدين أحمد، صاحب طبقات أكبري، والوزير أبو الفضل بن مبارك، الذي أدَّى دوراً هاماً في توجيه آراء السلطان الفلسفية ومبادئه المذهبية، وله كتابان مهمان: أولهما أكبرنامه، وثانيهما آيين أكبري، الذي ضمّنه تقاليد الدولة المغولية ورسوم البلاط ونظام الحكومة وقوانينها، إلى جانب الحديث عن الهندوس ورسومهم وعاداتهم وعلومهم[2].

ونشطت حركة الترجمة إلى اللغة الفارسية في عهد أكبر، نذكر من بين الكتب المترجمة:

كتاب الحيوان للدميري، ترجمه أبو الفضل بن المبارك.

كتاب ليلاوئي في الحساب والمساحة، ترجمه، من السنسكريتية، أبو الفيض بن المبارك.

---

(١) السداتي: ص٣٠٠.　　(٢) المرجع نفسه.

كتاب آتهرين خيدا ترجمه، من السنسكريتية عبد القادر البداوني، وهو من الكتب الهندية المقدسة.

كتاب تزك بابري، أي مذكرات بابر، ترجمها عن التركية عبد الرحيم بن بيرم خان.

وتتصل النهضة الفنية بالحركة العلمية التي رعاها أكبر، فشهد الفن في بلاطه ازدهاراً لم يشهده من قبل في بلاط الملوك المسلمين بالهند، لا سيما فن التصوير. وعندما أنشأ مدينة فتح بورسيكرى، وجعلها عاصمة له، زيَّن قصورها برسوم جدرانية جميلة، على أيدي فنانين من إيران والهند، وعلى رأسهم ميرسيِّد علي وعبد الصمد. وأنشأ معهداً حكومياً التحق به حوالي مائة فنان، كانوا يعملون تحت إرشاد المصورين الإيرانيين. وتم في عهده ما بدأ في عهد أبيه من تصوير قصة الأمير حمزة الخيالية، وهي قصة إيرانية مشهورة اشتملت على أكثر من ألف وأربعمائة صورة على القماش، وتوجد بعض هذه الصور في متاحف أوروبا وأميركا. ودفع ولع أكبر بهذا الفن إلى إقامة معرض للنقش، مرة في كل أسبوع، تشجيعاً منه للفنانين، وكانت مصانعه تُخرِّج طرفاً من النسيج المزركش والسجاد الفاخر المحلى بمختلف النقوش والألوان. ولم تكن عناية أكبر بالموسيقى بأقل من عنايته بالتصوير والنقش، وما تزال الأنغام المغولية وألحانها رائجة بالهند حتى اليوم.

الفصل الثامن

جهانكير ـ شاه جهان

جهانكير: فاتح العالم
(١٠١٤ ـ ١٠٣٧هـ/ ١٦٠٥ ـ ١٦٢٧م)

اعتلاء جهانكير العرش

هو سليم بن أكبر، وُلد في مدينة أكرا في (١٧ ربيع الأول ٩٧٧هـ/ ٣٠ آب ١٥٦٩م)، وأمه هندوسية ابنة راجا جيبور بيهار مال[١]. تلقى في صغره تربية دينية، فسمع الحديث من الشيخ محمد سعيد الهروي، الشهير بميركلان، كما سمع من المفتي صدر جهان البهانوي. ولعل هذه التربية، مع تأثير الشيخ سليم فيه، قد وجَّهته وجهة مغايرة لوجهة والده، فكان سليم العقيدة في الإسلام، يحترم العلماء ويكرمهم، على درجة عالية بالثقافتين الفارسية والتركية، كما حصّل كثيراً من المعارف الهندية، شغوفاً بالمعرفة، متمسكاً بالتسامح المطلق، واشتهر، بالإضافة إلى ذلك، بالشجاعة والجرأة.

حاول أكبر أن يهيء ابنه سليم لتحمل المسؤولية، فعيَّنه في منصب قائد عشرة آلاف وهو في سن السابعة، واصطحبه معه في حملته على كابل في عام (٩٨٩هـ/ ١٥٨١م)، ورقّاه إلى منصب اثني عشر ألفاً في عام (٩٩٣هـ/ ١٥٨٥م) وهو في سن السادسة عشرة، وزوّجه مانباي ابنة راجا بهجوان داس صاحب أمبر، وهو أكبر من أخويه مراد ودانيال، غير أنه لم يشعر يوماً بالحب الأبوي الحقيقي ما آثار الجفاء بينه وبين والده، ولعل هذا الشعور دفعه إلى الثورة عليه عندما كان والده منهمكاً في حملته على الدكن على الرغم من أنه ولّاه ولاية الله آباد. ويبدو أن وفاة أخويه المبكرة أعادت الصفاء بينهما لأنه أضحى الوريث الوحيد للعرش، واضطر والده للصفح عنه وراح يُزوِّده بنصائحه قبل وفاته.

(١) Memoirs of Jahangir I, pp1, 2.

وظهر آنذاك منافس له على الحكم هو ابنه الأكبر خسرو الذي كان يطمع في أن يلي الحكم بعد جدّه، وربما استغلَّ ثورة أبيه عليه والجفاء الذي نتج عن ذلك للتطلع نحو العرش متخطياً إياه. ومال أكبر إلى تخطّي ابنه بولاية العهد لصالح حفيده بتحريض من صديقه رانامان سينغ وقائده عزيز كوكا، لكن حال دون تحقيق ذلك قدوم سليم إلى أبيه تائباً ومعتذراً، ليخلفه بعد وفاته على عرش أكرا يوم الخميس (٨ جمادى الآخرة ١٠١٤هـ/ ١٧ تشرين الأول ١٦٠٥م) وكان في الثامنة والثلاثين من عمره، وتلقب بلقب البادشاه الغازي نور الدين محمد جهانكير[١].

ورث جهانكير عن والده دولة واسعة الأرجاء مثبَّتة الدعائم، ساعدت الأعوام الخمسون التي قضاها أبوه في الحكم، مع حسن سياسته، على توطيدها، فعزم على انتهاج هذه السياسة، ودفعه حرصه البالغ على تحقيق العدل أن أمر بمدّ سلسلة العدالة التي اشتهرت في عهده ليطلع بنفسه على شكاوى المظلومين من إهمال رجال ديوان العدالة لأمرهم، وكانت من الذهب الخالص، طولها ثلاثين ذراعاً، وتتدلى منها سبعة أجراس، وتمتد من شرفة البرج السلطاني الخاص بقلعة أكرا لتبلغ أسطونا عند شاطئ جمنة. ويبدو أن سطوة الحكام كانت أقوى من إرادة السلطان، فلم تهز هذه السلسلة إلا مرات قليلة[٢].

وأصدر جهانكير فور اعتلائه العرش دستوراً حدّد فيه سياسته الداخلية، من خلال اثنتي عشرة وصية وجّهها إلى عماله، ليسيروا على هديها في علاقاتهم برعاياهم وتدبيرهم لشؤون الدولة[٣].

نظّم هذا الدستور وظائف الدولة ومناصبها المدنية والعسكرية والدينية، وفسّر شؤون الميراث. فإذا توفي شخص ورثته أسرته من دون أي تدخل، فإذا لم يكن له وريث تُخصَّص تركته لبناء المساجد والخانات للمسافرين وترميم الجسور وحفر الآبار، وحرَّم الضرائب التي كان السكان مُلزمون بدفعها إلى الولاة والعمال لمنافعهم الخاصة، وحظَّر تطبيق العقوبات التي تؤدي إلى جدع الأنف وقطع الأذن أو بتر أي عضو من أعضاء البدن مهما بلغ عِظَم ذنب المذنب، وحرَّم تعاطي الشراب وصناعته وتجارته، وحضّ على بناء

(١) Memoirs of Jahangir: I, p1.

(٢) Ibid: p7.

(٣) Ibid: pp7-10.

المستشفيات في المدن الكبيرة وتزويدها بالأطباء على أن تقوم الدولة بالإنفاق عليها من الخزينة العامة، ويؤمّن الغذاء والدواء للمرضى بالمجان، وحثّ الولاة على إضفاء الأمن والطمأنينة على الناس، فلا تُغتصب أموالهم وأملاكهم، وأن يكفوهم أخطار اللصوص وقطاع الطرق بتعمير الأرض الخلاء التي يأوي إليها الأشرار عادة، وذلك ببناء المساجد والدور بها، وحفر الآبار فيها فيأنس الناس إليها، وحظّر على الولاة والعمال استخدام أقاربهم في مناصب الولايات، أو مصاهرتهم السكان من دون إذن السلطان، ونظّم الدستور مسكوكات الدولة من الذهب والفضة والنحاس، وجعل لكل صنف منها علماً مرسوماً.

الأوضاع الداخلية في عهد جهانكير

ثورة ابنه خسرو

كانت أوضاع البلاد مضطربة في عهد جهانكير، وشهدت ثورات متعددة، وفي أماكن متفرقة ما أعاق الدولة عن المضي في الفتوح والتوسع.

كان خسرو، الابن الأكبر لجهانكير، قد نافس أباه في الملك، والتفَّ حوله، في آخر أيام أكبر، عدد من الأمراء رشّحوه لتولي عرش المغول بعد جده، ولكنهم لم يوفّقوا، ومع ذلك، فقد حضر خسرو إلى القصر، عقب اعتلاء والده العرش. فعفا عنه وأكرمه، ولكنه وضعه في الإقامة الجبرية في قلعة أكرا، وراح يراقبه. لكن سرعان ما تغلّبت على خسرو أطماعه، وتشجّع، بما التف حوله من الأمراء النافذين في الدولة، ففر من قلعة أكرا في (٢٨ ذي القعدة ١٠١٤هـ/ ٦ نيسان ١٦٠٦م) وتوّجه إلى إلبنجاب، ورافقه ثلاثمائة وخمسون من رجاله، وانضم إليه، وهو في الطريق، حسين بك بدخشي مع ثلاثة آلاف فارس، وعندما وصل إلى بانيبات انضم إليه عبد الرحيم ديوان لاهور، كما انضم إليه غورو أرغون زعيم السيخ الذي أمدّه بالأموال، وهناك أعلن الثورة على أبيه، وتكوّن لديه جيش بلغ تعداده اثني عشر ألف فارس زحف بهم إلى لاهور وحاصرها، وقد تحصّن بها ديلاور خان أمير البنجاب، وعندما علم جهانكير بثورته ندب الشيخ فريد البخاري لقتاله قبل أن يخرج بنفسه من أجل هذه الغاية، وقد خشي أن يُنسِّق مع عدوه راجامان سينغ في البنغال، أو مع الأوزبك والفرس عند حدود بلاده الشمالية الغربية، ما يُسبّب

له المتاعب والأخطار الجسيمة. وفي المعركة، التي جرت بين الأب وابنه عند بهايروال، تعرّض الثاني للهزيمة وفرّ مع بعض أتباعه إلى كابل. فتعقّبه وزير الجيش الشيخ فريد بخاري، وقبض عليهم وهم يعبرون نهر چناب وسيق خسرو إلى أبيه مكبلاً، فألقاه في السجن وقتل أتباعه، وعلى رأسهم غورو زعيم السيخ. وقد أثارت عملية قتل هذا الزعيم طائفة السيخ الكبيرة والقوية التي رفعت سيدها إلى مرتبة القديسين. وكأن السجن لم يفت في عضد خسرو، فتآمر مع نفر من حراسه لقتل السلطان، حتى إذا علم جهانكير بذلك قتل هؤلاء، وأمر بسمل عيني ابنه فترفّق به الكحال حتى استرده بعد قليل من الوقت، وبقي في سجنه إلى أن مرض ومات في عام (١٠٣١هـ/ ١٦٢٢م)[1].

الاضطرابات في البنغال

ضمَّ أكبر البنغال في عام (٩٨٣هـ/ ١٥٧١م)، لكنه لم يسحق قوة الأفغان فيها، وكانت النتيجة توالي الانتفاضات على الحكم المغولي للحصول على الاستقلال. ففي عام (١٠٢١هـ/ ١٦١٢م) ثار الأفغان بقيادة عثمان خان مستغلين كثرة توالي الحكام وقِصَر ولاية كل واحد منهم، فتصدّى لهم القادة المغول، أمثال إسلام خان ومهابت خان، وأخضعوهم، وقُتل عثمان خان في غمرة الاصطدامات، وانكسرت شوكتهم بعد هذه الهزيمة، واستطاع جهانكير، بحسن سياسته، أن يستقطبهم، فعفا عنهم وسمح لهم بالانخراط في وظائف الدولة ولا سيما الجيش، فاكتسب بذلك صداقتهم وجنّب الدولة شرورهم[2].

الثورة في ميوار

عندما اعتلى جهانكير عرش المغول، قرّر أن يتابع ما بدأه والده بالسيطرة على إقليم ميوار، والمعروف أن أكبر لم يحقق نجاحاً كبيراً في ميوار، واستطاع رانا براتاب اقتطاع أجزاء واسعة من هذه الولاية واستقلَّ بها.

كان حاكم ميوار آنذاك رانا أمار سينغ الذي واصل تحديه لحكومة أكرا، فأرسل جهانكير إليه جيشاً، بقيادة ابنه الأمير برويز في عام (١٠١٤هـ/ ١٦٠٥م)، إلا أنه لم يحقق نجاحاً يُذكر، وانسحب من ميوار. وأرسل جهانكير حملة أخرى في عام (١٠١٧هـ/ ١٦٠٨م) بقيادة مهابت خان، بلغ عديدها اثني

(١) Memoirs of Jahangir: I, pp51-69.

(٢) Prasade: pp445, 446.

عشر ألف فارس وبعض الفيلة وعدداً من المدافع، فأجبر رانا أمار سينغ على الالتجاء إلى التلال للاحتماء بها، ولكنه لم يحقق النتيجة المرجوة[1]، فأرسل السلطان حملة ثالثة في عام (١٠٢٣هـ/ ١٦١٤م) بقيادة ابنه الأمير خُرَّم، وحشد معه عدداً من أبرز قادته، فاجتاح ولاية الراجبوت وأحرق المدن والقرى ودمَّر المحاصيل الزراعية وهدم بعض الهياكل وأسر كثيراً من النساء والأطفال. والواقع أن الراجبوت تعرَّضوا لضغط مغولي ثقيل فتَّ في عضدهم ودفع رانا أمار سينغ إلى طلب الصلح، ودخل في مفاوضات مع الأمير خُرَّم من أجل إحلال السلام انبثق عنها توقيع اتفاقية صلح في عام (١٠٢٤هـ/ ١٦١٥م) تضمَّنت ما يلي:

- إعفاء رانا أمار سينغ من المثول شخصياً أمام السلطان على أن ينوب ابنه قران مكانه.
- تسليم كامل مقاطعة ميوار، بما فيها قلعة تشيتور التي استولى عليها المغول، إلى رانا أمار سينغ على أن يحكم باسم المغول.
- لا يُقدم رانا أمار سينغ على تجديد وترميم قلعة تشيتور.
- يُقدِّم رانا أمار سينغ ألف فارس إلى الجيش المغولي عند الحاجة.
- منح قران وظيفة منصب دار خمسة آلاف[2].

وافق جهانكير على الاتفاقية، ولم يصر على دفع رانا أمار سينغ الجزية، كباقي زعماء الهندوس الآخرين، مظهراً كرماً زائد تجاه حاكم ميوار. وأنهت هذه الاتفاقية قرناً من العداء والحروب المتواصلة بين الأسرتين الحاكمتين في أكرا وتشيتور، وتُعدُّ نصراً سياسياً لجهانكير، ونصراً شخصياً للأمير خُرَّم.

الاضطرابات في الدكن

ظهر في الدكن، قبيل وفاة أكبر، رجل حازم وشجاع هو ملك عنبر الحبشي، وزير الملك نظام حسين شاه صاحب أحمد نكر، وعندما توفي هذا خلفه ابنه الصغير تحت وصاية ملك عنبر الذي استبدَّ بشؤون الحكم، فاستقر في أورنغ أباد واستكثر من شراء العبيد الأحباش، فاتخذ منهم بطانة ودرَّبهم حتى أضحوا قوة خطيرة في الدولة، ثم راح يستخدمهم في محاربة المغول والتوسع على حسابهم، واستطاع أن يستردَّ منهم معظم الأراضي عند أسيركاه

(١) Memoirs of Jahangir: I, p145.

(٢) Ibid: p273.

وما حولها، وصدَّ قادة السلطان الذين حاولوا إخضاعه، وأجبرهم على الارتداد إلى الكجرات، فأرسل جهانكير جيشاً بقيادة عبد الرحيم خان خانان اصطدم به، إلا أنه تعرّض للخسارة، وإذ عُدَّ مقصِّراً استدعاه السلطان إلى أكرا[1].

وأدرك ملك عنبر، على الرغم من انتصاره، أنه لا قِبل له بمواجهة الجيوش المغولية في معارك مكشوفة، فلجأ إلى حرب العصابات لإنهاكها وإضعافها، حتى أجبر المغول أخيراً على الانسحاب من أحمد نكر إلى برهانبور في ولاية خاندش، وبذلك ضاعت أحمد نكر من المغول، وذلك في عام (١٠١٨هـ/ ١٦٠٩م).

وعندما وصلت هذه الأنباء إلى جهانكير أعدَّ جيشاً كبيراً عيَّن عليه برويز وأصاف خان، يعاونهما راجامان سينغ على رأس قوات بيرار في الدكن، وعبد الله خان أوزبك على رأس قوات من الكجرات، على أن يلتقوا جميعاً عند أسوار أحمد نكر[2].

ويبدو أن تلك الجيوش افتقرت إلى التنسيق، فأسرع عبد الله في زحفه، فوصل قبل الجيشين الآخرين، وتسرَّع في الاصطدام بقوات ملك عنبر الذي باغته وانتصر عليه، الأمر الذي أثّر سلباً على معنويات القوات الزاحفة، فتوقفت عن الزحف. وأقام برويز في برهانبور، وسيطر ملك عنبر على أحمد نكر وراح يوطد أركان دولته، ويدعم فيها سلطانه وهو مطمئن.

لم يركن جهانكير إلى الهدوء، وهو يرى انهزام قواته وخروج أحمد نكر من بين يديه، فأعدّ جيشاً آخر في عام (١٠٢٥هـ/ ١٦١٦م)، وجعل على قيادته ابنه الشجاع خُرَّم، فزحف باتجاه أحمد نكر، وخرج السلطان إلى ماندو في مالوة بوسط الهند ليكون قريباً من مجرى الأحداث في الدكن. وصل الأمير خُرَّم إلى برهانبور في (ربيع الأول ١٠٢٦هـ/ آذار ١٦١٧م)، ثم تابع تقدمه باتجاه أحمد نكر، وكانت أوضاع البلاد قد تغيَّرت في غضون ذلك، من واقع الصراع بين الوزير ملك عنبر والسلطان عادل شاه صاحب أحمد نكر، ودبَّت الفتن في البلاد، فخشي ملك عنبر الدخول في صدام مع الأمير خُرَّم ومال إلى الصلح. ووافق على ما عرضه عليه الأمير المغولي، وهو أن يسلم مقاطعة بلاغات، التي كان قد انتزعها مؤخراً من المغول، بالإضافة إلى قلعة أحمد

(١) Memoirs of Jahangir: I, p156.

(٢) Ibid: pp207, 208.

نكر، ووافق كل من جهانكير وعادل شاه على المعاهدة، وكافأ السلطان ابنه خُرَّم ورقّاه إلى رتبة قائد لثلاثين ألفاً وأضفى عليه لقب شاه جهان، أي ملك العالم، وسمح له أن يكون الرجل الوحيد الذي يجلس في حضرته[1].

ولم يكد شاه جهان يغادر بلاد الدكن حتى تجدَّدت الاضطرابات، ويبدو أن ملك عنبر أراد الانعتاق من الطوق المغولي، وكان قد انحنى للعاصفة مؤقتاً، وعندما صفا الجو بعودة شاه جهان رفع رأسه ثانية. ففي عام (١٠٢٩هـ/ ١٦٢٠م) نقض معاهدة عام (١٠٢٦هـ/ ١٦١٧م) وعقد حلفاً مع غولكوندة وبيجابور وهاجم عبد الرحيم خان خانان في قلعة أحمد نكر وحاصرها. كان الأمير شاه جهان آنذاك منهمكاً في حصار كانغرا فلم يتمكن من التحرك الفوري ضد ملك عنبر إلا بعد أن أنجز مهمته بفتح كانغرا، فتقدم نحو أحمد نكر، وتمكَّن، بمساعدة عبد الله حسن وبيرم بك، من الانتصار على قبائل المهرات الذين سبَّبوا له متاعب كثيرة، ولم تلبث جميع الأراضي التي سبق أن استولوا عليها في إقليمي أحمد نكر وبيرار أن فقدت منهم. وعندما وصل إلى بانان لإنقاذ مدينة برهانبور استسلم ملك عنبر وأعلن خضوعه للمغول، للمرة الثانية، لإنقاذ حكمه وحياته، وعقد شاه جهان الصلح معه بالشروط السابقة نفسها[2].

ورفع ملك عنبر رأسه للمرة الثانية، فقد انتهز فرصة المتاعب التي أصابت الدولة المغولية بضياع قندهار ورفض شاه جهان التقدم لاستعادتها، وأعلن الثورة. ويبدو أن جهانكير فَقَدَ اهتمامه بالدكن بسبب ثورة ابنه شاه جهان وقائده مهابت خان، وعليه فإن الحملات المغولية على الدكن انتهت في عام (١٠٣٠هـ/ ١٦٢١م).

والواقع أن سياسة جهانكير التوسعية في الدكن أصابت فشلاً، وكانت تحركات ملك عنبر وسياسته الفذة هي السبب في ذلك. فقد أدرك ما تتمتع به هذه الولاية من مزايا «استراتيجية» فاستغلها بنجاح في صراعه مع المغول، واستعان بالمهرات، أعداء هؤلاء، وكانت النتيجة أن الدكن لم تخضع للمغول، وبالتالي فإن حدود الدولة المغولية لم تتسع مطلقاً في عهد جهانكير.

(١) شاهجان نامه: ص٦٥، ٦٦. Memoirs of Jahangir: I, pp313, 314, 373.

(٢) Ibid.

وتوفي ملك عنبر في عام (١٠٣٥هـ/ ١٦٢٦م) كما توفي جهانكير في العام التالي.

فتح كانغرا

يُعدّ فتح حصن كانغرا الهندوسي الشهير من بين إنجازات السلطان جهانكير الهامة، ويقع هذا الحصن في وادي كانغرا في شمال شرقي البنجاب، وهو مبني على تل مرتفع ومحصَّن تحصيناً جيداً، ويُعدُّ من أمنع حصون المنطقة، وقد استعصى على السلاطين المسلمين قبل جهانكير، وعندما تسلَّم هذا السلطان الحكم قرَّر فتح الحصن، فكلَّف مرتضى خان حاكم البنجاب بهذه المهمة، غير أنه فشل في ذلك، فُكلِّف عندئذٍ ابنه شاه جهان بفتحه، فحاصره مدة أربعة أشهر قبل أن يفتحه في (٢٠ ذي الحجة ١٠٢٩هـ/ ١٦ تشرين الثاني ١٦٢٠م)، واستسلم صاحبه بيكرماجيت، ونهب المغول معبد نكركت الذي يقع في نطاقه[١].

زواج جهانكير من نورجهان، وأثره على الحياة السياسية

كان لهذا الزواج ألا يأخذ حيزاً لولا ما صاحبه وما أعقبه من أحداث جسام أثّرت كثيراً في سياسة الدولة. اشتهرت هذه السيدة، التي تدعى مهر النساء، بالجمال البارع والحسن والعلم والعقل، تتقن اللغتين العربية والفارسية وتنظم الشعر، وهي ابنة تاجر إيراني يدعى ميرزا غياث، حطَّت به الأقدار في بلاط السلطان أكبر، فولّاه ديوان كابل، وعندما بلغت مهر النساء السابعة عشرة من عمرها تزوجت علي قولي استجلو، وهو أحد القادة في خدمة جهانكير، وقد ولّاه أحد المناصب في البنغال، والمعروف أنه صحب السلطان منذ أن كان أميراً باسم سليم، وقد منحه لقب شير أفغان، نظراً لشجاعته، عندما قتل أحد النمور[٢].

وعندما تولى جهانكير العرش سمع أن شير أفغان يعتزم الخروج والثورة، وكان قد شك في ولائه له من واقع اتصاله بثوار الأفغان، وأنه سار سيرة أهل البغي والفساد، وهو كان مجرد ساق عند الشاه الصفوي إسماعيل الثاني، فأرسل إلى حاكم البنغال قطب الدين يأمره بتسييره إليه، فاجتمع به وأخبره برسالة السلطان، فرفض الإذعان لأنه اشتم منها رائحة الخطر على حياته،

(١) Memoirs of Jahangir: II, pp25, -26.
(٢) Ibid: I, p113.

واستغل فرصة اجتماعه بحاكم البنغال، فحاول قتله، لولا أن عاجله حراسة بسيوفهم وقضوا عليه، وأُرسلت امرأته، مهر النساء، وابنته إلى البلاط حيث عُيِّنت وصيفة للملكة الأم، وجرت هذه الأحداث في عام (١٠١٦هـ/ ١٦٠٧م)، وفي عام (١٠٢٠هـ/ ١٦١١م) شاهدها السلطان مصادفة في السوق فأحبها وتزوَّجها[١].

وثمة رواية أخرى تقول بأن جهانكير شاهد مهر النساء فأحبها وافتتن بها وأراد أن يتزوجها، فأرسل قطب الدين ليقنع زوجها شير أفغان بتطليق زوجته ليتزوجها السلطان، فرفض وثار، وحاول قتل قطب الدين. وتبدو هذه الرواية أقرب إلى الحقيقة والواقع والتصديق نظراً للظروف التي صاحبتها، وتزوُّج جهانكير بها بعد مقتل زوجها. والراجح أن غرام السلطان بها بدأ منذ أن رآها في الدكن أيام أبيه حيث كان زوجها يسير في حاشيته حتى انتهى إلى تدبير مقتله بالبنغال لتخلص له[٢].

ومهما يكن من أمر فقد تزوجها السلطان جهانكير، بعد أربع سنوات من مقتل زوجها، وسمّاها نورجهان، أي نور الدنيا[٣]، ولعل انتظاره كل هذه المدة إنما كان في الغالب لينسى الناس قصتها ولتخف لوعتها على زوجها وما لقيه من مصير مؤلم، وكانت قد بلغت الرابعة والثلاثين من عمرها ولا تزال تحتفظ بجمالها الفائق. وهنا دخل إلى بلاط السلطان عنصر جديد كان له أثر كبير في توجيه سياسة الدولة، ذلك أن هذه السيدة أوتيت من قوة الشخصية وحدَّة الذكاء ورجاحة العقل ما يسَّر لها أن تغدو صاحبة الكلمة الأولى في الدولة.

امتازت هذه السلطانة بطيبة القلب، فعملت على مساعدة الفقراء، وتبرعت بصداق مئات البنات الفقراء عند زواجهن، فكان حرياً بها أن تقتصر جهودها على عمل الخير. غير أن ما تميزت به أيضاً من قدرة على فهم المعضلات والعمل على حلِّها، وطموحها الذي لا حدَّ له، وإرادتها الحديدية؛ ما دفعها إلى الإمساك بمقدرات الدولة، وأضحت القوة الفعالة وراء العرش، فخضع السلطان لمشيئتها، وما أضحى لها من بالغ النفوذ عليه، فضربت اسمها على العملة إلى جانب اسمه، وهذه حالة فريدة في تاريخ العملة الإسلامية، كما

(١) Memoirs of Jahangir: I p113, 225.
(٢) Manucci: I, p157.
(٣) Memoirs of Jahangir. I, p319.

ذيّلت مراسيم الدولة بخاتميهما، جنباً إلى جنب، وراحت تجلس في شرفة قصرها تستقبل الأمراء والأعيان والأشراف كما يفعل السلطان.

وتمادت هذه السلطانة في الإحاطة بالسلطان والأسرة الحاكمة ومقدرات الدولة، فحتى تُمتّن صلتها بالأسرة الحاكمة زوّجت الأمير خرم ـ شاه جهان ـ من ابنة أخيها آصف، كما زوّجت ابنتها لادلي بيكم، التي أنجبتها من شير أفغان، من أخيه الأمير شهريار، وراحت تُقنع السلطان بتعيينه ولياً للعهد بدلاً من أخيه شاه جهان، وقد رأت فيه الشخصية الضعيفة التي تصلح لأن تكون أداة طيعة في يدها في الوقت الذي خشيت على مستقبلها السياسي من قوة شخصية الأمير شاه جهان، الأمر الذي أدّى إلى حرب بين الأخوين.

وعملت هذه السلطانة على الهيمنة على مناصب الدولة، من خلال تعيين أسرتها والمقربين منهم في المراكز الهامة. فعيّنت والدها رئيساً للوزراء ولقبته بلقب اعتماد الدولة، كما عيّنت أخاها آصف رئيساً للتشريفات في القصر السلطاني[1]، فأمّنت بذلك انتقال السلطة الفعلية إليها وإلى أسرتها والمقربين منها. وقد ساعدها على ارتقاء هذا المجد وَلَهُ جهانكير بها وانصرافه إلى الشراب وتعاطيه الأفيون. فقد كان يشرب كل مساء عشرين كأساً من العرق القوي، بحيث أن رائحته تجعل كل من يتحدث معه يعطس، بالإضافة إلى تقدمه في السن ومرضه الذي لازمه منذ عام (١٠٢٩هـ/ ١٦٢٠م).

الصفويون يستعيدون قندهار

كانت قندهار مثار نزاع قديم بين الهند وإيران. فهذه المدينة، فضلاً عن أهميتها التجارية، والمعروف أنها كانت محطة تجارية للقوافل بين الهند وإيران، كانت مركزاً عسكرياً إستراتيجياً عند الحدود الشمالية الغربية، ما حدا ببابر وأولاده من بعده أن يحرصوا على الاحتفاظ بها. ولئن كان الصفويون في إيران قد اضطروا تحت ظروف معينة إلى التخلي عنها إلا أنهم لا يفتئون يتطلعون إلى اليوم الذي يستعيدونها فيه بوصفها حقاً ثابتاً لهم. فانتهز الشاه عباس الكبير (٩٩٦ ـ ١٠٣٨هـ/ ١٥٨٨ ـ ١٦٢٩م) فرصة اضطراب الأوضاع في الهند، عقب وفاة أكبر، فأوعز إلى حاكم خراسان بمهاجمة قندهار واستعادتها، فتصدّت حاميتها، بقيادة شاه بك خان، للهجوم الصفوي

(١) Manucci: I, p157.

وأفشلته، فتحرج موقف الشاه عباس الكبير، وكان عليه أن يبرر تصرفه هذا أمام السلطان. وفعلاً نفض يده من الحملة واتهم الأمراء الخراسانيين بالتفرد بالهجوم من دون علمه، وحاول التقرب من جهانكير تدليلاً على حسن نيته وأرسل إليه الهدايا، وبذلك استمرت قندهار تحت السيادة المغولية.

وأرسل الشاه عباس الكبير في عام (١٠٣٠هـ/ ١٦٢١م) جيشاً كبيراً للاستيلاء على قندهار. استاء جهانكير من تصرفه، وأمر ابنه شاه جهان بالسير من الدكن إلى قندهار لدفع الإيرانيين عنها. كانت العلاقة بين شاه جهان ونورجهان آنذاك متوترة بفعل محاولة السلطانة إقصائه من ولاية العهد، واعتقد أن إبعاده إلى قندهار ما هو إلا جزء من المؤامرة، وبالتالي فإنه رفض الأمر الملكي، فاستغلت السلطانة نورجهان هذه الفرصة وراحت تحط من قدره أمام السلطان وترفع من قدر أخيه شهريار، حتى عقد له السلطان لواء حملة قندهار.

وفيما كانت السلطانة منهمكة في تنفيذ خططها سقطت قندهار بأيدي القوات الصفوية، بعد حصار دام خمسة وأربعين يوماً. وأرسل الشاه عباس الكبير رسلاً إلى جهانكير يؤكد حقه المتوارث في هذه المدينة. ويبدو أنه اقتنع بوجهة نظره أو أنه استحال عليه إعادتها فأمر قواته بالعودة[1].

ثورة شاه جهان

ترتبط ثورة شاه جهان بما جرى من محاولة إقصائه عن ولاية العهد لصالح أخيه الأصغر شهريار بتأثير السلطانه نورجهان، وهي حادثة أخرى أثّرت سلباً على العلاقة بين الأب وابنه وزادت التباعد بينهما. وحدث أن طلب شاه جهان من أبيه منحه إقطاع دهلبور وتوقّع أن يلبي طلبه، لذلك أرسل قواته إليها، لكن تدخلت نورجهان في هذه القضية وأقنعت السلطان بمنحها لابنه شهريار، ما أثار شاه جهان وقرّر الخروج على حكم أبيه، وعندما علم السلطان بذلك طلب من ابنه أن يرسل قواته إلى العاصمة وهو يريد تجريده منها حتى يُضعف موقفه، فرفض شاه جهان ذلك وراح يستعد للقتال سياسياً وعسكرياً. فعلى الصعيد السياسي، فقد حاول التقرّب من الشاه الصفوي، فأرسل إليه رسولاً من قِبله هو زاهد بك، وعلى الصعيد العسكري، فقد راح

(١) Memoirs of Jahangir: II, pp233, 240-242-245.

يجمع المؤن من غوندوانا وولايات الجنوب ويُخزِّنها، ويجمع العساكر استعداداً للصمود والمواجهة.

أرسل جهانكير الأمير برويز والقائد مهابت خان لقمع الثورة، وذهب هو مع زوجته إلى أجمير ليكون قريباً من الأحداث. تقدَّم شاه جهان من ماندو في مالوة في طريقه إلى أكرا لمهاجمتها، فتصدت له قوات بيلوجبور قرب أكرا عند الجنوب من دلهي، وجرى اشتباك بين الطرفين في (جمادى الآخرة ١٠٣٢هـ/ نيسان ١٦٢٣م) أسفر عن خسارة شاه جهان، فانسحب من أرض المعركة وعاد إلى ماندو، فطارده برويز ومهابت خان وأجبراه على اللجوء إلى أسيركاه. والتمس الأمير الثائر المساعدة من ملك عنبر في أحمد نكر ومن بيجابور إلا أنه لم يتلقَّ إلا الرفض. واستولى مهابت خان على برهانبور، بود التي تركها شاه جهان من دون حماية، وعلى بيهار وحصن روهتاس وسيطر على البنغال، واصطدم بشاه جهان قرب الله آباد وهزمه، فانفضّ عنه ضباطه وانضموا إلى الجيش السلطاني، فشعر عندئذٍ بعجزه عن الاستمرار في الثورة والمقاومة، وطلب من والده الصفح عنه معتذراً عما بدر منه، فكتب له السلطان رسالة بخط يده في (جمادى الآخرة ١٠٣٥هـ/آذار ١٦٢٦م) وافق بموجبها على العفو عنه على أن يرسل ولديه داراشكوه وأورنجزيب، وكانا حدثين، رهائن ويسلم روهتاس وحصن أسيركاه الذي استولى عليه أتباعه، ويمنحه إقطاع بلاغات. وكان لنور جهان دور سياسي في حمل السلطان على العفو عن ابنه، وذلك من واقع الصراع على السلطة(١).

وهكذا فشلت ثورة شاه جهان التي شغلت الدولة على مدى ثلاثة أعوام، فهزَّت أركانها وزعزعتها. أما فيما يتعلق بأسباب فشلها فهي الحسابات الخاطئة لزعيمها الذي:

ـ اعتقد أن عمه آصاف خان سوف يسانده بفعل مرض السلطان وإدمانه على الشراب وابتعاده عن ممارسة الحكم، في ظل توثب السلطانة نورجهان.

ـ أمل في مساندة الأمراء الذين ضايقتهم تصرفات السلطانة، كما توقّع انضمام أمراء آخرين إليه بسبب شهرته وتضحياته تجاه الدولة.

ـ ظنَّ أن ليس باستطاعة السلطان أن يجند قوات تضارع قواته، كما أنه لا

(١) Memoirs of Jahangir: II, pp235, 236, 238, 239, 243, 247.

يمكنه سحب القوات الموجودة على الحدود مع الإيرانيين في قندهار بسبب الوضع المتدهور هناك.

الواقع أنه كان واهماً لأن أيّاً من ذلك لم يتحقق(١).

ثورة مهابت خان ـ وفاة جهانكير

كان مهابت خان قائداً محبوباً من الجيش ومقرَّباً من الأمير برويز. ولّاه السلطان البنغال أثناء ثورة شاه جهان، فساء ذلك نورجهان لأنها رأت في هذا التقارب ما يهدد بالقضاء على خطتها وهدفها الأكبر وهو تأمين ولاية العهد لختنها الأمير شهريار، وبخاصة أن مهابت خان كان يعارض توجهاتها باستمرار وينافسها في نفوذها، لذلك أرادت أن تعيد التوازن السياسي في الدولة وخلط الأوراق من جديد، ومن أجل تحقيق ذلك أقنعت السلطان بالعفو عن ابنه شاه جهان.

الواقع أن مهابت خان ضاق ذرعاً بتصرفات نورجهان التي غدت تسيطر على مقدرات الدولة، والتي دفعها غرورها إلى الحط من شأن كبار الأمراء، فراح يدعو لأخذ البيعة لبرويز، ثاني أبناء السلطان، وكان طوع بنانه، فتصدّت له نورجهان ووصمته بالخيانة، وحرَّضت السلطان على اضطهاده، فاستدعاه جهانكير من البنغال، وكان في طريقه إلى كابل لإخضاعها، فاشتمّ منها رائحة الخطر على حياته، لذلك خرج على رأس خمسة آلاف من المقاتلين الراجبوت وكمن للسلطان في كشمير، بين لاهور وكابل ، فقبض عليه وهو يعبّر نهر چيلوم وأسره، وتمكّنت السلطانة من الفرار، فجمعت جيشاً لتخليص السلطان من الأسر، إلا أنها باءت بالفشل لتقع هي وأخيها في الأسر.

واستطاعت السلطانة بذكائها ودهائها أن تتغلب على مهابت خان وتطلق سراح السلطان. فقد دبَّرت حيلة ماكرة لإبعاد مهابت خان عن حرسه، ثم استولت على خزائنه حتى أضحى في ضيق مالي شديد، وفرّ إلى الجبال للاحتماء بها، ثم طلب العفو من السلطان، فرأت السلطانة أن تعفو عنه لتستعمله أداة ضد شاه جهان الذي كان على وشك الفرار إلى إيران، فعاد إلى

(١) Manucci: I, p164.

الدكن حيث إقطاعه ومزارعه، وبدلاً من تعقب الأمير الثائر انضم إليه وأضحى من أنصاره.

وحدث آنذاك أن توفي برويز في برهانبور، وقام، بعد ملك عنبر في أحمد نكر، ياقوت الحبشي، فأعلن الحرب على المغول، فأرسل إليه جهانكير جيشاً لمحاربته وذهب هو إلى كشمير للاستجمام، وهناك عاوده مرض ضيق التنفس بشكل أكثر شدَّة، فعادوا به، ولكن اشتدت به العلة وتوفي في الطريق في (١٧ صفر ١٠٣٧هـ/ ٢٨ تشرين الأول ١٦٢٧م) ودُفن في لاهور[1].

التجارة الأوروبية في الهند

عندما اعتلى جهانكير العرش المغولي كانت ثلاث دول أوروبية تتنافس على السيطرة على التجارة الشرقية مع الهند، هي البرتغال التي مضى على سيطرتها على التجارة الأوروبية مع الهند أكثر من قرن، أنشأت خلالها المستعمرات ووطَّدت أقدامها على الشواطئ الهندية، وقد بلغت الآن مراحل شيخوختها بفعل دخول منافسين جدد، هم الهولانديون والإنكليز ثم الفرنسيون بعد ذلك.

والواقع أن هولاندا حلَّت محل البرتغال كدولة رئيسة في المحيط الهندي خلال القرن السابع عشر الميلادي. ففي عام (١٠٠٢هـ/ ١٥٩٤م) قرَّر الملك فيليب الثاني إقفال مرفأ لشبونة في وجه الهولانديين والإنكليز، وهو قرار لم يجر تنفيذه على الوجه المطلوب، دائماً، بحيث كانت بعض السفن الهولاندية والإنكليزية تقع في قبضة الإسبان، فتصادَر منها البضائع التي تنقلها. وقد خشيت الدولتان المذكورتان من سدّ المسالك البحرية في وجه سفنهما ما يشكل خطراً من شأنه أن يلحق الاضطراب في اقتصادهما، لذلك راحتا تسعيان لإقامة علاقات تجارية مباشرة مع أقطار المحيط الهندي.

كانت الأوضاع السياسية السائدة آنذاك تصب في مصلحة الهولانديين بعد أن اقتصرت سيطرة البرتغاليين على بضع قلاع وعدد من الحصون، كما أن هؤلاء كانوا في حروب متواصلة مع السلطات الإسلامية الذين كانوا هم أيضاً يتاجرون بالتوابل، وهم على أتم الاستعداد للتعامل مع غير البرتغاليين من التجار.

(١) Manucci: I, p172.

ومنذ عام (١٠٠٦، ١٠٠٧هـ/١٥٩٨م) أسس الهولانديون مراكز تجارية على الساحل الشمالي من شبه جزيرة ماليزيا، وأخذت الشركات الهولاندية تتزاحم، ما أدَّى إلى ارتفاع أسعار الأفاويه في الجزر المنتجة لها، وأخذ الحكام هناك يرفعون الأسعار، شهراً بعد شهر، وقد أوشكت أسواق أمستردام أن تصاب بالتخمة، فرأى حاكم هولاندا العام آنذاك، أولدن بارندفلت، أن يتدارك الأمر، فأصدر في عام (١٠١١هـ/ ١٦٠٢م) أمراً بإنشاء الشركة الهولاندية لجزر الهند الشرقية. ودخل الهولانديون بعد ذلك في منافسة حادة مع البرتغاليين، واستطاعت الشركة الهولاندية أن تستولي على حصونهم تباعاً الواحد تلو الآخر.

وفي عام (١٠٠٨، ١٠٠٩هـ/ ١٦٠٠م) تأسست الشركة الهندية الشرقية الإنكليزية. وسار الإنكليز في كل مكان، على خطى الهولانديين، فراحوا ينشئون مراكز قريبة من مراكز الهولانديين، الأمر الذي أدى إلى التنافس والتصادم والاقتتال بين الفريقين، ما حمل الحكومتين على الدخول في مفاوضات أسفرت عن إنشاء شركة جديدة بدمج الشركتين معاً، غير أن المستعمرين الهولانديين رفضوا مثل هذه التسوية، وحطموا السفن الإنكليزية في عام (١٠٢٨هـ/ ١٦١٩م)، كما أن محكمة العدل الهولاندية في أمبوان حكمت بالإعدام على ثمانية إنكليز، بعد أن اتهموا بالاستيلاء على الحصن الهولاندي بمساعدة بعض المرتزقة اليابانيين.

وأخذت الامبراطورية الهولاندية التجارية تنمو وتتطور وفقاً للأفكار والمبادئ التي نادى بها وطبقها الحاكم العام كوين بين عامي (١٠٢٧ ـ ١٠٣٢هـ/ ١٦١٨ ـ ١٦٢٣م) والتي أوحت بفرض التجارة الهولاندية بالقوة، وأن على التجار الهولانديين ألا يكونوا تجاراً فحسب، كما كان البرتغاليون، بل منتجين للتوابل والأفاويه بأنفسهم حتى لا يتلاشوا كما تلاشى أولئك، وعُرفت هذه السياسة التجارية بمبدأ «التجارة في الهند ومع الهند».

واحتل الهولانديون الجزر الأندونيسية، وسيطروا على المعابر والمضائق التي لا بدّ من اجتيازها، وكلها مراكز ومقاطعات انتزعوها من البرتغاليين، وسيطروا على سيلان وساحل ملابار ومالقا وكوشين، واستحصلوا من شاه إيران وسلاطين الهند الترخيص بإنشاء بعض الوكالات التجارية.

والواقع أن تجارة الهند مع الهند عادت بالنفع على سكان البلاد، غير أنه

من الصعب أن تعرف إلى أي مدى بلغ النقد وحافز المعادن الثمينة المستوردة، في تأثيرها على الصناعة والتجارة، بالإضافة إلى المدى الذي بلغه هذا التأثير في تغير وضع العامل الهندي. ولا شك بأن كبار التجار، من هنود وسكان الملايو، استفادوا كثيراً من المنافسة الحادة التي قامت بين الدول الأوروبية، فرفعوا أسعارهم. ففي مدينة سورات ترأس برجي بورة، بين عامي (١٠٢٨ ـ ١٠٧٥هـ/ ١٦١٩ ـ ١٦٦٥م)، إدارة اتحاد تجاري كان بوسعه أن يشتري حمل سفينة أو أكثر، وقد فتح هذا الاتحاد مراكز تجارية له، في سورات وأحمد آباد وأكرا وغولكوندة وجكرة، ودعَّمها بالحصون للوقوف في وجه البرتغاليين الذين كان لهم عند المغول مقام محمود[(١)].

واقتدى الإنكليز بالهولانديين، وساروا على خطاهم في غزو الأسواق الآسيوية بعامة والهندية بخاصة. وكان ملك إنكلترا جيمس الأول قد عين سفيراً له في أكرا في عام (١٠١٧هـ/ ١٦٠٨م) هو وليم هوكينز، وظهر في بلاط جهانكير بوصفه ممثلاً لملك إنكلترا وشركة الهند الشرقية الإنكليزية معاً، وحين قدَّم للسلطان المغولي رسالة من ملكه تتضمن رجاء بتسهيل سبل التجارة الإنكليزية في بلاده؛ احتفى به السلطان وأذن له بمشاركته مجالس شرابه، وأقام عنده مدة عامين ونصف حتى بلغ البرتغاليون بدسائسهم إلى تنفيره منه، فألقوا إلى السلطان بأن ملك إنكلترا ليس سوى سيد على جزيرة صغيرة يسكنها صيادون بائسون.

ويبدو أن السفير الإنكليزي لم يظفر بطائل، خلال المدة المذكورة، واضطر أن يغادر الهند عائداً إلى بلاده، وطلب من السلطان أن يكتب كتاباً لمليكه، فرفض لأن مما لا يناسب قدر ملك مغولي أن يكتب إلى أمير صغير كملك إنكلترا، غير أن الشركة الإنكليزية ما زالت تحيك الدسائس حتى نالت براءة من السلطان سمحت لها بأن تمارس التجارة في صورات.

ومهَّد ازدياد النفرة والتباعد بين حكام الكجرات والبرتغاليين ومبشريهم إلى الترحيب بتوماس رو، السفير الإنكليزي الجديد، واستطاع هذا بدبلوماسيته وكياسته وما جلبه معه من الطرف والجواهر والحلي، وما قدَّمه لرجال الدولة

---

(١) Dunbar, O.A.: History of India from Earliest Times to the present day: p220. موسنييه، رولان: تاريخ الحضارات العام، القرنان السادس عشر والسابع عشر: ص٦١٠ ـ ٦١٤.

من الهدايا الفاخرة أن يبلغ منزلة رفيعة عند السلطان، فاختلط مع عساكره نحو ثلاثة أعوام، وظل يسعى عند السلطان لعدم فرض ضرائب على التجارة الإنكليزية حتى حقّق غايته، كما سمح السلطان للإنكليز، في عام (١٠٢٥هـ/ ١٦١٦م)، بتحصين المركز التجاري الإنكليزي في سورات، فثبّت بذلك أقدام شركة الهند الشرقية الإنكليزية، بحيث أُتيح لها بعد ذلك أن تتوسع في كوروماندو وغولكوندة وإلى الجنوب من مدراس.

وكان مما يسَّر مهمة البريطانيين التجارية بعامة خلو جالياتهم، في بادئ الأمر، من المبشرين، وحرصهم على عدم التدخل في شؤون السكان الوطنيين وتظاهرهم بالمودة والمداهنة لهم.

وكان التجار الأوروبيون بعامة يجلبون معهم إلى الهند كل طريف من منتجات بلادهم، فيغرقوا أسواقها بالكماليات وأدوات الزينة المطلوبة والتي كان الناس يتهافتون على شرائها ليأخذوا منها، مقابل ذلك، المواد الأولية والقطن والنيلة، فيجنون من مقايضتهم هذه أرباحاً طائلة، وكانت هذه المقايضات تجري في موانئ بروج وسورات وكمباي وقاليقوط ثم في كلكتا بعد ذلك[(١)].

وهكذا بدأ الأوروبيون المستعمرون، في عهد جهانكير، يتغلغلون في صميم الحياة التجارية تمهيداً للسيطرة السياسية التي ستتحقق بعد ذلك، ويؤخذ على السلطان أنه أعفى التجارة الإنكليزية من الضرائب ما سهَّل لهم التغلغل في البلاد.

---

(١) Dunbar: p231.

شاه جهان

(١٠٣٧ ـ ١٠٦٨هـ/١٦٢٨ ـ ١٦٥٨م)

اعتلاء شاه جهان العرش

توفي جهانكير قبل أن يستقر الأمر على من يخلفه، وقد ترك ولدين راحا يتنازعان الملك هما شهربار، الذي تؤيده نورجهان لأنه زوج ابنتها، وشاه جهان الذي يسانده الجيش ومعظم الأمراء وعلى رأسهم آصف خان، أخو نورجهان ووالد زوجته. بالإضافة إلى هذين الأميرين المتنافسين، كان هناك عدد من الأمراء الأقل أهمية وشهرة تطلعوا إلى اعتلاء العرش، مثل بولاكي بن خسرو المعروف باسم داور بخش[١] وابني دانيال تهمور وهوسهنغ[٢].

كان شاه جهان في الدكن عند وفاة والده، فأبلغه آصف خان بذلك وطلب منه الحضور إلى دلهي على وجه السرعة ليعتلي العرش، وعمل في الوقت نفسه على تأمين منصب السلطنة له من واقع تعيين داور بخش، حفيد السلطان الراحل من ابنه خسرو، بعد أن أخرجه من سجنه، ليتقي بهذا الإجراء ما قد يحدث من اضطراب الأمور في المدينة، وحتى يتاح له إخراج أولاد شاه جهان من القصر خشية على حياتهم، والمعروف أنهم كانوا رهائن في دار السلطنة[٣].

لم ترض نورجهان بما ذهب إليه أخوها آصف خان، فنادت بختنها شهريار سلطاناً في لاهور، فاصطدم به آصف خان قرب لاهور، فهزمه وقبض عليه، وسمل عينيه ثم زجّه في السجن. وفي الوقت الذي كان شاه جهان في طريقه إلى أكرا أرسل تعليمات سرية إلى آصف خان بالقضاء على منافسيه جميعاً بمن

(١) يجعل مانوتشي، بولاكي الابن الأكبر لجهانكير. Mogol India: I, p172.

(٢) Syed: I, p145.

(٣) Manucci. I, p174.

فيهم داور بخش. وهكذا عندما وصل شاه جهان إلى أكرا كان كافة المنافسين له قد أُزيحوا عن الساحة السياسية، فجلس على العرش في (٢٨ جمادى الأولى ١٠٣٧هـ/ ٤ شباط ١٦٢٨م)، وتسمى باسم أبو المظفر شهاب الدين محمد شاه جهان، وخطب باسمه على المنابر في جميع أنحاء الهند وضُربت السكة باسمه[١].

كان أول عمل اتخذه شاه جهان أنه عيَّن آصف خان وزيراً، ولقّبه بيمين الدولة، وأطلق يده في تسيير الشؤون العامة، فقبض على نورجهان ووضعها في الإقامة الجبرية وأجرى عليها رزقاً، فاعتزلت بذلك الحياة العامة حتى ماتت في لاهور في عام (١٠٥٥هـ/ ١٦٤٥م) وفرَّ داور بخش إلى إيران محتمياً بالصفويين وبقي هناك حتى أواخر حياته[٢].

بدأ شاه جهان حكمه بداية طيبة، فأجرى بعض الإصلاحات الدينية التي أصابت ما أحدثه أكبر من قبل وتبَّناها ابنه جهانكير من بعده، والتي رأى فيها رجال الدين بدعاً، وسخط المجتمع الإسلامي في الهند عليها، وطالب الجميع بتغيرها، فألغى التحية المستندة على السجود للسلطان، وأمر بأن يحل محلها «الزامينيوس»، أي تقبيل الأرض بين يديه، على أن يُعفى منها الأشراف والشيوخ وعلماء الدين. وأمر شاه جهان، بناء على رغبة رجال الدين أيضاً، باستبدال التقويم الشمسي بالتقويم الهجري، وأن تُتبع السنة الهجرية القمرية في دوائر الحكومة، وأطلق على مدينة أكرا اسم أكبر آباد، أي مدينة أكبر، تخليداً لذكرى جده، وأجزل العطاء للموظفين الذين ساندوه في نضاله في سبيل اعتلاء العرش، وبخاصة آصاف خان[٣].

المشكلات التي واجهت شاه جهان خلال مدة حكمه

ثورة راجا ججهارسينغ في بندلخند

واجه شاه جهان خلال حياته السياسية بعض المشكلات على الرغم مما كان يعم البلاد من الرخاء والرفاهية، لعل أولاها الثورة التي قام بها راجا ججهارسينغ الهندوسي في بندلخند بالدكن، وهو ابن بيرمان سينغ ديڤا بانديلا

(١) شاهجهان نامه: ص٩٨.

(٢) Manucci: I, p175.

(٣) شاهجهان نامه: ص١٠٠ ـ ١٠٣.

الشهير، قاتل أبي الفضل، بأمر من جهانكير، وكافأه هذا بأن منحه امتيازات كثيرة جمع من خلالها ثروات طائلة، وتوفي قبل وفاة جهانكير ببضعة أشهر، فخلفه ابنه ججهار سينغ، وراح بعد اعتلاء شاه جهان العرش يُوطِّد أقدامه في إقطاعاته ويزيد من قوته بشراء الأسلحة والذخائر، ويُحصِّن قلاعه، ويضطهد السكان ويتعسّف في جمع الضرائب، وعندما علم شاه جهان بأعماله أمر بإجراء تحقيق في ذلك ما أزعج الأمير الهندوسي فراح يستعد للحرب وإعلان استقلاله عن الحكومة المركزية.

لم يتخذ شاه جهان في بادئ الأمر أي إجراء بحق ججهارسينغ بسبب دوره في صدّ الغارات عن المناطق الحدودية، ولكن عندما تغير الوضع، بعد أن حقّق مهابت خان الأمن والاستقرار في هذه المناطق؛ نهض لقمع ثورته، فأرسل مهابت خان إلى بندلخند من أجل ذلك ودعّمه بتعزيزات. من الشرق بقيادة عبد الله خان، ومن الجنوب بقيادة خان جهان. وعندما أحاطت به القوات المغولية استسلم للسلطان الذي أبقاه في حكم الدكن، يحكمه باسم المغول مقابل تنازله عن بعض أملاكه.

خدم ججهارسينغ الدولة المغولية مدة خمسة أعوام بإخلاص، وساعدها في الاستيلاء على دولت آباد، ولكن في عام (١٠٤٤هـ/ ١٦٣٤م) حاول الاستيلاء على غوندوانا ليعوِّض ما خسره من أراضٍ أمام المغول في عام (١٠٣٨هـ/ ١٦٢٩م)، فحذّره شاه جهان، فحاصر شوراغار في عام (١٠٤٥هـ/ ١٦٣٥م) وقتل حاكمها الراجا، فطلب ابنه من السلطان الأخذ بثأر والده، فأمر ججهارسينغ إعادة غوندوانا إلى ابن المتوفى بالإضافة إلى قسم من أملاكه، ودفع الجزية للمغول، فرفض ذلك، واستدعى قواته، التي كانت تخدم مع الجيش المغولي في الدكن، الأمر الذي أغضب شاه جهان وكلّف ابنه أورنجزيب بقمع ثورته. فزحف نحو ججهارسينغ وكان في أورشها، فاقتحمها، وفرَّ الثائر الهندوسي إلى رهاموني ثم إلى شوراغار، فطارده أورنجزيب وأجبره على الانسحاب إلى الدكن مع عائلته وكنوزه. وخاض هذا الثائر معركةً يائسة مع الجيش المغولي، وفرّ مع ابنه بيكرماجيت إلى الغابات للاحتماء بها حيث قُتلا على أيدي السكان المحليين، وسلّم السلطان مدينة أورشها إلى ديقي سينغ، أحد أقرباء ججهارسينغ، ليحكمها باسمه، وكان قد ساعد المغول في هذه الحملة، ويبدو أن السكان رفضوا زعامته وأعلنوا العصيان، بزعامة

شاميث راي، الذي استمر حتى عهد أورنجزيب[1].

ثورة خان جهان

واجه شاه جهان تحدياً آخر لسلطته. تمثل بثورة خان جهان لودهي الأفغاني في مالوة وشمالي الدكن. والمعروف أن هذا القائد ساند نورجهان وشهريار في صراعهما مع شاه جهان على السلطة، وحاول، في غمرة هذا الصراع، أن يستولي على حصن ماندو، غير أنه فشل في ذلك بسبب نجاح شاه جهان في اعتلاء العرش وتثبيت أقدامه في الحكم. فاضطر إلى الخضوع له، فعفا عنه السلطان وأبقاه في حكم الدكن، ثم استدعاه إلى بلاطه وقرّبه من مجلسه، وعيَّن مهابت خان حاكماً على الدكن، وعلى الرغم من ذلك لم تطمئن نفسه إلى السلطان، ففرَّ وأعلن العصيان في الدكن، وحرّض أمراءه المستقلين على حرب المغول، فأضحى بذلك مصدر قلق للدولة، فأرسل إليه شاه جهان ثلاثة جيوش لتطبق عليه من ثلاثة محاور:

الأول: خرج من الكجرات، بقيادة عبد الله خان.

الثاني: أُرسل إلى ريوالكون جنوبي بيهار، لمهاجمته من الشمال الشرقي.

الثالث: خرج من تلتغانا.

ففرَّ إلى بيجابور والتجأ إلى دولت آباد، وساعده صديقه القديم أمير أحمد نكر، غير أنه ما لبث أن أخرجه من بلاده تحت الضغط المغولي، فحاول الذهاب شمالاً للاحتماء بالأفغان، وما زال القائدان عبد الله خان ومظفر خان يطاردانه حتى ظفرا به في عام (١٠٣٩هـ/ ١٦٣٠م) في سيهوندا وقتلاه[2].

القحط والمجاعة

بعيداً عن الثورات والمتاعب السياسية التي شهدها عهد شاه جهان، تعرّضت الهند، ابتداء من السنة الرابعة من حكمه وعلى مدى عامين (١٠٣٩ ـ ١٠٤١هـ/ ١٦٣٠ ـ ١٦٣٢م)، لموجة من الجفاف بسبب انحباس الأمطار الموسمية التي تعتمد عليها البلاد في السقاية والري، ونتج عنها قحط ومجاعة خطيرة بدت أقسى مظاهرها في الكجرات والدكن، واستفحلت بانتشار الأوبئة الفتاكة بين السكان، وراح ضحيتها عدد كبير من الهنود. وعلى الرغم مما بذله

(١) شاهجهان نامه: ص١٢٢، ١٢٣.

(٢) المصدر نفسه: ص١٢٧، ١٣٠.

السلطان من جهود حثيثة لإغاثة الناس والتخفيف عنهم من وطأة الجوع، مثل إمدادهم بالكثير من المؤن والأرزاق والأموال، وإقامة المطاعم المجانية لهم، وإعفائهم من كثير من الضرائب المفروضة عليهم؛ فإن صعوبة المواصلات، وازدحام الطرقات بالنازحين، قد عوَّق كثيراً عمليات الإغاثة، حتى باع الناس أولادهم وأكلوا الجيف، وكثيراً ما سُدَّت الطرقات بآلاف الجثث، وأقفرت قرى بأكملها من سكانها[1].

ضمُّ الدكن

اتسم الصراع في الدكن، بين المغول وإمارات الجنوب، بالسياسي والمذهبي. من الناحية السياسية، فقد أراد شاه جهان أن يواصل الفتوح التي بدأها جده وأبوه من قبل في الدكن لتوحيد شبه القارة الهندية تحت سيطرة المغول. ومن الناحية المذهبية، فقد كان حكام إمارات الدكن على المذهب الشيعي، ويتعاونون مع الصفويين في إيران، الذين كانوا يناوئون أهل السنة، ويحاولون نشر المذهب الشيعي في شمالي ووسط الهند حيث النفوذ السني طاغ. والمعروف أن حكام المغول كانوا متمسكين بأهداب السنة، ويحرصون على منع انتشار المذهب الشيعي في المناطق التي يسيطرون عليها، ولهذا رأينا السلطان أكبر يركز جهوده العسكرية، بين عامي (١٠٠٩ ـ ١٠١٤هـ/ ١٦٠٠ ـ ١٦٠٥م) لغزو إقليم الدكن، واستطاع أن يضمّ خاندش وشطراً كبيراً من إمارة أحمد نكر. وانتهزت إمارتا بيجابور وغولكوندة المتاعب التي مرَّت بها الدولة المغولية في عهد جهانكير، ليخلعا الولاء للسلطان المغولي ويعلنا استقلالهما، ويوسِّعا أراضيهما على حساب إمارة أحمد نكر، التي بقيت على ولائها الاسمي للمغول حتى أخضعها شاه جهان نهائياً لسلطته في عام (١٠٤٠هـ/ ١٦٣١م)، واتخذها قاعدة جنوبية لقواته.

كانت إمارة بيجابور تحت حكم عادل شاه، وكان هذا يساعد كل ثائر على الدولة المغولية مثلما فعل مع خان جهان وشاهجي المهراتي في أحمد نكر، وقد أثاره ضمّ المغول لهذه الإمارة، وكان صاحب غولكوندة شيعياً يسب الخلفاء الراشدين ويتبرأ منهم، ويذكر اسم شاه إيران الصفوي في خطبته ويعادي المغول.

(١) شاهجهان نامه. ص١٥٠ ـ ١٥٢.

لذلك قرّر شاه جهان تجريد حملة عسكرية لإخضاع هاتين الإمارتين، فحاصر أولاً بيجابور، لكن موجة القحط والجفاف والوباء، التي عمَّت الدكن آنذاك، أجبرته على فك الحصار والعودة إلى بلاده، غير أنه ترك قائده مهابت خان في المنطقة، فثبّت حكم المغول في إمارة أحمد نكر، وعندما توفي صاحبها فتح خان استبدَّ قائده شاهجي المهراتي بأمورها، وأخذ يسعى للاستقلال عن المغول، وسانده صاحبا بيجابور وغولكوندة.

أثارت هذه التطورات السياسية شاه جهان، فقرّر إخضاع الإمارات الجنوبية وضمها إلى أملاكه، فخرج من عاصمته في عام (١٠٤٦هـ/ ١٦٣٦م) متوجهاً إلى الجنوب، واتخذ من دولت آباد في أحمد نكر مقراً لقيادته وإدارة عملياته العسكرية، فأذعن صاحب غولكوندة، ووافق على طلب السلطان بالتوقف عن سب الخلفاء الراشدين والتبرؤ منهم، وقَبِل أن يؤدي له الخراج ويذكر اسمه في الخطبة بدلاً من شاه إيران، ورفض عادل شاه طلب السلطان الاعتراف بسيادته والكف عن مساعدة الثائرين، فاجتاح بلاده وانتزع عدداً كبيراً من حصونه، كما قضى على شاهجي المهراتي، واضطر عادل شاه تحت الضغط العسكري إلى الخضوع.

وبذلك بدأت سيطرة شاه جهان على ما بقي من الإمارات الإسلامية في الجنوب، فعيَّن ابنه أورنجزيب حاكماً على الدكن، وعاد إلى أكرا في عام (١٠٤٧هـ/ ١٦٣٧م).

محاولات شاه جهان التوسع باتجاه أواسط آسيا

محاولة استعادة قندهار

وضع شاه جهان نصب عينيه التوسع في أواسط آسيا واستعادة بلاد ما وراء النهر، وبخاصة العاصمة سمرقند، موطن آبائه السابقين التي لم يغفل أحد من سلاطين المغول في الهند عن السعي لاسترجاعها كلما أُتيحت له الفرصة. وبدأ بقندهار بفعل أهميتها التجارية والعسكرية، فحاول في بادئ الأمر استعادتها سلمياً من أيدي حاكمها علي مردان نائب الشاه الصفوي، لكن محاولته باءت بالفشل أمام رفض علي مردان، عندئذٍ هاجمها عسكرياً في عام (١٠٤٨هـ/ ١٦٣٨م)، والتمس علي مردان المساعدة من الشاه صفي ميرزا (١٠٣٨ ـ ١٠٥٢هـ/ ١٦٢٨ ـ ١٦٤٢م) لصدّ القوات المغولية، ويبدو أن الشاه

شك في ولائه له وفسّر طلبه على غير حقيقته، فظنّ أنه يهدف إلى تدعيم سلطانه والتفاهم مع المغول ثم الخروج عليه، فأرسل قواتاً كبيرة إلى المدينة للقبض عليه وحمله إلى تبريز. وعندما وقف علي مردان على ما يُدبّر له كتب سراً إلى سعيد خان، حاكم كابل المغولي، يلتمس المساعدة من شاه جهان مقابل تسليمه المدينة، فأرسل هذا قواته إلى قندهار فدخلتها وأبعدت القوات الصفوية عنها[١].

لم يسكت الشاه صفي ميرزا على ضياع قندهار وراح يتجهّز لاستعادتها، فخرج في شتاء (١٠٥٩هـ/ ١٦٤٩م) إليها، وهو يعلم أن ثلوج الهندوكوش سوف تعوق إرسال المدد إليها من الهند. والواقع أن ذلك كان حقيقة، ذلك أن دولت خان، نائب شاه جهان في المنطقة، حين شعر بتردُّد السلطان في إرسال الجند إليه خلال فصل الشتاء للدفاع عن المدينة، لم يصمد طويلاً أمام الحصار الصفوي. فاستسلم للصفويين بعد سبعة وخمسين يوماً، وهو لا يعلم أنهم كانوا هم أيضاً على وشك الرحيل بفعل قساوة فصل الشتاء ونقص المؤن. وتقع مسؤولية ضياع قندهار على السلطان ومستشاريه الجهلة بالشؤون السياسية والعسكرية، وهم الذين ركّزوا على عائق الثلوج من دون النظر أولاً إلى مصلحة الدولة والأخطار التي تواجهها من جانب الصفويين.

ومهما يكن من أمر، فعندما علم شاه جهان بسقوط قندهار أرسل جيشاً بلغ تعداده ستين ألف فارس وعشرة آلاف راجل بقيادة ابنه أورنجزيب، وذهب السلطان إلى كابل ليكون قريباً من مسرح العمليات العسكرية ويتدخل عند الحاجة. وحاصر أورنجزيب المدينة واشتبك مع حاميتها في معارك جانبية. وبعد حصار دام ثلاثة أشهر وعشرين يوماً، تلقّى أورنجزيب أمراً من السلطان بفك الحصار والعودة إلى أكرا بسبب اقتراب فصل الشتاء.

هزَّ حصار قندهار الفاشل سمعة المغول، كقوة كبرى في الهند، فخشي السلطان أن يؤثّر ذلك على حكام الأطراف فينتفضوا على الحكم المغولي، لذلك أسرع بإرسال حملة ثانية إلى قندهار، بلغ تعدادها خمسين ألف فارس وعشرة آلاف راجل، وزوّدها بالمدافع الكبيرة والصغيرة وبعض الفيلة والجمال، وعهد بقيادتها إلى ابنه أورنجزيب، وصحبه قادة كبار، أمثال

(١) Manucci: I, p180.

سعد الله خان ورستم خان. حاصر الجيش المغولي المدينة في (٢٣ جمادى الأولى ١٠٦٢هـ/ ٢ أيار ١٦٥٢م) واستمر مدة شهرين وثمانية أيام من دون أن يتمكّن المغول خلالها من اقتحامها.

وأثبتت المدفعية الصفوية تفوقها وفعاليتها أمام مدفعية المغول التقليدية، فكبدت القوات المغولية خسائر فادحة ما اضطر السلطان إلى اتخاذ قرار برفع الحصار. ويبدو أن أورنجزيب كان في وضع أفضل مما تخيله السلطان أو أنه طلب مدداً لتشديد الحصار على المدينة ورفض السلطان طلبه، فاحتج على قرار الانسحاب، إلا أنه أذعن في النهاية، ففك الحصار عن المدينة وعاد إلى أكرا. والواقع أن ذلك كان خطأ عسكرياً بفعل الخبرة التي اكتسبها أورنجزيب من خلال حملتيه، وكان قد وقف على أوضاع المدينة ومدى قدرة حاميتها على الصمود.

وأرسل السلطان، في عام (١٠٦٣هـ/ ١٦٥٣م)، حملة ثالثة إلى قندهار بقيادة ابنه داراشكو، وبالغ في تجهيزها. فقد تألفت من سبعين ألف فارس وخمسة آلاف راجل وفرقة مدفعية مكونة من عشرة آلاف جندي وستة آلاف لحفر الخنادق وخمسمائة جندي لقطع الحجارة، وزوّدها بكثير من الأسلحة والذخائر. حاصرت هذه القوة العسكرية الضخمة المدينة، وأمل داراشكو أن تسقط خلال مدة قصيرة، وجرت مناوشات مع حاميتها، غير أن هذه الحملة، على الرغم من ضخامتها، لم تتمكّن من اقتحام المدينة، وأثبتت القوات الصفوية تفوقها العسكري على القوات المغولية؛ فاضطر داراشكو إلى رفع الحصار عنها بعد سبعة أشهر، وعاد من حيث أتى.

أدّت هذه الحملات الثلاث الفاشلة ضد قندهار إلى التخلي نهائياً عن فكرة استعادتها.

ضمُّ بلخ[١]

كان شاه جهان شديد الاهتمام بضم مقاطعتي بلخ وبخارى - بدخشان - لأنهما كانتا من ممتلكات أسلافه، وشجعه على ذلك ما جرى من تنازع أسري في بلخ، إذ إن حاكم بخارى نظر محمد خان واجه ثورة ابنه عبد العزيز، وقد

(١) Manucci: I, p179.

شجّعه أمراء أبيه على خلعه والجلوس مكانه، فاستغل شاه جهان هذه الفرصة للتدخل في بلخ، فأرسل جيشاً جراراً تألف من خمسين ألف فارس وعشرة آلاف راجل، بقيادة الأمير مراد وعلي مروان، دخل بلخ من دون مقاومة تُذكر في (١٧ جمادى الأولى ١٠٥٦هـ/ ٢ تموز ١٦٤٦م)، وفرَّ نظر محمد خان إلى إيران تاركاً كنوزه وخزائنه تقع غنيمة سهلة في أيدي المغول، تلى ذلك انسحاب عام من المدينة، إذ إن الأمير مراد، الذي تعوّد على حياة اللهو والبذخ، لم يستسغ البقاء في هذه البلاد ذات التلال الجرداء، فاستأذن شاه جهان في العودة إلى الهند، فرفض السلطان منحه الإذن، وعلى الرغم من ذلك فقد عصى أمره وغادر بلخ عائداً إلى الهند ما أغضب شاه جهان، فحرمه من وظيفته ورفض استقباله في بلاطه، وجهَّز في العام التالي جيشاً آخر بقيادة ابنه أورنجزيب وأرسله إلى بلخ للاستيلاء عليها، وذهب شاه جهان إلى كابل ليدير منها العمليات العسكرية. نجح أورنجزيب في دخول بلخ إلا أنه غادرها بعد ذلك بفعل عدة عوامل، نذكر منها:

- فقد حشد الأوزبك جيشاً تعداده مائة ألف مقاتل مقابل خمسة وعشرين ألف جندي مغولي، ما أفقد التوازن العسكري بين الطرفين لصالح الأوزبك.
- عدم تكيُّف الضباط المغول مع مناخ المنطقة القاسي والجاف، وهم الذين تعودوا على حياة النعيم في الهند.
- استعمل الأوزبك، خلال اصطدامهم بالمغول، الفن العسكري القوزاقي، ما أربك هؤلاء وأفشل خططهم العسكرية.

وعين أورنجزيب، قبل مغادرته المدينة، مادهو سينغ، أحد الزعماء الراجبوت، حاكماً عليها.

الحملة على بخارى

بعد انتصاره في بلخ، رأى أورنجزيب أن يُسدِّد ضربة عسكرية للأوزبك الذين هاجموا مؤخرة الجيش المغولي أثناء انسحابه من بلخ، فتوقف في أكشا لسحق هؤلاء، إلا أنه تعرَّض لضغط القوات الأوزبكية التي خرجت من بخارى إلى بلخ لاستعادتها، الأمر الذي أدى به إلى تغيير خططه العسكرية، فأمر قواته بالسير إلى بخارى لوقف زحف القوات الأوزبكية ومنعها من التقدم نحو بلخ، وكانت بقيادة عبد العزيز وسبحان قولي. وجرت عدت معارك بين الطرفين

أظهر خلالها أورنجزيب قدراً من الشجاعة والانتصار ما دفع صاحب بخارى إلى طلب الصلح، لكن المفاوضات لم تسفر عن نتيجة إيجابية، فاستؤنف القتال. ورأى شاه جهان أن يُسلِّم بخارى إلى نظر محمد خان شرط أن يعترف بسلطته ويحكم باسم المغول، وبعد مفاوضات استمرت وقتاً طويلاً اتفق الطرفان على بنود الصلح، وذلك في (٢٣ شعبان ١٠٥٧هـ/ ٢٣ أيلول ١٦٤٧م). وبعد أن سلّمه المغول بخارى وحصن بلخ عادوا إلى بلادهم، غير أن الجيش المغولي تعرّض لكارثة أثناء عودته، فقد هاجمه رجال الجبال، هازارس، وكبَّدوا أفراده خسائر فادحة في الأرواح، كما عانوا من تساقط الثلج الذي زاد من مأساتهم. وأنهت هذه الحملة الشهرة التي اكتسبها شاه جهان من حملته ضد بلخ.

العلاقة مع البرتغاليين

كان أكبر وجهانكير قد شملا البرتغاليين برعايتهما، فأقاما لهم مراكز تجارية في أماكن مختلفة، من بينها مركزاً في هوغلي بالبنغال قريباً من كلكوتا، وانتهزوا فرصة تسامح سلاطين المغول معهم فأخذوا يُحصِّنون مركزهم هذا ويتدخلون في شؤون الحكم، واستولوا على القرى الواقعة على ضفتي نهر هوغلي، ثم راحوا يتدخلون في شؤون السكان ويتحكمون في معايشهم ويستغلون الامتيازات التي منحهم إياها السلاطين استغلالاً سيئاً، ففرضوا الضرائب الجائرة لإشباع رغباتهم الخاصة واشتطوا في جمعها، ومارسوا تجارة الرقيق، فكانوا يخطفون الأطفال الأيتام قسراً، من الهنود والمسلمين على السواء، ويُصدِّرونهم إلى الخارج ليبيعوهم في أسواق الرقيق، وتفاقهم خطر مبشريهم، فأثاروا الكره في نفوس السكان بتعصبهم الشديد وبما بذلوا من الجهود لتنصيرهم بالقوة والعنف، ومع ذلك لم يصادفوا نجاحاً، وقد أثار البرتغاليون السلطانة ممتاز محل باعتقالهم جاريتين من جواريها.

ضاق السلطان ذرعاً بتلك التصرفات الشاذة واللاإنسانية والمتعسفة، ودفعته إلى النهوض لتأديبهم والحد من نفوذهم أو القضاء عليهم، فعيَّن في عام (١٠٤٠هـ/ ١٦٣١م) قاسم خان حاكماً على البنغال، وعهد إليه بتحطيم مستعمرة البرتغاليين عند هوغلي وتشتيتهم، فحاصر حصونهم، لا سيما هوغلي، مدة ثلاثة أشهر ثم دخلها ودمَّرها وسوَّاها بالأرض، وقضى على القوة البرتغالية

المؤلفة من عشرة آلاف مقاتل، وأسر أربعة آلاف منهم حملهم إلى أكرا، فخيِّروا بين اعتناق الإسلام أو العمل كعبيد إلى آخر حياتهم، فاعتنق بعضهم الإسلام وفضَّل بعضهم الآخر البقاء على النصرانية، وقضى بقية حياته كعبد، ولم يتكبَّد المغول في هذه الحملة سوى ألف قتيل[1].

الصراع الأسري على السلطة في أواخر أيام شاه جهان

أصيب شاه جهان، في (ذي العقدة ١٠٦٧هـ/ أيلول ١٦٥٧م)، بمرض عجز معه عن مباشرة الحكم بنفسه[2]، وكان له أربعة أولاد، من زوجته ممتاز محل، هم داراشكو وشجاع وأورنجزيب ومراد بخش.

كان داراشكو، الابن الأكبر لشاه جهان، في الثالثة والأربعين من عمره عندما مرض والده، وكان موجوداً في العاصمة، أثيراً عند أبيه، فقرَّبه منه واستبقاه إلى جانبه ليباشر الحكم باسمه. ولما أدرك السلطان أنه لا أمل بشفائه من مرضه عيَّنه ولياً لعهده وحمل الأمراء والقادة على الاعتراف به، وقد بذل داراشكو كل جهد ليمنع تسرب الأخبار من العاصمة إلى باقي الولايات خشية من إثارة إخوته ريثما يثبت أقدامه في الحكم، فأغلق الطرق المؤدية إلى الدكن والكجرات والبنغال وقطع البريد عنها.

لم يتمتع داراشكو بالكفاءة العسكرية وافتقر إلى الحنكة السياسية، إلا أنه كان واسع الاطلاع، شغوفاً بدراسة الأديان، فنقل، بمساعدة بعض علماء البراهمة، بانيشاد المقدس من السنسكريتية إلى الفارسية، لغة ذلك العصر، وأثار اختلاطه بالهندوس واقتباسه الكثير من علومهم، وميله إلى خلق دين جديد يمزج فيه قواعد الإسلام بعقائد الهندوس؛ سخط علماء أهل السنة.

وكان شجاع في الواحدة والأربعين من عمره، وهو حاكم البنغال، انصرف إلى حياة اللهو والدعة، وانهمك في الشراب الذي أضعف صحته، وكان يميل إلى المذهب الشيعي، لذلك كان مكروهاً في الأوساط السنية ما أثَّر سلباً على وضعه السياسي، إلا أنه عين نفسه سلطاناً وسك النقود باسمه، وكذلك كان الأخ الأصغر مراد في الكجرات، وكان في الثالثة والثلاثين من عمره.

(١) Manucci: I, pp175, 176. Prasade: pp488, 489.

(٢) Manucci: I, p231.

وكان أورنجزيب في التاسعة والثلاثين من عمره، وهو أقدر إخوته من دون منازع، قد أثبت كفاءة عسكرية وإدارية فذّة أثناء حكم والده، كتوماً، ذا طبع هادئ، تقياً، يملك من الصفات الحميدة ما تجعله فاضلاً، وكان حاكماً على الدكن يدير شؤونه بهمة ونشاط.

عندما تسرّبت أنباء التطورات السياسية التي حدثت في العاصمة إلى أسماع الإخوة الثلاثة، راح كل واحد منهم يخطط للاستيلاء على العرش، ويرى نفسه أحق بالملك من أخيه. وتحالف أورنجزيب مع أخيه مراد للقضاء على داراشكو على أن يقتسما أرض الهند فيما بينهما، فيكون لمراد البنجاب والسند وكشمير وبلاد الأفغان، ويحصل أورنجزيب على ما تبقّى من أراضي الدولة[1].

وتقدم أورنجزيب من برهان بور في الدكن نحو الشمال على رأس جيش كبير متوجهاً إلى أكرا، وانضم إليه أخوه مراد في مالوة، وعسكرت قواتهما في قرية دارمات القريبة من أوجين.

وتحرك شجاع، في الوقت نفسه، إلى دلهي على رأس جيشه، ووصل إلى بنارس في (١٩ ربيع الآخر ١٠٦٨هـ/ ٢٤ كانون الثاني ١٦٥٨م)، فأرسل إليه أخوه داراشكو جيشاً ضخماً بقيادة ابنه سليمان اصطدم به وأجبره على الارتداد إلى البنغال، كما أرسل جيشاً آخر بقيادة المهراجا جسونت سينغ وقاسم خان للتصدّي لجيش أخويه المعسكر في دارمات، وجرى اللقاء بينهما في (رجب/ نيسان) وانتهى بهزيمة جسونت سينغ وقُتل كثير من رجاله، وفرَّ هو ناجياً بنفسه[2].

أتاح هذا النصر فرصة طيبة لأورنجزيب فتقدم باتجاه غواليور، وعندما عبر شامبال عسكر في سموغار، على بُعد ثلاثين ميلاً إلى الشرق من أكرا، التي دبَّ فيها الرعب والاضطراب حتى همَّ شاه جهان أن يفرّ منها إلى دلهي، إلا أنه فضَّل البقاء علَّه يستطيع أن يُنهي الخصومة بين أبنائه، ولكن داراشكو كان مغتراً بقوته وبالإمكانات التي يملكها، معتقداً أنه سيهزم أخويه ويقتص منهما، لذلك رفض فكرة المصالحة وأصرَّ على الحرب، فخرج من أكرا على رأس جيش يبلغ خمسين ألف مقاتل، وهو على تعبئة، فعين على جناحيه كلاً من

(١) Manucci: I, p238.

(٢) خافي خان: منتخب اللباب. مجموعة اليوت: جـ٧ ص٢١٥.

خليل الله خان وسيفير شيكو وتسلم هو القلب، ولما وصل إلى سهل سموغر اصطدم بقوات أخويه في (شعبان/ أيار)، وصمد أورنجزيب ومراد في وجه الهجمات العنيفة التي نفَّذتها قوات داراشكو، فقد كانا يعلمان مصيرهما فيما لو خسرا المعركة. ومالت كفة النصر لصالح داراشكو لولا أن تغير فجأة اتجاه المعركة، إذ حدث في ذلك الوقت أن وقعت الكرة الملتهبة، التي كانت تستخدم في الحرب آنذاك، على رأس الفيل الذي يركبه داراشكو ويدير منه المعركة، فوقع الفيل جريحاً واضطر داراشكو إلى ركوب فرس، لكن جنوده لم يفطنوا إلى هذه الحركة، فلما نظروا إلى الهودج ووجدوه خالياً أيقنوا أن قائدهم قد أصيب، فتخاذلوا ودارت الدائرة عليهم، وأسرعوا بالفرار لا يلوون على شيء، ولحقهم داراشكو حتى وصل إلى أكرا، ولم يذهب إلى أبيه ليقابله، خجلاً مما أصابه، بل أخذ المال والمجوهرات وزوجته وأولاده وتابع فراره إلى دلهي. ودخل أورنجزيب أكرا في جو الانتصار، فاستقبله كبار رجال الدولة والحاشية مهنئين ومقدمين خضوعهم له، وذلك في (٢٩ شعبان/ ١ حزيران)[١].

وكتب أورنجزيب التماساً إلى والده حاول فيه أن يبرر عمله، وأن يدافع عن مركزه، فتقبَّل شاه جهان ذلك واشترك في تكريم ابنه المنتصر، وأرسل إليه سيفاً مرصعاً بالجواهر وقد نقش عليه اللقب الذي منحه إياه، وهو عالمكير، أي آخذ العالم وسيده، ودعاه للقدوم إليه، غير أن رجاله حذَّروه من تلبية الدعوة خشية أن تكون خدعة للإيقاع به، وأشاروا عليه بالقبض على السلطان حرصاً على حياته وتأميناً على مركزه، فقبض عليه وسجنه في جناح النساء بالقلعة، وأحاطه بكل مظاهر التكريم حتى لا يفقد شيئاً من أبهة الملك باستثناء السلطة التي كان قد فقدها من قبل، وبقي في سجنه حتى توفي في عام (١٠٧٧هـ/١٦٦٦م) وهو في الرابعة والسبعين من عمره.

كان على أورنجزيب ومراد أن يتعقَّبا داراشكو إلى دلهي للقبض عليه، غير أن نفوراً حدث بينهما بفعل تدخل الحاشية، إذ إن كلاً منهما كان يطمع في تولي السلطة تسانده حاشيته، ولا بد أن يتخلَّص أحدهما من الآخر. وكان أورنجزيب هو السبَّاق، فدعا أخاه إلى قصره للاحتفال بالنصر الذي حققاه، وحمله على الإفراط في الشراب حتى فقد وعيه، فحمله إلى قلعة غواليور

(١) حضر منوتشي المعركة إلى جانب داراشكو، فهو إذن شاهد عيان. Manucci: I, pp259-279.

وسجنه فيها، وظل في سجنه حتى عام (١٠٧١هـ/ ١٦٦١م) حين أُعدم[١].

التفت أورنجزيب بعد ذلك إلى القضاء على أخيه شجاع الذي حاول أن يشكل جيشاً ويهاجم أكرا، وتلقَّى مساعدات من السادات، حكام الله آباد وبنارس، فأرسل إليه أورنجزيب جيشاً بقيادة ميرجوملا اصطدم به في كاجوة وهزمه، ففرَّ إلى جبال آسام، وهناك انقطعت أخباره، والراجح أنه قُتل على أيدي القبائل هناك[٢].

تنقَّل داراشكو، بعد هزيمته في معركة سموغر، من مكان إلى مكان في الملتان والسند والكجرات وأجمير حتى وصل إلى دادار حيث توفيت زوجته فيها، ففتَّ ذلك في عضده وفقد توازنه. وتلقى في هذه الأثناء دعوة من جيوان خان، زعيم قبيلة البطهان، وكانت له عليه منَّة، فلبّى الدعوة، لكن هذا الزعيم ضرب قواعد اللجوء عرض الحائط وسلمه إلى أخيه أورنجزيب، فسيق إلى دلهي وطيف به في شوارعها قبل أن يُقتل[٣].

التفت أورنجزيب بعد ذلك إلى التخلص من سليمان شيكو بن داراشكو، الذي التجأ إلى راجا غاروال على أثر هزيمة والده في معركة سموغر، فطلب أورنجزيب من الزعيم الهندوسي تسليمه الأمير المغولي لكنه رفض ذلك، وتدخل ابن الراجا في هذه القضية ووعد أورنجزيب بتسليمه إياه. ولما علم سليمان بذلك حاول الفرار إلى لاراخ ولكن قُبض عليه وقُتل. ونجا سيفير شيكو، الابن الآخر لداراشكو، حيث كان محظوظاً، فقد زوّجه أورنجزيب، بعد ذلك، إحدى بناته.

خلا الجو لأورنجزيب من المنافسين له، ولذا بدأ يُعد العدة للاحتفال بجلوسه على العرش، وكان ذلك في (رمضان ١٠٦٩هـ/ حزيران ١٦٥٩م)، وكان احتفالاً مشهوداً عمَّ خيره الناس جميعاً، وزاد من روعته وبهائه وصول الأنباء إلى السلطان بالقبض على داراشكو.

هل لنا أن نصدر حكماً ونحدد المسؤولية عن هذا الصراع الدامي بين الإخوة؟ الواقع أن السلطان شاه جهان يتحمل القسط الأكبر من المسؤولية، إذ إن موقفه المساند لابنه داراشكو أثار إخوته، وبدلاً من حسم الأمر بنفسه من

(١) Manucci: I, pp286-289, 363.

(٢) Ibid: pp311-321.

(٣) Ibid: pp339, 340.

واقع حثّه على التوقف عن حرب إخوته، ولو أنه استدعى أبناءه الثلاثة الآخرين إلى العاصمة وأمّنهم؛ لتغير الموقف كله على وجه السلامة، وكان الأجدى أن يظهر على الساحة بنفسه ويقضي على الشائعات التي راجت عن موته، والتي ساعد على انتشارها إغلاق ابنه داراشكو للطرق المؤدية إلى الولايات، كما أن دعوة مجلس الحرب، الذي يضم كبار القادة، كان كفيلاً بدوره، في مثل هذه الظروف، بالقضاء على الفتنة في مهدها[1].

العصر الذهبي للدولة المغولية في الهند

شخصية شاه جهان

يُعدُّ عصر شاه جهان، الذي استمر ثلاثين عاماً، العصر الذهبي للمغول في الهند. فعلى الرغم من الثورات المبكرة التي سرعان ما قُمعت، وعلى الرغم من الحروب الخارجية وراء الحدود والتي كلّفت الدولة ثمناً باهظاً من دون أن تحقق أية نتيجة إيجابية، وعلى الرغم من المجاعة التي ضربت الدكن والكجرات واجتاحت مناطق واسعة من البلاد، وعلى الرغم من حروب الدكن التي أسفرت عن إخضاع إمارات الجنوب، أحمد نكر وغولكوندة وبيجابور، والتي استنزفت الكثير من موارد الدولة؛ يبقى عهد شاه جهان ألمع عهود السلاطين المغول في الهند، وهو عهد الرخاء والرفاهية والبناء الذي لم تشهد الهند مثيلاً له من قبل، ولن تشهد مثيلاً له من بعد، وقد ساعد على ذلك ما تجمّع في خزائن الدولة من ثروات هائلة، بفعل ازدهار الزراعة والصناعة والتجارة، وكانت الهند تصدِّر المنسوجات الجيدة إلى أوروبا بكميات وافرة.

كان شاه جهان حاكماً قديراً، بلغت الدولة في عهده أوجها، وارتفعت مكانتها في نظر شعبها في الداخل والشعوب المختلفة في الخارج، وقد نهج أسلوب أبيه في تنظيم شؤون الحكومة. تميز بالحزم الشديد مع رجاله وعماله، والسهر على مصالح رعيته، حتى كان لا يتردد في إنزال العقاب بالمقصرين في تحقيق العدالة والمتسببين بالإهمال الذي من شأنه أن يلحق الضرر بالغير[2]، وكان محظوظاً في تعامله مع رجال أمثال سعد الله خان، وعلى الرغم من أنه فرض ضرائب جديدة على التجار، وأعاد فرض الرسوم التي كان الهندوس

(١) الساداتي: ص٣٣١.
(٢) Prasade: pp541, 542

يُلزمون بها عند زيارة أماكنهم المقدسة، فإنه كان ينظر إلى رعاياه نظرته إلى أبنائه، وتجلّت رأفته بهم فيما بذله من جهود كثيرة لتخفيف الضائقة الاقتصادية عنهم في أوقات الشدة، فاشتهر بكرمه وكثرة عطاياه، وأُتيح له من الغنى والاستقرار واتساع الملك ما لم يتح لغيره من السلاطين، لذلك يسميه المؤرخون الملك المحظوظ.

اتسم شاه جهان بنزعة روحية محافظة، متديناً، متمسكاً بشعائر الإسلام، كثير الإكرام للعلماء حتى قصدوه من جميع الجهات، وكان يرسل الهبات سنوياً إلى فقراء الحجاز وعلماء الأراضي المقدسة وأشرافها، والمعروف أنه تاب عن شرب الخمر في شبابه ولم يرجع إليه، ودفعه تدينه إلى إبطال بعض العادات المنافية للدين والتي ابتدعها آباؤه، من ذلك أبطل عادة تقبيل الأرض أمامه تحية له، وكانت هذه التحية واجبة حتى أن جهانكير سجن كبير العلماء في الهند أحمد السرهندي لأنه لم يسجد له، كما قضى على كل مظهر من المظاهر المخالفة لتعاليم الإسلام مما تركه جده أكبر من بعده ولم يبطله أبوه جهانكير.

كان شاه جهان محباً للعلم مشجعاً على التأليف، ويذكر المؤرخون أن العلّامة عبد الحكيم السيالكوتي ألّف بأمره، كتباً كثيرة منها حاشيته على العقائد النسفية في علم الكلام، وكان يعطيه في العام مائة ألف روبية سوى المكافآت وضمّه إلى مجلسه، وقد اعتمد اللغة الأوردية لغة رسمية وعمل على نشرها بوسائل مختلفة، حتى إنه أنشأ سوقاً للرجال وآخر للنساء، وفرض التكلم والتخاطب فيهما بالأوردية حتى تنمو وتزدهر[1].

الإنجازات الفنية لشاه جهان

القلعة الحمراء في دلهي: يُعدُّ شاه جهان عملاقاً في التاريخ الهندي. وسيظل كذلك بآثاره الفنية الرائعة التي تدل على الذوق الفني الرفيع والازدهار المالي مما لم تر الهند مثيلاً له من قبل ومن بعد، فقد زيَّن بلاده بمجموعة من المنشآت المعمارية الفخمة التي ما تزال آثارها إلى اليوم بأكرا ودلهي تشهد على عظمة بانيها، وتتمثل هذه المنشآت في القلعة الحمراء في

(١) النمر، عبد المنعم: تاريخ الإسلام في الهند: ص٢٦١ ـ ٢٦٣.

دلهي والمسجد الجامع المقابل لها، والمثوى الفخم الذي يُعرف باسم تاج محل.

أما القلعة الحمراء، فهي ذلك البناء الفخم الذي بناه شاه جهان لسكنه على شاطئ نهر جمنة في عام (١٠٤٧هـ/ ١٦٣٧م)، وبني سوره من الحجارة الحمراء، واشتمل على أقسام متعددة لسكن السلطان ونسائه وحاشيته وجنوده ومجلسه العام والخاص، واستقر فيه، كما يشتمل على مسجد يُعدُّ تحفة في عالم البناء، ويسمى مسجد اللؤلؤة، وهو مبني من الرخام الأبيض الخالص. وبالغ السلطان في بناء عرشه المعروف بعرش الطاووس، فرصَّعه بالجواهر النادرة، وكانت قوائمه من الذهب الخالص، وسقفه مطلي بالميناء، ويحمل اثني عشر عموداً من الزمرد، على كل واحد طاووسان مزينان بالجواهر وتتوسطهما شجيرة مغطاة بالماس والياقوت والزمرد، وتتدلى منه ثلاث درجات مكسوة بالجواهر، وقد استغرق صنع هذا العرش سبعة أعوام، وبلغت تكاليفه عشرة ملايين روبية[1].

وعندما غزا نادرشاه، حاكم إيران، الهند في عام (١١٥٢هـ/ ١٧٣٩م) حمله معه إلى تبريز، فأثرى حكام إيران من جواهره، واستفاد فتح علي شاه، سلطان إيران من بعد ذلك، من بقايا حطامه، في إقامة عرش جديد له حمل الاسم نفسه.

وأقامت الحكومة الهندية، في العصر الحديث، مما بقي من القلعة بعد هدم الإنكليز لجزء كبير منها؛ متحفاً يضم بعض آثار وصور السلاطين المغول، وتقيم هذه الحكومة حفلاتها الرسمية في فنائها الواسع.

المسجد الجامع: يُعدُّ المسجد الجامع أفخم مسجد بناه سلطان في الهند كلها. يقوم على مرتفع من الأرض، وهو مكشوف في قسم كبير منه، وفي وسطه حوض كبير للوضوء، والجزء الغربي منه مسقوف، يقوم على أعمدة ضخمة، أرضه من المرمر الأبيض الناصع، ويتجلّى على جدرانه وأعمدته الفن الرفيع والمجهود الجبار الذي بذل في تحليته. أمر شاه جهان ببنائه في عام (١٠٦٠هـ/ ١٦٥٠م)، واستغرق بناؤه ستة أعوام، وتنافس أمراء الأطراف

(١) Prasade. pp533-536.

والأقاليم في إرسال أحجار المرمر لبنائه، افتتح المسجد بصلاة عيد الفطر، ثم توالت التحسينات فيه بعد ذلك. وللمسجد ثلاثة أبواب: الباب الكبير الشرقي المواجه للقلعة، والباب الشمالي، والباب الجنوبي المقابل له، ويُصعد إليه بدرجات كثيرة.

استخدم المسجد أيام الثورة ضد الإنكليز في عام (١٢٧٤هـ/ ١٨٥٧م) كمكان لإثارة الشعب، بما كان يُلقى فيه من خطب نارية ويُتخذ فيه من قرارات، ولذلك احتله هؤلاء بعد أن انتصروا على الثائرين في دلهي ومنعوا الصلاة فيه، وظل كذلك حتى عام (١٢٧٩هـ/ ١٨٦٢م) وهو الآن يغص بالمصلين.

وتقع حول جدران المسجد محلات تجارية صغيرة، ويوجد بينه وبين القلعة، من الناحية الشرقية، فضاء واسع يمتد مئات الأمتار زُرع بالحشائش الخضراء. وتقع من الناحية الجنوبية لهذا الفضاء حديقة إدوارد الكبيرة، التي لا يزال اسمها والتماثيل فيها تُذكِّر الناس بعهود الإنكليز السوداء وظلمهم للشعب وسيطرتهم على الهند، ويُعدُّ هذا المسجد من بين أفخم الآثار الإسلامية في الهند.

تاج محل: هو الأثر الفني الرائع الذي أنشأه وخلَّفه شاه جهان ليكون أعجوبة الدنيا من بعده، وأعدَّه لتدفن فيه زوجته المحبوبة أرجمند بانو بيكم، أو ممتاز محل، صاحبة التاج وسلطانة الهند. كانت هذه المرأة رائعة الجمال ثاقبة الفكر، أخذت الحسن والجمال عن عمتها نورجهان، وورثت الذكاء والمواهب الفكرية عن أبيها آصف خان، تزوجها شاه جهان وهو بعد أميراً باسم خرّم في عام (١٠٢١هـ/ ١٦١٢م)، وكان عمرها عشرون سنة فأحبها حباً جماً وقدَّرها، وبادلته هي حباً بحب وتقديراً بتقدير، فكانت له نِعْمَ الصديق المعين وبخاصة في محنه، وعندما تولّى العرش منحها لقب ملكة الزمان وخصّصها بإقطاعات، وكان يستشيرها ويعمل بنصائحها، وعهد إليها بحفظ الخاتم الملكي، وقد أنجبت له أربعة أبناء وثلاث بنات، وتوفيت في عام (١٠٤٠هـ/ ١٦٣٠م) عقب ولادة عسيرة، وعمرها ستة وثلاثون عاماً، فدفنها في بلدة زين آباد ثم نقل رفاتها، بعد ستة أشهر، إلى آكبر آباد في ضواحي أكرا على شاطئ نهر جمنة، وبنى على قبرها هذا الأثر الذي نتحدث عنه، ثم دُفن

هو بجوارها بعد وفاته، وسميت المقبرة باسمها مع تحريف بسيط باسم تاج محل[١].

يتألف الضريح من بناء مرمري أبيض يقوم على شرفة عالية، تعلوه قبة ضخمة في وسطه وتحيط به أربع قباب أصغر حجماً، وترتفع عند زوايا الشرفة أربع منارات دقيقة مكسوة بالمرمر الأبيض، ارتفاع كل منها مائة وتسعون قدماً، وتبلغ مساحة الضريح مائة وستة وثمانون قدماً مربعاً، وقطر القبة الداخلي ثمانية وخمسون قدماً. ويخترق ضوء النهار ستاراً مزدوجاً من الرخام المشغول، فتسقط أشعته على قبرين تحت القبة تماماً، للسلطان وزوجته المحبوبة. أما الزخارف الداخلية المطعَّمة بأحجار نفيسة، فتمتاز بألوانها الزاهية ورسومها الأخَّاذة ونقوش الآيات والسور القرآنية. وقد وُضع على ضريح السلطان مقلمة ودواة من المرمر المنقوش كُتب عليها: «مرقد مطهراً على حضرت فردوس آشياني صاحب قرآن ثاني شاه جهان بادشاه طاب ثراه توفي سنة ١٠٧٦هـ»، وكُتب على قبر السلطانة: «مرقد منور أرجمند بانو بيكم مخاطب بممتاز محل توفيت سنة ١٠٤٠هـ». وجيء بالمرمر الذي استعمل في تشييده من أماكن مختلفة أهمها مكران التابعة لجيبور في راجبوتانا، حيث قدّمه الأمراء والحكام هدية للسلطان. وأنفق السلطان على عملية البناء ما يوازي مائتين وعشرين كروروبية، أي ما يوازي ثلاثمائة وعشرين مليون روبية، واستغرق بناؤه اثنين وعشرين عاماً، وعمل فيه اثنان وعشرون ألف عامل.

لا يسع أي سائح يزور الهند أن يتخلّف عن زيارته لهذا الضريح الذي يقع ضمن حديقة فسيحة الأرجاء تزينها أشجار السرو الباسقة، وتكسو أرضها الخضرة اليانعة وتجري خلالها المياه الهادئة.

(١) شاهجهان نامه: ص١٥٩ ـ ١٦٣.

الفصل التاسع

أورنجزيب: عالمكير[١]

(١٠٦٨ ـ ١١١٩هـ/ ١٦٥٨ ـ ١٧٠٧م)

اعتلاء أورنجزيب العرش

بعد انتصاره في حرب الوراثة، اعتلى أورنجزيب عرش المغول في الهند في (٢٠ شوال ١٠٦٨هـ/ ٢١ تموز ١٦٥٨م)، فخُطب له على المنابر وضُربت السكة باسمه، ولقّب نفسه بالغازي بادشاه أبو المظفر محي الدين محمد أورنجزيب بهادور عالمكير، ولكنه لم يحتفل بتنصيبه إلا بعد مرور سنة تقريباً. ففي (٢٩ رمضان ١٠٦٩هـ/ ٢١ حزيران ١٦٥٩م)[٢] أقيمت احتفالات التنصيب التي استمرت مدة شهرين، حرص خلالها السلطان الجديد على إدخال البهجة إلى قلوب شعبه. وأقبل السفراء من مختلف البلاد الإسلامية لتقديم التهنئة، فاستُقبلوا بالترحاب، وخُلع عليهم، وقُدِّمت لهم الهدايا، كما أرسلت حكومتا هولندا وفرنسا ممثلين عنهما للمشاركة في هذه الاحتفالات وتقديم فروض التهنئة، فرحّب أورنجزيب بهما، ويدل ذلك على أن دولة المغول في الهند أضحت دولة عالمية.

استمر حكم أورنجزيب حتى عام (١١١٩هـ/ ١٧٠٧م) أي أنه بقي في الحكم مدة خمسين عاماً تقريباً، شهد خلالها وصول الدولة إلى ذروة قوتها وأقصى اتساعها وعظمتها من جهة، وبداية تدهورها وهبوطها من جهة أخرى. والواقع أن تاريخ هذا السلطان هو تاريخ الهند لمدة ستين عاماً، فقد غطّى حكمه النصف الثاني من القرن السابع عشر، وتُعدّ هذه المدة من أهم حقب التاريخ الهندي منذ فجر التاريخ وحتى نشوء القوة البريطانية، وامتدت الدولة في عهده من غزنة إلى

(١) أورنجزيب كلمة مركبة من أورنج ومعناها عرش، وزيب ومعناها زينة، فيكون معنى الكلمة. زينة العرش، ومعنى كلمة عالمكير: آخذ الدنيا وسيد العالم.

(٢) Manucci: I, p365, II, p1.

شيتاغونغ ومن كشمير إلى كارناتاك، لكنها لم تُقمْ أساسها على حب الشعب، وكان لا بد أن تنهار عند أول هجمة معادية قوية، حتى لقد شعر السلطان نفسه في أواخر حياته أنه جلب الدمار إلى تراث آبائه بورعه الضيق الأفق.

نزعات أورنجزيب الدينية

كانت الهند تمر، حين اعتلى أورنجزيب العرش، بضائقة اقتصادية شديدة بفعل حروب الوراثة الطاحنة، والقحط والخراب بسبب انحباس الأمطار الموسمية. لذا رأى أن يرفع عن كاهل السكان بعض المكوس والضرائب للتخفيف عنهم. نذكر منها مكوس الطريق والمرور، ومكوس الأرضية المفروضة على أصحاب المتاجر والحوانيت، ومكوس الأضرحة، ورسوم الدواب، كما خفَّض بعض الضرائب، كالضريبة المفروضة على القمح والمحاصيل الزراعية لتخفيض أسعار المأكولات، تيسيراً على السكان(١).

تربى أورنجزيب تربية دينية على يد كبار العلماء حتى أصبح ضليعاً في العلوم الدينية، متعبداً على نسق الصوفيين على الرغم من انهماكه بشؤون الملك، وهو على عكس بابر وأكبر، شديد التمسك بالإسلام وتعاليمه ويرغب في تطبيق مبادئه من دون أن يسلك المنهج التوفيقي، ومن دون أن ينظر إلى الظروف الخاصة التي دفعت بابر وهمايون وأكبر وجهانكير إلى اتباع سياسة التسامح الديني. كان تقياً، ورعاً، قانتاً من كثرة الصوم، لطيف المعاشرة، يحفظ القرآن عن ظهر قلب، وقد نسخه مرتين.

لقد انتهج أورنجزيب سياسة دينية جديدة في الحكم، فعمل، بعد توليه الحكم مباشرة، على التخلص من التيارات غير الإسلامية التي كانت قد اتخذت طريقها إلى القصر السلطاني وتسربت إلى نفوس السكان، فأبطل الاحتفال بالنيروز، عيد الفرس، وحظَّر دخول أصحاب المذهب الشيعي وأصحاب الملل الأخرى غير الإسلامية إلى بلاده، وأعاد فرض ضريبة الجزية على الهندوس، وهي التي تقوم مقام ما يُفرض على المسلمين من زكاة وجهاد، إذ عدّ ما جرى عليه أكبر حين ألغى هذه الضريبة مقابل فرض الخدمة العسكرية على جميع المواطنين من مسلمين وهندوس؛ مخالفاً لتعاليم الإسلام، ومع هذا فقد كانت هذه الضريبة ضئيلة القيمة محدودة التطبيق، فقد

(١) خافي خان: ص٢٤٦ ـ ٢٤٩.

أعفى منها موظفي الدولة، وكل النساء والأطفال، والعاجزين عن الكسب، وكل الفلاحين، ومن يقل دخلهم السنوي عن اثنين وخمسين روبية، وألغى نظام السنة الشمسية واتبع التقويم العربي القمري(١).

وبلغ من حرص أورنجزيب على أن يصبغ دولته بالصبغة الإسلامية الخالصة أن تشدّد في تحريم الخمر والميسر، وأبطل البدع، وأمر بترميم المساجد وأمدّها بطائفة مختارة من الأئمة والوعاظ والمدرسين، وخصَّص لهم رواتب ثابتة. وحضّ الناس على الإقبال على حلقات العلم، وشجَّعهم على الدراسة، وأمر المحتسبين بحملهم على اتباع الشرع الحنيف والابتعاد عن نواهيه، وأبعد الهندوس عن مناصب الدولة الكبرى. وقلّل من عددهم في الدواوين حرصاً على صالح العمل، والواقع أنه استبقى نصفهم(٢)، وأمر حكام الولايات بأن يهدموا مدارس الكفار وهياكلهم، وأن يمنعوا، تماماً، كل مظهر من مظاهر عبادة الأصنام. وهكذا جرى هدم هيكل فكنو في بنارس، وحُملت الأصنام إلى أكرا ورُدمت مع التراب تحت درجات المسجد ليدوس عليها المسلمون عند دخولهم إليه وخروجهم منه(٣). وعملاً بما يملأ صدره من روح التشدّد الديني، واستجابة منه لمتطلبات الحكم، أعلن أورنجزيب الحرب على حكام الدكن الشيعة، وقام في الوقت نفسه بصرف الفرس الشيعة من خدمته، وهم الذين ألَّفوا نواة جيش أكبر، فكانوا دوماً من العناصر الكفوءة في مجلس أركان الحرب، كما كان على وشك الاصطدام بالمهرات(٤).

والواقع أن هناك من المبررات ما حملت أورنجزيب على أن يضع جانباً فكرة التسامح والمساواة ويفرض الجزية على الهندوس، ويُبعد الراجبوت عن مناصب الحكم والإدارة، وينقضَّ على الشيعة وعلى الهندوس على السواء بعنف، ذلك أن الدولة المغولية، التي بلغت ذروة قوتها آنذاك، ابتدأت بالتراجع والهبوط، وكان أورنجزيب يشعر بهذا، وفي مثل هذه الظروف يحل التطرف محل التسامح. ولم تكن قوة السلطان على ذلك المستوى الذي كانت عليه أيام أسلافه، في حين أضحت القوى المعادية أشد صلابة وأقوى تسليحاً، وتعتمد على فكر حضاري وفلسفي أكثر تطوراً عن ذي قبل. كان هذا

(١) Syed: I, pp176, 177.
(٢) Dunbar p264 Manucci II. pp3, 4
(٣) مستعد خان، محمد ساقي: ماثر عالمكيري: ص٩٥.
(٤) Syed: I, p177.

حال المهرات والسيخ والراجبوت، بصفة خاصة، أيام أورنجزيب الذي بدأ يشعر ببوادر الفتنة والعصيان تظهر بينهم[1].

المشكلات الداخلية التي واجهت أورنجزيب

محاولة عزله عن الحكم

أُصيب أورنجزيب، في عام (١٠٧٥هـ/ ١٦٦٤م)، بمرض شديد، كاد يزعزع الوضع الداخلي. فقد انتهز أتباع السلطان المعزول شاه جهان هذه الفرصة وراحوا يحيكون الدسائس والمؤامرات لعزل السلطان المريض وإعادة السلطان المعزول إلى الحكم، غير أن الخلاف ما لبث أن دبَّ بينهم بسبب عدم استطاعة شاه جهان ممارسة الحكم، فأيَّد بعضهم تولية ابنه الثاني المعظم، في حين ساند بعضهم الآخر ابنه الثالث أكبر. وعندما تناهى إلى أسماع أورنجزيب ما يخطط له خصومه، تحامل على نفسه، واستأنف نشاطه السياسي، فاستقبل عدداً من كبار ضباطه، جاؤوا ليجددوا له الولاء والطاعة، كما استعاد الخاتم الأعظم، وهو خاتم الملك، من أخته البيجوم روش آرا حتى لا يُستعمل بغير إذنه، وكان قد عهد إليها بحفظه. وبذلك استطاع أن يتجنَّب خطر هذه المؤامرة، ولم يكد يشعر بالتحسن حتى ذهب إلى كشمير للنقاهة[2].

ثورات الهندوس

ثورة الجات:[3] تمثّلت المعارضة الأولى لإجراءات أورنجزيب الدينية بثورة قامت بها قبائل الجات في ماثورا بزعامة غوكال. فقد أثار حاكم ماثورا عبد النبي الشعب بتدميره هياكل الهندوس واستنزافه السكان بالضرائب. ابتدأت الاضطرابات عندما أقدم هذا الحاكم على تدمير معبد كشاف راي في عام (١٠٧١هـ/ ١٦٦١م)، وشيَّد مسجداً للمسلمين على أنقاضه. فثار الجات بزعامة غوكال، فقتلوا عبد النبي ونهبوا أراضي سعد آباد، واصطدموا بجيش السلطة، غير أنهم تعرَّضوا للهزيمة. كانت الخسارة قاسية لطرفي النزاع، فقد

(١) بوار: ص٥٤٢، ٥٤٣.   (٢) Manucci: II, p49, 60.

(٣) الجات هم الرط، الزّط، منهم المسلمون، ويسكنون السند الأعلى والملتان، ومنهم الهندوس في الراجبوتانا، ومنهم السيخ في البنجاب، أتباع ناناك، وجميعهم من الويشية.

خسر المغول أربعة آلاف قتيل في حين تكبَّد الجات خمسة آلاف رجل بالإضافة إلى جرح الكثير من الجانبين، وقُبض على غوكال وعمِّه أوداي سينغ وسيقا إلى أكرا حيث قُتلا، لكن ذلك لم يفتّ في عضد قومهما، فجدّدوا ثورتهم في عام (١٠٩٧هـ/ ١٦٨٦م) بزعامة راجا رام الذي هدَّد جدياً الدولة المغولية مدة عامين، ووصل في هجماته الناجحة إلى أكرا، وهدَّدها قبل أن يُقتل في عام (١٠٩٩هـ/ ١٦٨٨م)، وقاد حفيده شيرامان ثورات الجات من بعده حتى وفاة أورنجزيب.

ثورة الستناميين: نشبت ثورة الستناميين في أعقاب ثورة الجات في عام (١٠٨٣هـ/ ١٦٧٢م) في نارنول، على بُعد ستين ميلاً من دلهي، وفي موات، وهم طائفة من زهاد وفقراء الهندوس ينتسبون إلى اسم الله الأعظم، ستنام، ويحرصون على أنفتهم وكبريائهم حرصاً شديداً، ولم تنشب ثورتهم إلا نتيجة اعتداء بعض الجنود على طائفة منهم، فتجمعوا واصطدموا بالجند وهزموهم. ولما حاول حاكم نارنول إخماد ثورتهم تغلبوا عليه وأجبروه على الفرار[1]. ثم استفحل أمرهم وقوي نفوذهم، فخرجوا من نارنول وموات يخربون ما يصادفونه من مساجد، وينشرون الرعب والدمار ويمارسون السلب والنهب في القرى حتى بلغوا مشارف دلهي، وفي ركابهم شائعات قوية أنهم ينتصرون بقوة السحر، ففتَّ ذلك في عضد القوات المغولية وتخاذلت عن لقائهم والتصدي لهم، والمعروف أن المجتمع الهندي، المتعدد الانتماءات الدينية والمذهبية، كان مشبعاً بهذه الاعتقادات الوهمية.

رأى أورنجزيب أن يحارب قبائل الستناميين بسلاحهم، فكتب تعويذة وأعطاها لقائديه راجا بشن سينغ وحامد خان، وكلَّفهما بالقضاء على ثورتهم، فارتفعت بذلك روح جنوده المعنوية، فاصطدموا بالستناميين وهزموهم وقضوا على ثورتهم بعد أن كادت تمتد إلى أكرا وراجبوتانا.

ثورة السيخ:[2] ظهرت قبل عهد أورنجزيب، في القرن الخامس عشر الميلادي، قوة جديدة في الشمال الغربي من الهند، تألفت من عناصر هندية متعددة الجذور والفروع، كان لها شأن في تاريخ تطور البلاد، ونشأت عن أسلوب جديد في تفسير الهندوسية وشرحها، تمثَّلت بطائفة السيخ التي كانت

(١) خافي خان: ص٢٩٤ ـ ٢٩٦.   (٢) السيخ: معناها المتعلم أو التلميذ.

شوكة في أعين المغول، وحملت للمسلمين بُغضاً شديداً[1].

وتبرز في تعاليم السيخ مؤثرات من مصدرين: الهندوسية والإسلام. فقد بعثت هذه الحركة الدينية، نزعة الهندوسية القديمة إلى التوحيد، من سباتها الطويل. فالريغ فيدا، وهو الكتاب الأول من كتب الهندوس الأربعة المقدسة، كثيراً ما أعلن عن وجود إله هو سيد المخلوقات، والكائن الأعلى اللامتناهي، غير أن البراهماتيين مزجوه بالمادة، واعتقد كثير من الهندوس أنه كان يتجسد في جسد إنسان وبمظهر خاص الذي هو المايا، ويمكن التقرب منه بواسطة الصلاة. وهكذا عبد هؤلاء الله بشكل فكنو، الذي يمثل روح العالم متجلياً في العناية الإلهية.

وقام في القرن الخامس عشر الميلادي، مجدِّد هندوسي هو ناناك البنغالي بطرح عقائدي جديد وهو أنه لا فارق بين الله، اسم الجلالة عند المسلمين، وبين فيشنو، الإله الحافظ عند الهندوس، والمعروف أن هذا المصلح نشأ في وسط إسلامي، وقد سُمي غوراغ أو غورو ناناك أو المعلم ناناك، أي المرشد الروحي، وحمل في نفسه روح الله، وأقام دعوته على ثلاث قواعد هي:

- الجهد والعناء وسلوك طريق التقشف وشظف العيش.
- ممارسة الإحسان والبر.
- التأمل الذي يُوفِّر للإنسان غذاء روحياً ما يُمكِّنه من رؤية الله في وجوه كل أبناء الإنسانية.

عزف ناناك عن الشرك وعن عبادة الأصنام، وضرب عُرض الحائط بالطقوس الدينية والفروق الطبقية. فالتفَّ الهندوس من حوله من كل الطبقات الاجتماعية لا سيما طبقة المنبوذين، وقال بوحدانية الله كما قال بالقدرية.

ونظَّم المعلم أرغون من بعده حركة السيخ، فبنى في مدينة أمرتزار الهيكل الذهبي، واتخذ منه قبلة يتوجه إليه حجاج السيخ، فنمت هذه المدينة وتطورت وأضحت من مدن الهند المقدسة.

وأخذ المعلم أرغون يجمع أفكار ناناك بوصفه التجسد الأول لله، وما كتبه أسلافه بهذا الشأن، وألَّف من هذا كله ما يُعرف بالكتاب، رتَّب فيه مبادىء الشريعة الدينية والأدبية، وأنشأ للحركة نواديَ ومراكز ومريدين وأتباعاً في جميع المدن والولايات، وقرَّر وجوب عقد اجتماع سنوي لأتباعها يُعقد في مدينة أمرتزار.

(1) انظر حول نشأة هذه الطائفة وتعاليمها، إيرفين: The Later Mughals: I, pp73-84.

أخذ المسلمون يضطهدون السيخ، منذ عهد السلطان جهانكير، إذ عندما ثار عليه ابنه خسرو وفرّ إلى البنجاب لقي تأييداً من غورو أرغون الذي منحه بركته وقدَّم إليه الأموال، ما أغضب جهانكير، فقبض عليه وعذّبه حتى الموت وذلك في عام (١٠١٥هـ/ ١٦٠٦م)، ولم يتخذ أي إجراء إضافي بحق السيخ.

وعدَّ هؤلاء هذا التصرف اعتداء على ديانتهم من جانب المغول، وأدركوا لأول مرة أنهم بحاجة إلى جيش منظم، حسن التدريب، لمواجهة ما قد يطرأ من تطورات في العلاقة مع السلطة المغولية، فكان موت أرغون باعثاً على سلوك طريق القوة.

وكان غورو أرغون قد هيأ ابنه هارغوڤيند ليخلفه من بعده، وكان عمره أحد عشر عاماً. فسار على نهج والده. فأسس نواة عسكرية ما أثار قلق جهانكير فقبض عليه، وسجنه في حصن غواليور، مدة عامين، ثم أطلق سراحه بعد أن تعهد بالإخلاد إلى الهدوء.

وعندما اعتلى شاه جهان العرش المغولي، توتَّرت العلاقة مع السيخ الذين راحوا يفتعلون المشكلات للاصطدام بالسلطة، وتغلَّبوا على قوة مغولية، انسحبوا على إثرها إلى كيراتبور القريبة من كشمير حيث اختبأوا في تلالها. وتوفي هارغوڤيند هناك في عام (١٠٥٥هـ/ ١٦٤٥م)، وخلفه ابنه هار راي، وهو الغورو السابع للسيخ.

وعندما اعتلى أورنجزيب العرش المغولي انحاز غورو السيخ إلى جانب أخيه داراشكو ما أغضب أورنجزيب، فاستدعاه إلى بلاطه، فلم يذهب بنفسه وأرسل ابنه رام راي بدلاً عنه، فاستقطبه السلطان المغولي وحرّضه على والده، فجرَّده هذا من حقوق خلافته له وعيّن ابنه الثاني هاركيشان مكانه. وحاول رام راي أن يصبح غورو بمساعدة أورنجزيب، فاستدعى هذا هاركيشان إلى بلاطه لاحتجازه لكنه توفي في الطريق في عام (١٠٧٥هـ/ ١٦٦٤م)، فاختار السيخ تيغ بهادور غورو عليهم، وهو التاسع في هذه السلسلة، فعارض سياسة أورنجزيب الدينية ودعا أتباعه. إلى عقد اجتماع عام لاتخاذ الخطوة المقبلة ضده، فاستدعاه السلطان إلى بلاطه، وعندما وصل إلى دلهي قبض عليه وسجنه، وطلب منه اعتناق الإسلام، فرفض، فعذَّبه مدة خمسة أيام وقتله، وكان ذلك في عام (١٠٨٦هـ/ ١٦٧٥م). وكان هذا قد عيَّن، قبل مغادرته إلى دلهي، ابنه غوڤيند سينغ، البالغ من العمر خمسة عشر عاماً، خلفاً له، وهو العاشر في هذه السلسلة. كان من أبرز أعماله تأسيسه القوة

العسكرية للسيخ، وإضافة كلمة سينغ إلى أسمائهم كما نظّم لباسهم ومظهرهم، وراح يُشعل الحماس في نفوسهم ليثأروا لقتلاهم، ويواصل تدريبه العسكري لهم ويُعمِّدهم بنقيع السيوف والخناجر، فصمدوا لكل الضربات التي وجهتها إليهم الدولة حتى تمَّ لهم السيطرة على منطقة التلال، فيما بين ستلج رافد السند وجمنة، وقُتل اثنان من أولاده في المعارك، واستمرت مقاومته للمغول طيلة عهد أورنجزيب، والتحق بعد وفاته بخدمة خليفته بهادور خان[1].

ثورة الراجبوت: تابع أورنجزيب، بعد اعتلائه العرش، سياسة أسلافه السلمية تجاه الراجبوت، فكان على علاقة طيبة مع راجا جسونت سينغ في ميوار، وجاي سينغ في أمبر اللذين استمرا في خدمة المغول، فعين الأول حاكماً على جمرود، وهي منطقة حدودية متقدمة عند ممر خيبر. لكن السلطان، ومن وحي سياسته الدينية، سرعان ما بدّل سياسة المغول التقليدية تجاه الراجبوت، بعد وفاة راجا جسونت سينغ في (٢٥ شوال ١٠٨٩هـ/ ١٠ كانون الأول ١٦٧٨م)، واتبع سياسة الشدة معهم، فنظر إليهم بعين الامتهان، وأعاد فرض الجزية عليهم بعد أن ظلوا معفيين من دفعها قرابة قرن ونصف؛ ما أدى إلى نشوب الاضطرابات.

وكان أورنجزيب قد استبقى في بلاطه أحد أبناء راجا جسونت سينغ بعد موته، فظن قومه أنه إنما يهدف إلى حمل الأمير الراجبوتي الصغير على اعتناق الإسلام، فالتفوا حول زعامة الأمير درغا داس راجا الذي نجح بالحيلة في تخليص الأمير ونقله من دلهي إلى إمارته، ما أدى إلى إثارة السلطان، فذهب بنفسه إلى أجمير وأرسل منها إنذاراً إلى الراجبوت بدفع الجزية والامتناع عن مساعدة الخارجين عليه، وأرسل جنوده سريعاً إلى هناك، فاضطر الراجبوت إلى طلب العفو وتعهدوا بعدم إيواء ابن جسونت سينغ. استغرقت المهمة أشهراً عدة عاد بعدها السلطان إلى عاصمته.

ويبدو أن الراجبوت لم يركنوا إلى الهدوء إلا بقدر ما تسنح لهم الفرصة، إذ سرعان ما نقضوا عهدهم بعد عودة السلطان وقواته، وأعلنوا الثورة على الحكم المغولي، فجهَّز السلطان حملة عسكرية، بقيادة ابنه أكبر والقائد تهورخان، لغزو أراضي الراجبوت وضمها إلى الدولة المغولية، وذهب هو إلى أجمير ليراقب منها سير العمليات العسكرية.

---

(١) حافي خان: ص٢٩٤ ـ ٢٩٦.

وتعاون رانا أوداي بور الراجبوتي مع درغا داس في التصدي للقوات المغولية. وكانت القوات الراجبوتية المتحالفة تنطلق من حصونها في عمليات خاطفة، وفشل أكبر في كبح جماحها. وأدّى حرج الموقف بأورنجزيب إلى استدعاء ولديه الآخرين، أعظم ومعظم، من إمارتهما في الدكن والبنغال ليشاركاه الحرب عند ميوار. فاضطرت القوات المتحالفة للفرار إلى الجبال للاحتماء بها، فحاصرتها القوات السلطانية ودمَّرت المحاصيل الزراعية لحرمانها من المؤن. عند هذه المرحلة من الصدام، لجأ الأمراء الراجبوت إلى الحيلة، فحاولوا استقطاب الأميرين أكبر ومعظم. وكان الأول قد تعرَّض لتأنيب والده بسبب تهاونه مع العدو الأمر الذي أثار غضبه ودفعه إلى الانضمام إلى الثائرين الذين نادوا به سلطاناً، وراح يزحف باتجاه أجمير على رأس القوات المتحالفة البالغ تعدادها سبعين ألفاً للاصطدام بأبيه، الذي لم يكن معه عندئذ أكثر من ألف فارس. ويبدو أنه تباطأ في زحفه وانهمك بمتعه. ما أتاح لوالده إغراء الراجبوتيين، فانفضوا من حوله وانضموا إلى القوات السلطانية. فقد كتب كتاباً بعث به إلى ابنه أكبر، وتعمد أن يقع بأيدي الراجبوتيين، أثنى فيه على الأمير وعلى خداعه للأعداء على ما رسمه له من قبل، وأمره باستدراجهم حتى يُحصرون بين قوتي المسلمين ليبادوا عن آخرهم، فإذا بهؤلاء ينفرط عقدهم حين اطلعوا على الرسالة، وإذا بالأمير الثائر يجد نفسه وحيداً، ففرَّ إلى الدكن والتجأ عند شمبهوجي، زعيم المهرات، ثم أبحر بعد ذلك إلى إيران فأقام بها إلى آخر حياته[1].

وانتهت الحرب مع ميوار في عام (١٠٩٢هـ/ ١٦٨١م)، بعد أن وافق أميرها على التنازل عن بعض حصونه للدولة مقابل إعفائه وقومه من جزية الرؤوس.

ثورة المهرات:[2] شكّل المهرات فرعاً من فروع قبائل الجات الغربيين، وهم أحد الأجناس المتعددة التي سكنت الهند منذ القدم. تميزوا بلغتهم وحضارتهم الخاصة، وسكنوا في الإقليم المحيط بمدينة بومباي. انصرفوا إلى

---

(١) Prasade: p427.

(٢) يشتق اسم المهرات أو المراتها من كلمة مهاراشترا التي تعني المملكة الكبرى، وهي مملكة قديمة لم يُوفَّق الباحثون في تحديد موقعها ولا أصل الشعب الذي كان يسكنه. وظهر المهرات فجأة على مسرح التاريخ، منذ القرن السابع عشر الميلادي. فأدّوا دوراً مهماً واستولوا على قسم كبير من الهند وأقاموا دولة وطنية، واعتنقوا الديانة البرهمية.

الأعمال الزراعية، واشتهروا بشدة البأس والمهارة والشجاعة والفروسية، شأن سكان الجبال. فأدخلهم أمراء بيجابور المسلمون في خدمتهم ليتقووا بهم، فترّقى زعماؤهم إلى مراتب عالية وأضحى لهم نفوذ كبير.

يبدأ حديثنا عن المهرات في عهد سيفاجي أوسيواجي (١٠٣٦ ـ ١٠٩١هـ/ ١٦٢٧ ـ ١٦٨٠م) الزعيم المهراتي الكبير. بدأ حياته في قرية صغيرة، ونشأ تنشئة عسكرية، والتحق بخدمة عنبر الحبشي. امتاز بالشجاعة، وأخذ يتدرَّج في مناصب الجيش حتى تبوَّأ مكاناً رفيعاً، وأتاح له تواجده في بلاط بيجابور التمرس بالسياسة والوقوف على أوضاع الدولة وعلاقاتها بأمراء الدكن، وبثَّ حكيم المهرات رام داس في نفسه حب الهندوس وحرَّضه على تكريس حياته للدفاع عنهم وعن مقدساتهم ضد أطماع المسلمين، فراح يهاجم قوافلهم ومسافريهم. وفي عام (١٠٥٦هـ/ ١٦٤٦م) كانت إمارة بيجابور تمر في مرحلة شيخوختها، فانتهز هذه الفرصة واستولى على عدد من الحصون حول بوتا، ثم نفذ إلى إقليم كنكان(١).

ومنذ عام (١٠٥٨هـ/ ١٦٤٨م) أخذ يجذب إليه عدداً كبيراً من متطوعة الهند بعد أن أضحت المحاولة المهراتية، في روحها وأهدافها، محاولة وطنية وقومية وتجربة عسكرية على نطاق واسع، فكوَّن منهم جيشاً قوياً وراح يستنزف ما يقع تحت يده من البلاد، ويواجه الحكام المسلمين بعنف بالغ مدفوع بكره للإسلام والمسلمين(٢).

كان زعماء المهرات من الفئة الدنيا بين طبقات الهند الاجتماعية، يقومون على خدمة الطبقات العليا. فهل كان المهرات يعلقون، فعلاً، أهمية كبرى على نظام الطبقات في البلاد؟ وهل أن الحركة الوطنية التي قاموا بها كانت تهدف بالفعل إلى تحرير الهند والهنود من النظام الطبقي الذي عمَّ البلاد منذ مئات السنين؟

ومهما يكن من أمر، فقد قامت قوات عسكرية من المهرات بسلسلة من الغزوات بقصد السلب والنهب، وتوغلت في إمارات بيجابور وغولكوندة بالإضافة إلى الأراضي المغولية. واستشرى خطر المهرات حين هاجم سيفاجي مدينة سورات على رأس أربعمائة من رجاله في عام (١٠٧٤هـ/ ١٦٦٤م)،

(١) خافي خان: ص٢٥٦، ٢٥٧.

(٢) Manucci: II, pp22-24.

ونهب وسلب ما صادفه من سفن الحجاج المسلمين وتجارهم، لكنه لم يجرؤ على مهاجمة مخازن الهولنديين والإنكليز الذين لم يأبهوا لتهديده، وذلك بفعل تفاوت القوة بين الطرفين، لذلك ترك المنطقة وعاد إلى مقره حاملاً أسلابه، كما غزا خاندش في عام (١٠٨٢هـ/ ١٦٧١م)، وراح يفرض على كل ناحية يغزوها ربع إيراداتها شرطاً منه ليجعل الناس في مأمن، فإذا ما رفض سكانها، قام بسلب كل شيء(١).

وهكذا وقعت ولاية الدكن الجنوبية فريسة لعمليات سلب ونهب على نطاق واسع، ووافقت إمارتا غولكوندة وبيجابور على دفع الربع المترتب عليهما، وباءت بالفشل كل المحاولات التي قام بها قادة أورنجزيب ضد المهرات، وتابع هؤلاء غزواتهم وحروبهم التي كانت تؤمن لهم الموارد التي هم بحاجة إليها وتضمن لهم الاستقلال.

وأعلن سيفاجي نفسه أميراً على قومه في عام (١٠٨٥هـ/ ١٦٧٤م)، في الوقت الذي كانت الدولة المغولية منهمكة بفتن الشمال، وقد ضم إليه كثيراً من الأراضي والحصون في نطاق إمارة فيايانكر القديمة التي بات الهندوس فيها يحلمون باستعادة مجدها الغابر على يديه، ثم انطلق ينهب أملاك الدولة المغولية نفسها بعد أن اغتصب بعض الحصون في بيجابور(٢). إلا أن سوء الظن، الذي دبَّ بين أتباعه بعد وفاته، جعل هؤلاء يوزعون القيادة بين قائدين متنافسين، كما راحوا يبدِّلون كثيراً من القادة، ما أضعف قوتهم، وقد جرى ذلك في الوقت الذي تسلّم فيه أورنجزيب قيادة العمليات العسكرية بنفسه منطلقاً من أحمد نكر، وظلَّ يحاربهم مدة ستة وعشرين عاماً حتى أخضع الدكن كله لحكمه، ولم يكسب من وراء هذه الجهود العسكرية سوى أراض انجردت من كل خيراتها لكثرة ما تعرَّضت له من الغزو والسلب.

والواقع أنه بعد وفاة سيفاجي خلفه ابنه سنبهاجي(٣) الذي اتصف بالشدة ضد المسلمين وبكره بالغ لهم، فراح يهاجم مدنهم الهامة، فأغار على برهانبور، فالتمس السكان المساعدة من السلطان، وكان قد فرغ من حربه مع الراجبوت، فتوجه بنفسه على رأس جيش كبير إلى الدكن ليقضي على هذا

(١) Manucci: II, pp24, 25.

(٢) Ibid: p110.

(٣) Ibid: pp217, 218.

الثائر. لم يقوَ سنبهاجي على مواجهة جيش السلطان وداخله الرعب، فأحجم عن القتال وانصرف إلى اللهو، فأخذ المغول بعض مقاطعاته. وزحف جيش مغولي آخر بقيادة مقرب خان باتجاه مقره، فقبض عليه وسيق مقيداً إلى السلطان الذي قتله مع وزيره، الذي أساء إلى المسلمين في مجلس السلطان، إلا أنه احتضن ابنه ساغو ورباه وقرّبه إليه.

والواقع أن الأمر لم ينته عند هذا الحد، فقد قام رام راجا داس، أخو سنبهاجي، والذي خلفه في حكم المهرات، بأعمال السلب والنهب، فتعقبته جيوش السلطان بقيادة سردار ذو الفقار خان وأجبرته على الفرار، وذلك في عام (١١٠٩هـ/ ١٦٩٨م) فانقطعت أخباره وانتهى أمره وتفرقت جموع المهرات، ولكن بقايا منهم، بقيادة أرملته تاربي، ظلّت تغير على الأماكن الآهلة بالسكان ثم تفرُّ إلى الجبال في غارات خاطفة، فقرّر السلطان، على الرغم من تجاوزه الثمانين عاماً، على قطع دابرهم فظل يطاردهم ويتخطفهم ويقتلهم حتى قضى على حصونهم كلها، فضعفت شوكتهم تماماً وذلك في عام (١١١٧هـ/ ١٧٠٥م).

ضمُّ بيجابور

أمضى أورنجزيب الخمسة والعشرين سنة الأخيرة من حياته في الدكن لإخضاع المهرات وبيجابور وغولكوندة، وكان اهتمامه بالدكن مرده إلى عدة أسباب، منها:

- كان سلطاناً طموحاً أراد أن يوسع أراضي دولته باتجاه الجنوب.
- غِنَى إمارتي بيجابور وغولكوندة وتشيُّع حكامهما، والمعروف أنه كان سنياً متشدداً فلم يرض عن وجود إمارتين شيعيتين على حدود بلاده الجنوبية، فأراد أن يزيلهما ويضمهما إلى أملاكه.
- كانت الإمارتان تمدان المهرات بالمساعدات المالية، ولما كانت سياسته تجاه هؤلاء تتسم بالعدائية فإن ضمّ الإمارتين من شأنه أن يؤدي إلى وقف هذه المساعدات، وبالتالي إلى إضعاف مقاومة المهرات.

استولى أورنجزيب على بيجابور بعد سلسلة من المحاولات غير الناجحة. نُفِّذت الأولى في عام (١٠٨٦هـ/ ١٦٧٥م) عندما أرسل قوة عسكرية تقدر بخمسين ألف فارس بقيادة راجا جاي سينغ، فتعرّضت للهزيمة على يد الملك إسكندر عادل شاه الثاني، وأرسل في عامي (١٠٩٠، ١٠٩١هـ/ ١٦٧٩،

١٦٨٠م) حملة أخرى ضد هذه الإمارة بقيادة ديلرخان، لكنه فشل أيضاً. وفي عام (١٠٩٥هـ/ ١٦٨٤م) أرسل السلطان حملة ضد بيجابور بقيادة الأمير محمد معظم، إلا أنه لم يحرز نجاحاً، فأردفه بمدد بقيادة غازي خان، فالتقى بجنود بيجابور في إندي وانتصر عليهم وزحف نحو العاصمة وحاصرها. وحدث في غضون ذلك أن دبَّ الخلاف بين المغول بسبب ما جرى من تآمر محمد معظم مع البيجابوريين ضد أبيه، وتعاونه معهم سراً ضد القادة الذين يرافقونه حقداً عليهم، فاضطر السلطان للذهاب إلى هناك ليقود العمليات العسكرية بنفسه.

استمر حصار حصن بيجابور مدة خمسة عشر شهراً تخلّلته محاولات صاحبه العقيمة التماس المساعدة من كل من أبي الحسن قطب شاه، صاحب غولكوندة، وسنبهاجي، أمير المهرات، بالإضافة إلى إقدام البيجابوريين على إتلاف المزروعات وحرق المحاصيل الزراعية لحرمان المغول من الاستفادة منها، وقد عانى هؤلاء شحاً شديداً في الأقوات كاد يصرفهم عن هدفهم لولا إمداد السلطان لهم بالمؤن والأقوات.

ونال الحصار الشديد أخيراً من صمود البيجابوريين ومقاومتهم، واضطر إسكندر شاه إلى الاستسلام في (ذي القعدة ١٠٩٦هـ/ تشرين الأول ١٦٨٥م)، ودخل السلطان العاصمة في أوائل (١٠٩٧هـ/ ١٦٨٦م)، فهدم النقوش الهندية التي كانت تزين القصر الملكي، كما دمّر رجاله بدورهم عدداً من المنشآت الفخمة الأخرى، وأضحت بيجابور من أملاك المغول، وعامل السلطان الأمير إسكندر معاملة طيبة وسمح له بالإقامة في دولت آباد، ولكنه استدعاه بعد قليل إلى معسكره حيث أقام حتى وفاته في عام (١١١٢هـ/ ١٧٠٠م)[1].

ضمُّ غولكوندة

كان أمراء غولكوندة من الشيعة المتشددين، وأكثر عداوة من أمراء بيجابور، وقد سبق أن أجبرهم شاه جهان على دفع الخراج، وعدم سب الخلفاء الراشدين والتبرؤ منهم، وعلى ذكر اسمه في الخطبة بدل اسم شاه إيران، ولكنهم لم يحافظوا على تعهدهم، لا سيما أبو الحسن شاه الذي تأخر عمداً في دفع الخراج وساند الهندوس ضد المغول حيث أمّد سيفاجي بالسلاح، كما

(١) Manucci: II. PP130-135.

أنه عيّن وزيرين هندوسيين، هما ماردانا وأكانا، وأرسل جيشاً لمساعدة بيجابور حين حاصرها السلطان، ولكنه وصل بعد فوات الأوان، فعاد أدراجه.

أثار هذا السلوك السياسي المعادي أورنجزيب، فاشتد حنقه على أبي الحسن، وشرع في الزحف إلى غولكوندة لتصفية حسابه معه. ولما كانت الحرب مع بيجابور تستدعي تواجده على الجبهة، فقد عهد بقيادة الحملة إلى ابنه محمد معظم، وكان في عداد جيشه الزاحف إلى غولكوندة أمراء وجند كثير من الإيرانين الشيعة الذين يتوافق هواهم مع هوى أبي الحسن، أو على الأقل يتعاطفون معه لاتفاقهم جميعاً في المذهب، وقد تأثَّر محمد معظم بهؤلاء فعطف على الشيعة بعامة، وتعاطف مع أبي الحسن بخاصة متجنباً الدخول في الحرب، فعرض عليه اقتراحات سهلة مقابل الاستسلام، ولكن عداءه للمغول والسنة دفعه إلى رفضها متجاهلاً نصيحة كثير من أمرائه بعدم معاداة المغول وبوجوب الوفاء لهم بالتزاماته.

وحاصر المغول عاصمة غولكوندة، حيدر آباد، ووجد أبو الحسن شاه نفسه عاجزاً عن المقاومة، ففرَّ من عاصمته إلى قلعة غولكوندة واحتمى بها وأرسل إلى أورنجزيب يطلب الأمان مقابل سجن رئيس وزرائه ماردانا وأداء الخراج المتوجب عليه وتسليم الأراضي التي انتزعها من المغول، وكانت هذه شروطاً سهلة، ويبدو أن محمد معظم والإيرانيين الذين معه، كان لهم دور في تخفيف الضغط عن أبي الحسن شاه.

ومهما يكن من أمر، فقد وافق أورنجزيب على مبدأ الصلح، وانتهى أمر ماردانا بأن قتله بعض الخدم تخلصاً منه. غير أن أبا الحسن سرعان ما نقض شروط الصلح كعادته، وربما تشجّع بتعاطف محمد معظم معه، ما اضطر السلطان إلى إعادة فرض حصار على غولكوندة. واكتشف في غضون ذلك أن ابنه. محمد معظم. وجنده من الإيرانيين يتآمرون مع أبي الحسن على سلامته، فقبض عليه مع عدد من أمرائه وأتباعه وسجنهم.

وشدّد أورنجزيب الحصار على قلعة غولكوندة حتى اقتحمها بعد ثمانية أشهر، على الرغم من الصعوبات التي اعترضته، مثل غزارة انهمار المطر وإتلاف أبي الحسن شاه المحاصيل الزراعية وإحراق الزرع، وانتشار الأوبئة في صفوف جنده، والمقاومة الضارية التي أبداها الوزير عبد الرزاق في الدفاع عن القلعة. واعتُقل أبو الحسن شاه في غمرة القتال، وضمَّ السلطان إمارة

غولكوندة إلى دولته، قاضياً بذلك على استقلالها[١]، وذلك في (٢٤ ذي القعدة ١٠٩٨هـ/ تشرين الأول ١٦٨٧م).

لم يبق في القارة الهندية، بعد هذا التوسع خارج الأراضي المغولية، إلا مملكة فيايانكر الهندوسية، الواقعة في الطرف الجنوبي للهند، وأماكن قليلة عند الساحلين الشرقي والغربي كانت بأيدي الأوروبيين.

لقد أراد أورنجزيب أن يجعل من جنوبي الهند إمارة تابعة له، فقضى هذه الأعوام الطويلة هناك حتى نهاية عمره، غير أنه لم يبلغ ما كان يرغب، ذلك أن قادته لم يكونوا على طراز قادة أسلافه من القوة والجلد، وانغمسوا في اللهو والترف، وهم حريصون على توفير أسباب الراحة والدعة خلال الحملات العسكرية وكأنهم لا يزالون يقيمون بالعاصمة، هذا كما استمر أغلب الهندوس يكنُّون له الكراهية والعداء، وتخلّى الراجبوتيون عنه وهم الذين ساندوه في حروبه من قبل، ولم يقض تماماً على المهرات، وبالتالي فإن حكمه في الجنوب بقي مزعزعاً بدليل أنه تعرّض مجدداً لهجوم المهرات والسيخ.

وعلى هذا الشكل اتسعت مملكة أورنجزيب بشكل لم يشهده سلطان من قبله ولا من بعده، حيث ضمَّت الهند وآسام وأراكان في بورما وأفغانستان، وكانت تلك هي الذروة التي وصل إليها مُلْك المغول.

سياسة أورنجزيب في مناطق الحدود

مناطق الحدود الشمالية الشرقية

كان أورنجزيب معنياً، بعد اعتلائه العرش، بحل مشكلات الحدود الشمالية الشرقية لبلاده في كوش بيهار وأسام، وهي منطقة تغطيها الغابات والأحراش، وقد شكَّلت فيما مضى إحدى بوابات الدولة نحو الخارج. فخلال حروب الوراثة، التي نشبت بين المغول في أواخر عهد شاه جهان، هاجم تارايان، حاكم كوش بيهار، في عام (١٠٦٧هـ/ ١٦٥٧م)، الأراضي المغولية فنهبها وخرّبها، واجتاح الآساميون في العام التالي الأراضي المغولية أيضاً واستولوا على مدينة غوهاتي. كان رد فعل المغول سلبياً تجاه تلك التعديات، ولم يحاولوا تصحيح الوضع إلا بعد اعتلاء أورنجزيب العرش.

---

(١) خافي خان: ص٣٣١ ـ ٣٣٥. Manucci: II, pp286-291.

ففي عام (١٠٧٠هـ/ ١٦٦٠م) عيَّن السلطان المغولي القائد ميرجملة حاكماً على البنغال وأمره بردع الراجات الخارجين على حكمه، فغادر دكا في العام التالي متوجهاً إلى كوش بيهار على رأس جيش بلغ تعداده اثني عشر ألف فارس وثلاثين ألف راجل، ولما وصل إليها ضرب الحصار عليها واقتحمها بعد ستة أيام، وحوّل اسمها إلى عالمكير ناغار، وضمَّ أراضيها إلى الدولة المغولية.

تحوّل ميرجملة بعد ذلك إلى أسام، فزحف إليها في (ذي الحجة ١٠٧٢هـ/ تموز ١٦٦٢م)، وعلى الرغم من الصعوبات التي اعترضت زحفه، مثل مخاطر اجتياز الطريق المليء بالغابات والأحراش، والأوبئة التي فتكت بجنوده، وشدّة ضغط الأعداء؛ فإنه استطاع أن يستولي على كثير من قلاع الأساميين وطاردهم على طول نهر البراهما بوترا وحطَّم أسطولهم وحاصر عاصمتهم، وأجبر زعيمهم على الاستسلام مقابل التنازل للمغول عن الأراضي الواقعة غربي نهر بهيرالي وغربي نهر كالانغ في الجنوب، ودفع غرامة حربية.

وأثناء عودته إلى دكا، توفي ميرجملة في (٢٥ ذي الحجة ١٠٧٣هـ/ ٣١ تموز ١٦٦٣م) متأثراً بإصابته بالحمى(١).

مناطق الحدود الشمالية الغربية

تعرَّضت منطقة الأطراف الشمالية الغربية، ابتداء من عام (١٠٧٨هـ/ ١٦٦٧م)، لغارات قبائل البطهان الأفغانية، وعلى رأسها يوسفزي والأفريدي، وقد جهد السلطان أكبر من قبل في الحد من نشاطهم وحذا حذوه شاه جهان، وتصدّى لهم حاكم آتوك فردّهم وضرب منازلهم.

وركنت هذه القبائل إلى الهدوء بضع سنين من بعد ذلك، وكان راجا جسونت سينغ، نائب السلطان في جامرود، يترصَّد تحركاتهم. وعندما دخل عام (١٠٨٣هـ/ ١٦٧٢م)، نشطت حركة قبائل الأفريدي، بزعامة أكمل خان الذي أعلن نفسه ملكاً وضرب السكة باسمه، ومضى يوحِّد عشائر البطهان تحت زعامته تمهيداً للتصدي للمغول، وراحت هذه القبائل تغير على المنطقة الواقعة بين كابل وبيشاور، وأغلقت ممر خيبر، أخطر أبواب الهند وأهم طريق الغزاة إلى سهولها وأراضها، فأرسل أورنجزيب قداي خان حاكم لاهور إلى بيشاور،

(١) Gait, Edward: History of Assam: pp141-151. Manucci: II, pp90-94.

وسيَّر القائد أمين خان إلى كابل، وكلّفهما بمقاومة هذه القبائل وفتح ممر خيبر.

ويبدو أن أمين خان عجز عن مواجهة خطر القبائل الأفغانية الداهم، أو أنه هادنها، ما دفع السلطان إلى استبداله بمهابت خان، ثم أرسل حملتين ضد أكمل خان في (رجب ١٠٨٤هـ/ تشرين الأول ١٦٧٣م)، الأولى بقيادة مهابت خان والثانية بقيادة شجاعت خان وراجا جسونت سينغ، لكن هاتين الحملتين تعرّضتا لكارثة عند ممر خيبر بسبب عدم التنسيق بين القادة، وخسر المغول عشرة آلاف قتيل سوى الأسرى، وقُتل شجاعت خان الذي وُصف بالمتهور.

اضطر السلطان، بعد هذه الكارثة، إلى قيادة العمليات العسكرية بنفسه، فانتقل في العام التالي إلى حسن أبدال من أجل هذه الغاية، وهو مكان يقع بين روال باندي وبيشاور. وعلى الرغم من معاناة القوات المغولية في حربها مع الأفغان إلا أن النصر النهائي كان حليفها، ولم يتحقق ذلك بالقوة العسكرية وحدها وإنما بما بذله السلطان من جهود سياسية أيضاً، إذ استقطب عدداً من العشائر الأفغانية بالمال والمناصب في الجيش، وعيّن أمير خان حاكماً على كابل، فتحقَّق الاستقرار والأمن على يديه في تلك المنطقة، وبخاصة ممر خيبر المهم عسكرياً.

استنزفت حروب الشمال الغربي موارد الدولة وأموالها، وأتاحت لإمارات الدكن أن تثير الاضطرابات والمتاعب في وجهها من واقع استدعاء السلطان قواته العسكرية من الدكن، ما أحدث فراغاً عسكرياً ملأته هذه الإمارات بأعمالها العدوانية. ويبدو أن السلطان أخطأ في سياسته مع تلك القبائل الأفغانية، إذ كانت السياسة الحكيمة تقضي باستقطابهم والاستعانة بهم في الحروب ضد الهندوس والشيعة في الدكن، وبخاصة أنهم جمعتهم مع السلطان النزعات السنية المتشددة.

علاقة أورنجزيب مع الأوروبيين

علاقته مع البرتغاليين

حاول أورنجزيب أن يقيم علاقات طيبة مع القوى الأوروبية في الهند، والواقع أنه حصر صلاته بقوتين أوروبيتين، البرتغالية والإنكليزية، وقد بنى هذه السياسة السلمية على إمكان أن تشكل هاتان القوتان الخطر على الحجاج المسلمين في البحار فأراد أن يتجنب هذا الخطر، بالإضافة إلى تغذية الخزانة المغولية بالعائدات الجمركية.

شكّل البرتغاليون مصدر قلق للدولة المغولية منذ عهد شاه جهان، فقد قام بعض قراصنتهم بغارات على الموانئ الإسلامية بهدف السلب والنهب، فأرسل أورنجزيب القائد ميرجملة لتأديبهم وردعهم، ولكنه فشل في مهمته، فانتدب عندئذ شايسته خان حاكم البنغال، فتوجه في (شعبان ١٠٧٤هـ/ آذار ١٦٦٤م) إلى مقر هؤلاء في شتاغون وحاصرها، وما لبثت أن استسلمت في (رجب ١٠٧٦هـ/ كانون الثاني ١٦٦٦م)، فبدَّل اسمها باسم إسلام آباد، وأطلق سراح الأسرى المسلمين الذين كانوا في حوزة القراصنة، ودمَّر قوارب[1] هؤلاء.

وانتهج حكام المستعمرات البرتغالية سياسة الحياد في الصراع بين المغول والمهرات حرصاً على مصالحهم التجارية. ففي عام (١٠٧٨هـ/ ١٦٦٧م) عقد هؤلاء اتفاقية مع أورنجزيب تعهدوا فيها بعدم إيواء وحماية أي ثائر ضد الدولة المغولية، وعدُّوا مثل هذا العمل الثوري بمثابة ثورة ضد ملك البرتغال، وكذلك فعلوا مع المهرات ولكن من دون علم أورنجزيب. وعندما غزا سنبهاجي، بالتعاون مع الأمير الثائر أكبر، ميناء غوا في عام (١٠٩٥هـ/ ١٦٨٣، ١٦٨٤م)، وقف البرتغاليون إلى جانب السلطة المغولية للقضاء على هذه الثورة، غير أنهم سرعان ما استدركوا سياستهم الحيادية فتفاهموا مع المهرات. وفي عام (١١٠٤هـ/ ١٦٩٣م)، وبفعل الصداقة المتناهية بين البرتغاليين والمهرات والتي رأى فيها أورنجزيب خطراً على دولته، أرسل حملة عسكرية إلى باسين ودامان، بقيادة معتبر خان حاكم كالايان، فانتصر على المهرات وأعاد سلطة المغول على غوا، وبذلك نجح أورنجزيب في تجنّب خطر البرتغاليين.

علاقته مع الإنكليز

ابتدأت العلاقة المغولية الإنكليزية في عام (١٠٢٤هـ/ ١٦١٥م) عندما زار السيد توماس راوو السلطان جهانكير في بلاطه وحصل منه على بعض الامتيازات التجارية وإذناً بإقامة مصنع، أي مخزن تجاري، وتبع ذلك بناء مصانع أخرى في هاري هاربور قرب كوتاك وبالاسور. واستفاد الإنكليز من سخط شاه جهان على البرتغاليين وتدميره لمراكزهم في هوغلي، فحصلوا على

(١) Manucci: II, pp108-110

إذن منه بإقامة مصنع لهم هناك، لتخضع كل مصانعهم في الهند بعد ذلك لإشراف مُوحَّد في صورات، كما سمح لهم، في عام (١٠٦٢هـ/ ١٦٥٢م)، بالتجارة في البنغال مقابل دفع ثلاثة آلاف روبية سنوياً كرسم تجاري.

واستمر الإنكليز في عهد أورنجزيب في الحصول على الامتيازات التجارية، فسمح لهم هذا السلطان بالتجارة الحرة في أراضي دولته مقابل دفع ثلاثة ونصف بالمائة كرسم تجاري. وتوثَّقت العلاقات بين الطرفين حين وقف الإنكليز في وجه سيفاجي عندما أقدم على مهاجمة سورات، وقابل أورنجزيب موقفهم هذا بأن خفَّض الرسوم المفروضة على وارداتهم.

وتوسَّع الإنكليز في أعمالهم التجارية عندما امتد نفوذهم التجاري إلى بومباي على الساحل الغربي، وهنا عمد شايسته خان حاكم البنغال على فرض رسوم جديدة عليهم في عام (١٠٩٦هـ/ ١٦٨٥م)، فعارضوا هذا الإجراء وعمدوا إلى مناهضة الدولة، وعندما استعمل السلطان القوة لردعهم اندلعت الحرب، فخرج الإنكليز من صورات وهاجموا مدينة بومباي واستولوا على السفن المغولية الراسية فيها. وطلبت الوكالة الهندية من الملك الإنكليزي جيمس الثاني أن يرسل أسطولاً بحرياً للاستيلاء على شتاغون. ولكن هذه المحاولة فشلت. وتعرَّضت القوات الإنكليزية للخسارة أمام القوات المغولية، واضطر قائدها المتهور سير جوزيا تشيلد، تحت ضغط القتال، أن ينسحب من البنغال في عام (١١٠٠هـ/ ١٦٨٩م)، وانتزع أورنجزيب من الإنكليز مصانعهم كلها في سورات وهوغلي وماسو ليبانام، وحرمهم من النشاط التجاري في أراضي دولته، على أن ما كانت تجنيه الدولة منهم من رسوم كثيرة أغرت السلطان بالعفو عنهم في السنة التالية، وسمح لمعتمدهم جوب شارنوك أن يقيم في قرية كالكوتا بأدنى هوغلي، وسرعان ما تطورت هذه القرية ونمت في تدرج سريع حتى أضحت عاصمة الامبراطورية الهندية البريطانية قبل أن ينتقل نائب الملك إلى دلهي الجديدة.

والواقع أن هذا التساهل مع الإنكليز من جانب السلطة المغولية، كان نصراً لهم، لأن حاكم البنغال الجديد كان صديقهم، ومنحهم امتيازات تجارية واسعة راحوا يستغلونها عند الساحلين الشرقي والغربي ودأبوا، قرابة نصف قرن على التظاهر بعدم التدخل في شؤون البلاد، ولم يَدرْ في خُلد

أورنجزيب مطلقاً أنه بتساهله مع هؤلاء العصبة إنما يمهد الطريق لأولئك الذين لم يتورعوا عن سلوك أحط السبل حتى تمَّ لهم استعمار شبه القارة الهندية كلها[١].

علاقة أورنجزيب بأولاده

كان أورنجزيب حذراً في تعامله مع أبنائه، ولم يثق بهم مطلقاً. وقد جاء هذا الحذر نتيجة الخبرة التي اكتسبها في مستهل حياته السياسية، فإنه اعتلى العرش المغولي بعد حروب دامية مع إخوته وقتلهم؛ لذلك أبعدهم عن مراكز السلطة والقرار التي تخولهم خلق مشكلات في وجهه، وفرّقهم في الولايات أو زجَّ بهم في السجون. فعيَّن كام بخش على بيجابور، وأعظم على مالوة، ومعظم على أكرا، ولم يتردَّد في إلقائهم في السجون لمدد طويلة أو قصيرة. من ذلك أنه سجن ابنه الأكبر سلطان أكثر من عشرين عاماً بسبب تعاطفه مع شوجا وزواجه من ابنته وقد توفي في السجن، وسجن ابنه معظم ثمانية أعوام بسبب ما أقدم عليه من التفاوض مع حاكم بيجابور أثناء حرب الدكن من دون إذنه، وفعل مثل ذلك مع كام بخش، كما لم يتردّد في إنزال العقاب بابنته ذيب النساء بسبب عطفها على أخيها أكبر، وقد وافاها الأجل في السجن، واضطهد ابنه أكبر لأنه اتفق مع الراجبوت ضده، واضطر هذا الأمير إلى مغادرة الهند نهائياً[٢] إلى إيران، كما مرّ معنا.

وفاة أورنجزيب

ألمَّ بأورنجزيب مرض وهو في حيدرآباد، وأدركته الشيخوخة وقد بلغ التسعين عاماً من عمره، فشعر بدنو أجله. وحين اشتد عليه المرض أوصى بأن تقام له جنازة بسيطة بعد وفاته، وأن يُسرعوا بدفنه في أقرب مقبرة للمسلمين، ولا يزيدوا في ثمن كفنه عن خمس روبيات، كان قد كسبها من صنع الطواقي وبيعها، وأن يتصدقوا على الفقراء بثلاثمائة روبية، كانت كل ما يملكه، وتوفي يوم الجمعة في (٢٨ ذي القعدة ١١١٨هـ/ ٣ آذار ١٧٠٧م)، ودُفن في مقبرة تبعد أربعة أميال عن دولت آباد[٣].

---

(١) الساداتي: ص٣٥٥.

(٢) Prasade: p652.

(٣) مسنعد حان: ص١٦١.
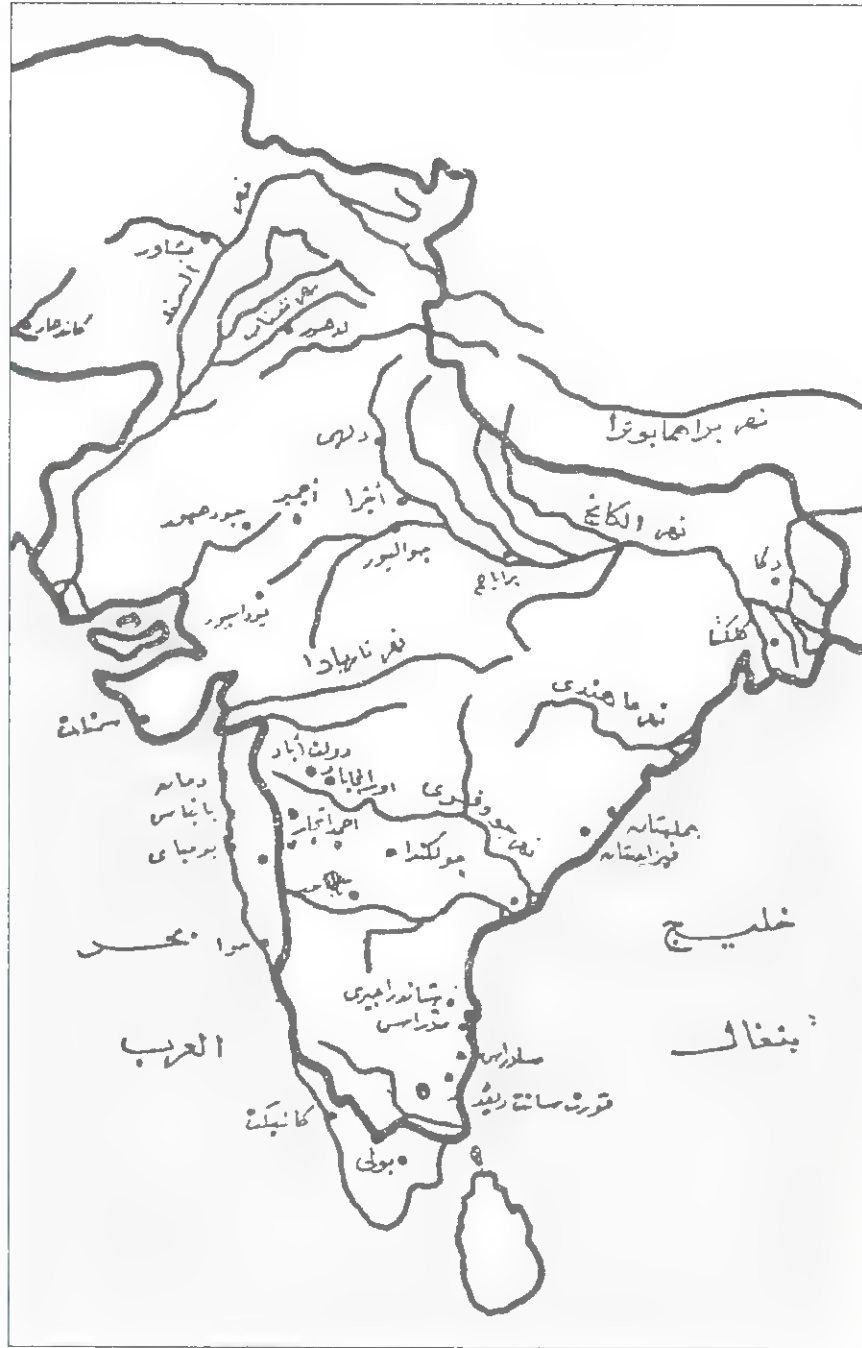
امبراطورية عالم كير سنة ١٧٠٠م

عن جمال الدين الشيال: تاريخ دولة أباطرة المغول الإسلامية في الهند ص١٥٥.

مآثر أورنجزيب

ينفرد أورنجزيب، من حيث أخلاقه الكريمة وتمسكه بالمثل العليا والقيم الدينية، عن سلاطين المغول الآخرين الذين حكموا الهند، ولا يكاد يدانيه أحد منهم، فقد كان تقياً ورعاً وسط بيئة مترفة منغمسة في حياة اللهو، جاهد في نشر لواء الإسلام وإعلاء شأن المذهب السني، وقضى وقته كمسلم تقي يحفظ القرآن، ويصوم أغلب أيام حياته، وهو لا يتردَّد أن ينزل عن حصانه أثناء المعركة والقتال دائر ليؤدي الصلاة في وقتها. وينظر المسلمون في الهند إليه نظرتهم إلى أولياء الله الصالحين، حارب عبَّاد الأصنام، كما حارب أصحاب المذهب الشيعي.

دفع السلوك الديني والسياسي للسلطان أورنجزيب المؤرخين الهندوس والأوروبيين إلى التحامل عليه وتشويه سمعته ونعته بالتعصب، لكن الحقائق لا تؤيد هذا النقد. لقد كان أورنجزيب سلطاناً مسلماً مخلصاً لوطنه ودينه، يطبق تعاليمه السمحة التي تؤمِّن للآخرين، من غير الأديان والمذاهب، الأمن والاستقرار والحرية ما داموا لا يعتدون على الدولة ورعاياها المسلمين.

لقد أراد أورنجزيب أن يطبق تعاليم الإسلام في بلاده، وهذه فضيلة لا يؤاخذ عليها، إذ لم تكن تعاليم الإسلام السمحة يوماً من الأيام ظالمة أو متعسفة. وإذا نظرنا إلى أعماله بموضوعية لا نجد فيها انحرافاً أو إكراهاً لأحد على اعتناق الإسلام، أو تعصباً دينياً حمله على ظلم غير المسلمين، وإذا كان قد حارب الراجبوت والمهرات الهندوس، فإنه حارب أيضاً الشيعة المسلمين. والحقيقة أن الدافع لهذه الحروب لم يكن دينياً بل سياسياً، فكما عنَّف في المعاملة القبائل الإسلامية في شمال غربي الهند، فإنه لم يستطع كذلك أن يقف مكتوف الأيدي أمام عصيان رعاياه من غير المسلمين، أو الفوضى التي أشاعها المهرات في إقليم الدكن. والواقع أنه كان يحسن معاملتهم بعد أن يستسلموا له ويغدق عليهم ويعطيهم المناصب، وكثيراً ما كانت تتكرر الإساءة منهم فلا يرون منه إلا كل تسامح. أما قتله سيفاجي ووزيره، فإن تهجم الوزير على الإسلام والمسلمين في مجلسه كان السبب في ذلك، والمعروف أنه احتضن ساغو بن سيفاجي وأغدق عليه، وظل هذا يذكر فضله عليه طيلة حياته. وإذا كان قد هدم بعض المعابد، فقد كان ذلك لضرورة سياسية أو

ظرفية، أو أنها أقيمت من دون ترخيص رسمي، ولم تكن سياسة مرسومة بدليل ما ظل باقياً منها في مدن الهند الكبرى، والمعروف أنه وهب بعض الأراضي لإقامة معابد هندوسية فيها، وعليه فإن المسألة ليست مسألة تعصب ديني، وإنما أمر حكم يجب أن يستقر، وسياسة عامة يجب أن تنفَّذ، وقد أوضح سياسته هذه في كثير من رسائله التي كتبها، حيث أعلن رفضه لاضطهاد موظفيه بسبب انتمائهم الديني، ولم يكن لأحد أن يخشى بأسه ما دام موالياً للدولة.

أحبّ أورنجزيب العلم والعلماء وشجّع على التعليم، فبنى المدارس الكثيرة وأجرى الأرزاق على العلماء والطلاب ليتفرغوا للدراسة، وأنشأ المساجد الكثيرة ورتّب الأرزاق للقائمين عليها، وأصلح الطرق، وبنى الربط الكثيرة والحمامات العديدة والاستراحات لأبناء السبيل، وأنشأ دوراً للعجزة في معظم المدن، وبعث في نفوس المسلمين في الهند الحمية الإسلامية من خلال عنايته بالثقافة والآداب والتعاليم الإسلامية، بالإضافة إلى سيرته الذاتية القائمة على الزهد والتصوف والتقوى، ودوَّن الأحكام الشرعية للعمل بموجبها، وهو عمل يُذكر له بالخير، فجُمِعَت، بأمره وتحت إشرافه، الفتاوى المشهورة الخاصة بأئمة الفقه الحنفي، وهي المعروفة في أوساط العلماء باسم الفتاوى الهندية أو العالمكيرية[1]، وهي من المصادر المهمة للمشتغلين بالفتوى في العالم الإسلامي، وقد أنفق عليها مائتي ألف روبية، كما وضع بنفسه كتاباً في الحديث وشرحه باللغة الفارسية، جمع فيه أربعين حديثاً.

لم يكن إقبال السلطان أورنجزيب على العلوم الدينية يقلّ عن إقباله على العلوم الأدبية، فقد أتقن أربع لغات هي العربية والفارسية والتركية والهندية، وله رسائل كثيرة باللغة الفارسية لا يزال بعضها موجوداً، ويُعدُّ أسلوبه الكتابي نموذجاً للأسلوب السلس الجميل.

لقد جاء أورنجزيب إلى الحكم والناس ينظرون إلى الملك على أنه فوق الطبيعة البشرية، وأنه ظل الله على الأرض، وكان الملوك يُغذُّون هذه الفكرة ويفرضونها على الشعب. وكان على الناس في كل صباح أن يتوجهوا إلى القصر لمشاهدة طلعة السلطان قبل الفطور ويعدُّونها نوعاً من العبادة، ويسجدون للسلطان وإلا عُدّوا خارجين عليه، حتى أن جهانكير سجن الشيخ

(١) طُبعت بمصر في عام ١١٨٢هـ.

أحمد سرهندي مجدِّد الألفية الثانية في الهند لأنه رفض أن يسجد للسلطان، كما ذكرنا، وعندما جاء شاه جهان منع هذه العادة، ولكن بقيت بعض التقاليد الأخرى المنافية لتعاليم الإسلام والتي من شأنها إذلال الناس، فألغاها أورنجزيب. نذكر منها أنه أمر الناس بأن يحيوه فقط بتحية الإسلام «السلام عليكم»، وقضى على الهالة التي كانت تحيط بالسلطان، وخصَّص ريع الأراضي الخاصة بالسلاطين لبيت المال، وكان السلاطين من قبله يستغلونها في نفقاتهم الخاصة.

رأى أورنجزيب في اصطناع الخداع السياسي أمراً واجباً، تماشياً مع روح العصر والجو السياسي العام، وأنه لا ضير في نشر شبكة من العيون لتأتيه بأخبار البلاد والعباد.

واهتم أورنجزيب بالنواحي الاجتماعية والأخلاقية والقضائية. فإلى جانب تحريمه الخمر والميسر، فإنه أبعد الموسيقيين والمطربين عن بلاطه، على الرغم من براعته في العزف، وخيَّر الراقصات بين الزواج أو النفي. وكان من رحمته ورأفته برعاياه أن تجنَّب القسوة والقتل في أحكامه إلا محاكمة المجرمين وقطاع الطرق[١]، هذا فضلاً عما اشتهر به من التجمل بالصبر وهدوء النفس في المحن والتواضع، وقد هدَّد نائبه بالبنغال حين بلغه أنه يتعالى على الناس في مجلسه واتخذ له ما يشبه العرش ليتربع عليه[٢].

كان أورنجزيب يُشرف بنفسه على سياسة الرعية والحكم، ويقضي معظم وقته في ذلك، ويسهر في دأب متواصل على مصالح رعاياه، فكان يجلس للناس ثلاث مرات في اليوم من دون حاجب كي يستطيع كل واحد أن يصل إليه ويعرض عليه شكواه. وبلغ من حرصه على تحقيق العدل أنه أمر القضاة في كافة أنحاء البلاد بالجلوس خمسة إيام في الأسبوع، بدلاً من يومين، على الرسم السابق، للنظر في قضايا الناس وحلها.

وهجر أورنجزيب ملاذ الحياة، فكان يلبس ثياباً بسيطة ويكثر من الصيام ويصلي التراويح بالناس، ويجعل طعامه في رمضان من خبز الذرة ولا ينام إلا على الأرض، ولم يسمح لأحد أن يغتاب آخر في حضرته، وكفَّ يده عن بيت

---

(١) Lane-Poole: pp401, 402. Manucci: II, pp5, 6.

(٢) Prasade: p635.

المال، فاعتمد في معيشته على ما كان يكسبه من صنع الطواقي وبيعها، كما كان يكتب المصاحف لهذا الغرض، وكان معروفاً بحسن الخط، وأهدى مصحفاً بخط يده إلى مكة المكرمة، كما كتب ألفية ابن مالك في صباه وأرسلها إلى مكة المكرمة للانتفاع بها، ويسَّر سبل الحجاج، وتمنى أن تسنح له الظروف في الهند ليحج إلى بيت الله الحرام.

الفَصْلُ العَاشِر

انحلال وسقوط الدولة المغولية في الهند

تمهيد

ينقسم المؤرخون بشأن دور أورنجزيب ومدى مسؤوليته عن انحلال دولة المغول في الهند، فذهب بعضهم إلى أن نزعاته الدينية المتطرفة واتساع فتوحه عرّضا سيادة المغول على البلاد للخطر، ذلك أن سياسته العامة تجاه الهندوس، مثل إعادة فرض الجزية عليهم، وتحويل معابدهم إلى مساجد، وإبعادهم مع الشيعة عن الوظائف الكبرى؛ أثار بينهم رد فعل أهاجهم ضد المغول، كما نفَّر بسياسته هذه أشد الأتباع ولاء له، حتى الراجبوت أنفسهم، الذين عرفوا بشدة بأسهم، جعلت منهم عناصر لا يستغنى عنهم، وانتفض السيخ والمهرات ضده. ويرى فريق آخر أن تقريب السلاطين المغول السالفين للهندوس وارتباطهم معهم بالزواج وحضَّهم المسلمين على الامتزاج بهم؛ شكَّل عاملاً فعَّالاً في زعزعة بناء هذه الدولة المغولية.

والواقع أن أورنجزيب في تمسكه بتعاليم أهل السنة، وحصره وظائف الدولة الكبرى بالمسلمين، لم يكن إلا متَّبعاً خطى محمود الغزنوي ومحمد الغوري اللذين أرسيا قواعد الحكم الإسلامي في الهند، وعندما حضَّ سلاطين المغول وغيرهم من الحكام المسلمين بالهند الناس على الزواج من الهندوس والاختلاط بهم، إنما كانوا يهدفون إلى تحقيق نوع من التآلف واستقطاب هؤلاء على الدخول في الإسلام، وهو أمر يساعد على ازدياد عدد المسلمين زيادة بالغة، والمعروف أن ضآلة عدد المغول لدى وصولهم إلى الهند وطبيعة الحضارة التي كانوا عليها، دعتهم إلى اتباع سياسة التساهل وأخذ الناس باللين.

وأما رأي الفريق الآخر فهو إلى الخطأ أقرب، إذ إن والدة أورنجزيب كانت هندوسية خالصة، وهو السلطان الذي أخضع الهند كلها لراية المسلمين، والذي عُرف بتمسكه البالغ بشعائر الإسلام وسننه.

ومهما يكن من أمر، فإن انحلال الدولة المغولية وانهيارها بعد ذلك لا يرجع إلى سياسة أورنجزيب ولا إلى سياسة أسلافه، وإنما إلى تراخي قبضة خلفائه وقد أضحت سيطرتهم على البلاد رخوة وهشة، وعجزوا عن إدارة دفة الحكم في بلاد واسعة مترامية الأطراف، أدارها والدهم بما أوتي من قوة وحزم باستثناء المدة التي أدركته فيها الشيخوخة وأضناه المرض، وبقيت دولتهم قائمة بالاسم فقط.

واستمر كبار الموظفين يحملون الألقاب التي حملوها من قبل معلنين ولاءهم للسلطان المغولي، أما في الواقع فقد كانوا مستقلين، وانصرفوا إلى الاهتمام بمصالحهم الخاصة غير آبهين بالأخطار التي أخذت تهدد كيان الدولة في الداخل على أيدي المهرات والسيخ والراجبوت، وفي الخارج على أيدي المستعمرين الأوروبيين.

وجعلت حروب الوراثة على السلطة، الإدارة المغولية خوّاء جوفاء، واتخذ الأمراء سلسلة من الإجراءات لا طائل تحتها، ولم تلبث أن أدّت إلى انحلال السلطة، وأطلّ البدو من الأفغان والفرس من وراء الحدود لينقضُّوا بسرعة البرق على المقاطعات الهندية يعملون فيها سلباً ونهباً قبل أن تقوم برد فعل.

والحقيقة أن عهد أورنجزيب هو القمة التي ارتقى إليها حكم المغول في الهند، وهو يحتاج إلى رجال دولة من الطراز الأول للمحافظة على توازنه فوقها حتى لا يهوى، ولما لم يجد هذا الطراز من الرجال هوى، وراح يتدحرج في طريقه إلى الهاوية وقد فَقَدَ كل شيء من مقومات الحياة، فتلقفته الأيدي الغربية القاسية لتدفنه وتبدأ عهداً جديداً هو عهد الاستعمار الإنكليزي الثقيل على الهند وشعبها، واحتاج الوصول إلى الهاوية مدة زمنية طويلة نسبياً. قرن ونصف من بعد وفاة أورنجزيب.

بهادور شاه الأول، شاه عالم

(١١١٧ ـ ١١٢٤هـ/ ١٧٠٧ ـ ١٧١٢م)

حروب الوراثة ـ اعتلاء بهادور شاه العرش

أنجب أورنجزيب خمسة أولاد ذكور وخمس إناث. الأكبر من الذكور هو محمد سلطان، وقد توفي في (٧ شوال ١٠٨٧هـ/ الأول من كانون الأول ١٦٧٦م) وهو في التاسعة والثلاثين من عمره، وقد مضى على حكم والده عشرون عاماً، ولم يترك ذرية. أما الابن الرابع فهو محمد أكبر، وقد تمرد على حكم والده وتحالف مع الراجبوت ضده، وفي عام (١٠٩٢هـ/ ١٦٨١م) فرّ إلى إيران وتوفي في مشهد في (١٦ ذي الحجة ١١١٧هـ/ ٣١ آذار ١٧٠٦م). وعندما توفي أورنجزيب كان ثلاثة من هؤلاء الذكور لا يزالون على قيد الحياة، وهم الابن الثاني محمد معظَّم، والثالث محمد أعظم، والخامس محمد كام بخش[(١)].

وكان أورنجزيب قد عفا عن ابنه معظَّم لتآمره ضده وعيّنه ولياً للعهد ولقبه بلقب بهادور أي الشجاع، وحرص على ألا تتكرر مأساته هو مع إخوته في التنازع على الحكم، وهو، حين فرَّقهم في الأنحاء احتاط من تآمرهم عليه في حياته، فيلقى على أيديهم ما لقيه والده شاه جهان من مصير، لكن إجراءه هذا أدى إلى تأجيل نشوب الفتنة من دون أن يقضي عليها، فقام هؤلاء الثلاثة بالتنازع على العرش والاقتتال في سبيل تأمين صيرورته إلى كل واحد منهم.

وكان السلطان المتوفى قد ترك وصية تتضمن تعليمات دفنه وتقسيم الدولة بين أولاده الثلاثة، وقد وجد حميد الدين خان رئيس القصر هذه الوصية تحت وسادة السلطان، وتقضي القسمة بتعيين معظَّم ولياً للعهد وخلفاً له، ويأخذ أعظم مالوة والكجرات وشمالي الدكن ودلهي، ويتولى كام بخش حكم

---

(١) Irvine, William: The Later Mughals: I, pp1-4.

بيجابور وحيدر آباد وأكرا، على أن يعترفا بحق أخيهما معظم بولاية العرش، وذلك حتى يظل الحكم متماسكاً، ولكن الأخوين لم يقنعا بتنصيبهما وتطلعا إلى اعتلاء العرش[1].

وعندما توفي أورنجزيب أخبر أمير الأمراء أسد خان كافة الأعيان بذلك، وأرسل رسالة مشتركة مع زينت النساء، ابنة أورنجزيب، إلى أعظم يخبرانه فيها بوفاة والده ويدعوانه للحضور فوراً، فلبّى الدعوة، وبعد انتهاء مراسم الدفن أعلن أعظم توليه العرش المغولي خلفاً لوالده، وذلك في (١٠ ذي الحجة ١١١٧هـ/ ٤ نيسان ١٧٠٧م)، وخطب له الشيخ عبد الخالق على المنبر باسم أبي الفائز قطب الدين محمد أعظم شاه غازي[2]، وسط انقسام واضح في صفوف الأمراء. فقد راوغ الأمير غازي الدين فيروز خان جنك، حاكم بيرار، وابنه شين قلج خان لتجنب الاشتراك في احتفالات التنصيب، في حين أن محمد أمين خان عم فيروز جنك والذي هجر كام بخش ورافق أعظم في طريقه إلى الهندوستان، توقف في برهانبور ثم عاد إلى الدكن الأمر الذي أغضب أعظم.

وكان كام بخش في طريقه إلى بيجابور، عندما توفي والده، وعلى رأس قواته محمد أمين خان، وعندما علم بوفاة والده، وكان قد وصل إلى بارندا الواقعة على بعد خمسة وسبعين ميلاً جنوب شرقي أحمد نكر، انفضَّ عنه معظم قادته وعادوا إلى أحمد نكر من دون إذنه لينضموا إلى أعظم، عندئذٍ عزم كام بخش على أن يلحق بأخيه وينضم إليه، لكن ضباطه الذين استمروا على ولائهم له رفضوا ذلك، ولم يتدخل أعظم في شؤون أخيه الذي استقلّ بإقطاعه وأعلن نفسه سلطاناً في بيجابور، وضرب النقود باسمه[3].

كان محمد معظَّم في جمرود، الواقعة على بعد اثني عشر ميلاً غربي بيشاور، عندما علم بوفاة والده، فقرر الذهاب إلى أكرا لاستلام السلطة، وبدءاً من (١٩ محرم ١١١٩هـ/ ٢٢ آذار ١٧٠٧م)، جرى سباق محموم بينه وبين أخيه أعظم، كُلٌّ يريد الوصول إلى العاصمة قبل الآخر للسيطرة عليها واعتلاء العرش. ففي (٢٨ محرم/ ٣١ آذار) وصل معظّم إلى بيشاور بصحبة

(١) Irvine: pp5, 6.

(٢) Ibid: I, pp9, 11-15.

(٣) Sharma: p385.

ولديه، رفيع القدر وكوجستاختار، وعندما وصل إلى بولي شاه دوله، الواقعة على بُعد اثني عشر ميلاً شمالي لاهور، احتفل باعتلائه العرش واتخذ لقب بهادور شاه، وهو اللقب الذي كان والده قد منحه إياه وعُرف به، ثم عبر نهر رافي فوق جسر، في (الأول من صفر/ ٤ أيار)، ودخل لاهور، وانضم إليه فيها ابنه عز الدين قادماً من الملتان، ثم غادر لاهور في اليوم التالي ووصل إلى دلهي في (٢٩ صفر/الأول من حزيران)[1].

وحدث أن غادر أعظم شاه برهانبور في (٢٢ محرم ١١١٩هـ/ ٢٥ نيسان ١٧٠٧م) في طريقه إلى أكرا، وحتى يُسرع في الوصول إليها سلك طريقاً مختصرة لكن مليئة بالعقبات، تخترق باندهار عبر ممر تومري في مقاطعة بوبال، وتعرّض أثناء زحفه لثلاث مشكلات:

الأولى: انسحاب محمد أمين خان بقواته، حيث عاد إلى برهانبور الأمر الذي أغضب أعظم. ويبدو أن سبب الانسحاب مردّه إلى ميل أعظم خان إلى الشيعة حيث أنه سلّمهم خطبة الجمعة، لكن من الصعب تفسير تصرف هذا القائد، والراجح أنه كان يداهن لتحقيق مكاسب شخصية.

الثانية: عانى جيش أعظم شاه من قلة المياه ومن الحرارة المرتفعة.

الثالثة: تعرّض لهجوم القبائل واللصوص وقطاع الطرق.

الأمر الذي أنهك قواه، ولم يتلقَّ حتى هذه اللحظة أي أنباء عن تحرك أخيه معظّم شاه.

وخرج أعظم شاه من سيرونجي إلى غواليار، وعندما وصل إلى سراي إماك، الواقعة على بُعد خمسة عشر ميلاً، تلقّى رسالة من ابنه بيدار بخت عن تحرك الأمير عظيم الشأن ابن معظّم باتجاه أكرا ومحاولته السيطرة على المخاضة التي سيعبر منها الجيش على نهر شامبال، على بعد أربعين ميلاً جنوبي أكرا، والواقع أن عظيم الشأن أرسل قوة عسكرية قوامها سبعة آلاف مقاتل وعدداً من المدفعية بقيادة محتشم خان، نجح في السيطرة على المخاضة وأمّن عبور الجيش إلى أكرا. وحاصر جيش معظّم شاه المدينة، وجرت اشتباكات محدودة مع حاميتها بقيادة مختار خان الذي سرعان ما استسلم بعد أن شعر بعجزه، وانضم إلى جيش السلطان، ودخل السلطان إلى المدينة مع أولاده الثلاثة وسيطر عليها[2].

(١) Irvine: I, pp18-21.

(٢) Ibid: I, pp15-17.

وأرسل معظّم شاه، أثناء مغادرته دلهي في طريقه إلى أكرا، رسالة إلى أخيه أعظم شاه يُذَكِّره بأن والده قسّم أراضي الدولة بين أبنائه الثلاثة، وأعطاه ولايات الدكن الأربع، فإذا كانت حصته لا تكفيه فإنه مستعد لزيادتها حتى يرضى، وعرض عليه منحه الكجرات وأجمير، ولكن أعظم شاه، الذي اتصف بالفظاظة والحقد على أخيه، رفض ذلك وقال متهكماً: «كأن هذا الأبله، يقصد بهادور شاه، لم يقرأ قول سعدي الشيرازي في الغلستان: إن غطاء واحداً يتسع لعشرة فقراء، ولكن مُلكاً واسعاً لا يكفي ملكين»[1].

وإذا كانت العلاقة بين الأخوين على هذا الشكل من الحقد والتنافر كان لا بد من الحرب لتقرير مستقبل كل منهما السياسي. وقرَّر بهادور شاه أن يصطدم بأخيه عند دهلبور جنوبي أكرا، لذلك خرج من المدينة على رأس جيش يقدر بثمانين ألف فارس، وعسكر في قرية جاجو، على بُعد خمسة عشر ميلاً جنوبي أكرا. وعندما علم أعظم بذلك، ترك أحماله الثقيلة وخزائنه وبعض أمراء أسرته في حصن غواليار، وخفَّ مسرعاً لملاقاة أخيه. فعبر نهر شامبال من مخاضة كاينثري، الواقعة على بعد ستة أميال جنوبي دهلبور، وقد بلغ عدد أفراد جيشه خمسة وستين ألف فارس وخمسة وأربعين ألف راجل، وعسكر في مواجهة أخيه. واصطدم الأخوان في رحى معركة طاحنة في (١٧ ربيع الأول ١١١٩هـ/١٨ حزيران ١٧٠٧م)، أسفرت عن انتصار بهادور شاه ومقتل أعظم وابنه الأكبر بيداربخت[2].

وتريَّث بهادور شاه في تصفية موقفه مع أخيه الثاني كام بخش بسبب ثورة الراجبوت، وعندما أخضع هذه الثورة وعاد من أجمير إلى العاصمة، كتب إلى أخيه، الذي بدت منه بوادر الثورة والعصيان في بيجابور، يُذكِّره بوصية والده التي تُلزمه بأن يخطب باسمه ويؤدي إليه المال كل سنة، ولكن كام بخش، الذي اتصف بالتسرع وسوء التدبير، رفض أن يستجيب لأخيه، عندئذٍ كان لا بد من الحرب لتقرير مصير كل منهما. واصطدم الأخوان بالقرب من حيدر آباد بالدكن في (١٢ ذي القعدة ١١٢١هـ/ ١٣ كانون الثاني ١٧٠٩م). وحدث قبل اندلاع القتال أن انفض من حول كام بخش معظم قادته وجنده بسبب سوء

(١) انظر نص الرسالة والرد عليها في: .Irvine: I, pp21, 22

(٢) Irvine: I, pp22-35 حيث تفاصيل مسهبة حول تحركات الطرفين وأحداث المعركة.

معاملته لهم وعدم دفعه مرتباتهم، وخاض المعركة بمن بقي معه من الجند، وعددهم أربعمائة مقاتل، فكان من الطبيعي أن تدور الدائرة عليه، وقد جُرح في المعركة ووقع أسيراً في يد أخيه، كما أُسر أولاده الثلاثة، محيي السنة وفيروزماند وبريق الله، وكان هذا الأخير قد أصيب بسهم، وبادر السلطان بالعناية بهما، غير أنهما رفضا تلقِّي العناية الطبية، وتوفيا متأثرين بجراحهما[1].

وعلى هذا الشكل كان صراع الإخوة، وتفرَّد بهادور شاه بالحكم.

كان من غير المتوقع أن يعطي بهادور شاه دفعاً جديداً لمسيرة الدولة، وعلى الرغم من انفتاحه الديني، بالمقارنة مع تشدُّد والده، فإنه لم يفعل شيئاً على أرض الواقع يثبت هذا الانفتاح، كما أنه انهمك بإخماد ثورات الهندوس، بالإضافة إلى أن تعيينه للقائد منعم خان الشيعي أميراً للأمراء أثار أهل السنة بفعل أنه حاول صبغ الدولة والبلاد والعباد بالصبغة الشيعية، وكادت تكون فتنة لولا آن تداركها السلطان، وأزال ما يشكو منه أهل السنة.

العلاقات مع الإمارات غير الإسلامية

العلاقة مع الراجبوت

كان أشهر حكام الراجبوت، في عهد بهادورشاه، رانا قمر سينغ، أمير أوداي بور، وأجيت سينغ، أمير جدهبور، وراجا جاي سينغ، أمير جاي بور ـ أمبر ـ. والحقيقة أن الراجبوت اضطروا للإخلاد إلى الهدوء أمام قوة أورنجزيب، فلما توفي هذا، ونشبت حرب الوراثة بين ولديه بهادور شاه وأعظم شاه، انتهزوا هذه الفرصة وثاروا على الدولة، وعندما انتهى الصراع بين الأخوين بانتصار الأول استدركوا واقعهم السياسي، وأنهم أعجز من أن يواجهوا قوة المغول العاتية، فمالوا إلى التفاهم معه، على الرغم من المناوشات العسكرية التي نشبت بين الطرفين، ومن جهته عفا السلطان عنهم ومنحهم الألقاب الشرفية.

وأرسل رانا قمر سينغ، أمير أوداي بور، رسالة تهنئة إلى السلطان مع أخيه بخت سينغ بمناسبة اعتلائه العرش بالإضافة إلى الهدايا، وانسحب راجا جاي سينغ، أمير أمبَر، من جيش أعظم وانضم مع جنوده إلى جيش السلطان قبل

(١) Irvine: I pp61-64. Raj, Hans: History of Medieval India: p430.

معركة جاجو، فكافأه السلطان بأن منحه لقب ميرزا راجا عندما دخل إمارته في (١٠ صفر ١١٢٠هـ/الأول من أيار ١٧٠٨م)، وثبّته في إمارته في ظل صراعه مع أخيه بيجاي سينغ. وزحف السلطان بعد ذلك إلى إمارة جدهبور لإخضاعها، وكان أميرها أجيت سينغ قد طرد عمال الدولة منها وحوّل مساجدها إلى معابد للأوثان واضطهد المسلمين، غير أنه ما لبث أن استسلم للسلطان الذي عفا عنه، وأكرمه حين منحه لقب مهراجا، وبعض المناصب العسكرية، وأرسل السلطان إلى إمارات الراجبوت قاضي القضاة لتعيين الخراج وتحصيله[١].

ويبدو أن هذا الخضوع، من جانب أمراء الراجبوت، كان مرحلياً وحدث تحت التهديد العسكري، بدليل أنه عندما زال هذا التهديد بانهماك السلطان في أحداث الجنوب، جدّدوا ثورتهم على الحكم المغولي، وقتلوا قائد قلعة أجمير، سيد حسين خان بارها، فأسرع السلطان إليهم لتأديبهم، إلا أنه لم يتمكّن من إخضاعهم بفعل اندلاع ثورة السيخ في البنجاب وسرهند، فرأى أن من حسن السياسة أن يبرِّد جبهة الراجبوت ليتفرغ لثورة السيخ التي هدَّدت جدِّياً الحكم المغولي، وذلك في (ربيع الآخر ١١٢٢هـ/ حزيران ١٧١٠م)[٢].

العلاقة مع السيخ

بعد الصدامات العسكرية بين المغول والسيخ التي حصلت في عهد أورنجزيب، تحسَّن وضع هؤلاء بعد أن آل الأمر إلى بهادور شاه الذي اتسم حكمه بالتساهل الديني، فأدخل في خدمته مرشدهم وزعيمهم الروحي، غوڤيند، وهو العاشر من زعماء هذه الطائفة، وقد سار معه لحرب كام بخش بالدكن حيث قتل هناك على يد أحد الأفغانيين البطهان في عام (١١٢٠هـ/ ١٧٠٨م)، فاتهم أتباعه المسلمين في قتله، والتفوا حول زعيمهم الجديد باندا، الذي ادعى أن روح غوڤيند انتقلت إليه، وراح يبث الحقد والكراهية في نفوسهم ضد المسلمين تمهيداً لشن الحرب عليهم[٣].

وزحف باندا إلى سرهند على رأس جيش من أتباعه بلغ تعدادهم أربعين ألف مقاتل، وهدفه مهاجمة المدينة والانتقام لمقتل غوڤيند، وابتدأ عملياته

(١) Irvine: I, pp45-50.

(٢) Lane-Poole: Medieval India· pp413, 441.

(٣) Irvine: I, pp89-92.

العسكرية بمهاجمة سادهورا على بعد ستة وعشرين ميلاً شرقي أمبالا حيث كان المسلمون يحتفلون بزيارة ضريح شاه قامس، فاستباح المدينة وقتل كثيراً من سكانها، وعندما سمع وزير خان، حاكم سرهند، بهذا الاعتداء، خرج من المدينة على وجه السرعة على رأس جيش تعداده بين ثلاثة وأربعة آلاف جندي، فتصدى له السيخ في السهل الواقع بين علوان سراي وبانير، على بعد أثني عشر ميلاً شمال شرقي سرهند، وذلك في (٢٤ ربيع الأول ١١٢٢هـ/ ٢٤ أيار ١٧١٠م)، وجرت بينهما رحى معركة ضارية أسفرت عن انتصار واضح للسيخ، وقتل وزير خان في المعركة حيث أصيب بطلق ناري من بندقية. تقدم السيخ بعد ذلك نحو سرهند ودخلوها، ونهبوها مدة أربعة أيام قبل أن يحرقوها، وفرّ الابن الأكبر لوزيرخان منها مع عائلته وتوجّه إلى دلهي، وأجرى السيخ مذبحة مروعة بحق السكان المسلمين والهندوس، وطاردوهم في أزقة المدينة وشوارعها وقتلوهم بوحشية بالغة، من دون تمييز بين الشيوخ والنساء والأطفال[١].

وانتشر أتباع باندا في البنجاب الشرقي، وسيطروا على المناطق الشمالية، فارتكبوا المجازر ونشروا الخراب والدمار حتى لاهور، وكادوا يبلغون دلهي، لولا أن سارع السلطان في التصدي لهم. وصلت أنباء تعديات السيخ على المناطق الإسلامية إلى مسامع السلطان بهادور شاه في (٢ ربيع الآخر ١١٢٢هـ/الأول من حزيران ١٧١٠م)، وكان قريباً من أجمير في طريق عودته من الدكن، فأجرى صلحاً مع الراجبوت للتفرغ لهذه المشكلة الجديدة، فأوعز إلى قادته بتجميع ما تيسر من القوات والخروج، من دون تأخير، إلى أمكنة تواجد السيخ للتصدي لهم، فخرجت الجيوش تباعاً، ثم ذهب السلطان في (٢ رمضان/ ٢٥ تشرين الأول) إلى مدينة سونات، على بُعد ثلاثين ميلاً من دلهي، ثم تقدم نحو مدينة ثانيسار ليكون قريباً من مسرح العمليات العسكرية، وكان قادته قد انتصروا على السيخ في معركة بانيبات وطاردوهم حتى مدينة سرهند، فغادر عندئذٍ ثانيسار إلى سادهورا، على بُعد ثلاثة وستين ميلاً إلى الشمال الشرقي، ووصل إليها في (١٣ شوال/ ٥ كانون الأول)، وفرّ السيخ منها إلى التلال المجاورة للاحتماء بها، فجرَّد عليهم حملة عسكرية بقيادة ابنه عظيم

(١) Irvine. pp93-99.

الشأن انتصرت عليهم وطاردتهم حتى تلال جامو، وحاصرتهم في حصن لوكرة. واستطاع باندا أن يفرَّ من الحصار، في حين تقدم أحد أتباعه المخلصين وسلَّم نفسه على أنه الغورو، حتى يُسهِّل عليه عملية الفرار[١].

استمرت الصدامات مع السيخ فيما تبقَّى من عهد بهادور شاه، ونذكر أنه في (١٤ ذي الحجة ١١٢٣هـ/ ٢٣ كانون الثاني ١٧١٢م)، أي قبل شهر من وفاة السلطان، جرى اشتباك ضار بين القوات المغولية، بقيادة محمد أمين خان، والسيخ لم يسفر عن نتيجة واضحة، غير أن القائد المغولي أرسل إلى السلطان خمسمائة رأس من بين الذين قتلوا في المعركة من السيخ، وعندما توفي السلطان غادر محمد أمين خان الجبهة مع السيخ عائداً إلى المعسكر الملكي، فاستغل باندا هذه الفرصة واستعاد سادهورا ورمَّم حصن لوكرة[٢].

وما لقيه السيخ على أيدي المسلمين في هذه الحرب، وما تلاها من التنكيل والانتقام، كانت سبباً في ازدياد العداء وتجذره في قلوب السيخ ضد هؤلاء.

وفاة بهادور شاه

عاد السلطان بهادور شاه إلى لاهور تاركاً لأمرائه مهمة استكمال إخضاع السيخ، فوصل إليها في (٢٥ جمادى الآخرة ١١٢٣هـ/ ١١ آب ١٧١١م)، وفي (أوائل ذي الحجة/ منتصف كانون الثاني ١٧١٢م) اعتلَّت صحته في الوقت الذي اتخذت فيه الترتيبات اللازمة للاحتفال بجلوسه على العرش، ولكنه لم يتمكن من الحضور، وانتابته نوبات من الوهم، بدليل أنه أمر بقتل الكلاب كافة في معسكره وفي المدينة، فكان يقتل المئات منها في اليوم الواحد. وشوهد لآخر مرة في (١٦ محرم ١١٢٤هـ/ ٢٤ شباط ١٧١٢م) حيث رقد في اليوم التالي، ثم اشتد عليه المرض حتى شعر الجميع بأن لا أمل في شفائه، فاستدعى الأمراء أفراد أسرته ليكونوا إلى جانبه، ولم يتمكن أولاده الأربعة من إخفاء حقدهم وطمعهم في خلافته، وتوفي في (١٩ محرم/ ٢٧ شباط)، وشُغل أولاده، بنزاعاتهم، عن دفنه، حتى نُقلت جثته بعد شهر من وفاته إلى دلهي ودُفن فيها[٣].

(١) Irvine I. pp109-112. (٢) Ibid: pp118-121

(٣) Ibid: pp132-136. Raj: p430. Sharma: p387.

جهاندار شاه

(١١٢٤ ـ ١١٢٥هـ/ ١٧١٢ ـ ١٧١٣م)

الأوضاع العامة في عهده

اندلعت حرب الوراثة، إثر وفاة السلطان بهادور شاه، والتي أضحت عادة غالبة عند أمراء المغول في الهند، إذ لم يكد السلطان يلفظ أنفاسه الأخيرة حتى دبَّت الفوضى في البلاد بفعل التنازع على العرش بين أبنائه الأربعة: عظيم الشأن وجهاندار ورفيع الشأن وجهان شاه.

كان عظيم الشأن الابن الثاني لبهادور شاه، في العشرة أعوام الأخيرة، بعيداً عن والده. ففي عام (١١٠٩هـ/ ١٦٩٧، ١٦٩٨م) عُيِّن حاكماً على البنغال التي أضيف إليها بيهار، في عام (١١١٤هـ/ ١٧٠٢، ١٧٠٣م)، ولم يشاهد أباه مرة أخرى إلا عندما التقيا في أكرا في عام (١١١٩هـ/ ١٧٠٧م)، قبل معركة جاجو وهزيمة أعظم خان. وبرز خلال المدة المذكورة جهاندار شاه، الابن الأكبر لبهادور شاه، وقد مارس الشؤون العامة، لكن كانت علاقته فاترة بأبيه، وقضى معظم حياته حاكماً شبه مستقل على الملتان. وكان الابن الثالث رفيع الشأن هو المفضَّل لدى والده، وقد عمل مستشاراً له لدى إقامته في كابل خلال أعوامه السياسية الأولى، لكن حلّ محله، مع مرور الزمن، الابن الرابع جهان شاه، الذي استبدَّ بالتأثير على والده، وسانده الوزير منعم خان، وفي (شوال ١١٢١هـ/ كانون الأول ١٧٠٩م) حصر السلطان اهتمامه بعظيم الشأن، ويبدو أنه أراد استخلافه بدليل تفرّد هذا بإدارة الشؤون العامة أثناء مرض السلطان.

وكاد الإخوة أن يتفاهموا على اقتسام إرث أبيهم، فيأخذ جهان شاه الدكن، ورفيع الشأن الملتان وكشمير، ويقتسم جهاندار وعظيم الشأن ما تبقى من الأراضي، إلا أن اختلافهم على اقتسام الأموال أفشل مشروع التفاهم، وأتاح للأمراء التدخل بينهم. وعمل أسد خان، قائد الجماعة الإيرانية في البلاط

المغولي، على ضرب بعضهم ببعض حتى يستبد بالشؤون العامة، فأثار أولاً كلاً من جهاندار ورفيع الشأن وجهان شاه ضد أخيهم عظيم الشأن الذي تصاعد نفوذه، ونجح في تكتيلهم ضده.

وعرض ذو الفقار خان خطة على الأمراء المتحالفين، تقضي بتنصيب جهاندار سلطاناً على المغول، ويُخطب له على المنابر وتُسك العملة باسمه، وينقل مقر حكمه إلى دلهي، ويأخذ رفيع الشأن كابل وكشمير والملتان وثاتا وبهاكار، ويكون من نصيب جهان شاه الدكن، من نارمارا إلى جزيرة سيلان، وتُقسم كل أرض تؤخذ من عظيم الشأن بينهم بالتساوي، ويحتفظ ذو الفقار خان بمنصب أمير الأمراء. وفي القتال الذي جرى بين قوى التحالف وقوات عظيم الشأن، تعرّض هذا الأخير للخسارة، وتوفي إثر غرق الفيل، الذي يعتليه، في الرمال المتحركة والطين الثقيل على ضفاف نهر رافي، بعد فراره من أرض المعركة، وفرّ قائده أمين الدين إلى لاهور، وذلك في (صفر ١١٢٤هـ/ آذار ١٧١٢م)[١].

التفت جهاندار بعد ذلك إلى تصفية أخويه بتشجيع من ذي الفقار خان، فاصطدم أولاً بجهان شاه وتغلب عليه وقتله، ثم قاتل أخاه الآخر رفيع الشأن وقتله أيضاً، وتفرّد بالحكم[٢].

لم يكن السلطان جهاندار على قدر المسؤولية التي ألقيت على عاتقه، فانصرف إلى اللهو والمتعة تاركاً إدارة الشؤون العامة في يد وزيره ذو الفقار خان، وجلب العار على جميع طبقات رعيته بفسقه المكشوف، ولم يتورع عن الاستسلام لمحظيته لال كنور، وهي راقصة هندية، وقد ملأت مناصب الدولة بأقاربها، وأدّى عبثه ومجونه إلى إفراغ الخزينة وانحدار الاقتصاد إلى الهاوية[٣].

وبرهن ذو الفقار خان، خلال إدارته حكم البلاد، عن لباقة وكياسة تجاه الهندوس، فألغى الجزية المفروضة عليهم واستقطب الراجبوت والجات، وعيّن زعماؤهم في مناصب رفيعة، أمثال جاي سينغ، أمير أمبر، وأجيت سينغ، وسيفاجي الثاني بن طراباي، وعفا عن زعيم الجات شورمن، الذي حارب إلى جانب عظيم الشأن، ومنحه منصباً رفيعاً في الجيش[٤].

---

(١) انظر فيما يتعلق بالأحداث التي تلت وفاة السلطان بهادور شاه مباشرة: Irvine. I, pp158-177.

(٢) خافي خان: ص٤٣٨.

(٣) Raj: p431.

(٤) Sharma: pp387, 388.

وكان فروخ سير بن عظيم الشأن في البنغال عندما علم بوفاة جده بهادور شاه، فأعلن عن خلافة والده وأمر بسك النقود باسمه والخطبة له، ولم يشأ أن يتجاوز هذه الخطوة. وفي (٢٩ صفر ١١٢٤هـ/ ٦ نيسان ١٧١٢م) تناهى إلى أسماعه خبر مقتل والده، فوهنت عزيمته وعزم على مغادرة البنغال عن طريق البحر لولا أن تدخّلت والدته، التي اتصفت بالشجاعة وحسن السياسة، وقد شجّعته على مواجهة الموقف بثبات والأخذ بثأر والده، ولم يكن تحت تصرفه آنذاك أكثر من أربعمائة مقاتل، فذهب إلى بتنا وعسكر قرب حديقة جعفر خان، الواقعة في شرقي المدينة، وقد أمل في التفاف أمراء أبيه حوله، لكن هؤلاء انضموا إلى السلطان جهاندار، ولما كان بحاجة إلى قوة عسكرية تساندة في مهمته، استقطب الشريف سيد حسين علي، حاكم بيهار، وأخيه سيد حسن علي، عبد الله فيما بعد، حاكم الله آباد[١].

وانطلقت القوات المتحالفة، في (شعبان ١١٢٤هـ/ أيلول ١٧١٢م)، من بتنا في طريقها إلى أكرا وقد بلغ عديدها خمسة وعشرين ألف مقاتل، وعندما علم السلطان بهذا الزحف أمر ابنه أعز الدين بالخروج من أكرا للتصدي لهذه القوات. تلقّى هذا الأمير أمر والده بشيء من التردد والإحجام، فقد اتصف بالجبن، ولم يكن على وفاق مع محظية والده لال كنور، وعندما خرج فعلاً عانى من الخيانة داخل قواته، فقد انحاز بعض ضباطه إلى جانب قوى التحالف الأمر الذي سوف يؤدي إلى كارثة، على الرَغم من تفوق عدد قواته التي وصلت إلى خمسين ألفاً وعدد كبير من المدفعية. ووصل في (شوال ١١٢٤هـ/ تشرين الثاني ١٧١٢م) إلى كجرا ـ خاجوة ـ، التي شهدت صراع أورنجزيب وشجاع على العرش من قبل، وتمركز خلف خندق يبلغ عرضه خمسة عشر قدماً وعمقه عشرة أقدام، بحيث يتعذر على أية قوة اجتيازه[٢].

وتابع فروخ سير تقدمه في غضون ذلك حتى وصل إلى مكان تمركز عدوه، فعبأ قواته استعداداً للدخول في معركة. وجرى ضرب معسكر أعز الدين بالمدافع، وما حدث خلال الليل من فرار أعز الدين مع عائلته، بعد أن خشي الدخول في معركة، عائداً إلى أكرا؛ أدّى إلى اجتياح معسكره من جانب عدوه ونهبه[٣].

---

(١) Irvine: I, pp198, 199.

(٢) Ibid: pp210-218.

(٣) Ibid. Sharma: pp388, 389.

وقرَّر جهاندار الخروج بنفسه من دلهي للتصدي لجيش فروخ سير الذي كان يتقدم نحو أكرا، بعد انتصاره على أعز الدين. وجرى اللقاء بين الطرفين في (١٣ ذي الحجة ١١٢٤هـ/ كانون الثاني ١٧١٣م) في سموكرة بالقرب من أكرا. وكسب السلطان الجولة الأولى من المعركة، وبدا واضحاً أن النصر سيكون حليفه، وبخاصة أن فروخ سير خسر كثيراً من ضباطه وأمرائه، وفرَّ معظم جنوده ولم يبق معه سوى ستة آلاف جندي، وحتى هؤلاء يئسوا من القتال وراحوا ينتهزون الفرصة للفرار.

لكن تغير فجأة وجه المعركة، إذ في غمرة اشتداد القتال أصيب الفيل الذي يحمل السلطان بعدة أسهم وجُرح في وجهه، فخرج عن السيطرة وراح يندفع في هذا الاتجاه وذاك، يقتل كل من يصادفه في طريقه، فدب الذعر في صفوف الجند وفرّت الخيل بفرسانها في كل اتجاه، كما فرّ حرس السلطان، ودبَّت الفوضى في الجيش السلطاني، واضطر السلطان نفسه أن يفر من أرض المعركة وعاد إلى دلهي، ووصل إليها في (١٨ ذي الحجة ١١٢٤هـ/ ١٦ كانون الثاني ١٧١٣م)، وكان ذو الفقار خان قد سبقه إليها بيوم واحد فاراً هو الآخر من أرض المعركة. وفي (٢٢ ذي الحجة/ ٢٠ كانون الثاني)، وقبل أن يصل الأمير المنتصر، عمد السكان إلى إقامة الخطبة باسمه.

أمضى فروخ سير الليل، بعد انتصاره في ساحة القتال، يحيط به الأمراء والسادة، فشكرهم على تعاونهم، وانضم إليه بعض أمراء جهاندار. وكتب في الصباح إلى أعوانه الأمراء في دلهي يأمرهم بالقبض على جهاندار أينما وُجد. وفي (٢٥ ذي الحجة/ ٢٣ كانون الثاني) بدأ الرحلة إلى دلهي، ووصل إليها في (١٤ محرم ١١٢٥هـ/ ١٠ شباط ١٧١٣م)، وكان قد سبقه إليها سيد عبد الله خان وأخوه سيد حسين علي خان، فقبض على ذو الفقار خان، وزير جهاندار شاه، وقتله في (١٦ محرم/ ١٢ شباط)، كما قبض على السلطان بعد أن انتزعه من أيدي لال كنور التي كانت تدافع عنه، وراحت تصرخ، ولما حاول الأشخاص الموكلين بقتله أن يخنقوه، لم يمت، عندئذٍ ضربوه بأكعاب الأحذية على رأسه فقضى نحبه، وقطع محمد يار خان رأسه ووضعه على طبق وأرسله إلى السلطان فروخ سير، ورمى جثته على مهاد من القش(١).

(١) خافي خان: ص٤٣٨. Irvine: I, pp210-240.

فروخ سير

(١١٢٥ ـ ١١٣١هـ/ ١٧١٣ ـ ١٧١٩م)

الأوضاع العامة في عهده

جلس فروخ سير على عرش المغول في دلهي. في (محرم ١١٢٥هـ/ شباط ١٧١٣م)، بعد أن طاف موكبه في المدينة تتقدمه الفيلة، وعليها جثتا عمه جهاندار شاه ووزيره ذو الفقار خان.

كان أول إجراء اتخذه أنه طهَّر بلاطه من حاشية السلطان السابق وانتقم من أعوانه، ثم منح الألقاب لأتباعه وملأ مناصب الدولة بهم، فكان للسيدين الشريفين الأخوين عبد الله خان وحسين علي خان النصيب الأكبر، اعترافاً بفضلهما، فلقَّب عبد الله خان بلقب قطب الملك يمين الدولة سيد عبد الله خان بهادور ظفر جنك، وعيّنه رئيساً للوزراء. ونذكر من بين التعيينات الأخرى، تعيين محمد بكير معتمد خان وزيراً للخزانة، والسيد حسين علي خان أميراً للأمراء، ومنحه لقب عمدة الملك، كما عيّن حكام الولايات، فعين ناصر خان على كابل، وسادات خان حاكماً على كشمير، ومنح الملتان لقطب الملك، وأبقى محمد يار خان حاكماً على دلهي، وعيّن السيد مظفر خان بارها حاكماً على أجمير(١).

وأطلق السلطان يد السادات الأشراف يتصرفون في إدارة الدولة وفق رغباتهم، فكان من الطبيعي أن يصبح الأمر كله في أيديهم، فاستغلوا مناصبهم ونفوذهم وحاولوا الإحاطة به وجعله ألعوبة في أيديهم، كما راحوا يضايقون الأمراء الذين يعارضون توجهاتهم السياسية، وشعر السلطان بذلك، فعمل على تحجيم طموحاتهم، فقرِّب الأمراء المعارضين لهم. من ذلك، فقد قرّب

(١) الساداتي: ص٣٦٠. Sharma: p389.

القاضي عبد الله الخراساني ومنحه لقب ميرجملة خان خانان، كما منح الأمير قليج خان بهادور لقب نظام الملك فتح جنك، وكان كلاهما يكرهان السادات، فعمل الأخوان، عبد الله خان وحسين علي خان، على إبعادهما، وضغطا على السلطان من أجل ذلك، ويبدو أنه وقع تحت تأثيرهما، فعيَّن القاضي عبد الله والياً على عظيم آباد، وأبعد نظام الملك بأن عيّنه والياً على الدكن، غير أن السلطان عزله بعد ذلك بناء على رغبة حسين علي خان وعيَّنه بدلاً منه[١].

وحدث أن ثار الراجبوت، بقيادة راجا أجيت سينغ، منتهزين فرصة النزاعات الداخلية في دولة المغول وأعلنوا استقلالهم، فاستغل السلطان هذه الفرصة لإضعاف نفوذ السادات من واقع التفرقة بين الأخوين، عبد الله خان وحسين علي خان، فأمر الثاني بالخروج على رأس الجيش لقمع الثورة، وفعلاً خرج من دلهي في (٢٠ ذي الحجة ١١٢٥هـ/ ٧ كانون الثاني ١٧١٤م). ويبدو أن أجيت سينغ خشي الدخول في معركة سافرة مع الجيش المغولي، وتراجع أمامه من قرية إلى قرية حتى دخل الصحراء، واجتاح المغول المدن والقرى الراجبوتية حول أجمير ومايرثا وأحرقوها، وفرّ سكان جدهبور خشية القتل[٢].

وفي الوقت الذي كان فيه حسين علي خان يحارب الراجبوت، كان السلطان يشدّد على أخيه عبد الله خان، فرقّى كلاً من مير جملة خان وداود خان حاكم الكجرات إلى رتبة سبعة آلاف حصان، ودفعهما لمواجهته، فأرسل كتاباً إلى أخيه حسين يشرح له الموقف ويطلب منه العودة فوراً، فرأى هذا أن يعقد الصلح مع الراجا ويعفو عنه مقابل أن يمده بفرقة عسكرية بقيادة ابنه أبهاي سينغ ترافقه إلى دلهي، على أن يذهب بنفسه إذا اقتضى الأمر، ثم أرسل معظم الجيش إلى دلهي وبقي مدة شهرين في أجمير لإقرار أوضاعها، عاد بعدها إلى دلهي فوصل إليها في (٥ رجب ١١٢٦هـ/ ١٧ تموز ١٧١٤م)[٣].

وطلب الأخوان من السلطان أن يُبعد مير جملة خان من القصر ويوليه على

(١) Irvine: I, pp258, 259.
(٢) Ibid: pp285-289.
(٣) Ibid: pp289, 290.

بيهار، وأن يعهد إلى حسين علي خان بحكم الدكن، وأن يجرِّد لطف الله خان صادق من رتبته، بوصفه العقل المدبر للمؤامرة، فوافق على طلبهما، إذ لم يكن باستطاعته سوى القبول، لكنه أرسل سراً إلى داود، حاكم أحمد آباد، في الكجرات أن يتربص في طريق حسين علي خان ويقضي عليه، وفي المعركة التي جرت بين الرجلين قرب برهانبور في (٨ رمضان ١١٢٧هـ/ ٧ أيلول ١٧١٥م) قُتل داود خان، وأضحى حسين علي خان سيد الدكن، فأخذ في تقريب السادات وتوليتهم المناصب[١].

وجدَّد السيخ ثورتهم في عام (١١٢٥هـ/ ١٧١٣م)، وكان زعيمهم باندا قد وحَّد صفوفهم، وتحصَّن في سادهورا في البنجاب، وراح ينطلق منها ليهاجم المناطق الشمالية لهذا الإقليم، فاعتدوا كعادتهم على المساجد والمقابر، وقتلوا آلافاً من المسلمين والهندوس من دون تفرقة بين الشبان والشيوخ والنساء والأطفال وحتى الرضع، كما نهبوا البيوت ودمّروها، فنهض السلطان للتصدي لهم، فعين في (محرم ١١٢٥هـ/ شباط ١٧١٣م) عبد الصمد خان حاكماً على لاهور، كما عيَّن ابنه زكريا خان حاكماً على جاجو وأمرهما بالقضاء على باندا أو طرده من سادهورا. وجرت بين الطرفين معارك عدة أسفرت عن انهزام السيخ الذين فروا إلى حصونهم للاحتماء بها، وتعقبهم عبد الصمد خان وابنه، وتحصَّن باندا في قلعة غورداسبور، فحاصره المغول مدة شهرين حتى نفدت المؤن، فعرض الاستسلام مقابل بعض الشروط، فرفض عبد الصمد خان ذلك وشدَّد حصاره، فتضايق المحاصَرون، فأكلوا لحاء الأشجار وأوراقها وطحنوا عظام الحيوانات واستعملوها بدل الطحين، واضطروا أخيراً إلى الاستسلام من دون قيد أو شرط. وقُبض على باندا وأتباعه، وسيقوا أسارى إلى دلهي حيث طيف بهم في شوارعها تشهيراً بهم قبل أن يتعرضوا للقتل، فكان يُقتل بضع مئات منهم كل يوم ولمدة أسبوع حتى فنوا عن آخرهم، وأُجبر باندا على قتل ابنه بيده قبل أن يُقتل هو نفسه في (٢٩ جمادى الآخرة ١١٢٨هـ/ ٢٠ حزيران ١٧١٦م)، وعلى هذا الشكل كان انتقام السلطان من باندا وأتباعه لاعتدائهم على الناس وقتلهم آلاف الأبرياء، وركن السيخ بعد هذه الحادثة إلى الهدوء بضع سنين، وتناقلوا هذه الموقعة على مر

(١) Irvine: I, pp299-303.

السنين يروونها لأبنائهم ليثيروا فيهم الحفيظة على المسلمين، لذا كان من الطبيعي أن نجدهم من أشد الناس عداوة لهم[١].

وتجدَّد الخلاف في هذا الوقت بين السلطان وبين السادات واتخذ مظهراً أكثر حدة، وكان لذلك علاقة بافتضاح مؤامرة السلطان التي حاكها مع داود خان بعد أن كشفت رسائل عدة متبادلة بين الرجلين بشأن هذه المؤامرة، وعندما استدعى عبد الله خان أخاه حسين علي خان من الدكن لمواجهة الموقف معاً، وكان يحارب المهرات الذين أثاروا السكان بما فرضوه عليهم من ربع المكوس المقررة مقابل عدم تعرضهم لهم، هادن هؤلاء ووافق على أن يمنحهم ثلث خراج الدكن كله، وعاد إلى دلهي مصطحباً فرقة عسكرية منهم لمساعدته، فانزعج السلطان من ذلك وضاق ذرعاً بوزيره عبد الله، غير أنه تردَّد في اتخاذ أي إجراء بحقه وبحق أخيه كما لم يتصدَّ للمهرات، ويبدو أنه خشي من قوة السادات التي تدعَّمت بقوة هؤلاء، أو أنه كان جباناً، غير أن الضربة جاءت من السكان الذين ثاروا ضد المهرات وطاردوهم في الشوارع وجرّدوهم من ملابسهم وأسلحتهم، ففرَّ هؤلاء هلعين، ولم يستغل السلطان هذه الفرصة ليسدِّد الضربة القاضية للسادات، معتمداً على جنوده وعلى القوى الشعبية، مبرهناً عن قصر نظر في الحقل السياسي، واستغلها السادات الذين هاجموا القصر السلطاني، فقبضوا على السلطان، وسملوا عينيه وسجنوه، ثم قتلوه في (٩ جمادى الآخرة ١١٣١هـ/ ٢٩ نيسان ١٧١٩م)[٢].

(١) خافي خان: ص٤٥٨. Irvine: I, pp307-319. Sharma: pp289, 290.

(٢) الساداتي: ص٣٦١. Irvine: I, pp381-393.

رفيع الدرجات

(١١٣١هـ/ ١٧١٩م)

نصَّب السادات، بعد القبض على السلطان فروخ سير، رفيع الدرجات، ابن رفيع الشأن وحفيد بهادور شاه، سلطاناً على عرش المغول، وكان فتى في العشرين من عمره، فاتخذ لقب أبو البركات سلطان شمس الدين محمد رفيع الدرجات غازي خان[١].

كان أول إجراء اتخذه السلطان الجديد أنه ألغى الجزية عن الهندوس، وأجرى بعض التغييرات في المناصب الإدارية والعسكرية بما يتوافق مع توجهات العهد الجديد، ثم أطلق أيدي السادات في التصرف في الشؤون العامة، فاستغل الأخوان عبد الله خان وحسين علي خان هذا الامتياز فملآ مناصب الدولة بأتباعهما، وأخذا يولِّيان الوزراء وحكام الولايات ويعزلانهم وفقاً لأهوائهما، ونشرا جنودهما في أنحاء القصر، فأحاطا بالسلطان الذي أضحى ألعوبة في أيديهما، ويتصرف وفق توجهاتهما، وكان نادراً ما يخرج من القصر[٢].

كان السلطان رفيع الدرجات مريضاً مدمناً على تعاطي الأفيون، وكانت صحته تتدهور يوماً بعد يوم، وعندما شعر بدنو أجله أخبر الشريفين الأخوين، عبد الله خان وحسين علي خان، بأنه إذا رفعا أخاه رفيع الدولة على العرش مكانه فإنه سيموت مسروراً، فلبيا رغبته. وهكذا تم عزله في (١٧ رجب ١١٣١هـ/ ٥ حزيران ١٧١٩م)، وبعد يومين جرى تنصيب أخيه رفيع الدولة سلطاناً على المغول في دلهي، وتوفي رفيع الدرجات في (٢٤ رجب/ ١٢ حزيران)[٣].

(١) Irvine: I, p404. Raj: p431. الساداتي: ص٣٦١. (٢) Irvine: I, p404.

(٣) Irvine: I, pp417, 418, 420. Sharma: p390.

رفيع الدولة

(١١٣١هـ/١٧١٩م)

تولى رفيع الدولة العرش المغولي في دلهي، وكان يكبر أخاه المتوفى بثمانية عشر شهراً، واتخذ لقب شاه جهان الثاني، انتهج نهج أخيه في علاقته مع السادات، حيث أطلق يد الأخوين عبد الله خان وحسين علي خان يتصرفان في إدارة الشؤون العامة، فكان مثل أخيه ألعوبة في أيديهما يتحكمان في تصرفاته ويتحرك من خلالهما.

وشهد عهد رفيع الدولة اضطرابات سياسية بفعل قيام معارضة لحكمه ضد استبداد السادات بشؤون الدولة، فقد ثار سكان أكرا ونصّبوا سلطاناً آخر، هو نيكوسير ابن محمد أكبر، الابن الرابع لعالمكير، بعد أن أخرجوه من السجن[1]، وقد سانده راجا جاي سينغ، حاكم أمبر، وراجا شابيلا رام، حاكم الله آباد، ونواب نظام الملك، حاكم مالوة الجديد، وذلك بفعل عدائهم للشريفين الأخوين، فقرر السادات إخضاع هذه الثورة.

وخرج حسين علي خان من دلهي في (٦ شعبان ١١٣١هـ/ ٢٤ حزيران ١٧١٩م) على رأس قوة عسكرية متوجهاً إلى أكرا لإخماد الثورة، واصطحب معه عدداً من الأمراء، أمثال أمين خان وصمصام الدولة خان دوران وظفرخان وغيرهم. وفي المقابل تعرّض نيكوسير لنكسة داخلية، فقد خرج راجا جاي سينغ من أمبر على رأس عشرة آلاف جندي باتجاه أكرا لنجدة سلطانها، وعسكر على بُعد مرحلة ينتظر وصول شابيلا رام على رأس قواته، لكن هذا كان لا يزال منهمكاً في حرب الثائر جسان سينغ، حاكم كالبي، كما لم يبد نظام الملك اهتماماً جدياً بالاشتراك بحملة الدفاع عن أكرا، فاضطر نيكوسير

(١) كان والد نيكوسير، محمد أكبر، قد هرب من معسكر والده عالمكير وانضم إلى الثوار الراثور، فقبض عالمكير على أسرته، ومن بينهم نيكوسير، وزجهم في السجن في أكبر آباد.

إلى الدفاع منفرداً عن المدينة التي تعرّضت لحصار محكم من قبل حسين علي خان، وضرب هذا المدينة بالمدافع ومنع دخول المؤن إليها، وعانى المحاصَرون من وطأة الحصار، واضطروا أخيراً إلى الاستسلام، وذلك في (٧ رمضان ١١٣١هـ/ ٢٥ تموز ١٧١٩م)، وقُبض على نيكوسير وأرسل إلى دلهي حيث سُجن، وتُوفي في سجنه في (٦ رجب ١١٣٥هـ/ ١٣ نيسان ١٧٢٣م)[1].

وكان رفيع الدولة مريضا مثل أخيه ومدمناً على الأفيون، وأُصيب في أواخر حياته بمرض الإسهال ما أدى إلى تدهور صحته، وعجز الأطباء عن معالجته. وتوفي في بيديابور في (٤ أو ٥ ذي القعدة ١١٣١هـ/ ١٨ أو ١٩ أيلول ١٧١٩م) بعد أن حكم مدة أربعة أشهر وستة عشر يوماً[2].

(١) Irvine: I, pp408-413.

(٢) Sharma: p390 Raj: p432.

محمد شاه

(١١٣١ ـ ١١٦١هـ/ ١٧١٩ ـ ١٧٤٨م)

اعتلاء محمد شاه العرش

خشي السادات، بعد وفاة رفيع الدولة، من تدهور الموقف وإفلاته من أيديهم بسبب الفوضى التي كانت تضرب البلاد نتيجة الصراعات الداخلية، فأسرعوا في اختيار خلف له، فاختاروا الأمير روشن أختر، حفيد بهادور شاه، فرفعوه على العرش في بيديابور في (١٥ ذي الحجة ١١٣١هـ/ ٢٩ أيلول ١٧١٩م)، واتخذ لقب أبو الفتح ناصر الدين محمد شاه غازي، وكان شاباً في الثامنة عشرة من عمره، فضربت النقود باسمه وخُطب له على المنابر[1].

القضاء على السادات

هوى السادات المستبدون بدولة المغول في الهند بعد مرور عام واحد على اعتلاء محمد شاه العرش، وقد خلق سلوكهم السياسي طبقة من الأمراء معادية لهم، بالإضافة إلى الهيئة الحاكمة، فحاول السلطان محمد شاه تدميرهم والقضاء عليهم، وقد شعروا بذلك وأدركوا أن لهم بعض الخصوم الأقوياء الذين لا بد من القضاء عليهم، لعل أبرزهم نظام الملك، الذي ساءه إزاحته عن حاكمية الدكن ليسيطر حسين علي شاه عليها، فهاجم خانديش، وكانت تابعة لحسين علي شاه، فاستولى على حصن أسيرغاره، الواقع على بُعد خمسة وأربعين ميلاً إلى الجنوب من نرمادا والقريب من برهانبور، وذلك في (١٣ رجب ١١٣٢هـ/ ٢١ أيار ١٧٢٠م) وأسر حاكمه، أبا طالب خان، وأودعه السجن، ثم تقدم إلى برهانبور بعد أن عبر نهر نرمادا وعسكر في لال باغ، فاستولى على المدينة وخضع له السكان والأميران أنور خان ونور الله خان،

(١) Irvine: II, pp1, 2.

فأضحى موقفه قوياً، واصطدم بعد ذلك بجيش السادات، بقيادة سيد ديلاور علي خان، عند قرية بندهار بين برهانبور وبرمادا في (١٣ شعبان/ ٢٠ حزيران)، وانتصر عليه، وقُتل سيد ديلاور علي خان في المعركة وتفرق جيشه، وقُتل معه عدد من الأمراء السادات أمثال سيد شيرخان[1].

ارتاع عبد الله خان وأخوه حسين علي خان عندما علما بالكارثة التي حلّت بجيشيهما، فقد فشلا في القضاء على نظام الملك وفَقَدا خيرة ضباطهما وجنودهما في المعركة، وأحاط الخطر بأسرة حسين علي خان، وهي على وشك الوقوع في يد المنتصر، والمعروف أن هذا السيد قد تركها في أورانج آباد عندما غادر الدكن؛ لكنهما تحركا على وجه السرعة كي لا يعطيا خصمهما فرصة استثمار انتصاره، فجهزا جيشاً ودفعا به إلى الميدان بقيادة عالم علي خان، اصطدم بجيش نظام الملك في بالابور في (٦ شوال/الأول من أيلول)، غير أنه تعرّض للهزيمة، وأصيب عالم علي خان في المعركة وقُتل، وتفرّق جيشه، وانضم عدد من أمرائه إلى نظام الملك، كما انضم إليه مبارز خان، حاكم حيدر آباد، وأخوه ديلاور خان، وكانا على وشك الانضمام إلى جيش عالم علي خان ولكنهما عندما علما بنتيجة المعركة فضّلا الانضمام إلى المنتصر[2].

ارتبك الشريفان الأخوان عندما سمعا بأنباء الكارثة الجديدة، حتى أن عبد الله خان لم يستطع، من شدة ارتباكه وتأثره، قراءة الرسالة التي أُرسلت له والتي تتضمَّن هذه الأنباء، وقرَّرا تجهيز حملة أخرى بقيادة حسين علي خان وإرسالها إلى الدكن لتأديب نظام الملك، واصطحب حسين معه السلطان محمد شاه، ويبدو أنه كان واثقاً من نفسه ومن قدرته على هزيمة خصمه، وبخاصة بعد أن استقطب الراجات وطلب مساعدة عاجلة من السادات في أفغانستان، وكان يأمل بحشد مائة ألف جندي، غير أنه لم يتمكَّن من تجنيد أكثر من خمسين ألفاً[3].

وتعرّض حسين علي خان، خلال رحلته من دلهي إلى الدكن، لمؤامرة تزعمها محمد أمين خان، ابن عم نظام الملك، وحيدر قولي خان وكانا من ضمن عداد جيشه، واشتركت فيها والدة السلطان، قدسية بيكم، ولم يكن

(١) Sharma: pp390, 391

(٢) Irvine: II, pp47-50.

(٣) Ibid: pp51-53.

السلطان نفسه بعيداً عن أجوائها، وتمَّ اغتياله صباح (٦ ذي الحجة/ ٩ تشرين الأول)[1].

عندما وصل نبأ الاغتيال إلى عبد الله خان، وكان في سراي شاث الواقعة على بُعد أربعة وستين ميلاً من دلهي، لم يفكر سوى بالانتقام، فأسرع بالعودة إلى العاصمة ليجهز جيشاً من أجل ذلك، ويعيد الثقة إلى نفوس أتباعه.

كان الجيش السلطاني آنذاك على بُعد مائة وثمان وعشرين ميلاً من دلهي، فرأى القادة أن متابعة التحرك نحو الدكن أضحى غير ذي معنى بعد الأحداث المستجدة، ولا بد من العودة نحو الشمال لمواجهة هجوم محتمل من جانب عبد الله خان انطلاقاً من دلهي، وانضمت إليهم القوة البنغالية التي كان حسين علي خان قد طلبها، بالإضافة إلى حكام الولايات المعادين للسادات، أمثال حاكم الله آباد وعبد الصمد حاكم لاهور وبايزيد خان ميواني، وهو أحد الأمراء الأقوياء، وبعض الأمراء الراجبوت.

وعمد عبد الله خان إلى اتخاذ إجرائين قبل أن يستأنف رحلته إلى دلهي:

الأول: كتب رسالة تذمر إلى السلطان صاغها بأسلوب مهذب، وطلب منه القصاص من القتلة كي يبرهن أنه لم يشترك معهم. فأجابه السلطان برسالة جوابية عبَّر فيها عن حزنه وأسفه، وأقسم أنه لا علم له بالمؤامرة، ويبدو أن عبد الله خان لم يقتنع بجواب السلطان حيث علم بأنه يأوي جماعة القتلة، وهدّد بعزله.

الثاني: كتب إلى أخيه نجم الدين علي خان في دلهي بإخراج الأمير محمد إبراهيم بن رفيع الشأن من السجن وتنصيبه سلطاناً على المغول. وفعلاً نصِّب هذا الأمير سلطاناً في (١٥ ذي الحجة/ ١٨ تشرين الأول) واتخذ لقب أبو الفتح ظهير الدين محمد إبراهيم، وضُربت النقود باسمه وخطب له على المنابر، وهو أخو السلطانين السابقين رفيع الدرجات ورفيع الدولة.

ووصل عبد الله خان بعد ذلك بيومين، فداهم فوراً منزل محمد أمين خان، ويبدو أن أتباعه قد علموا مبكراً بمحاولة القتل فاستعدوا لمواجهة التطورات، وفشل عبد الله في اتخاذ أي إجراء بحقهم وسحب قواته، ثم حدث أن انتشر خبر الاغتيال في كافة أنحاء المدينة.

(١) Irvine: II, pp56-66.

وخرج عبد الله خان على رأس الجيش مع السلطان محمد إبراهيم متوجهين نحو الجنوب لحرب السلطان محمد شاه، وعسكرا قريباً من حسن بور - بيلو شبور - على الضفة اليمنى لنهر جمنة بين دلهي وأكرا، ثم وصل السلطان محمد شاه وعسكر عند بيلوشبور على الضفة نفسها وعلى بعد ستة أميال. ونشب القتال بين الطرفين صباح يوم الأربعاء في (١٣ محرم ١١٣٣هـ/ ١٤ تشرين الثاني ١٧٢٠م) واستمر مدة يومين، وأسفر عن انتصار السلطان محمد شاه، ووقع الأخوان عبد الله خان ونجم الدين علي خان في الأسر، وفرّ السلطان محمد إبراهيم من أرض المعركة ليقع أسيراً بعد ذلك في قبضة حيدر قولي خان وظفر خان وقمر الدين خان، وعاد المنتصرون إلى دلهي ومعهم الأسرى، وظل عبد الله خان في السجن مدة عامين عومل خلالهما معاملة طيبة قبل أن يتوفى بالسم الذي وُضع في طعامه في (الأول من محرم ١١٣٥هـ/ ١٢ تشرين الأول ١٧٢٢م). وعلى هذا الشكل انتهت سيطرة الأشراف، وتخلص السلطان من استبدادهم وتسلطهم واستعاد نفوذه كاملاً[1].

استقلال نظام الملك في الدكن

عاد السلطان محمد شاه بعد المعركة إلى دلهي، فاستقبل المهنئين، وكان من بينهم راجا جاي سينغ وأمراء الولايات، وأجرى تعيينات إدارية جديدة، من ذلك: عيّن معز الدين صدر قولي حاكماً على أحمد آباد، وزكريا خان بن عبد الصمد على كشمير، ومحمد خان بنغاش على الله آباد، وكافأ سعادت خان، حاكم بيانا الذي اشترك في التخطيط لاغتيال حسين علي خان، بأن عيَّنه حاكماً على أكرا، وألغى الجزية المفروضة على الهندوس. وحدث في (٢٨ ربيع الأول ١١٣٣هـ/ ٢٧ كانون الثاني ١٧٢١م) أن توفي محمد أمين خان. المرشح لاستلام منصب الوزير، فاستدعى السلطان نظام الملك من الدكن وأنعم عليه بلقب آصف خان، وعيَّنه وزيراً في (٤ جمادى الأولى ١١٣٤هـ/ ٢٠ شباط ١٧٢٢م).

واجه نظام الملك صعاباً عدة في ممارسة عمله السياسي، إذ إن السلطان محمد شاه كان رجلاً ضعيف الإرادة، عابثاً منهمكاً بلهوه، أحاط نفسه بعصبة ماجنة وراح ينقاد لمشورتها، كما وقع تحت تأثير المرأة الذكية كوكي، ابنة محمد خان، وهي أخته بالرضاعة. وكانت توجهات الوزير الإصلاحية،

(١) انظر: إرفين، حيث تفاصيل مسهبة: The Later Mughals: II, pp82-96.

للمحافظة على الدولة من التدهور، كبيرة، وتتلخّص بوقف منح الإقطاعات الذي يُسبِّب الظلم للشعب ويحرم الخزينة من الواردات، ومنع تقديم الهدايا للسلاطين والأمراء، لما يترتب على ذلك من فساد جهاز الدولة، ووجوب إعادة فرض الجزية، ومساعدة إيران في حربها ضد الأفغان، كرد جميل بفعل مساعدتها لهمايون من قبل، لكن هذه المشاريع الإصلاحية لم تجد طريقها إلى التنفيذ العملي بفعل معارضة الحاشية، التي لم يكن يهمها من الأمر سوى اللهو ومجالس الشراب مع السلطان، وراحت تتهكم على نظام الملك وإصلاحاته واتخذوها مادة للسخرية، الأمر الذي دفعه إلى مغادرة العاصمة إلى إقطاعه في الدكن. وإذا علمنا أن حكمه هناك قد تعرض للخطر بفعل هجمات المهرات ومؤامرات رجال القصر، الذين أوعزوا إلى الأمير مبارز خان في حيدرآباد بأن يهاجم أورانج آباد عاصمة الدكن؛ كانت عودته ضرورية لمواجهة الموقف، وقد وصل إلى العاصمة في (رمضان ١١٣٦هـ/ حزيران ١٧٢٤م). واصطدم الرجلان في شكر كيرا، على بُعد ثمانين ميلاً من أورانج آباد في (٢٣ محرم ١١٣٧هـ/ ١٢ تشرين الأول ١٧٢٤م)، وأسفر القتال عن انتصار نظام الملك، وقُتل مبارز خان في المعركة مع أركان حربه. وعاد المنتصر إلى أورانج آباد بعد أربعة أيام، وعلم، وهو فيها، بثورة خواجة أحمد خان بن مبارز خان، وقد تحصّن في قلعة محمد نكر القريبة من العاصمة، فاتخذ نظام الملك إجراءات الدفاع عن المدينة، ثم خرج منها باتجاه حيدر آباد. ويبدو أن خواجة أحمد خان خشي من حصار قد يفرضه نظام الملك، وإجراءات قاسية قد يتخذها ضده، وهو عاجز عن المقاومة، فاستسلم. ودخل نظام الملك مدينة حيدر آباد وجعلها عاصمة للدكن. ووصل إلى الدكن في هذه الأثناء، أنور الدين خان قادماً من دلهي، وكان قد عُزل عن حاكمية كورا وجهانا آباد في مقاطعة الله آباد، فسر نظام الملك بلجوء هذا الأمير القوي إليه، وعيّنه حاكماً على حيدر آباد[١].

صحوة المهرات

واجه نظام الملك صحوة المهرات الذين أضحوا شوكة في الجنوب، والواقع أن إمارة الدكن المستقلة شكّلت خطراً على هؤلاء في الوقت الذي

(١) Irvine: II, pp137-154.

انفرط فيه عقد دولتهم بفعل ضعف شخصية الملك شاهو، وسمح ذلك بقيام زعامات محلية على حساب الإدارة المركزية، وراح كل زعيم ـ بيشوا ـ يعمل لحسابه الخاص، في عمليات منظمة بهدف التوسع على حساب المسلمين. وعجز نظام الملك عن وقف تقدمهم الجارف، واضطر إلى التفاهم مع الزعيم باجي راو، على ألا يتعرض لهم أثناء زحفهم إلى أراضي الدولة المغولية وأراضي الراجبوت، بالإضافة إلى دفع مبالغ من المال لهم، واعتراف نظام الملك بأن باجي راو هو الحاكم الوحيد للمهرات[١].

وبعد أن أمَّن باجي راو جبهته الخلفية في الجنوب، تطلع للتوسع في الشمال على حساب الدولة المغولية التي باتت ضعيفة، فهاجم مالوة في عام (١١٣٤هـ/ ١٧٢٢م) وانتزع الأراضي الواقعة بين نهري شامبال ونرمادا، فاضطر السلطان إلى التماس المساعدة من نظام الملك، فهرع هذا لنجدته وتوجه نحو بوبال، عاصمة باجي راو، غير أن زعيم المهرات هزمه هناك وأجبره على توقيع معاهدة دوراي ـ سراي، تنازل له بموجبها عن مالوة ودفع له الأموال. ثم هاجم باجي راو الكجرات واستولى عليها، وساعد شاتراسال، حاكم بندلخند، في حربه ضد المغول على أن يأخذ مقابل ذلك قسماً من بندلخند المتضمن مدن كالبي وجهانسي وغيرها، القريبة من أكرا، في خطوة للوثوب نحو هذه المدينة، وأتاح له ذلك مهاجمة مقاطعة دواب راجستان القريبة من دلهي، وأجبر السلطان محمد شاه على دفع مبلغ سنوي مقابل عدم مهاجمة المقاطعات الواقعة جنوبي نهر شامبال، ثم طلب من السلطان إعطاءه مقاطعتي آقاد ونيفال والمدن الهندوسية المقدسة، مثل غايا وبنارس والله آباد، فرفض السلطان طلبه. وتوفي باجي راو في عام (١١٥٣هـ/ ١٧٤٠م)، بعد أن وسَّع أراضي المهرات، واشتهر في كل أنحاء الهند على أنه المخلِّص من السيطرة الإسلامية[٢].

غزو نادر شاه للهند

تعرَّضت الهند لغزوة واسعة قام بها نادر شاه الأفشاري، حاكم إيران، ويعد هذا الفاتح آخر الرجال الآسيويين العظام ومجدِّد شباب الدولة الصفوية في إيران. ينتمي هذا الشاه إلى عشيرة القرة كلو التركمانية، وقد انضوت، بفعل

(١) الساداتي: ص٣٦٣.
(٢) Sharma: p390.

صغرها، إلى قبيلة أفشار التركمانية القومية، وكانت مضاربها في أبيورد ودستجرد بخراسان[1].

نشأ نادر شاه في أسرة فقيرة، فهو ابن لراعي أغنام قرب محمد آباد يدعى إمام قولي، وامتهن في شبابه مهنة والده، فعاش في شظف من العيش، غير أن طموحه، الذي فاق كل حد، أتاح له الدخول في الخدمة العسكرية في مقاطعة أبيورد، وكان حاكمها آنذاك يدعى بابا علي بك الأفشاري، وتدرَّج في المناصب العسكرية، وقدَّم خدمات جليلة لبابا ما دفعه أن يزوجه ابنته، ثم تولى حكم المقاطعة بعد وفاته.

تطلع نادرشاه بعد ذلك إلى التوسع باتجاه خراسان، فاصطدم بحاكمها ملك محمود السيستاني الخلجي، لكنه لم يستطع الصمود أمامه، وفرّ من أبيورد ليتحول إلى قاطع طريق. ولما كان يتمتع بذكاء حاد، استغل الظروف المحيطة به، الناتجة عن الحروب والاضطرابات التي اجتاحت إيران بفعل الغزو الأفغاني، فجمع قوة عسكرية وشارك في الأحداث الجارية في خراسان، وأسَّس له مكانة نجح في أعقابها في الاستيلاء على قلعة عرفت بعد ذلك باسمه «قلعة نادري»، ومنها راح يُوسِّع دائرة نفوذه، فهاجم نيسابور وانتزعها من يد ملك محمود السيستاني الخلجي، فاستدعاه الشاه طهماسب الثاني الصفوي وعرض عليه الدخول في خدمته، فوافق، ويبدو أنه أدرك أن عليه الانتماء إلى أسرة حاكمة كي يبرر أعماله التوسعية، وأصبح يُعرف، منذ ذلك الحين، باسم طهماسب قولي، أي عبد طهماسب[2].

ونجد نادر شاه، بمرور الزمن، معنياً بتحرير إيران من السيطرة الأفغانية والتوسع في الشرق والغرب وعبر الخليج العربي، باسم الشاه طهماسب الثاني، والاحتفاظ باليد العليا في التحرك السياسي والعسكري، وركَّز جهوده الأولى للسيطرة على مشهد وهراة، وكانتا تحت سيطرة الأفغانيين، وذلك في (ربيع الآخر ١١٣٩هـ/ كانون الثاني ١٧٢٦م) و(١١٤١هـ/ ١٧٢٨م)، ثم انتزع أصفهان من الشاه أشرف الأفغاني في عام (١١٤١هـ/ ١٧٢٨، ١٧٢٩م)، فتوافدت جموع الإيرانيين عليه بوصفه منقذ البلاد من الأفغانيين، ودخل بصحبة

(١) إقبال: ص٦٩٥.
(٢) المصدر نفسه: ص٦٩٦، ٦٩٧. Sarkar, J: The History of Nadir Shah's Invasion: Prt II, p318.

الشاه طهماسب الثاني إلى المدينة التي كانت يوماً عاصمة الصفويين، وفرّ أشرف شاه مع فلول جيشه إلى شيراز. وإذ طلب الشاه طهماسب الثاني من قائده مطاردة فلول الأفغانيين المنهزمين والقضاء النهائي على الشاه أشرف، طالبه نادر شاه بالمكافأة التي تليق به كقائد منتصر فتح لسيده عاصمته، وما كان باستطاعة الشاه الصفوي إلا أن يُلبي رغبات قائده الطموح، إذ كانت القوة العسكرية تحت تصرفه، فمنحه حق جمع الضرائب من البلاد، فأصبح بذلك المسيطر الفعلي على القوات المسلحة وعلى القدرات المالية للبلاد. وتراجع الأفغانيون إلى قندهار هرباً من مطاردة الخيالة الإيرانية، وقُتل أشرف، وهو في طريقه إليها، في عام (١١٤٢هـ/ ١٧٢٩ ـ ١٧٣٠م)[1].

وما جرى في عام (١١٤٥هـ/ ١٧٣٢م) من اعتراض نادر شاه على المعاهدة التي عقدها الشاه طهماسب الثاني مع الأتراك العثمانيين، إثر هزيمته أمامهم، أدَّى إلى عزله من قِبل قائده وتنصيب ابنه الطفل عباس الثالث مكانه، وتولى نادر شاه الوصاية عليه[2]، فأضحى بذلك المسؤول الأول في الدولة الصفوية شرعياً وعسكرياً، وبخاصة بعد انتصاره على الروس وانتزاعه منهم بعض المدن الهامة مثل مازندران واستراباد وجيلان وباكو ودربند، بالإضافة إلى حربه مع العثمانيين والتي كانت متكافئة، وعلى الرغم من ذلك فإنه لم يتطلع إلى اعتلاء العرش الصفوي، لكن أعيان الدولة أصرُّوا على اختياره شاهاً في عام (١١٤٨هـ/ ١٧٣٥م)، فانقرضت بذلك الأسرة الصفوية[3].

تطلع نادر شاه، بعد أن جلس على العرش في إيران، إلى التوسع على حساب جيرانه توصلاً إلى مجد جديد، فانتزع قندهار من يد حسين الخلجي، في عام (١١٥٠هـ/ ١٧٣٧م)، واستولى ابنه، رضى قولي ميرزا، على بلخ وهزم جيشاً للأوزبك، ووجدت القوات الأفغانية المنهزمة طريقاً لها إلى الهند الأمر الذي كان يمثل خطراً على استمرار أفغانستان تحت يده[4].

وكان نادر شاه قد أرسل، منذ أن فتح أصفهان، عدة سفارات إلى دلهي يطلب من السلطان محمد شاه تجديد العلاقات الطيبة السابقة ومنع دخول

(١) إقبال: ص٦٩٨ ـ ٧٠٠.
(٢) المصدر نفسه: ص٧٠٣، ٧٠٤.
(٣) انظر فيما يتعلق بتتويج نادر شاه وانقراض الأسرة الصفوية: إقبال: ص٧٠٨ ـ ٧١٠ Sarkar: II, p318.
(٤) المصدر نفسه: ص٧١١ Ibid: p319.

الأفغان الخلجيين إلى إيران، غير أن السلطان لم يحفل بالرد على رسائله وحجز سفيره الذي أرسله في عام (١١٥٠هـ/ ١٧٣٧م) في دلهي مدة عام قبل أن يفرج عنه، وعندما شعر بعدم مبالاة السلطان في الرد على رسائله، فكّر في إرسال حملة إلى الهند في الوقت الذي كان يحاصر فيه قندهار، إلا أنه تمهّل حتى ينتهي من السيطرة على معابر الهند الشمالية الغربية، وعندما تحقق ذلك من واقع السيطرة على كابل وقندهار وبلخ دخل في (رمضان ١١٥٠هـ/ كانون الثاني ١٧٣٨م) سهول البنجاب[1].

وكانت أوضاع الهند تغري الفاتح الإيراني بالتوجه إليها، فقد ظهرت بوادر تفكك الدولة المغولية، ولم يكن السلطان محمد شاه جديراً بعرش المغول، إذ ألقي نفسه بين النساء والخمر، ولم يعد جيشه قادراً على خوض المعارك، وتعرضت البلاد لطمع الهندوس، وبدا واضحاً أن دولته باتت على حافة الانهيار.

ومن ناحية أخرى، تطلع السلاطين والأمراء المغول، منذ تأسيس دولتهم، إلى كل من أفغانستان وإيران لالتماس المساعدة منهما ضد أعدائهم وإعادة تنظيم قواهم، ولهذا كان من الطبيعي أن يلتمس عدد من كبار رجال الدولة، ممن أزعجتهم الأوضاع المتردية، المساعدة من نادر شاه، كان من بينهم العالم الكبير شاه ولي الله الدهلوي، وطلبوا منه أن يسير إليهم ليقضي على فساد السلطان وحاشيته، ويصدّ عن المسلمين عدوان الهندوس، فاستجاب لهم وسار بجيوشه إلى الهند في (٢٣ رجب ١١٥١هـ/ ٦ تشرين الثاني ١٧٣٨م)، متخذاً من فرار الأفغانيين المنهزمين إلى هذا البلد وتجاهل السلطان بتسليمهم له، ذريعة لتنفيذ ذلك. ويبدو أن السلطان محمد شاه لم يعتقد مطلقاً أن باستطاعة الشاه الإيراني غزو بلاده، ولذلك عندما بدأ الغزو فعلاً شكّل مفاجأة له ولرجاله جعلتهم في حال ارتباك[2].

وعبر نادر شاه السند وفتح لاهور واستولى على البنجاب، وأرسل رسالة إلى السلطان محمد شاه يذكره بالأصل المشترك لأسرة أفشار وأسرة بابر، ولامه على حجز سفرائه، وبرّر زحفه بتأديب الأشرار الذين دفعوه إلى هذا التصرف. وظلّت حكومة دلهي غافلة عما يجري في الشمال، وصمّت أذنيها

(١) Sarkar: II, pp321-322.

(٢) Ibid: p330.

عندما استغاث بها عاملها على البنجاب، ولم تستفق إلا عندما استولى الإيرانيون عليه، ومع هذا فقد أضاع السلطان وحاشيته كثيراً من الوقت في المناقشات حول كيفية مواجهة المشكلة، وانتهوا إلى قرار يقضي بعدم إسناد قياده الحملة، التي قرّروا إرسالها لوقف الزحف الإيراني، إلى نظام الملك الذي كان قد قدم لنجدة السلطان، وذلك بفعل الشائعات عن تواطئه مع نادر شاه[1].

وسمع نادر شاه، وهو في سرهند، أن السلطان محمد شاه خرج من عاصمته وسار نحو الشمال للتصدي له على رأس جيشه، البالغ ثلاثمائة ألف مقاتل وألفي عربة مدفع، ووصل إلى كرنال الواقعة على ساحل نهر جمنة في البنجاب، والتي تبعد عشرين فرسخاً عن دلهي، فتابع تقدمه حتى التقى بالجيش السلطاني عند هذه القرية. ودارت بين الجيشين رحى معركة ضارية في (٤ ذي القعدة ١١٥١هـ/ ١٣ شباط ١٧٣٩م) لم تستمر أكثر من ثلاث ساعات، وأسفرت عن انتصار نادر شاه، واستسلم السلطان محمد شاه على أثرها للفاتح الإيراني[2]. والواقع أن الجيش المغولي لم يكن بحال تسمح له بإحراز النصر لتفرقه وتخاذله، فقد كان تصريف أمور السلطان محمد شاه آنذاك بيد ثلاثة رجال، نظام الملك حاكم الدكن الذي لم يرسل جنوده بسبب نزاع نشب بينه وبين السلطان، وخان دوران صمصام الدولة أمير الأمراء والقائد العام للجيش، وقمر الدين خان اعتماد الدولة، صدر المملكة الأعظم، ولم يكن أحد من هؤلاء الثلاثة على صفاء مع الآخر، ويسعى كل منهم لتحطيم الآخر في السر، كما انضم حاكم أوده، برهان الملك سعادت خان، إلى نادر شاه. ولم يجد نظام الملك سوى طلب الصلح للخروج من هذا المأزق، فذهب إلى معسكر نادر شاه واعتذر أمامه، وأجرى معه مباحثات تمخّضت عن اتفاق صلح تضمّن البنود التالية:

- عدم تعرض نادر شاه لشخص السلطان وأمواله وأسرته.
- يسرح السلطان جيشه ويزور مقر نادر شاه على رأس ألف من أتباعه ثم يصطحبه معه بعد ثلاثة أيام إلى دلهي.
- يمكث نادر شاه في العاصمة المغولية مدة أربعين يوماً يعود بعدها إلى إيران.

(١) إقبال: ص٧١٢، ٧١٣.

(٢) Sarkar: II, pp334-350.

- يدفع السلطان لنادرشاه عشرين مليون روبية[١].

وفعلاً دخل العاهلان إلى دلهي في (ذي القعدة/ شباط)، وساد الهدوء مدة ثلاثة أيام. ويبدو أن الأحكام القاسية التي فرضها نادر شاه على السكان وانتشار شائعة بأن السلطان دسّ السم لنادر شاه في الطعام، أدى إلى اندلاع ثورة سكان العاصمة وقُتل عدد من جنود نادر شاه، فأمر هذا جنوده باستباحة المدينة، فأحرقوا قسماً مهماً منها، وقتلوا نحو عشرين ألفاً[٢]. وأمر الزعيم الإيراني السلطان بأن يخطب له في جميع بلاده وبسك النقود باسمه، وأن يقدم الأمراء والأعيان هدية تليق بمقامه من الجواهر والنقد، فوافق طوعاً أو كرهاً، فسلب منهم نحو مائة وخمسين مليون روبية، بالإضافة إلى عرش الطاووس الثمين الذي أسَّسه شاهجان من الذهب الخالص، وتقدر قيمته بستة ملايين من الجنيهات، والجوهرة النادرة في العالم التي كان شاهجهان قد اشتراها من أحد التجار وزيّن بها تاجه، وتوارثها السلاطين من بعده حتى وقعت أخيراً في يد نادر شاه، وذُهل حين رآها لأول مرة وأضاءت أمامه، وقال في دهشة: «كوهي نور» أي جبل نور، فأضحت هذه الكلمة التي أطلقها نادر شاه، وهو في حال ذهول، علماً عليها، وقد تنقَّلت هذه الجوهرة من يد إلى يد حتى استقرت في تاج إنكلترا[٣].

وعاد نادرشاه في (صفر ١١٥٢هـ/أيار ١٧٣٩م) إلى إيران، ولكنه ترك البلاد جثة هامدة، وجرّد السلطان من كل هيبة، وأجبره على التنازل له عن أراضٍ واسعة في البنجاب تمتد من كشمير حتى ولاية السند، وتشمل غزنة وكابل، مع تعويضات مالية ومزيد من الجواهر والأحجار الكريمة والأموال، وذلك مقابل التنازل عن تحصيل الضرائب مدة ثلاثة أعوام[٤].

وحُرمت سلطنة دلهي، نتيجة ضمّ نادر شاه بلاد الأفغان وقسماً كبيراً من البنجاب إلى بلاده، من حدودها الطبيعية التي كانت تحمي سهولها، ومنع عنها موارد كثيرة كان مصدرها هذه الأقاليم الغنية، وانكمشت بالتالي إلى إمارة صغيرة. والواقع أن غزو نادر شاه كان أخطر على الدولة المغولية في الهند من

(١) إقبال: ص٧١٣. Sarkar: II, pp353, 354.

(٢) المصدر نفسه: ص٧١٤. Ibid: pp365-370.

(٣) المصدر نفسه: ص٧١٤، ٧١٥.

(٤) Sarkar: II, pp370-374.

الغزو التيموري وأبعد أثراً وأوخم عاقبة، وعلى الرغم من ذلك فإن هذه الدولة استطاعت أن تنهض من كبوتها وتستأنف مسيرتها في ظل عدم وجود أعداء يتربصون بها، أمثال المهرات والسيخ والمستعمرون البريطانيون الذين واجهتهم بعد ذلك والذين راحوا يبتلعون أراضيها[١].

الغزو الأفغاني للهند

تعرضت الهند، بعد اثني عشر عاماً من الغزو الإيراني، لغزوة أفغانية قادها أحمد شاه الدراني الأبدالي[٢] الأفغاني، وكان هذا قد نجح، بعد مقتل نادر شاه[٣]، في توحيد قبائل الأفغان تحت زعامته ويؤسس له ملكاً، واتخذ من كابل عاصمة له، ووسَّع أراضيه حتى نهر سيحون وشواطئ بحر قزوين لينحدر بعد ذلك نحو سهول الهند، فأرسل السلطان محمد شاه جيشاً للتصدي له، بقيادة ابنه أحمد، والتقى به قرب سرهند في عام (١١٦١هـ/١٧٤٨م) وانتصر عليه، واضطر أحمد شاه للعودة إلى كابل. وفي الوقت الذي كان فيه الأمير أحمد يطهر المنطقة من فلول الأفغان ويطاردهم، جاءه نبأ مرض والده، فترك المنطقة وعاد مسرعاً إلى دلهي، فانتهز أحمد شاه الأبدالي هذه الفرصة، وعاد إلى الهند واستولى على لاهور. وتوفي السلطان محمد شاه في أواخر العام المذكور[٤].

(١) الساداتي: ص٣٦٥.

(٢) نسبة إلى قبيلة أبدال الأفغانية.

(٣) قتل نادرشاه في (جمادى الآخرة ١١٦٠هـ/ حزيران ١٧٤٧م) على أيدي زعماء القزلباش، بسبب نزعاته الدينية، من واقع محاولة القضاء على المذهب الشيعي ونشر المذهب السني في إيران، وإلغاء الآداب الدينية الخاصة بالشيعة، ومحو اسم الصفويين، بالإضافة إلى سلوكه الداخلي الذي اتسم بالقسوة والفظاظة والظلم.

(٤) Sarkar: II, pp377, 378.

أحمد شاه

(١١٦١ ـ ١١٦٧هـ/ ١٧٤٨ ـ ١٧٥٤م)

خلف أحمد شاه أباه محمد شاه، ولم يرث إلا ملكاً مفكَّكاً يتداعى عليه الأعداء من كل جانب. فقد تعرَّض حكمه للمؤامرات والدسائس والخلافات، وواجه ثورة قبيلة الروهيلا الأفغانية، وهي إحدى بطون قبيلة يوسفزي، ولم يتح لوزيره صغدار جنك، نائب أوده، القضاء على ثورتهم إلا بعد أن استعان بالقائد المهراتي هولكر، وكان آنذاك بمالوة، ما أدَّى إلى ازدياد نفوذ هذه الطائفة حتى بلغ البنغال بعد مالوة والكجرات. وتعرّض السلطان أحمد شاه لمؤامرة، فعزله وزيره غازي الدين نظام الملك، حفيد نظام الملك آصف جاه، وقبض عليه، وأجلس مكانه محمد بن جهاندار باسم عالمكير الثاني، وذلك في عام (١١٦٧هـ/ ١٧٥٤م)[1].

(١) تاريخ أحمد شاه مجموعة إليوت: جـ٨ ص١١٧، ١١٨.

عالمكير الثاني

(١١٦٧ ـ ١١٧٣هـ/ ١٧٥٤ ـ ١٧٥٩م)

كان الوزير غازي الدين نظام الملك على خلاف مع زعيم قبيلة الروهيلا الأفغانية، نجيب الدولة، فسار إلى لاهور وانتزعها من يده، فالتمس هذا المساعدة من أحمد شاه الأبدالي، فتقدم بجيوشه من أفغانستان إلى الهند، فاضطر غازي الدين نظام الملك إلى الخضوع وطلب العفو منه، فعفا عنه، ثم تقدم إلى دلهي واقتحمها في عام (١١٧٠هـ/ ١٧٥٦، ١٧٥٧م) وقضى جنوده على ما كان قد بقي من معالمها، ثم زحف إلى أكرا وحاصرها، ولم يجبره على فك الحصار عنها سوى تفشي الوباء بين جنوده، فعاد إلى بلاده. وطلب منه السلطان عالمكير قبل عودته أن يساعده ضد الثائرين على حكمه، فاستجاب لطلبه وأبقى قسماً من جيشه في دلهي بقيادة نجيب الدولة من أجل ذلك، ما قضى على سلطة غازي الدين نظام الملك.

وفي الوقت الذي دخل فيه أحمد شاه الأبدالي إلى دلهي، وشُغل أهل الحكم بالحرب فيما بينهم، كان الإنكليز في البنغال يحاربون سراج الدولة، وتمكّنوا من التغلب عليه وسيطروا على الولاية.

لم يركن غازي الدين نظام الملك إلى الاستسلام، ولم يرض بتكبيل يديه عن تصريف الأمور في دلهي، فأخذ يحيك المؤامرات ضد نجيب الدولة والسلطان، وهداه تفكيره إلى الاستعانة بالمهرات، أعداء الطرفين، فزحف معهم إلى دلهي واستولوا عليها، وفرَّ نجيب الدولة، مع ولي العهد شاه عالم الثاني، إلى الشرق تاركاً السلطان عالمكير الثاني في قبضة الفاتحين الذين أبقوه في الحكم رمزاً، وتابعوا زحفهم نحو البنجاب، فطردوا القوات الأفغانية منها. وسيطر الزعيم المهراتي أدينة بك خان على لاهور وتاتا والملتان. وبذلك سيطر المهرات على أكثر أجزاء الهند، ومنها

العاصمة دلهي[١].

وعندما علم أحمد شاه الأبدالي بهذه التطورات العسكرية، وبناءً على التماس نجيب الدولة، سار إلى الهند للمرة الثانية ليقضي على غازي الدين نظام الملك والمهرات، فاتهم هذا السلطان عالمكير الثاني بالتواطؤ معه، وقتله في عام (١١٧٣هـ/ ١٧٥٩م)، وعيّن مكانه شاهجهان الثالث ابن كام بخش[٢]، ولكن لم يكد يفرغ من ذلك حتى كان أحمد شاه الأبدالي قد وصل إلى شمالي الهند فاستولى على لاهور وطرد المهرات من البنجاب والشمال الهندي كله، وتقدم نحو سهارنبور، ففرَّ غازي الدين نظام الملك من دلهي خشية على حياته.

وتابع أحمد شاه الأبدالي زحفه نحو دلهي، ولكنه لم يتوقف فيها بفعل ما أصابها من دمار وخراب من قِبَل المهرات عند انسحابهم منها حتى لا يعود إليها المسلمون، وعسكر في دوآب، بين نهري جمنة والغانج، واصطدم بجيش مهراتي في عام (١١٧٤هـ/ ١٧٦٠م) وهزمه، وقتل عشرات الآلاف من جنوده، وعندما وصلت أنباء الخسارة إلى مسامع الزعيم المهراتي في الجنوب، بلاجي راو؛ اغتم واضطرب، وكان يعتقد أن المسلمين فقدوا السيطرة نهائياً على الهند بعد الضربة التي وجَّهها لهم، وحلّ المهرات محلهم من دون منازع، وأعادت هذه الصحوة الإسلامية التي قادها الأفغان إلى أذهانه ذكرى فاتح الهند محمود الغزنوي ومحمد الغوري وسلاطين المغول الأقوياء وأن أحمد شاه الأبدالي، الذي يسير على نهجهم، يمكن أن يُجدِّد شباب الدولة الإسلامية؛ لذلك قرّر التصدي له والقضاء عليه قبل أن يحقق هدفه، فانتظر انتهاء فصل الأمطار وجهَّز جيشاً بلغ تعداده ثلاثمائة ألف مقاتل وثلاثمائة مدفع، وعيَّن على قيادته سنديا شيوكو، المعروف باسم بهاو، وكان إبراهيم خان كاروي، المسلم، قائداً لفرقة المدفعية، وهو الذي تعلّم فنون المدفعية الحديثة على أيدي الفرنسيين.

انطلق الجيش المهراتي باتجاه دوآب للقضاء على الخطر الذي يشكله أحمد شاه الأبدالي، والذي كان يقود جيشاً لم يتجاوز الثمانين ألفاً مع عشرين مدفعاً صغيراً، وتجاوز دلهي إلى الشمال الغربي حتى وصل إلى بانيبات، وهنا التقى

(١) الساداتي: ص٣٦٧.

(٢) Sharma: p399.

الجيشان في (جمادى الآخرة ١١٧٤هـ/كانون الثاني ١٧٦١م)، وجرت بينهما معركة طاحنة حالف النصر في بدايتها المهرات، وانسحب أحمد شاه الأبدالي من ميدان القتال ليعيد تنظيم صفوف قواته، ومن ثَمَّ كرَّ على الجيش المهراتي وسط ذهول أفراده الذين لم يصمدوا أمام مناورات الخيالة الأفغان الضخمة وهجماتها العنيفة المتكررة، فوقع الخلل في صفوفهم، واستسلموا لضربات الجنود الأفغان الذين راحوا يقتلونهم كيف شاؤوا، حتى بلغ عدد القتلى مائتي ألف مقاتل، كان من بينهم زهرة شبابهم ورجالهم وقائدهم سنديا شيوكو. ولم يتحمل الزعيم المهراتي باجي راو هذه الصدمة، وكان في طريقه إلى ميدان المعركة، فارتد إلى عاصمته بونا حيث قضى نحبه بعد ستة أشهر[١].

شكَّلت نتيجة المعركة كارثة حقيقية ضربت المهرات، في القرن الثامن عشر، وهدَّت كيانهم وكسرت ظهورهم وقضت على غرورهم، وحلمهم المعسول بأن يروا الهند خالية من المسلمين وخالصة للهندوس، وأضحوا، منذ ذلك الحين، أعجز من إخضاع الهند وتوحيدها في دولة متماسكة تصدّ بنجاح هجمات المسلمين الأفغان بخاصة، أما الدول الهندوسية الأخرى فقد كانت ضعيفة الجانب مهيضة الجناح.

(١) Duff, Grant: History of the Marattas: pp424-429.

شاه عالم الثاني

(١١٧٣ ـ ١٢٢١هـ/ ١٧٥٩ ـ ١٨٠٦م)

وقعت أحداث معركة بانيبات في الوقت الذي كان فيه عرش دلهي خالياً بعد مقتل السلطان عالمكير الثاني، وفرار ابنه علي جوهر من وجه غازي الدين نظام الملك، حيث لجأ إلى جلال آباد محتمياً بجلال الدين حيدر شجاع، صاحب أودة.

وشارفت الدولة المغولية على نهاية رحلتها الطويلة وهي تسير بخطى سريعة على طريق الزوال، إذ لم يعد باستطاعة أحد أن يعيد للبلاد وحدتها بعد أن أضحى تاريخها سلسلة متصلة الحلقات من الفوضى والاضطراب والاشتباكات الدامية، وعمَّها البؤس وخيَّم عليها الضيق، وقامت سلامة الأفراد وأمنهم على عاتقهم، وبارت الأرض وما عليها من زرع وضرع لفقدان الطمأنينة واشتداد المجاعة، وتعرَّضت المواصلات لمخاطر كثيرة، وأضحى المسافرون عرضة لفتك الحيوانات المفترسة، وشُلَّت حركة التجارة، وأقفرت القرى من ساكنيها، وغادر المدن أهلها، وتداعت المساجد والهياكل للخراب في مقاطعات كثيرة، غير أن تدخل الأوروبيين وحدهم، في القرن الثامن عشر الميلادي، سوف يساعد على إعادة النهوض.

ورأى الأمير علي جوهر أن يستعيد البنغال من البريطانيين، وسانده سراج الدولة الذي انتزع كلكتا منهم بعد أن أخرجوه من البنغال، غير أنهما تعرَّضا لهزيمة قاسية في بلاسي في عام (١١٧٠هـ/ ١٧٥٧م). واستقطب كلايف، مدير شركة الهند البريطانية، قبل المعركة، القائد جعفر خان مقابل ثلاثة ملايين روبية، الأمر الذي أمَّن له النصر. وتُعدُّ تلك المعركة أولى المعارك الكبيرة في الصراع على الهند بين الدولة الإسلامية والمستعمرين البريطانيين[١]. واستقر

(١) علي خان، محمد: تاريخ مظفري: مجموعة إليوت: جـ٨ ص٣٢٥ ـ ٣٣٠. Dunbar: p341.

الأمير في بتنا وبلغه وهو فيها خبر وفاة والده عالمكير الثاني، فاستغل هذه الفرصة ونادى بنفسه سلطاناً على الهند، باسم شاه عالم الثاني، وعيَّن شجاع الدولة وزيراً له، ثم انتقل إلى الله آباد وأقام بها، واعترف به أحمد شاه الأبدالي قبل أن يغادر الهند عائداً إلى أفغانستان[١].

وجدَّد السلطان شاه عالم الثاني محاولته انتزاع البنغال من البريطانيين بالاتفاق مع بعض الأمراء المسلمين، من بينهم الأمير علي قاسم، حاكم البنغال من قِبل هؤلاء، والمعروف أنه انتفض عليهم بسبب إقدامهم على رفع المكوس عن بضائعهم، واصطدم بهم في بكسر في عام (١١٧٧هـ/ ١٧٦٤م)، إلا أنه هُزم أمامهم واستسلم لهم، واضطر أن يتخلّى لهم نهائياً عن البنغال وأوريسا وبيهار مقابل منحه الله آباد وما حولها، وإعطائه معاشاً سنوياً قدره مليونين وستمائة ألف روبية، ووعدوه بتسهيل عودته إلى دلهي[٢].

وكان نجيب الدولة قد سيطر على دلهي، بعد رحيل أحمد شاه الأبدالي، واستقلَّ بحكمها مدة تسعة أعوام، والسلطان في منفاه بالشرق. وقضى هذا الزعيم المسلم على ثورة السيخ في البنجاب وواجه ثورة الغات وضغط المهرات، وتحرَّج وضع العاصمة بعد وفاته حتى بات الناس يتوقعون سقوطها في أيدي المهرات أو السيخ، فقرَّر السلطان العودة إليها، واستعان بالمهرات على أن يبادروا بدخولها باسمه ثم يسلموها له مقابل أربعة ملايين روبية، لكن البريطانيين لم يكونوا ليتركوه يغادر مقامه في الله آباد، حيث كان يعيش على المال الذي كبّلوه به، إلى دلهي تحت حماية المهرات إلا ليضيقوا الخناق عليه وعلى حلفائه بعد ذلك. وأنقذ السلطان، بهذا الاتفاق مع المهرات، السكان من مذبحة محقَّقة من قِبَل السيخ فيما لو أتيح لهم الاستيلاء عليها.

وبسط المهرات، بقيادة سندهيًا، سيطرتهم على المدينة وما حولها، ونجحوا مؤقتاً في إبعاد البريطانيين عنها بالاستعانة بالفرنسيين، ودخل السلطان إلى المدينة في مستهل (١١٨٦هـ/ ١٧٧٢م) على الرغم من معارضة معظم حاشيته وأركان حربه الذين فضّلوا البقاء في الله آباد حيث رغد العيش، والمقام الآمن.

(١) الساداتي: ص٣٧٠. Raj: p434. Sharma: p399.

(٢) Dunbar: p354.

وتعرّض سندهيًا لضربات عدة في الراجبوتانا والدوآب، فاستغل غلام قادر، خليفة نجيب الدولة على قبيلة الروهيلا الأفغانية، فرصة غيابه عن دلهي واقتحمها في منتصف عام (١٢٠٢هـ/ ١٧٨٧م)، وقبض على السلطان شاه عالم الثاني وسمل عينيه. وانتهى في غضون ذلك الصراع بين المهرات والبريطانيين لصالح هؤلاء، فدخل القائد البريطاني ولسلي دلهي في عام (١٢١٨هـ/ ١٨٠٣م)، واجتاح أراضي أولئك وقوّض سلطانهم.

والحقيقة أن السلطان شاه عالم الثاني افتقر إلى صفات رجل الدولة، ولم تكن له شخصية الحاكم الناجح. عاش في كفالة المهرات ثم البريطانيين الذين تولوا إدارة شؤون البلاد نيابة عنه مقابل مرتب شهري، وتوفي في عام (١٢٢١هـ/ ١٨٠٦م) بعد أن حكم سبعة وأربعين عاماً.

محمد أكبر شاه الثاني

(١٢٢١ ـ ١٢٥٣هـ/ ١٨٠٦ ـ ١٨٣٧م)

خلف شاه عالم الثاني ثاني أكبر أبنائه، محمد أكبر الثاني، ليقضي حياة غلب عليها الخمول والضعف، وعاش كوالده في كنف البريطانيين الذين سيطروا على كامل الهند تقريباً. وكان هيستنجز قد خلف ولسلي في إدارة الشركة الهندية، فقطع روابط التبعية بالسلطان المغولي، على الرسم الذي اعتاد أسلافه ممارستها، وتمادى حين حرَّض حاكم أودة على أن يعلن نفسه سلطاناً واحتضن رام موهان وصاحب جمعية براهما سماج، الذي راح يدعو إلى القضاء على الأسرة المغولية. توفي السلطان محمد أكبر الثاني في عام (١٢٥٣هـ/ ١٨٣٧م).

بهادور شاه الثاني

خلف محمد أكبر الثاني ابنه بهادور شاه الثاني ليعيش بدوره على الإنعام التي كان يجريها عليه البريطانيون، على غرار والده، بعيداً عن كل نشاط سياسي أو مشاركة في الحكم. وكان الحاكم البريطاني في ذلك الوقت لورد كاينك، والقائد العام دلهوزي، وقد وجَّها إلى السلطان إنذاراً بأنه آخر سلطان يسكن القلعة الحمراء، وأنها ستتحول من بعده إلى ثكنة عسكرية، وأن المخصَّصات التي يأخذها من البريطانيين ستنتهي بانتهاء حياته، وكان معنى ذلك القضاء على مُلك المغول، الأمر الذي أثار المسلمين، فأعلنوا الثورة في عام (١٢٧٣هـ/ ١٨٥٧م) وقد نظروا إلى السلطان على أنه حاكمهم الوطني، وأما البريطانيون فغزاة أجانب معتدون واختاروه قائداً عليهم. وانطلق المسلمون في دلهي يقودون الثورة بزعامة بعض أبناء السلطان وفريق من الزعماء الأفغان المحليين، واستغلَّ المهرات في جونبور الثورة للانعتاق من السيطرة البريطانية.

على أن البريطانيين ما لبثوا أن أقروا الأمور في البنجاب لينطلقوا ضد الثائرين في كل مكان ويقمعوا الثورة بقسوة بالغة، ودكُّوا دلهي بمدافعهم ثم قبضوا على السلطان الشيخ، وهو في الثانية والثمانين من عمره، بحجة مساندة الثائرين ووقوفه وراء ولده الذي تزعم الثورة، وحاكموه محاكمة صورية، في عام (١٢٧٤هـ/١٨٥٨م)، قضت بنفيه مع أمراء أسرته إلى رانغون في بورما، وأعلنوا بعد ذلك ضمّ شبه القارة الهندية كلها إلى امبراطوريتهم لتمارس الحكومة البريطانية الحكم بنفسها بشكل مباشر، وظل السلطان في منفاه حتى آخر حياته، فكان آخر حاكم مسلم تولى مُلك الهند، وطويت بنفيه صفحة السلاطين المغول البابريين بالهند كلها[١].

---

(١) Sharma: p399.

ثبت المصادر والمراجع

أولاً: المصادر والمراجع باللغة العربية

أ ـ المصادر:

❑ ابن الأثير، أبو الحسين علي. . . الشيباني المعروف بالجزري:

- **الكامل في التاريخ**، تحقيق عمر عبد السلام، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٧م.

❑ ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف:

- **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة، القاهرة.

❑ الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت:

- **معجم البلدان**، دار صادر، دار بيروت، بيروت.

❑ ابن خلدون، عبد الرحمٰن بن محمد:

- **العبر في ديوان المبتدأ والخبر**...، المعروف **بتاريخ ابن خلدون**، مؤسسة جمال للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٩م.

❑ الرمزي، م م:

- **تلفيق الأخبار وتلقيح الآثار في وقائع قزان وبلغار وملوك التتار**، تحقيق إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٢م.

❑ ابن عبد الظاهر، محيي الدين:

- **تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور**، تحقيق كامل مراد، القاهرة، ط١، ١٩٦١م.
- **الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر**، تحقيق عبد العزيز الخويطر، الرياض، ط٢، ١٩٧٦م.

❑ ابن العبري، غريغوريوس الملطي:

- **تاريخ الزمان**، دار الشرق، بيروت، ١٩٨٦م.

□ ابن عربشاه، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن محمد الدمشقي:

- **عجائب المقدور في نوائب تيمور**، تحقيق أحمد فايز الحمصي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٨٦م.

□ العيني، بدر الدين محمود:

- **عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.

□ القلقشندي، أحمد بن علي:

- **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٧م.

□ ابن كثير، الحافظ الدمشقي:

- **البداية والنهاية**، مكتبة المعارف، بيروت، ط٢، ١٩٧٧م.

□ المقريزي، تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي:

- **السلوك لمعرفة دول الملوك**، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٧م.

□ اللواتي، محمد بن عبد الله:

- **رحلة ابن بطوطة** المسماة **تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**، تحقيق علي المنتصر الكتاني، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٤، ١٩٨٥م.

□ النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب:

- **نهاية الأرب في فنون الأدب**، ج٣٠، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.

ب ـ المراجع:

□ بارتولد، ف.ف:

- **تاريخ الترك في آسيا الوسطى**، ترجمة أحمد السعيد سليمان، القاهرة، ١٩٥٨م.

□ جاكسون، بيتر:

- **سلطنة دلهي**، تعريب فاضل جتكر، مكتبة العبيكان، الرياض، ط١، ٢٠٠٣م.
- **حوليات كلية الآداب**، جامعة الكويت، الحولية التاسعة، الرسالة ٥٢ عام 1987 ـ ١٩٨٨م.

□ الساداتي، أحمد محمود:

- **تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضاراتهم**، دار نهضة الشرق، جامعة القاهرة، ٢٠٠١م.

□ سرور، محمد جمال الدين:

- **دولة بني قلاوون في مصر**، دار الفكر العربي، القاهرة.

□ شبولر، بارتولد:

- **العالم الإسلامي في العصر المغولي**، ترجمة خالد أسعد عيسى، دمشق، دار حسان، ط١، ١٩٨٢م.

□ الشيال، جمال الدين:

- **تاريخ دولة أباطرة المغول الإسلامية في الهند**، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، مصر، ط١، ٢٠٠١م.

□ عبد الحليم، محمد رجب:

- **انتشار الإسلام بين المغول**، دار النهضة العربية، القاهرة.

□ العريني، السيد الباز:

- **المغول**، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨١م.

□ عمران، محمود سعيد:

- **المغول وأوروبا**، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٧م.

□ فامبري، أرمينيوس:

- **تاريخ بخارى منذ أقدم العصور حتى الوقت الحاضر**، ترجمة محمود الساداتي، المؤسسة العربية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، ١٩٦٥م.
- **مجلة ثقافة الهند**، عدد كانون الأول ١٩٥٣م وحزيران ١٩٥٥م.

□ موسينييه، رولان:

- **القرنان السادس عشر والسابع عشر**، كتاب في: **تاريخ الحضارات العام**، منشورات عويدات، بيروت، ط٣، ١٩٩٤م.

□ النمر، عبد المنعم:

- **تاريخ الإسلام في الهند**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٠م.

□ نوار، عبد العزيز سليمان:

- **الشعوب الإسلامية**، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٣م.

ثانياً: المصادر والمراجع الفارسية

□ إقبال، عباس:

- **تاريخ إيران بعد الإسلام**: نقله عن الفارسية محمد علاء الدين منصور، دار الثقافة للنشر والتوزيع. القاهرة ١٩٩٠م.
- **بابرنامة**: **وقائع فرغانة**: ترجمة ماجدة مخلوف، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط١، ٢٠٠٢م.
- **بابرنامه**: تحقيق أنيت بيفريدج، لاهور ١٩٦٩م.

□ بخشي، نظام الدين أحمد:

- **المسلمون في الهند**: وهو الترجمة الكاملة لكتاب طبقات أكبري، ترجمة أحمد عبد القادر الشاذلي، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٩٥م.

□ بداوني، عبد القادر ملوك شاه:

- **منتخب التواريخ**: كلكتا، ١٨٦٨م.

- **منتخب التواريخ**: مجموعة إليوت، الجزء الخامس.

□ بيكم غول بادان:

- **همايون نامه**: تحقيق أنيت بفريدج، لاهور ١٩٨٧م.

□ **تاريخ أحمد شاه**: مجموعة إليوت، الجزء الثامن.

□ خافي خان:

- **منتخب اللباب**: مجموعة إليوت، الجزء السابع.

□ خواندامير:

- **روضة الصفا**: المجلة الآسيوية، المجلدان الرابع والخامس.

□ داود أحمد:

- **تاريخ ألفي**: مجموعة إليوت، الجزء الخامس.

□ سرواني، عباس خان:

- **تاريخ شير شاه** المسمى **تحفة أكبر شاهي**: مجموعة إليوت، الجزء الرابع.

□ سليم، غلام حسين:

- **رياض الصالحين، أو تاريخ بنغالة**: كلكتا ١٨٩٠ ـ ١٨٩٨م.

□ **شاهجهان نامه**: تحقيق ملا محمد صالح كمبوه، لاهور، ط١، ١٩٨٨م

□ علي، خان محمد:

- **تاريخ مظفري**: مجموعة إليوت، الجزء الثامن.

□ فرشته، محمد قاسم:

- **تاريخ قيام القوة المحمدية في الهند**: ترجمة إلى الإنكليزية جون بريكز، دلهي ١٩٩٧م.

□ **مذكرات جهانكير**: ترجمها إلى الإنكليزية ألكسندر روجر، لاهور ٢٠٠١م.

□ مستعد خان، محمد ساقي:

- **مآثر عالمكيري**: كلكتا ١٨٧٧م.

□ نواز، شاه خان:

- **مآثر الأمراء**: كلكتا ١٨٨٠ ـ ١٨٩٦م.

□ الهمذاني، رشيد الدين فضل الله بن عماد الدولة:

- **جامع التواريخ، تاريخ المغول في إيران**: نشر كاترمير، باريس ١٨٣٦م.

□ **تاريخ هولاكو**: المجلد الثاني، الجزء الأول، تعريب محمد صادق نشأت، محمد موسى هنداوي وفؤاد عبد المعطي الصياد، القاهرة ١٩٦٠م.

□ يادكر، أحمد:

- **تاريخ سلاطين أفغاني**: مجموعة إليوت، الجزء الخامس.

ثالثاً: المصادر والمراجع باللغات الأوروبية

- **Cambridge Medieval History, vol IV.**
- Depping, G.B.:
  * **Histoire du Commerce Entre le Levant et L'Europe, Depuis les Croisades Jusqu' à la Fondation des Colonies d'Amérique**, paris, 1830.
- D'ohsson, Constantine:
  * **Histoire des Mongols depuis Tchinguiz Khan jusqu'à Timour Bey du Tamerlan**, Amesterdam, 1834-1836.
- Duff, Grant:
  * **History of the Marattas**, 1921.
- Dunbar, O.A.:
  * **History of India from earliest times to the present day**, London, 1936.
- Gait, Edward:
  * **History of Assam,** Calcuta 1929.
- Howorth, Henry, H.:
  * **History of the Mongols, Prt II, Division I**, Newyork.
- Irvine, William:
  * **The Later Mughals, vol I, II**, Edited and Augmented with: **The History of Nadir Shah's Invasion**, by J. Sarker. Delhi, 1995.
- Karamazin·
  * **History of Russia**, French Ed.
- Lane-Poole, S:
  * **Medieval India under Mohamedan Rule**, London, 1917.
- Manucci, N:
  * **Mongole India**, Trans by William Irvine, Delhi, 1996.
- Morfill, W.R.:
  * **Russia**, London, 1908.
- Prasade, Ichwari:
  * **History of Medieval India,** Allah - Abad, 1935.
  * **Muslim Rule in India.** Allah - Abad, 1933.
  * **The Mughal Empire.**
- Raj, Hans:
  * **History of Medieval India**, New Delhi, 1991.
- Raychoudry, S.C.:
  * **History of Mughals, vol IV, from 1526-1707**, A.D. Delhi, 1990.

- Sharma, L.P.:
  * **History of Medieval India, 1000-1740**, A.D. 3rd Ed. Konark Publishers.
- Syed, M.H.:
  * **History of the Glorious Mughal Empire, vol I**, New Delhi, 2004.
- Sykes, Sir Percy:
  * **History of Persia**, London, 1963.
- Thompson, J.W.:
  * **The Middle Ages**, London, 1931.
- Vasiliev, A.A.:
  * **History of the Byzantine Empire**, Madison, 1928, 1973.
- Von Hammer:
  * **Golden Horde**, Pesth, 1840.

دليل الخرائط الواردة في الكتاب

محتوى الكتاب

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

من منشورات دار النفائس التاريخية

- الأيام الحاسمة في الحروب الصليبية ـ بسام العسلي.
- التاريخ الإسلامي الوجيز ـ د. محمد سهيل طقوش.
- تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام وإقليم الجزيرة ـ د. محمد سهيل طقوش.
- تاريخ الخلفاء الراشدين ـ د. محمد سهيل طقوش.
- تاريخ الدولة الأموية ـ د. محمد سهيل طقوش.
- تاريخ الدولة العباسية ـ د. محمد سهيل طقوش.
- تاريخ الدولة العلية العثمانية ـ محمد فريد (تحقيق د. إحسان حقي).
- تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ـ د. محمد سهيل طقوش.
- تاريخ السلاجقة في بلاد الشام ـ د. محمد سهيل طقوش.
- تاريخ سلاجقة الروم ـ د. محمد سهيل طقوش.
- تاريخ العلاقات العثمانية الإيرانية ـ د. عباس إسماعيل صباغ.
- تاريخ الفاطميين في شمال أفريقيا ومصر وبلاد الشام ـ د. محمد سهيل طقوش.
- تاريخ فلسطين القديم ـ ظفر الإسلام خان.
- تاريخ القوقاز ـ د. محمود عبد الرحمٰن.
- تاريخ المسلمين في الأندلس ـ د. محمد سهيل طقوش.
- تاريخ المغول العظام والإيلخانيين ـ د. محمد سهيل طقوش.
- تاريخ مغول القبيلة الذهبية والهند ـ د. محمد سهيل طقوش.
- تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام ـ د. محمد سهيل طقوش.
- حدائق الياسمين في ذكر قوانين الخلفاء والسلاطين ـ محمد بن عيسى بن كنان (ت: عباس صباغ).
- الحضارة الإسلامية في بغداد في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري ـ د. محمد حسين شندب.
- حوادث الزمان ووفيات الشيوخ والأقران ـ ابن الحمصي (ت: عبد العزيز فياض حرفوش).
- السلطة في بلاد الشام (في القرن الثامن عشر) ـ د. عبد الغني عماد.
- العثمانيون (من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة) ـ د. محمد سهيل طقوش (توزيع).
- الفتنة ووقعة الجمل ـ رواية: سيف بن عمر الضبي الأسدي، تصنيف وتقديم: أحمد راتب عرموش.
- القادسية ـ أحمد عادل كمال.
- محاسن الوسائل في معرفة الأوائل ـ تصنيف: محمد عبد الله الشلبي الدمشقي (ت: د. محمد ألتونجي).
- المدخل إلى التاريخ الإسلامي ـ د. محمد فتحي عثمان.
- قيادة الرسول السياسية والعسكرية ـ أحمد راتب عرموش.

رقم: 487 - 07

في كتابة السابق، تناول المؤلف المؤرخ أ.د. محمد سهيل طقوش تاريخ المغول العظام والإيلخانيين. وفي هذا الكتاب يكمل دراسة تاريخ المغول، فيتناول بالبحث تاريخ دولتين مغوليتين، الأولى القبيلة الذهبية التي أسسها باطو بن جوجي بن جنكيزخان، وشملت بلاداً واسعة امتدت من بلاد الصقالبة والمجر، وشملت روسيا الجنوبية، وكانت عاصمتها مدينة «سراي» على نهر الڤولغا، ودانت بالإسلام.

والثانية مغول الهند الذين أسس دولتهم «بابر»، المتحدر من أسرة تيمورلنك، وشملت معظم الهند وباكستان، وتركت أثراً فنياً يعدُّ من عجائب الدنيا هو «تاج محل» الذي بناه «شاه جهان»، واستمرت هذه الدولة حتى أواسط القرن التاسع عشر حين قضى عليها الإنكليز عند احتلال الهند.

إن تاريخ المغول تاريخ مهم، لم يظفر بالدراسة الوافية، ولم ينل الاهتمام الكافي في البلاد العربية. وربما كانت هذه الدراسة من أهم ما كتب في تاريخ المغول. فعسى أن يجد فيها القارئ مادة مفيدة، وأن يستفيد منها عشاق التاريخ وطلبته.

الناشر

ISBN 978-9953-18-436-4
9 789953 184364